سنا البرق الشامي

٥٦٢هـ/١١٦٦م : ٥٨٣هـ/١١٨٧م

اختصار

الفتح بن علي البنداري

من كتاب

البرق الشامي

للعماد الكاتب الأصفهاني

تحقيق

دكتورة فتحية النبراوي

أستاذ التاريخ الاسلامى المساعد
جامعة الازهر

١٩٧٩

الناشر
مكتبة الخانجي بمصر

المحتويات



الإهداء

إلى شهداء العلم

إلى زوجي الأستاذ الدكتور سعد محمد فتحي أحمد

مع الصديقين والشهداء .



تقديم

ابدى المؤرخون المسلمون فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين اهتماما كبيرا بتسجيل أحداث الصراع بين الشرق والغرب ممثلا فى الحروب الصليبية التى استمرت فترة طويلة تجرى أحداثها على أراضى الدول الاسلامية بينما كان تخطيطها وامدادها وتمويلها تقوم به الدولة والكنيسة معا فى أوروبا .

وتأتى أهمية الكتابات التاريخية الاسلامية لهذه الفترة من تاريخ الأمة الاسلامية من الحقيقة القائلة بأن كاتبيها أو من بين كاتبيها شهود عيان عاصروا الاحداث وعايشوها ، ولمسوا الموقف عن قرب ، كما كان من بينهم من شغل مناصب رسمية فى الدولة مما أتاح لهم فرصة الاطلاع على الوثائق والأوراق الرسمية والمعاهدات والاتفاقيات ، والخطابات المتبادلة بين حكام وأمراء المسلمين ، فاستخدموها وأفادوا منها .

وقد كان لاحياء حركة الجهاد المقدس وتعبئة الأمة الاسلامية بشريا وماديا وعسكريا لمواجهة الغزو الخارجى أثره فى قيام المؤرخين المسلمين بدورهم فى هذا المجال وتسجيل أحداثه ومن هؤلاء القاضى الفاضل ، والقاضى بهاء الدين بن شداد قاضى عسكر الجيش الصلاحى ، واسامة ابن منقذ ، وابن الاثير ، وأبى شامة ، وابن واصل ، والعماد الكاتب الاصفهانى السكرتير الخاص لصلاح الدين ، والفتح بن على البندارى الذى اهتم اهتماما بالغا بأعمال العماد الكاتب وقام باختصار معظمها ومن بينها المخطوط الذى بين أيدينا سنا البرق الشامى .

وتجب الاشارة الى أن الحركة الصليبية قد حظيت باهتمام مماثل من المؤرخين المسيحيين ، فكتبوا تاريخ هذه الحرب وسجلوا أحداثها ، ومن اشهر واهم هؤلاء المؤرخين وليم الصورى أسقف صور ، وأنا كومنينا ابنة الامبراطور البيزنطى الكسيوس كومنينوس .

وهذا يفيد الباحث خاصة فى دراساته المقارنة للمادة التاريخية التى تتيحها هذه المصادر مع المصادر الاسلامية لنفس الفترة ولنفس القضية .

وبالمقارنة حظيت الحروب الصليبية فى مطلع هذا القرن باهتمام بالغ من المشتغلين بالدراسات الشرقية فى جامعات أوروبا ، فقدموا العديد من الأبحاث القيمة حول تفصيلات الحركة الصليبية ومفهومها وتطورها ، والعلاقة بين المسلمين والمسيحيين ، وبين المسيحيين فى أوروبا واخوانهم الشرقيين فى بيزنطة ، وموقف المسيحيين الذين استقروا فى الاراضى المقدسة وبين اخوانهم القادمين من الغرب ، كما اعتنوا أيضا بنشر الكثير من المخطوطات العربية التى سجلت أحداث الحروب الصليبية . وسنا البرق الشامى واحدة من هذه المخطوطات الهامة التى تحتوى على كثير من التفصيلات القيمة عن الحروب الصليبية فى عصر صلاح الدين الايوبى ، بل انها بالاحرى تمثل تاريخا سياسيا لعصر الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب الذى كان أهم أحداثه النصر المؤزر فى حطين ، واسترداد بيت المقدس بعد أسر استمر ما يقرب من المائة عام .

وقد كانت هذه المخطوطة جزءا من رسالة الدكتوراه التى تقدمت لنيلها من جامعة كامبردج عام ١٩٧١ . وقد علق أحد الاساتذة الانجليز على هذه المخطوطة قائلا ، بأن ظهورها يعتبر كشف تاريخى هام . واننى هنا أتقدم بالشكر والعرفان والامتنان لاساتذتى فى جامعة كامبردج واخص بالذكر منهم الاستاذ الدكتور روبرت سارجنت رئيس قسم الدراسات الاسلامية بكلية الدراسات الشرقية بجامعة كامبردج ، واستاذى الدكتور مالكولم ليونز من كلية بمبروك الذى أبدى كثيرا من الاهتمام بهذا المخطوط ، مما ساعد على اخراجه الى النور .

وقد كنت أنوى أخراج هذا المخطوط وطبعه قبل ذلك ، لكن الظروف حالت بينى وبين تحقيق ما أردت فى الفترة الماضية ، واليوم أتقدم للدارسين والقراء الأفاضل هذا العمل آملة أن تتحقق به الفائدة ، والنفع العلمى ، وادعو الله أن أتمكن من مواصلة العمل فى هذا المجال ، اسهاما فى احياء التراث الاسلامى فى مجال التاريخ ذلك ان ثروة علمية هائلة ماتزال تحتاج الى جهد المخلصين من أبناء هذه الأمة العلماء لاخراجها لترى النور وتروى ظمأ الباحثين عن الحقيقة .

والله أسأل التوفيق والسداد ..

مدينة نصر ١٩٧٩/٤/٥ فتحية النبراوي

الفصل الأول

التعريف بالمخطوط وتاريخه

ومؤلفه ومختصره وخطة العمل فى التحقيق

بين أيدينا نص مختصر لكتاب البرق الشامى للكاتب عماد الدين الأصفهانى السكرتير الخاص لصلاح الدين الأيوبى . وقد قام على اختصار البرق الشامى أحد مؤرخى القرن الثالث عشر وهو الفتح بن على البندارى من رجال بلاط الملك المعظم عيسى حاكم دمشق .

والبرق الشامى الأصل يقدم تاريخا سياسيا لعصر صلاح الدين كتبه مؤلفه فى سبع مجلدات ضاعت فى معظمها ما عدا المجلدين الثالث، والخامس واللذين تحفظهما لنا مكتبة البودليان فى أكسفورد تحت رقم MSS
Bruce 11 Vol. 3 ورقم Marsh 425, Vol. 5

أما سنا البرق الشامى الذى يمثل ستة أجزاء من الأصل فقد عثرت عليه عام ١٩٦٧ فى مكتبة السليمانية فى استانبول برقم
Ms. Asad Efindi 2249

وأمام الحقيقة القائلة بضياع البرق الأصل فى معظمه يقف سنا البرق مكملا ، وبديلا لهذا العمل الذى يعتبر من المصادر الأصلية لدراسة تاريخ صلاح الدين السياسى ، وتاريخ الفترة بصفة عامة ، لما لهما من اهمية فى تاريخ الأمة الاسلامية فالقرن الثانى عشر الميلادى شهد اللقاء العسكرى بين الشرق والغرب ، بين المسيحية والاسلام ، ذلك اللقاء الذى خرج منه الاسلام منتصرا مظفرا ، بعد أن استطاع زعماء الجبهة الاسلامية ان يحققوا الوحدة السياسية والاقتصادية والعسكرية للمنطقة ويجندوا القوة البشرية ليجابهوا بهذا جميعا الخطر الذى داهم أراضى الاسلام .

وأمامنا ان نلقى الأضواء على كاتبين الأول صاحب البرق الشامى الأصل وهو العماد الكاتب الاصفهانى ، والثانى الفتح بن على البندارى الذي قام باختصار البرق تحت اسم سنا البرق الشامي .

عماد الدين الكاتب الأصفهاني ٥١٩ : ٥٩٧ هـ / ١١٢٥ : ١٢٠١ م .

هو عماد الدين ابو عبد الله بن صفى الدين ابو الفرج محمد ابن نفيس الدين ، بن على بن محمود بن هبة الله المعروف بآله(١) الملقب بالكاتب الأصفهانى والمشهور بابن أخى العزيز ، ولد فى أصفهان عام ٥١٩ هـ/ ١١٢٥ م وتوفى فى دمشق عام ٥٩٧ هـ / ١٢٠١ م .

قدم العماد الكاتب الى بغداد فى سن مبكرة حيث التحق بالمدرسة النظامية وتعلم بها ، وفى العراق تدرج فى وظائف الدولة حتى شغل منصب نائب الوزير ابن هبيرة فى البصرة ثم فى واسط . وعندما توفى الوزير عام ٥٦٠ هـ / ١١٦٤ م(٢) ، أعتقل العماد الكاتب دون ما سبب ظاهر الى أن أخلى سبيله الخليفة العباسى المستنجد(٣) .

غادر العماد الكاتب العراق الى سورية ووصل دمشق عام ٥٦٢ هـ / ١١٦٦ م حيث استقبله قاضى المدينة كمال الدين الشهرزوى . وقدمه الى نور الدين محمود الذى أحسن اليه ، وعينه مدرسا فى المدرسة النورية (عرفت فيما بعد بالمدرسة العمادية) ، وظل يعمل بها الى ان توفى نور الدين محمود عام ٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م . وشغل العماد أيضا وظيفة كاتب الانشاء واستطاع خلال فترة قصيرة أن يصبح مشرفا على الديوان كله .

واتصل العماد بصلاح الدين الأيوبى بعد وفاة نور الدين محمود وكان لقاؤه به فى دمشق حيث بدأ يظهر فى الحياة الثقافية فى المدينة . وقد كان لعلاقته الوطيدة بالقاضى الفاضل وزير صلاح الدين اثرها فى تقريب العماد الى نفس صلاح الدين الذى عينه نائبا للفاضل وقد كانت هذه الوظيفة هى التى عمقت الصلة بين الكاتب وصلاح الدين الأيوبى اذ سرعان ما أصبح العماد سكرتيرا خاصا له ، وقد كانت هذه الوظيفة هى التى مكنت العماد من الاطلاع على كثير من الوثائق والمكاتبات الرسمية الدولة مما يضفى على كتابته وتاريخه أهمية بالغة .

---

(١) لفظة فارسية تعنى العقاب .

(٢) ابن خلكان . وفيات الأعيان . جـ ٢ . ص ٣٢٦ وما بعدها . ويذكر ابن خلكان وفاة الوزير عام ٥٧٠ هـ / ١١٧٤ وصحتها ما ورد بالنص.

(٣) انظر خريدة القصر . العراق جـ ١ . ص ٣٦ ، ٣٧ .

وبعد وفاة صلاح الدين الأيوبى كرس العماد الكاتب حياته للعلم والكتابة حيث ألف أهم أعماله العلمية وهو البرق الشامى ، بالاضافة الى عدد آخر من المؤلفات .

وقد عرف العماد الكاتب كمؤرخ الا انه اشتهر بالكتابة وقد وصفه الفتح بن على البندارى بذى البلاغتين . وكتب العماد كثيرة ومتنوعة منها الأدبى والتاريخى والمعاجم وهى :

١ — البرق الشامى . (غير منشور) .

٢ — الفتح القسى فى الفتح القدسى (منشور) .

٣ — خريدة القصر وجريدة أهل العصر وهذه من أهم مؤلفاته حيث كتبها فى عشرة مجلدات وقسمها الى أربعة أقسام ، وكلها الآن محققة ومنشورة . القسم الاول يتضمن شعراء العراق والقسم الثانى يتناول شعراء الشام ، والثالث يتحدث عن شعراء مصر والرابع خصصه لشعراء المغرب(١) .

٤ — خطفة البارق وعطفة الشارق (رسالة) .

٥ — العتبى والعقبى (رسالة) .

٦ — نحلة الرحلة (رسالة) .

والأعمال الثلاثة السابقة اختصرها ابو شامة(٢) ، وذكرها كل من

---

(١) شعراء العراق تحقيق بهجت الأثرى فى جزءين بغداد ١٩٥٠ ، ١٩٦٤ .

شعراء الشام تحقيق شكرى الفيصل فى جزءين . دمشق ١٩٥٥ ، ١٩٥٩ .

شعراء مصر تحقيق أحمد أمين ، وشوقى ضيف فى جزءين القاهرة ١٩٥١ .

شعراء المغرب تحقيق محمد المرزوقى . تونس ١٩٦٦ .

(٢) أبو شامة . الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، الطبعة الأولى ج ٢ ص ٢٣٣ ، ٢٤٥ .

ابن واصل(١) ، وياقوت الحموى(٢) ، والفتح البندارى(٣) والصفدى(٤) .

وبالاضافة الى ذلك قام العماد بترجمة كتاب فتور زمان الصدور وصدور زمان الفتور من الفارسية الى العربية وهو عبارة عن مذكرات الوزير خالد انو شروان(٥) وكتاب كيمياء السعادة للامام الغزالى(٦) .

٧ ــ نصرة الفترة وعصرة القطرة ٤٤٧ : ٥٨٢ هـ / ١٠٥٥ : ١١٨٦م وهذا عبارة عن تاريخ للدولة السلجوقية وقد اختصرها أيضا الفتح بن على البندارى بعنوان زبدة النصرة ونخبة العصرة وقام على تحقيقها هوتسما ، وفى هذا الكتاب أشار البندارى الى اختصاره لكتاب البرق الشامى للعماد الكاتب الأصفهانى .

أما كتاب البرق الشامى الذى يعتبر أهم أعمال العماد فليس لدينا منه سوى الجزء الثالث ، والجزء الخامس وكان قد كتبه فى سبعة أجزاء بحيث يتضمن تاريخ صلاح الدين الأيوبى وعلاقاته بالصليبيين فى الفترة من ٥٦٢ : ٥٨٩ هـ / ١١٦٦ : ١١٩٣ م وتظهر المادة التاريخية المأخوذة من هذا الكتاب فى كتب المؤرخين اللاحقين لعماد الدين أمثال ابى شامة الذى يذكر بأمانة ما نقل عنه ، ويورد أجزاءا كاملة من البرق فى كتابه الروضتين ، ويمكن القول انه فى غياب كثير من أجزاء البرق يقوم الروضتين بسد الفجوة وملء الفراغ التاريخى الناتج عن ذلك .

كذلك استخدم ابن الأثير البرق الشامى دون أن يذكر العماد سوى مرة واحدة فى كتابه الكامل فى التاريخ .

---

(١) ابن واصل . مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب حـ ٣ ص ١٥ وما بعدها .

(٢) ياقوت الحموى . ارشاد الاريب لمعرفة الأديب حـ ٧ ص ٨٥ .

(٣) الفتح بن على البندارى . سنا البرق ص ٩ ، ١٣

(٤) الصفدى . الوافى بالوفيات جـ ١ ص ١٤٠

CF : C. Brockelmann, GAL. Suppl. I. p. 549.

(٥) Th. Houtsma ; Recueil de Text Relatifs â L'Histoire Des Seljoucides, II, p. 4. CF : AKS. Lambton, Anu Shurwan, E. I. 2.

(٦) أبو شامة . الروضتين فى أخبار الدولتين (الطبعة الأولى) جـ ٢ ص ٢٠

قارن : M. Watt, Chazali. E. I. 2.

وقد ذكر كل من ابن خلكان والصفدى وحاجى خليفة أن العماد كتب كتابه فى سبعة أجزاء ، بينما يذكر السخاوى فى جواهر الدرر ان الكتـــاب ألف فى تسعة أجزاء أما ياقوت فقد ذكر أنه كان يتكون من عدة أجزاء .

وقد ضاع البرق الشامى ما خلا الجزءين السابق الاشـــارة اليهما ، أما الجزء الثالث فهو ما زال مخطوطا .

ويحمل هذا المخطوط تاريخ ٦٨١ هـ كمام النسخ ويحتوى على ١٤٦ ورقة ، ويغطى أحداث الأعوام من ٥٧٣ : ٥٧٥ هـ / ١١٧٧ : ١١٧٩ .

وقد وصف الأستاذ جب هـــذا المخطوط فقال انه مخطوط صـــحيح وواضح(١) .

أما الجزء الخامس فيقع فى ١٤٠ ورقة ويناقش الأحـــداث بين عامى ٥٧٨ : ٥٧٩ هـ ١١٨٢ : ١١٨٣ م وقد ذكر جب أن هـــذا المخطـــوط قـــد أضيفت اليه بعض الاضـــافات فى تاريخ لاحق لتاريخ النسخ ، ولم تكن فى مجموعها صحيحة ، وأن عددا من صفحاته الأولى مفقود .

وقد ذكر فى تذكرة النوادر العثمانية ان نسخة أخرى لهـــذا المخطوط محفوظة فى مكتبة لننجراد ، الا أن الأستاذ كاهل ذكر فى دراسـة قدمها عن البرق الشامى ان هذا المخطوط لا وجود له(١) .

كذلك أكد الأســـتاذ كريمر الذى حقق الفتح القـــدسى انه طلب الى المسئولين فى مكتبة لينتجراد ان يمدوه بنسخة من البرق التى أشارت اليها

---

(١) H.A.R. Gibb. al-Barq al-Shami, W. Z. K. M. 1953. pp. 95 — 102.

(٢) AL. Nadawi, Tathkirat al-Nawadir al-'Uthmaniyya., Haidar Abad, 1931, p. 81.

P. Kahle., «Eine wichtige Quelle zur Geschichte des Sultans Saladin», Die Welt Orients, Stuttgard, 1947, pp. 299 — 301.

النوادر العثمانية فكانت أجابتهم انهم لا يمتلكون مخطوطا للبرق الشامى(١) .

وقد ثنى كراتشكوفسكى على هذا التأكيد بأن لينجراد لا يوجد فى حوزتها مخطوطا للبرق الشامى ، وانما يوجد بها مخطوط للفتح القدسى(٢) .

وقد ذكر سوفاجيه فى مقدمته لتاريخ الشرق الاسلامى انه توجد مخطوطة للبرق الشامى فى المغرب ، الا أن هذا القول لم يتأكد بعد ذلك أن سوفاجيه لم يذكر اسم المكتبة التى تمتلك هذا المخطوط(٣) .

ومما تجدر الاشارة اليه ان كلا من كاهل وكريمر قد قدما دراستيهما بعد سوفاجيه ولم يشر أيهما الى نسخة المغرب .

وقد ذكر لى الأستاذ محمد بن تأويت الطنجى ان هذه النسخة لا يحتمل وجودها فى المغرب .

وأخيرا وجدت اشارة للبرق فى كتالوج مكتبة ليدن برقم Cod or 1592 وقد أهدتنى مكتبة ليدن(٤) هذا المخطوط ، واننى هنا أتقدم بالشكر والعرفان للعاملين فيها . وبدراسة هذا المخطوط ومقارنته خلصت الى النتيجة التالية :

ظل الاعتقاد سائدا بأن هذا المخطوط هو نسخة من البرق الشامى للعماد الكاتب الأصفهانى ، ولكن بدراسته ثبت لدى انه لا يمثل البرق بل

---

(١) J. Kraemer, Der Struz des Konigreichs Jerusalem, 583 — 1187. Weisbaden, 1952.

(٢) Catalogue of Arabic Mss. In Institute Narodov Moscow ; 1965.

لم يذكر هذا الكاتالوج شيئا عن البرق الشامى ، وانماذكر السبرق اليمانى . (حقق عام ١٩٦٨) .

(٣) J. Sauvajet, Introduction to the History of Maslim East., Los Angeles, 1965, p. 63.

(٤) P. Voorhoeve, Hand list of Arabic Manuscripts in the Library of the University of Leiden, London, 1957, p. 42.

هو عبارة عن مقتطفات متفرقة من كتابات العماد وأشعاره بالاضافة الى ما وقع فيه الناسخ من أخطاء كثيرة .

وقد امتازت كتب العماد بالافاضة والاطناب ، ولهذا قام على اختصارها عدد من المؤرخين والكتاب .

اختصر خريدة القصر وجريدة أهل العصر رضائى على بعنوان عود الشباب ، وتوجد فى مكتبة نور عثمانية برقم ٢٦٩ كما توجد نسخة أخرى لها فى فينا برقم ٢٦٤(١) .

كذلك اختصر الفتح القدسى مجد الدين طاهر محمد بن الفيروز أبادى الشيرازى وتوجد صورة له فى معهد المخطوطات العربية بالقاهرة(٢) .

أما البندارى فقد قام باختصار وتهذيب تاريخ آل سلجوق وكذلك البرق الشامى .

الفتح بن على البندارى :

ليس لدينا معلومات وافية عن الفتح بن على البندارى سوى أنه من مؤرخى القرن الثالث عشر الميلادى الذين عملوا فى بلاط الملك المعظم عيسى فى دمشق ، وهذا يجعلنا لا نستطيع أن نقدم له ترجمة كاملة .

أما معلوماتنا عنه فنستقيها من أعماله التى قام بها وهى اختصاراته لكتب العماد الكاتب الأصفهانى وأهمها بطبيعة الحال المخطوط الذى بين أيدينا سنا البرق الشامى .

سنا البرق الشامى :

تضم المكتبة السليمانية باستانبول النسخة الوحيدة من سنا البرق الشامى برقم أسد أفندى ٢٢٤٩ .

---

(١) N. Elisseff, Nur al-Din, I, p. 28.

(٢) فؤاد سيد . فهرس المخطوطات المصورة . حـ ٢ ص ٢٦٨

ويقع سنا البرق فى تسع وسبعين ورقة من القطع الكبير من ١٦٣ ب : ٢٤٢ أ . وقد وجدته مجلدا مع كتاب حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة لجلال الدين السيوطى . وعلى الصفحة الأولى من المخطوط (كتاب حسن المحاضرة فى تاريخ مصر القاهرة ويليه الجزء الأول من كتاب سنا البرق الشامى لعماد الدين الكاتب الأصفهانى) ويبدأ بمقدمة كتبها البندارى ويذكر أنه انتهى من اختصاره للبرق عام ٦٢٢هـ/١٢٢٤م وباستعراض الموضوعات الواردة فى الأوراق الاثنتى عشر الأولى يتضح لنا عدم انتاظمها وعدم تتابعها ففى ورقة ١٦٤ ب يذكر وصول العماد الى الشام فى ٥٦٢ هـ / ١١٦٦ م ، ويتبع ذلك وصول شاور الى دمشق عام ٥٦٣ هـ / ١١٦٧ م ثم يذكر حملة اليمن ، وفجأة يذكر موت نور الدين محمود ٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م .

ويأتى خلال ذلك اشارة الى بعثة ابن القيسرانى الى مصر ويلى ذلك مؤامرة عمارة اليمنى ضد صلاح الدين عام ٥٦٤هـ / ١١٦٨ م .

وربما حدث ذلك خلال اختصار البندارى للنص ، أو ربما وقع من الناسخ خلال كتابته له فى عصر لاحق .

وينتظم بعد ذلك المخطوط الى أن نصل الى الأوراق الثلاثة الأخيرة فنجد ان المادة التاريخية بها غير منتظمة ، وغير مترابطة .

والمخطوط على العموم مكتوب بخط غير جميل ، وهناك كثير من الفجوات ، والأخطاء الاملائية ربما حدثت خلال النسخ وكان هدف التحقيق هو تصحيح وضبط النص .

وقد شكى الفتح البندارى وغيره من المؤرخين صعوبة أسلوب العماد وطوله واسهابه ، وتعقيده .

فقد ذكر الصفدى أن شعره ألطف من نثره لأنه أكثر الجناس فيه وبالغ حتى يعود كلامه كأنه درب من الرقى والعزايم وقد عاب الناس ممن له ذوق ونظرة سليمة كثرة الجناس لأنه دليل التكلف .

وقد ذهب أبو شامة نفس المذهب فى وصفه لأسلوب العماد فقال بأنه مسهب مطنب يصيب الانسان الكلل والملل من قراءته .

أما ياقوت وابن خلكان فقد ذكرا ان العماد والقاضى الفاضل كانا يميلان الى التلاعب بالالفاظ مثال ذلك (سر فلا كبابك الفرس) ، (ودام علا العماد) ومثل هذه العبارات يمكن قراءتها من اليمين الى اليسار أو من اليسار الى اليمين .

ومما هو جدير بالاشارة ان البندارى حين اختصر البرق كان أمينا ، ولم يحاول التغيير فى الأسلوب والتزم بخطة واضحة طوال النص .

أما مصادر التحقيق فقد تمثلت بالضرورة فى الجزءين الثالث والخامس من البرق الشامى الأصل وقد شكل هذان الجزءان مصدرا هاما من مصادر التحقيق خاصة فى غياب نسخة أخرى تفيد فى المقارنة .

كذلك كان للمقتطفات التى وردت فى كتاب الروضتين لابى شامة أهمية كبيرة فقد ملأت العديد من الفجوات وساعدت فى ضبط الكثير من أجزاء النص وقد اعتبرت ما تبقى من البرق بالاضافة الى مقتطفات أبى شامة أصلا ثانيا للتحقيق .

هذا بالاضافة الى الاستعانة بالمصادر اللاحقة على البرق الشامى كالكامل فى التاريخ لابن الاثير ، ومفرج الكروب لابن واصل ، والخطط لتقى الدين المقريزى ، وكلها قد أفاد كاتبوها من مؤلفات العماد الكاتب لا سيما البرق الشامى . كذلك اعتمدت على بعض المصادر غير المنشورة كتاريخ ابن أبى الهيجاء ، والعسجد المسبوك ، ورسائل القاضى الفاضل .

وتجب الاشارة الى أن البندارى ذكر فى مقدمته انه سوف يذيل مختصره بمقتطفات من رسالتى العماد العقبى والعتبى ، وخطفة البارق وعطفه الشارق الا أنه لم يفعل . وربما كان سبب ذلك أنه لم يستكمل البرق ، فيقول العنوان الجزء الأول من سنا البرق الشامى ، ايماء الى أنه سيكون هناك جزء ثان ، ولكننا لم نعثر عليه .

الفصل الثانى

وما توفيق إلا بالله

(١٦٣ ا) لنا بعد حمد الله على نعم نافحة الرياض ، ومنح طافحة الحياض ، ونرتع فى سارحها ليلا ونهارا ، ونكرع فى شارعها سرا وجهارا ، ونلبس فضفاضها سائغا ونرد غياضها سابغا ثم الصلاة والسلام على سيدنا محمد صفوة الانام المطلمن المجد على الغارب(١) والسنام ، الماحى بانوار صبح هدايته ظلم ليالى الباطل المحلى بقلايد رسالته بحر الزمان العاطل وعلى آله وأصحابه مصابيح الرحمة ومجاديح(٢) الحكمة ومفاتيح الجنة .

فانى لما رأيت أبلغ المراتب(٣) وأنجح الوسائل الى خدمة مولانا السلطان الملك المعظم ملك ملوك العرب والعجم أبى الفتح عيسى(٤) ابن السلطان الملك العادل أبى بكر بن أيوب لا زالت سماء الجلالة موشحة بدرارى سيره الزاهرة ومطالع الاقبال منورة بأشعة مكارمه الباهرة ، والتمسك(٥) بعصم العلوم وأهداب الآداب والتوسل باخراج درر الكلم من لجج الحكم الطامية العباب . حبست نفسى ووقفت نفسى مشيعا مآثر حضرته العالية ، سالكا مناهج الاخلاص فى السريرة والعلانية . فالجنان يضم الولاء النافع ، واللسان ينشر الثناء الشايع ، والبنان يحرر بل يجيز

---

(١) فى الأصل غير واضحة . أعلى مقدم السنام ... قيل غارب كل شىء أعلاه . لسان العرب ١ — ٦٤٤ .

(٢) فى الأصل غير واضحة ومجاديح كما ضبطت يستقيم بها المعنى ، وتعنى نجوم كما ورد فى لسان العرب ٢ — ٤٢١ ومفردها مجدح .

(٣) فى الأصل : الموت .

(٤) الملك المعظم شرف الدين عيسى بن الملك العادل بن أيوب صاحب دمشق ٥٧٨ هـ / ١١٨٢ — ٦٢٤ هـ / ١٢٢٦ . كان حنفى المذهب بين أفراد الأسرة الأيوبية . انظر ترجمته فى ابن خلكان ١ — ٥٠١ — ٥٠٢ ومن الجدير بالذكر أن ابن خلكان لم يذكر شيئا عن البندارى رغم اشارته الى اهتمام الملك المعظم بالأدب والأدباء .

(٥) فى الأصل الواو ساقطة .

من مدحه الوشايع أفرغ وسع الاستطاعة جريا على مقتضى الخدمة والطاعة فيما يرجع بتخليد آثار بيته الكريم ، ويعود بأعلى صيته العظيم فى نظم تطبق فضائله الآفاق وتملأ بمناقبه خراسان والعراق ، ونثر ينشر حلل معاليه فى محافل السلاطين وأندية الملوك ، ويبث عرف اياديه وينظم عقد مساجيه مثل العنبر المفروك والجوهر المسلوك .

ولما ترجمت لخزانته العالية كتاب شهنامة(٦) التى توجت فيه سير الملوك الاولين والسلاطين الاقدمين بغير مفاخرة وفضلت قلايد مناقبهم وعقود مكارمهم بزهر مآثره نظرت فى الكتاب الموسوم بالبرق الشامى للامام السعيد عماد الدين الكاتب الاصفهانى فوجدت عمايمه تتدفق(٧) بأنواع الفوايد،وكمايمه تتفتق عن أنوار الفوايد ، تحتوى من البلاغة على أبكارها وعونها ، وتشتمل من البراعة على غررها وعيونها ، فيه من السير السلطانية الناصرية والعادلية وساير الدوحة الكريمة الأيوبية ما ينطبق على مثله كثير من الكتب المصنفة فى التواريخ والسير القديمة منها والحديثة . لكننى وجدت درر مقاصدة مكنونة فى بحار أسجاعه المتلاطمة الامواج ، ورأيت غرر فوايده مغمورة فى غمار أوصافه المتتابعة الافواج ما بين قراين تشابكت قرون لواحقها فى أصلاء سوابقها ، وافانين تشاجرت فنون اغصانها فى أرجاء حدايقها ، فشذبت شجيراتها وادنيت جنا جناتها لقاطفيها وجناتها ، واقتصرت منها على الفاظ هى كالمعارض لخرايد معانيها الرايقه ، وكالواسطة فى قلايد قراينها المتناسقة ، وكشفت أطباق حجبها بل استار سحبها عن محتلى درارى سماتها ، وأرحت قساطل خيلها وغياطل ليلها عن مطالع مسمياتها ، وتباشير اسمائها ولم احم من الكتب المنشأة فى الوقايع المذكورة الا حول جهة من الكلم الجليلة الفاضلية ، ونبذ من الكتب البديعة العمادية سالكا مسلك الاختصار وناهجا منهج الاقتصار ثم وقفت له على رسالتين فى ثلاث مجلدات وسم احدتهما بالعقبى والعتبى(٨) وهى مشتملة على ما جرى بعد الأيام

---

(٦) ملحمة تاريخية فارسية كتبها الفردوسى فى ٣٩٠ هـ / ٩٩٠ م للسلطان محمود الغزنوى ترجمها الفتح البندارى الى العربية . انظر دائرة المعارف الاسلامية : مقال شهنامة .

(٧) فى الأصل : أنواء .

(٨) واحد من أعمال العماد التاريخية . تسمى أيضا عتبى الزمان فى عقبى الحدثان . انظر خريدة القصر . القسم العراقى ١ ٤٨ — ٤٩ .

الصلاحية مدة ثلاث سنين ، ووسم الثانية بخطفة البارق(٩) وهى محتوية على الوقايع التى جرت من مفتتح سنة ثلاث وتسعين الى رمضان سنة سبع وتسعين وفيها تصرمت أيامه(١٠) رحمه الله .

(١٦٤ أ) / فرأيت أن(١١) أذيل بما أنتخبه منهما هذا المختصر لاشتمالهما على طرف من السير الكريمة العادلية أنار الله برهانها ولمع من مطالع انوار دولة السلطانين العادلين مولانا الملك الكامل(١٢) ومولانا الملك المعظم خلد الله سلطانهما وأعز انصارهما وأعوانهما ونتف فى مدايحهما الزاهرة ومحامدهما الباهرة ونبذ من احوالهما فى مفتتح جلالهما ومقبل اقبالهما وريعان سلطانهما وعنفوان شأنهما خدمة منى للمواقف الكريمة والعتبات العالية وقضاء لبعض حقوق نعمهما العايدة البادية واياديها الرابحة الغادية وسميته سنا البرق الشامى واستعنت فى ذلك وفى جميع امورى بالله سبحانه وتعالى وهو حسبى ونعم الوكيل .

قال الامام العالم ذو البلاغتين عماد الدين ابو عبد الله محمد بن محمد ابن حامد الكاتب الاصفهانى رحمه الله فى صدر كتابه الموسوم بالبرق الشامى .

وبعد فان الكريم من عرف حق المنعم عليه وشكر فضل المحسن اليه واذا خدم مخدوما أوجد كرمه بذكره وان صار معدوما وعرف من بين ما(١٣) عرفه ما كان مكتوما ومن استكفانى بالانشاء لتنفيذ اوامره فى حياته كافية بالاحياء فى انشاء مفاخره فى مماته وهو الملك الناصر صلاح الدنيا والدين أبو المظفر يوسف بن أيوب رحمه الله . فانى صحبته فكان خير مصحوب ، وخطبت وده فالفيته الآن مخطوب ، ولما انقضى عصره وانقضت عمره

---

(٩) خطفة البارق وعطفة الشارق وهى أيضا من الأعمال المفقودة . انظر دائرة المعارف الاسلامية مقال عماد الدين . رغم انها لا تشير الى هذين العملين الا أنها تقدم مختصرا لحياة وأعمال العماد الأخرى . انظر ابن خلكان . وفيات الأعيان ج ٩٧٢ وما بعدها .

(١٠) المقصود بها عماد الدين الكاتب الأصفهانى .

(١١) اضافة يقتضيها سياق الجملة .

(١٢) أبو المعالى محمد بن الملك العادل الملقب بالملك الكامل ناصر الدين توفى فى ٦٣٥ هـ / ١٢٣٧ م انظر وفيات الأعيان ٢ — ٦٥ : ٧٠ .

(١٣) اضافة يقتضيها السياق .

خشيت أن ينقرض ذكره فأنشأت هذا الكتاب واعطيته من البلاغة حظا واعرته من الفصاحة لحظا وافتكرت وابتكرت صياغته معنى ولفظا وسميته البرق الشامى لأنى وصلت فى شعبان سنة اثنتين وستين وخمسمائه فى دولة الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى سقى الله عهده عماد الرحمة فصادفت الدولة فى أيامه والأيام الصلاحية الى السابع والعشرين من صفر سنة تمع وثمانين متناسقة(١٤) المحاسن وهيبتها بطيبها مستمرة على حسنها مستقرة ، ثم التفت فاذا هى كبرق ومض وطرف غمض وما أسرع ما انقضت وانقرضت تلك الليالى والايام والشهور والأعوام .

وقد انقضت تلـك السنون — وأهلهـا فكأنهـا وكأنهم أحـلام .

قال وأنا أقدم فى هذا الكتاب ذكر نبذ من أحوالى مع السلطان ثم أبتدىء بذكر معرفتى به وخدمتى(١٥) له وأصف مبادىء دولته الى أن وصل الى الشام وحضرت خدمته ، وأصف سيره كل سنة وآتى بشرح حسناته بكل حسنة .

قال : ولم يزل قلمى(١٦) لسيفه مشاركا وملكه مداركا هـذا للرزق وذاك للأجـل ، وهـذا للأمن وذاك للوجل . وكان السلطان يعتمد على قلمى(١٧) وينصر كتابته وهو يقول : الحمد لله الذى لم يضع على العماد اعتمادى وحاط الى سداده سدادى ثم ما وفى أحد بعهده وفائى بعهده من بعده فلنى سيرت معانى معاليه بالفاظى الفاضلة وخلدت ذكره فى مصنفاتى الى قيام الساعة وأحييت ذكره بالوفاء بعد الوفاة واهديت له حياة ثانية بعد الحـياة . ولمـا نقله الله الكريم الى جناب جناته واقتسم(١٨) أولاده ممالكه قلت يسلكوا مسالكه وينسكوا مناسكه وانهم يعرفون مقدارى ويرفعون منارى ويشرحون صـدرى ولا يضعون قدرى فأخلف الظـن حتى قطعوا رسومى ومنعوا مرسومى وغوروا منابعى وكدروا مشارعى . قال ومما كتبته

---

(١٤) فى الأصل « متناسبة » وكذا يستقيم المعنى .

(١٥) اتصلت خدمة العماد الأصفهانى بالسلطان صلاح الدين فى عام ٥٧٠ هـ — ١١٧٥ م .

(١٦) يعتبر عماد الدين من شهود العيان الذين صاحبوا صلاح الدين فى كل غزواته كما يقول العماد نفسه والمعركة الوحيدة التى تغيب عنها كانت وقعـة الرملة .

(١٧) هذا يوضح مكانة العماد الرسمية فى الدولة الصلاحية .

(١٨) اضافة الواو هنا يقتضيها السياق .

فى كتاب يتضمن شكوى الحال ما حـال ما غصبت أملاكه املاكه ونصبت أشراكه أشراكه فكتبت الى المولى الاجل الفاضل فى فصل يسلم فيه على ولدى القاضى الولد مقبل العين ويحييه الى ان تصل القبل الى اليدين والى ان يسر والده اذ هما فى الفضل ثانى اثنين وما احسن قول سيدنا غصبت املاكه أملاكه ونصبت اشراكه اشراكه واستحسنت ازدواج هاتين الكلمتين ووقعتا منى بموقع بمشاركتى له فى المكروهين قال وتمام هذا الفصل من الكتاب الفاضلى وقد شرح من احواله واعتزاله وصبره واحتماله وتلطفه فى تجويز الوقت واحتياله وشكره لقوم لا على ايصال مالهم اليه ولكن على ايصاله الى ماله ماذكرنى بابن(١٩) حيوس(٢٠) وقد مطله صاحب دار الوكالة ببيع بضاعة له

مضى الكـرماء صـانوا ماء وجهى بجـود لا برفـق بالسـؤال
وما أنا بعد هـم فى النـاس أبغى كريمـا يشـترى حمـدى بمالى(٢١)

قال ومما كتبته الى الأجل الفاضل فى شكوى الحال قصيدة منها :
دمشـق تقصـد عظـمى بعرقـه أى عرقـه
اخفاقـة لرجـائى فيهـا وللقلـب خفقـه
أقمـت فيهـا وحيـدا كالـدر ضمنـه حقـه

---

(١٩) فى الأصل حتى زائدة .

(٢٠) هو الأمير أبو الفتيان محمد بن سلطان بن محمـد بن حيوس الغنوى الدمشقى . أحد الشعراء الفحول ولد بدمشق عام ٣٩٤ هـ . وكان شاعر أنوشتكين والى دمشق ثم اتصلت بعد ذلك خدمته بالمرداسيين وعاش فى ظلهم وتوفى عام ٤٧٣ هـ . وله ديوان كبير . انظر ابن خلكان وفيات الأعيان ٢ — ١٢ — ١٦ . انظر الخريدة — العراق . جـ ٢ — ١٩٩ — ٢٠٠ انظر ايضا مقدمة ديوان الشاعر جـ ١ ص ٥ وما بعدها .

(٢١) ورد هذان البيتان فى ديوان ابن حيوس كالتالى .
مضى الكرمـاء صـانوا مـاء وجـهى
بمـا بذلـوه عـن ذل السـؤال
وهـا انـا بعـدهم فى النـاس أبغـى
كريمـا يشـترى شـكرى بمـالى
أنظر الديوان جـ ٢ — ٤٦٨

ذكر الوصول الى الشام فى سنة اثنتين وستين وخمسمائة

قال : وصلت الى دمشق فى أيام جلاء(٢٢) حسنها وانجلاء(٢٣) حزنها وغناء افنانها(٢٤) بالاغاريد وانتشاء انشائها بالاناشيد فقدمتها فى أطيب زمان ونزلت من المدرسة التى وليتها فى احسن مكان . وكان ملكها والذى يتولى ممالكها الملك العادل نور الدين أبو القاسم(٢٥) محمود بن زنكى أعف الملوك واتقاهم وانقبهم وانقاهم واصلحهم عملا وانجحهم املا وارجحهم رايا واوضحهم آيا(٢٦) . وهو الذى اعاد رونق الاسلام الى بلاد الشام فاستفتح معاقلها واستخلص عقايلها وكانت للفرنج فى أيام غيره على بلاد الشام قطايع فقطعها وعفى رسومها ومنعها ونصره الله عليهم مـــرارا حتى اسر ملوكهم وبدد سلوكهم وصان الثغور منم وحماها عنهم واحيا(٢٧) معالم العلوم الدوارس وبنا لمذاهب السنة والجماعة المدارس وانشأ الخانكات للصوفيه وكثرها فى كل بلد وكثر وقوفها وأجد الأسوار والخنادق وأمر فى الطرقات ببناء الربط والخانات وهـــو الذى اعان على فتح مصر واعمالها وانشأ(٢٨) دولتها(٢٩) ورجالها .

وكان صلاح الدين احـــد خواصه واخلص ذوى استخلاصه ولد نجم الدين أيوب من آكابر امرائه لا يفارقه راكبا فى ميدانه ولا جالسا فى ايوانه يقف على رأسه ووالده من جلاسه وقد اقتدى به فى جميع ما اتصف به من التقى والعفة والنزاهة والنباهة وآداب الملك واحكام السلطنة فتلقن منه مبادىء الخيرات ثم جلوز بها فى أيامه الغايات .

وكانت بيننا وبين نجم الدين أيوب معرفة قديمة من تكريت حيث كان

---

(٢٢) فى الأصل : جلا .

(٢٣) فى الأصل : انجلا .

(٢٤) فى الأصل : الألف الأولى ساقطة .

(٢٥) أبو القاسم محمود بن عماد الدين زنكى بن آقسنقر الملقب بالملك العادل نور الدين . انظر ترجمته فى الوفيات . ابن خلكان ٢ — ١١٥ .

(٢٦) انظر الروضتين ٢ — ١ — ١ — ٢٠ .

(٢٧) فى اصل واحيى .

(٢٨) في الأصل : بانشا .

(٢٩) دولته .

بها واليا وسببه ان عمى العزيز(٣٠) أحمد بن حامد ،رعه السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه(٣١) فى قلعة تكريت اشفاقا عليه من قصد من صار فى منصبه فجد فى نصيبه وبذل فيه ثلثمائه الف دينار ليعتقل ويحضر هو ما بذله ويعجل فمال الى المــال وسير العزيز الى تكريت برسم الاعتقال وذلك فى سنة خمس وعشرين وخمسمائه فسعى ذلك الوزير فى قتل السلطان بالسم واجلس اخاه طغرل فى السلطنة وتفرد بالحــكم فعلق رهن العزيز ودأب مرارا الى تكريت من يباشر قتله فلم يقبل واليهــا نجم الدين خدعه وقتله وتولى اخو الوالى أسد الدين شيركوه صــوته ولم يزل فى حمايته وعونه(٣٢) . قال وسمعت أسد الدين فى سنة اثنتين وستين وهو يحكى الى نصرته لعمى فلما كنت جالسا فى المحراب يوما عنده وهو يقرأ من القرآن ورده فسمعت هاتفا يقول : قد جعلك الله عزيزا كما دافعت عن العزيز فالتفت الى وقال : أعمل واعلم . قال أسد الدين : فمن ذلك اليوم سمت همتى وتمت عزمتى وبدهاء عمك العزيز طمعت فى مصر وأن أصير عزيزها وحرصت على أن املكها وأحرزها .

ذكر سبب وصولى الى دمشق

قال : وكان انصرافى من بغداد ووصولى الى الشام لا لقصد أحد من الكرام ولكن استوحشت هناك لفارط أعجز الاســتدراك وذلك أن الوزير عون الدين يحيى بن محمد بن هبيره(١) مال لفضله الى فضلى واقتطعنى

---

(٣٠) أبو نصر أحمــد بن حامد بن محمــد بن عبد الله عزيز الدين المستوفى توفى فى ٥٢٦ هـ . كان متولى خزانة السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه . انظر ترجمته فى ابن خلكان ١ — ٧٥ أيضا انظر الروضتين (٢) ١ — ٢ — ٥٣٦ حاشية رقم ٤ . انظر أيضا الخريدة عراق جـ ١ — ٧ ، ٨ ، ٧١ ، ٩٥ ، ٢٠٥ ، ٢٧٦ عن وظيفة المستوفى وعمــله انظر ابن ممــاتى قوانين الدواوين ٣٠١ .

(٣١) أبو القاســم محمود بن محمــد بن ملكشاه بن الب أرســلان السلجوقى الملقب مغيث الدين أحد الملوك السلاجقة . انظر وفيات الأعيان ابن خلكان ٢ — ١١٤ — ١١٥ .

(٣٢) واو الاضافة ساقطة فى الأصل .

(١) أبو المظفر عون الدين يحيى بن هبيرة بن محمد بن هبيرة بن سعد ابن الحسين بن أحمد بن الحسن بن جهم بن عمرو بن هبيرة . تولى الوزارة فى ٥٤٤ هـ — ١١٤٩ وكان عالما فاضلا وله كتب منها الافصــاح عن شرح المعانى الصحاح وهو ١٩ مجلدا . وكتاب المقتصــد . انظر ابن خلــكان ٢ — ٣٢٦ — ٣٣٣ وقد ذكر ابن خلكان وفاته فى ٥٧٠ هـ / ١١٧٤ بينما ذكرها ابن الأثير فى ٥٦٠ هـ / ١١٦٤ . قارن ابن الأثير . تاريخ الاتابكة ص ٢٣٥ ، انظر الخريدة — عراق ١ — ٩٦ — ٩٨ .

اليه وولانى نيابته بالبصرة تارات وبواسط كرات وعرفت به فلما توفى فى سنة ستين اقمت بغداد بعده وكل من هـو اليه منسوب مكبوت ومكبوب وما طرقتنى بحمد الله آفة ولا عرتنى مخـالفة وانا الى الفقهـاء منقطع وبالمناظرة وبالمباحثة معهم منتفع ، ومنهم فقيه من أهل دمشق يصف طيب رياضها وبهجة جواهرها وأعراضها وصحة هوائها وقلة أمراضها فراقتنى معرفته وشاقتنى صفته فقلت أجعلها سنة فرجة واسافر لاسفار صبحى بسرى دلجه واقصد ايناس قلبى وتنفيس كربى ورافقنى وما فارقنى حتى وصل بى الى قرب دمشق فانقطع عنى وساء بعد الاحسان به ظنى فلم أدر فى أى مطار طار والى أى مصير صار فبقيت غريبا وحيدا ولقيت من استيحاشى هما شديدا وقلت لأصحابى : أضربوا لى خيمة عسى أن نعرف احدا يسدى يدا فقد رضينا بمصيف ومقيل بلا مقيل وظل ولو انه غير ظليل . وقد نمى خبرى الى بعض الصوفية فدخل الى القاضى كمال الدين ابى الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزورى(٢) وهو يومئذ قاضى دمشق وقال له فلان قد ورد البلد فبينا نحـن فى تحير وتفكر وتوهج وتسعر اذ جاء خواص القاضى وحجابه وعدول مجلسه ونوابه يعتذرون عن تأخره لأمر(٣) اناله وانه يخفى عنك سؤله ويقول انزل حيث تختار النزول فآثرت النزول بالمدرسة فنزلت فى المدرسة التى انا الآن مدرسها وترددت الى القاضى فى محافل علمه ومجالس حكمه واستدللت واعترضت فى الأصول والفروع على الأئمة الفحـول . وعـرف / (١٦٥ ا) الأمـير نجـم الدين بالوصـول فبعثته معرفة العم العزيز على التعرف بى فبكر الى منزلى لتبجيلى وتحقيق تأميلى واستقبلته واسرعت الى بساط الأدب فقبلته وخدمته بهذه القصيدة فى اواخر شوال سنة اثنتين وستين وأخوه أسد الدين شيركوه وولده صلاح الدين يوسف قـد توجها فى هـذه السنة الى مصر وهى النوبة الثانية . قلت وأول القصيدة :

يوم النوى ليس من عمرى بمحسوب ولا الفـراق الى عيشى بمنسـوب

---

(٢) هو أبو الفضل محمد بن محمـد بن عبد الله بن أحمد القاسـم الشهرزورى الملقب بكمال الدين ولد فى ٤٩٢ هـ / ١٠٩٨ وتوفى فى ٥٧٢ هـ/ ١١٧٦ م تولى القضاء بدمشق لكل من نور الدين وصلاح الدين . انظر ابن خلكان ١ — ٥٩٧ — ٥٩٩ .

(٣) فى الأصل لام .

لم أنس أنسى بكم والشـــمل مجتمع   وعيشـــتى ذات تطـــريز وتذهيـــب
أرجـــو ايابى اليكم ظافـــرا عجـــلا   فقـــد ظـــفرت بنجـــم الدين أيوب

ومنها فى ذكر أخيه وابنه وما تفرس فيهما من ملك مصر وقد تم ذلك بعد سنتين .

غـــدا يشـــبان فى الكفـــار نار وغى   بلفحها يصبح(٤) الشبان(٥) كالشيب
ويســـــتقر بمصر يوســـــف وبـــه   تقـــر بعـــد التنائى عـــين يعقـــوب
ويلتقى يوســـف فيهـــا باخـــوته   والله يجمـــعهم مـــن غـــير تثريب
فأرجـــو الاله فعن قـــرب بنصرتـــه   سيكشف الله بلـــوى كل مكـــروب

فصـــل

قال : كان شاور وزير مصر فى أيام العاضد قد وصل الى دمشق فى سنة ثمان وخمسين يوم الخميس سادس شهر ربيع الأول ملتجأ الى نور الدين فنصره على عدوه وسير معه أسد الدين شيركوه يوم الخميس العشرين من جمادى الأول سنة تسع وخمسين على قرار عينه وأمر بينه فمضى معه ونصره واسترد له موضعه واعاده الى مجلس عادته واظهره بعدوه فلما تمكن من منصبه قال لأسد الدين : اذهب فقد وقع عنك الغنى وغدر بعهده واخلف فى وعده فأنف أسد الدين واقام يتأسد ويبرق ويرعد . وكان شاور قد شاور الفرنج وهداهم فى حرب الاسلام النهج فوصلوا بحميتهم وجمرتهم فتحصن شيركوه ومن معه بمدينة بلبيس وشاور فى جنود مصر وحشودها والفرنج فى قوامصها وكنودها . حاصروه ثلاثة اشهر فيها وهـــو يحميها حتى فلت جدودهم وملت جنودهم فبذلوا(٦) له قطيعة يأخذها منهم وينفصل عنهم وكانت المحاصرة فى مستهل شهر رمضان الى مستهل شهر ذى الحجة .

قال : وفى تلك السنة اغتنم نور الدين خلو الشام من الفرنج وقصدهم واجتمعوا على حارم فضرب معهم المصاف ورزقه الله الانتقام منهم وقتلهم واسرهم ووقع فى الاسار ابرنس انطاكية وقومص طرابلس وابن جوسلين ودوك الروم وذلك الحادى العشرين من شهر رمضان سنة تسع وخمسين وتسلم منهم بانياس . وعاد أسد الدين الى الشام وجرى على عادته فى

---

(٤) فى الأصل كلمة « يصبح » غير منقوطة .
(٥) فى الأصل « الشان » وكذا يستقيم المعنى .
(٦) فى الأصل ـــ فبدنو .

خدمة نور الدين وفى قلبه من شر شاور الاحن وكيف تمت بغدره تلك المحن(٧) الى ان دخلت سنة اثنتين وستين وخمسمائه فجمع وسار فى أمل ووصل فى سادس شهر ربيع الآخر الى اطفيح وعبر منها الى الجانب الغربى وأناخ بالجيزة واقام عليها نيفا وخمسين يوما على محاذاة مصر واستعان شاور بالفرنج واستنجد بالكفر وفسح لهم فى طروق الديار وجوس خلال الامصار ورتبوا لهم بالقاهرة سوقا واشاعوا كفرا وفسوقا وعبر بهم من البلاد الغربية الى الغرب وساقوا لموافقته على الحرب فلما عرف أسد الدين عبورهم رحل قدامهم فقربوا منه فى موضع يعرف بالبابين فعبى صفوفه واطال فى الملتقى وقوفه وحشا قلبه باثقاله وجماله وطبوله واعلامه ووقف جانبا برجاله وابطاله وظنوا انه فى القلب فحملوا عليه وفلوه وبغوا الى ذلك الجمع وغلبوه وأسد الدين بمعزل من القلب وساق اكثرهم وراء المنهزمين ووقف الباقون وقوف المغيرين . وكان صلاح الدين واقفا فى صحبه فى ابطال من حزبه فاغتنم خلو العرصة وانتهز بدو الفرصة وحمل على القوم وهم المقدمون فكسرهم وأسرهم وركب اكتاف فتاكهم واعرى بيضه وسمره بهلاكهم وكان فيهم ملكهم وقد كاد يدركه ويدركهم . واجتمع الى صلاح الدين من المفلولين(٨) جماعة فما شعروا الا بالفرنج من وراء المنهزمين عايدة وكان ملك الفرنج فى نفريسير وشاور معه وكاد يظفر به العسكر الاسلامى لكن الأصحاب / (١٦٥ ب) رأوا الفرنج عايدة اشتغلوا بهم وقتلوا منهم ومن تبعهم من المصرية الوفا وضايقوهم وأوسعوهم حتوفا وحصل سبعون فارسا من فرسانهم(٩) فى الاسار وقيدوا فى خرايم الذل والاقتسار ولما تمت لصلاح الدين النصرة اقام وجمع الفل وجاء عمه أسد الدين وساروا بمن معهم الى الاسكندرية ودخلوها ووجدوا مساعدة أهلها وحلوها ثم قال أسد الدين : انا لا يمكننى ان احصر نفسى وجماعتى فى البلد فاخذ العسكر وسار الى بلاد الصعيد واستولى عليها وجبى خراجها وصام بها واقام الى انقضاء العيد ، واقام صلاح الدين بالاسكندرية متحصنا بها .

واما شاور والفرنج فما كانت لمن سلم منهم قوة ولا نهضة وراء القوم مرجوة فعادوا الى القاهرة وصمموا على قصد الاسكندرية فحاصروا صلاح

---

(٧) قارن الروضتين (٢) ١ — ٢ — ٣٣٧ .
(٨) فى الأصل — غير منقوطة .
(٩) فى الأصل غير واضحة وارجح ذلك وهو ما يقتضيه السياق .

الدين ودام الحصار شهورا فما زاد المحصور على الحاصر الا ظهورا وبلغ الحصار اربعة شهور وقوى أسد الدين بقوص واستنهض لقصد القوم العموم والخصوص فسمح الفرنج ذلك فرجعوا عن الحصار للخوف والاستشعار مما هــو عليه من الاستظهار . وكان شاور قد استمال جماعة من التركمان الذين كانوا معه بالدينار . فلما راسلوه فى المهادنة أجاب الى القرار وطلب منهم عوض ما غرمه فبذلوا له خمسين الف دينار ورجــع صــلاح الدين من الاسكندرية فتقفلوا الى دمشق ودخــلوها بكرة يوم الاثنين ثامن عشر ذى القعدة وعادوا الى عــادة السعادة من الخــدمة النورية والحسنى والزيادة .

قال : ولمــا دخل أسد الدين الى دمشق عــرف خبرى فحضرت عنده للسلام وتلقانى بالاكرام والاحترام وكان يجلس كل ليلة للافاضل وأكثر حديثه معى فى تقريظ عمى العزيز وتأبينه ووصلنى بمعرفته ومعروفه وخصنى من عموم بره بصنوفه فخدمته بهذه القصيدة ليلة الجمعة السابع والعشرين من ذى القعدة سنة اثنتين وستين .

بلغــت بالجــد مــالا يبلــغ البشر	ونلت ما عجــزت عن نيله القــدر
اســكندر ذكروا اخــبار حكمتــه	ونحن فيك رأينا كل ما ذكروا
ورســتم خــبرونا عــن شجاعتــه	وصــار فيك عيانا ذلك الخــبر
يستعظمون الذى ادركتــه عجبــا	وذاك فى جنــب ما ترجــوه محتقر

قال : واتصلت بينى وبين صــلاح الدين مودة ولم يزل يستهدينى نظمى ونثرى وأول ما خدمته بهذه الكلمة قلت ومن سردها :

نار قــلبى لضــيف طيــفك تبــدو	كل ليــل فيهتــدى ويــزور(١٠)
كيف يصحــو من ســـكره مستهام	مزجت كأســه الحســان الحــور
أورثته سقامهــا الحــدق النــجل	واهــدت له النحــول الخصــور
ولــكم عــودة الى مصر بالنصر	على ذكرهــا تمــر العصــور
فاســتردوا حــق الامامة ممــن	خــان فيهــا(١١) فانه مســتعير

قال : وكان صــلاح الدين فى خــدمة نور الدين المساعد والمعين وبهذه المعرفة السالفة من الاســلاف خصصت منه أيام دولته بالاسعاد والاسعاف .

---

(١٠) أبو شامة يضيف ـــ كيف قلتم بمقلتيه فتور وأراها بلا فتور تجور قارن الروضتين (٢) ١ ٢ ـــ ٣٦٩ ـــ ٣٧٠ .

(١١) يقصد هنا ان تسترد حقوق الخلافة العباســية السنية ممن خان ويقصد الخلافة الفاطمية الشيعية فى القاهرة .

ذكر دخولى فى خدمة نور الدين

قال : عرفنى اليه القاضى كمال الدين الشهرزورى ورغبه فى استثباتى وقرر لديه من حساب آمالى مالم يكن فى حسابى . وقال : لا بأس بان تكتب اليه أبياتا ونحن نرجوا لك فى دولة ثباتا وفى(١) روضته نباتا فانشأت هذه القصيدة وعرضت من جانب القاضى وهى التى أولها :

لو حفظت يوم النوى عهودها ما مطلت بوصلكم وعودها
ماذا جنت قلوبنا حتى غدا فى النار من شوقكم خلودها
لم أنسها اذ نثرت دموعها فى خدها ما نظمت عقودها
اذ قربتنى للوداع نحوها فبان فى وصلها صدودها
كأسهم الرامى متى قربها يكون فى تقريبها بعيدها

(١٦٦ ا) / قال فرتبنى فى ديوانه منشيا وذلك لاستقبال سنة ثلاث وستين قال : ودخلت سنة ثلاث وستين ورحل الملك العادل نور الدين رحمه الله واقام بحمص اياما ، ورتب بها اسبابا واحكاما ، وخرجت معه وراه ورحلت معه الى حماه وأنزلنى أسد الدين شيركوه فى حماه وضرب لى خيمة بقربه وأنا أمضى كل يوم الى الديوان مبكرا ومما أقدم عليه فمن خدمة لا دربة لى بها مفكرا على ان أهل ديوانه ينظروننى شذرا ويعدون كثير ما عندى من الفضل نزرا وكنت اظن أن صناعة الكتابة لا سيما الانشاء صعب حتى قرأت كتب الامصار والمراسلات الواصلة من ساير الاقطار فوجدتها فى غاية من الركة وياليتها كانت بعبارات معسولة فتجرأت على الكتابة وغيرت تلك الأوضاع الوضيعة واخترعت أسلوبا ما عرفوه والفت مصنوعا ما الفوه ووفيت بالبلاغتين ، ونفيت الغش عن الصياغتين ، وكتبت الى الأعاجم وصارتنواب ديوانه يستغربون ويستهزئون ويهمزون وأرشدتهم من ضلالتهم فحكت نسج المداراه وما سلكت نهج المماراه حتى جرى بسكونى وسكوتى قلمى وعلا بمنار علمى علمى ورجعوا الى واجتمعوا على وانا على مر الجديدين اتجدد فى بناء النباهة واجلوا باسرارى اسارير وجه الوجاهة وزاد نور الدين دنوى نورا وملأت صبح دولته ووجه مملكته بما أمليه أسفارا وسفورا وتأكدت رغبته وتمهدت محبته وتكررت موهبته .

ولما اراد قصد حلب حل أسد الدين شيركوه قبله بأيام فوصى بى ابن اخيه صلاح الدين وترك الخيمة المضروبة لى بما فيها من جميع الآلات فاقمت مدة مقامه ارافقه ولا افارقه حتى مضى نو الدين الى حلب ونزل فى

---

(١) واو ساقطة فى الأصل يقتضيها هنا السياق .

قلعتها وشتى فى ذروتهـا ونزلت فى مدرسة ابن العجمى وكان الشتاء كالحا يابسا ووجه الدهـر عابسا وكنت اتردد الى صلاح الدين فى منزله واسترسل اليه فى تفاصيل أملى وجمله واستدعى(٢) منى أن أعمل له أبياتا فى الشوق يرصع بها كتبه الى من يشتاقه ويحبه فمنها ما نظمته له :

وحـرمة الـود الـذى بيننا ومالنـا من كـرم العهـد
ما نقضت عهـدى لكم جفـوة ولا احـالت حالـة ودى
ولا تغـيرت ويأبـى الهـوى ذلك فى قـرب وفى بعـد

عاد الحديث الى ما تجدد لنور الدين قال : واتفق ان صاحب منبج ابن حسان ارتكب العصيان فبعث اليه من حاصره وانتزعها منه ثم تمكن عنه وتوجه اليها لتهذيب احوالها وترتيب أعمالها وسار منها الى قلعة نجـم(٣) وعبر الفرات الى الرها وانتظم بأمره أمرها وكان بها قطب الدين ينال بن حسان عم غازى صاحب منبج فنقله اليها مقطعا وواليا واعاد ذلك الصفح بايالته حاليا واقام بها مدة فى قلعتها قال ومدحته بهذه الكلمة وتحجب لى فى عرضها عنده صلاح الدين قلت ومن هـذه الكلمة قوله :

ماصين عنك الصـين لـو حاولتهـا والمشرقـان فكيف منبج والرهـا
ماالملوك لدى ظهـورك رونـق فاذا بداشمس الضحى خفى السها(٤)

قال : وعدنا الى حلب فى شهر رجب وضربت خيمة نو رالدين فى رأس الميدان الأخضر ، وكان مولعا بضرب الكرة وربما دخل الظلام فلعب بها بالشموع ويركب صلاح الدين مذاكرا كل بكرة وهـو عارف بآدابهـا فى الخدمة وشروطها المعتبرة . واقطعه فى تلك السنة ضيعتين احداهما من

---

(٢) فى الأصل استرعى .

(٣) قلعة حصينة مطلة على الفرات على جبل تحتها ربض عامر وعندها جسر يعبر عليه وهى المعروفة بجسر منبج ، وتعبر على هذا الجسر القوافل من حران الى الشام ، معجم البلدان ٣ — ٨٦٠ ، ٤ — ١٦٥ .

(٤) قصيدة طويلة جاءت فى الروضتين تتضـمن هذين البيتين وتبدأ كالتـالى :

أدركت من الزمـان المنتهى وبلغت من نيل الأمانى المنتهى
الروضتين (٢) حـ ١ — ٢ ص ٣٨١ — ٣٨٢

ضياع كفر طاب(٥) مدكين والاخرى من ضياع حلب وزردنا(٦) وزعم أنه بلغ به المنتهى فى المنى .

ذكر أسد الدين والانعام عليه بحمص

قال : ولما كان ثغر حمص اخطر الثغور تعين أسد الدين لحمايته وحفظه ورعايته لتفرده بجده واجتهاده وبأسه وشجاعته فانعم نور الدين عليه بها فسار اليها وضبط امورها وكان / (١٦٦ ب) نور الدين قد جدد سورها وسأله فى السلو عن حب مصر وشرط على نفسه الحمل فى كل سنة وكان لما اراد أسد الدين الانفصال عن الديار المصرية وصلاح الدين عن الاسكندرية اجتمع الكامل بن شاور بشهاب الدين محمود خال صلاح الدين وقال له : أوصل الى نور الدين سلامى وعرفه شغفى بخدمته وغرامى وانا اتوسط فى جمع الكلمة ورد هذه القلوب المتبددة الى عقود القلوب المنتظمة ، واتكفل بما احمله من مالى على وجه الهدية اقصد بها سلامة البلاد والرعية فلما وصل شهاب الدين محمود أعاد على نور الدين مقاله وذكر سؤله وسؤاله وسأله مكاتبة الكامل والرضا بما التزم به التزام الكافى وكان دخوله اليها يوم الأربعاء ودخلناها يوم الخميس .

ذكر توجه فخر الدين شمس الدولة تورانشاه بن أيوب من مصر الى بلاد اليمن مستهل رجب سنة تسع وستين

قال كان فخر الدين أكبر اخوة صلاح الدين وقد شاع صيت مروته ، وكان لا يفى موجود مصر بجوده ورأى أن حظه من قوص منقوص ولم يرضه أرض تضيق عن سما سماحته فسمت همته وتصممت عزيمته ، وكان بمصر شاعر من اليمن يقال له عمارة(١) ولم يزل يمدحه ويكثر فيه

---

(٥) بلدة بين المعرة ومدينة حلب فى برية معطشة ليس لهم شرب الا ما يجمعونه من مياه الأمطار فى الصهاريج ... معجم البلدان ٤ — ٢٨٩

(٦) فيما يتعلق بهذم النقطة أنظر تاريخ ابن الهيجاء مخطوط برقم (٩٤٥ تاريخ) ورقة (١٥٥ ب) نسخة معهد المخطوطات العربية بالقاهرة. وقد وردت فى الأصل وزدنا ويبدو انها زردنا وهى بليدة من نواحى حلب الغربية — معجم البلدان ٢ — ٩٢٤ .

(١) عمارة اليمنى وهو الفقيه أبو محمد عمارة بن أبى الحسن على ابن زيدان بن أحمد الحكمى اليمنى الملقب بنجم الدين . وصل مصر فى خلافة الفائز فى ٥٥٠ هـ ووزارة الصالح بن رزيك وقد كان فقيها شافعيا . انظر ابن خلكان وفيات ١ — ٤٧٥ — ٤٧٧ انظر أيضا الروضتين (٢) — ٢ — ٥٧٢ وذكره أيضا ياقوت فى مواضع كثيرة فى معجمه .

المدح ويحثه على ملك اليمن ويرغبه فيه . ولما اشتد عزمه واحضر عسكره ورحل مستهل رجب ووصل السير بالسرى وفلا الفلا وجاز اجوازها وغار بالوصل الى مكة ثم خلف وراءه غور الأرض ونجدها وحجازها واستدل بسعادته ونحا البيد نحو زبيد(٢) فغلب عليها وقبض على عبد النبى الخارجى وسلمه الى نايبه الأمير سيف الدولة المبارك بن منقذ فرأى ان مصلحة الملك فى هلكه فأرداه وشمس الدولة غايب ، ومضى الى عدن وفيه ياسر وخرجوا من البلد الى الصحراء للقتال فغلبوا ونهبوا ثم ولى عدن الأمير عز الدين عثمان(٣) الزنجيلى(٤) واستنابه وفتح القلاع ومنح ملكا عظيما وفتح اقليما وافترع بكرا وخلف ذكرا .

قال : واما سيف الدولة ابو الميمون المبارك بن كامل بن منقذ المستناب فى زبيد فانه كان من الكرماء الكفاه وذوى الآراء والدهاة والحمس الكماة ولم يزل بشيمته متكرما وبحسن الذكر متوسما دابه آدابه والفضل شرعه والأفضال صنعه ومن شعره .

لما نزلت الدير قلت لصاحبى	قم فاخطب الصهباء من شماسه
فأتى وفى يمناه كأس خلتها	مقبوسة فى الليل من نبراسه
وكأن ما فى كأسه فى خده	وكأن ما فى خده من كاسه(٥)

قال : وفى هذه السنة كان تسيير نور الدين المهذب أبا الحسن على ابن عيسى بن النقاش الى الديوان العزيز للاعلام بمسير شمس الدولة الى اليمن لأخذها والبشارة بكسر الروم ثانية وفقدهم كلمان وكان قديما اسيرا عند نور الدين من نوبة حارم وفداه بخمسة وخمسين الف دينار وخمسمائة وخمسين ثوب اطلس وهو اسير(٦) معه اسراء فى الروم وذلك فى شعبان سنة تسع وستين .

قال : وكان المهذب النقاش كنعته مهذبا وبآرائه للدول مرتبا ، وهو من أهل بغداد وقد سافر الى الشام وشاع صيته بالفضل لا سيما فى علم

(٢) مدينة مشهورة باليمن بازائها ساحل غلافقه وساحل المندب . معجم البلدان ٢ ـ ٩١٥ ـ ٩١٦ .
(٣) فى الأصل : عثمن .
(٤) فى الأصل : ـ الزنجارى . هكذا كما ضبط تسمية المصادر العربية منها انظر الروضتين (٢) ١ ـ ٢ ٥٥١ وأيضا مفرج الكروف ﺟ ١ ٢٤٣ ، ﺣ ٢ ـ ١٠٣ ، ١٠٤ .
(٥) انظر الروضتين (٢) ١ ـ ٢ ٥٥٥
(٦) فى الأصل : سير .

الطب ومعرفته ونفق عليه(٧) نور الدين وأقطعه ضيعة وملكه أخرى ، وكل طبيب فى الشام يستحجج الآن بانه تلميذه ، وعرض جاهه وتقاصر عنه اشباهه ونجح سعيه لنور الدين فى مرضاته ونحح سؤله للفوز بمرضاته وصار له عنده قبول وخروج دخول ورأى متبول(٨) وسعى بالنجاح مكفول فندبه نور الدين فى هذه السنة للسفارة .

قال : وكلف نور الدين فى هذه السنة بافادة الالطاف والزيادة فى الاوقاف وتكثير الصدقات ، وتوفير النفقات وتعفير آثار الأيام واسقاط كل ما يدخل تحت شبه الحرام . وأمر تكتب مناشير لجميع البلاد باطلاق الطراف من الرسوم والتلاد فما أبقى سوى الجزية والخراج وما يحصل من قسمة الغلات على قوايم المنهاج . وحسبنا ما تصدق به على الفقراء فى تلك الأشهر فزاد على ثلاثين ألف دينار من الذهب الأحمر قال : وكان اذا أمر بصدقة غلة أو ذهب تقدم خازنه باحضار جماعة من أماثل البلد وعدوله من أهل كل محلة فيقول لكل واحد : كم تعرف فى جوارك من ذى اضاقة(٩) وصاحب فاقه / (١٦٧ ا) ومستحق ومقتر ومعيل وغيرهم فيقول : أعرف كذا وكذا فيسلم اليه صدقات أولئك الأعداد حتى يستقرىء بالسؤال جميع الحاضرين من الامجاد ثم يأتيه كل منهم ثبت بما فرقه .

قال : وكان برسم نفقته الخاص فى كل شهر من جزية أهل الذمة مبلغ الفى قرطيس صرفه فى كسوته ونفقته ومأكوله ومشروبه وحوائجه المهمة حتى اجرة خياطه وخيطه وابرته وجامكية طباخه وقدره ومغرفته من ذلك المقرر المعين النزر ثم يستفضل ما يتصدق به فى آخر الشهر ويفضه على المساكين وأهل الفقر . وأما ما يهدى له من الثياب والألطاف والبرود(١٠) والأفواف(١١) وهدايا الملوك من المناديل والسكاكين والمهاميز(١٢) والدبابيس وكل كثير وقليل ودقيق وجليل لا يتصرف فى شىء منه بل يعرض بنظره عنه

---

(٧) فى الأصل : على .

(٨) كذا . معقول بالأصل .

(٩) فى الأصل : اضافة .

(١٠) البرود . البرد من الثياب . البرد ثوب فيه خطوط . وخص بعضهم به الوشى . والجمع أبراد وأبرد وبرود . لسان العرب ٣ — ٨٧ .

(١١) الأفواف جمع فوف . يقال برد أفواف وحلة أفواف بالاضافة والفوف ثياب رقاق من ثياب اليمن موشاه . لسان العرب ٩ — ٢٧٣ — ٢٧٤ .

(١٢) المهاميز عصى واحدتها مهمزة . وهى عصا رأسها حديدية وتجمع أيضا مهامز ، لسان العرب ٥ — ٤٢٥ .

وأذا اجتمع يخرجه الى مجلس القاضي ليحصل أثمانها الموفورة ويصرفها فى عمارة المساجد المهجورة . وأمر باحصاء ما فى محال دمشق من مساجد هجرت وخربت فأناف على مائة مسجد وموضع يتبرك به ومشهد فأمر بعمارة ذلك كله وعين له وقوفا وأدنى له من جهات استثمرها قطوفا . قال : ولو اشتغلت باحصاء وقوفه وصدقاته فى كل بلد لطال الكتاب ولم ابلغ الى امد ومشاهدة ابنيته الدالة على خلوص نيته يغنى عن خبرها بالعيان ، ويكفى أسوار البلدان فضلا عن المدارس والربط . وواظب على عقد مجالس الوعاظ واكبرهم قطب الدين النيسابورى وهو شغوف ببركة انفاسه . ووفد من بغداد ابن الشيخ ابى النجيب الأكبر ونصب له فى كل أسبوع المنبر وشاقه وعظه وراقه لفظه ، وكذلك وفد اليه الفقيه شرف الدين عبد المؤمن بن شوروة ونال منه الحظوة وما أيمن تلك الأيام وأبرك تلك الشتوة .

قال : وفى يوم الاثنين رابع شهر رمضان ركب نور الدين على العادة وكنا نحن فى ايوانه وكل منا متفرغ لشغله آخذ فى شأنه فجاءنى من اخبرنى ان نور الدين نزل الى المدرسة التى تتولاها وبسط سجادته فى قبلتها لسنة الضحى(١٣) وصلاها فقمت فى الحال فلقيته فى الدهليز خارجا لما رآنى توقف فقلت له : ان الموضع قد تشرف اما تراه انه من ايام الزلزلة كيف تشعث فقال : نعيده الى العمارة ، ثم حملت اليه وجوه سكر وشيئا من ثياب وطيب وعنبر وكتبت معها .

عند سليمان على قدره	هدية للنمل مقبولة
لا تقصر الملوك عن نملة	عندك والرحمة مأمولة
رقى لمولانا وملكى له	وذمتى بالشكر مشغولة(١٤)

قال : ورأى محراب المدرسة غير مفصصة فنفذ لعمارتها فصوصا

---

(١٣) قال صلى الله عليه وسلم :
ثلاث لا ادعهن حتى اموت صوم ثلاثة أيام من كل شهر وصلاة الضحى ونوم على وتر . صحيح البخارى ٣ — ٢٣٢ — ٢٣٣ . وصلاة الضحى ركعتان وعن عقبة بن عامر قال : أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نصلى الضحى بسورتيها والشمس والضحى . وقتها من ارتفاع الشمس الى الاستواء . صحيح البخارى ٣ — ٢٣٢ .

(١٤) انظر الروضتين (٢) ١ — ٢ — ٥٥٧ حيث يضيف أبو شامة .

وكيف يقضى الحق ذومنة	ضعيفة بالعجز معلولة
وانما شيمة مولى الورى	ظاهرة بالخير مجبولة

مذهبة وذهبا ثم حم مقدور حمامه دون اتمامه . ووقعت الى الموصل فرأيته ليلة فى المنام يقول : ما يعود الى المدرسة معناه فقلت ان المدرسة قد استثنيت فيها من يتولاها فقال : الصلاة فلما انتبهت(١٥) عرفت انه أشار الى المحراب وانه الآن على هيئة(١٦) الخراب فكتبت الى الفقيه الذى كان الذهب عنده مودعا ان يشرع فى عمارته مسرعا فلما عدت الى دمشق فى الأيام الصلاحية دخلتها يوم فراغ الصانع من عمارة المحراب وفزت من الغنيمة بحسن الاياب .

ذكر تفويض شحنكية(١) دمشق
الى القاضى كمال الدين الشهرزورى رحمه الله

قال : ولما اسقط نور الدين الجهات المحظورة عزل الشحن وصرف عن الرعية بصرفهم المحن وقال للحاكم(٢) انظر أنت فى العوادى وما يجرى فيها من الدعاوى وميز بين المحاسن والمساوىء واحمل الأمور فيها على الشريعة فرتب على بابه حاجبه أبا نصر وأمره بما يصلح فى كل أمر وحمل للخزانة من عنده من الاطلس مائة ثوب واراد الخالص فلم يخل من شوب ، ولم يكن كمال المواريث الحشرية(٣) حاصل ولا لديوانه طائل فجعل نور الدين ثلث ما يحصل من الحشرى للقاضى كمال الدين فوضحت حواده(٤) وصحت مواده وكان من قبل لا يخلو الحشرى من وصية يثبت محضرها وقضية يحرر موردها ومصدرها ، ودين يدعى وجانب يرعى فلما صار ثلثه للقاضى ازال نوابه نوايبه وصرفوا عنه شايبه ووفروه وكثروه وأعذبوا عده / (١٦٧ أ) وأعزروه وما كان نور الدين يحاسب القاضى على الوقوف وقال : أنا قد قلدته أن يتصرف بالمعروف وما فضل من مصارفها وشروط واقفها يامره فى بناء الاسوار وحفظ الثغور وكانت دولته نافذة الأوامر منتظمة الأمور .

---

(١٥) فى الأصل انتهيت وكذا يجرى السياق .
(١٦) فى الأصل : هيأه .
(١) الشحنة وظيفة يقوم المكلف بها بالجمع أحيانا بين الحكم والقضاء ، وقد فسر لسان العرب الشحنة كالتالى — شحنة الكورة من فيهم من الكفاة لضبطها من أولياء السلطان انظر لسان العرب ٣ — ٢٣٤ .
(٢) القاضى كمال الدين .
(٣) الأموال والممتلكات التى يموت أصحابها دون وصية وليس لهم وارث تعود الى الدولة انظر قوانين الدواين٣٤٥ حيث يقول المواريث التى ترتد الى الديوان لعدم وجود وارث شرعى لها .
(٤) فى الأصل — حواد .

عاد حديث مصر وما دبره صـــلاح الدين قال : ولمـا رسل رسول(٥) نور الدين وهو الموفق خالد أطلعه على كل ما فيه ، أحصى له الطريف والتالد وقال : هـــؤلاء الاجناد فأعرضهم واثبت أخبارهم وتأمل اعتبار اقطاعاتهم ومقادير واجباتهم ولا يضبط مثل هـــذا الاقليم(٦) الا بالمال العظيم ، وشرع فى جمع مال يسيره ويحمله بجهد ويبذله وقال : الموارد مشفوهة والشدايد مكروهة وحصل لخالد ما لم يحصل فى خلده وجاء مطرف غناه أضـــعاف متلده .

قال : واجتمع جماعة من دعاة الدولة المصرية(٧) وتوازروا وتزاوروا واعتقدوا منية عادت عليهم بالعقبى‌منية ، وعينوا الخليفة والوزير ، واحكموا الراى والتدبير وكان عمارة اليمنى الشاعر فيهم عقيدهم ودعا للدعوة قريبهم وبعيدهم وكانوا قـــد ادخـــلوا عدة من انصار الدولة الناصرية فى جملتهم وكان الفقيه الواعظ زين الدين على بن نجا يناجيهم فيما زين لهم من اعمالهم ويداخلهم مطلعا على احوالهم فجـــاء واطلع صـــلاح الدين على فسادهم وطلب ما لابن كامل الداعى من العقار والدور وكل ماله من الموجود والمذخور فبذل له صـــلاح الدين كل ما طلبه وامره بمخالطتهم فصار أمرهم يقوى وحديث حادثهم يروى فأمر صـــلاح الدين باحضار مقدميهم واعتقالهم لاقامة السياسة فيهم . وصلب يوم السبت ثانى شهر رمضان جماعة منهم عمارة ورجل يعرف بالعويرس وآخر يعرف بعبد الصمد وآخرون وانقطع حديثهم وهلك جريرهم(٨) وبعيثهم . وكان منهم داعى الدعاة ابن عبد القوى وكان عارفا بخبايا القصر وكنوزه وخفايا السر ورموزه فهلك دون اخفائها وباد ولم يسمح بابدائها وبقيت تلك الخزائن مدفونة وتلك الدفاين مكنونة وقـــد دفن دافنها وخزن تحت الثرى خازنها الى ان يأذن الله فى الوصول اليها والاطلاع عليها .

قال وهذه لمع من شـعر عمارة فمنها قوله فى قصيدة :

ملك اذا قابلت بشر جبينه فارقته والبشر فـــوق جبينى
واذا لثمت يمينه وخـــرجت من ايوانه لثم الملـــوك يمينى

---

(٥) ساقطة فى الأصل ـــ الضبط من الرضتين (٢) ١ ـــ ٢ ـــ ٥٥١ .
(٦) فى الأصل ـــ الاقاليم .
(٧) المقصود هنا انصار الدولة الفاطمية .
(٨) نسبة الى جرير الشاعر ـــ هو أبو حرزة بن عطية بن الخطفى واسمه حذيفه من فحول شعراء الاسلام توفى فى ١١٠ هـ ـــ انظر ابن خلكان ـــ وفيات الأعيان جـ ١ ص ١٢٧ : ١٣٠

ومنها قوله فى شمس الدولة تورانشاه بن أيوب من قصيدة .

لى فى هوى الرشياء العذرى عذرا　　لم يبق لى مذ أقر الدمـــع أزكار(٩)
لى فى القدود وفى لثم الخدود وفى　　ضـــم النهـــود لبـــانات وأوطـــار
هذا اختيارى فوافق ان رضيت به　　أو لا فدعنى وما أهـــوى وأختـــار

اول كتاب فاضلى من صـــلاح الدين الى نور الدين : ادام الله تعالى سلطان المولى الملك العادل نور الدين وحرس من النعم ما خوله وانهضه بالأمر الذى حملــه وحمى من الكدر منهله وصان من الغير منزلته ومنزله ولا زالت الأيام مطاياه الى بلوغ الامانى والكتب تتفاتح اليه بمعانى التهانى وزمانه مسفرا عن نيل المراد فى أهل الالحاد واقامة حدود الله فيهم بالغرامات الشداد والسيوف الحداد .

قال : وامر نور الدين ولده الملك الصـــالح اسماعيل يوم عيد الفطر واحتفلنا لهذا الأمر وغلقت محال دمشق اياما وبنيت القصور طباقا وكل منهم رتب المغانى بأغانى وطيب الأوطان بتهادى التهانى وعاش معبد(١٠) والغريض(١١) وشاع النشيد والقريض واتفق الطهر فى ايام الورد وعصر طرده للبرد .

قال : ونظمت فى الهناء بالطهر والعيد قصيدة أولها .

عيدان فطر وطهر قـــريب ونصر　　كلاهما لك فيه حقا هناء واجـــر

---

(٩) أورد ابن الأثير هذه الأبيات كالتالى :

لى فى هوى الرشاء العذرى اعذار　　لم يبق لى مذ اقـــر الدمع انكار
لى فى القدود وفى لثم الخدود وفى　　ضـــم النهـــود لبانات وأوطـــار
هذا اختيارى فوافق ان رضيت له　　أولا فدعنى وما اهـــوى واختار

الرشا . هكذا وردت فى الأصل التصحيح ابن الأثير ح ١١ ص ٤٠١ .

(١٠) معبد اليقطينى . شدا بالمدينة واخذ الغناء من أهلها ومن جماعة أخرى من علية المغنين بالعراق . خـــدم هارون الرشيد انظـــر الاغانى ح ١٢ — ١٦٨ — ١٧٠ وقال أيضا معبد بن وهب وقيل ابن قطن مولى لبنى قطن وقيل ابن قطن الاغانى ج ١ — ١٩ — ٣٠

(١١) هو عبد الملك المكنى بأبى يزيد وأيضا بأبى مروان . والغريض لصقت به لأنه كان طرى الوجه نضر أغض الشـــباب حسن المنظر فلقب بذلك . والغريض الطرى من كل شيء .. وكان احذق اهل زمانه بمكة بالغناء . انظر الأغانى ٢ — ١٢٨ — ١٣٠ — انظر الخـــريدة — عراق ج ١ (٧٥) حاشية رقم ٨ .

قال : وفى يوم العيد يوم الأحـــد ركب نور الدين على الرسم المعتاد والقدر يقول له هذا آخر الأعياد ووقف فى الميدان الأخضر الشمالى لطعن الحلق ورمى القبق(١٢) وحوله كماة الكفاح ورماة الحدق والاكابر تحت ركابه وقوف والعساكر للمثول ببابه صفوف والسوابق مضمرة والبيارق مشهرة (واليوم يوم الزينة(١٣)) والنظارة أهل المدينة ، وكان قد ضرب خيمته فى الميدان الأخضر / (١٦٨ ا) وأمر بوضع المنبر وخطب له القاضى شمس الدين بن الفراش قاضى العسكر وعاد الى القلعة طالع البهجة بهيج الطلعة وانهب سماطه العام على رسم الأتراك واكابر الأملاك ثم حضرنا على خوانه الخاص وما وضح بشره وأوضوع نشره واضحك سنه وأبرك يمنه وفى يوم الاثنين ثانى أيام العيد بكر وركب وكان الفلك بتسييره جار والطود الثابت (يمر مر السحاب(١٤))فى وقار ودخل الميدان والعظماء يسايرونه والفهماء يحاورونه وفيهم همام الدين مودود وهـــو فى الاكابر الاكارم معدود وكان والى حلب فقال لنور الدين فى كلامه عظة لمن يغتر بأيامه : ترى نكون ههنا فى مثل هـــذا اليوم من العام القابل فقال نور الدين مامعناه قل هل نكون بعد شهر فان السنة بعيدة فجـــرى على منطقهما ما جـــرى به القـــدر الساكت فان نور الدين لم يصل الى الشهر وهمام الدين لم يصل الى العام .
ثم شرع نور الدين فى اللعب بالاكرة مع خواصه فاعترضه فى حاله أمير آخر برتقش وقال له : باش فأحدث له الغيظ والاستيحاش واغتاظ على خلاف مذهبه الكريم وخلقه الحليم وزجـــره ونهره وساق ودخل القلعة ونزل واحتجب واعتزل ولا شك ان المرض تمكن منه وهـــو واكب عن اظهار ما به ناكب فبقى أسبوعا فى منزله مشغولاً بنازله والناس لا هون بالختان فما انقضت تلك الافراح الا بالاتراح وما انقضى ما اتيح من السرور الا بظهور القضاء المتاح وما نهض الجنـــاح الا متهـــاض الجنـــاح وما صلح الملك بعده الا بالملك الصـــلاح .

---

(١٢) فى الأصل .. الطبق والضبط من الروضتين(٢) ١ — ٢ — ٥٧٩
(١٣)سورة طه اية رقم ٥٩
(١٤) سورة النمل اية رقم ٨٨

ذكر وفاة الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى بن آقسنقر رحمه الله بقلعة دمشق

قال : واتصل مرض نور الدين واشار عليه الأطباء بالفصد فامتنع ، وكان مهيبا فما روجع وانتقل يوم الأربعاء حادى عشر من شوال من مرتع الفناء الى مرتع البقاء ولقد كان من أولياء الله المؤمنين وعباده الصالحين(١) وكانت له صفة فى الدار التى على النهر الداخل الى القلعة من الشمال وكان جلوسه عليها فى جميع الاحوال فلما جاءت سنة الزلزلة بنى بازاء تلك الصفة بيتا من الأخشاب فهو يبيت فيه ويصبح ويخلو بعبادته ولا يبرح فدفن فى ذلك البيت الذى اتخذه حمى من الحمام واذن بناؤه لبانيه بالانهدام(٢) . واخرجوا يوم وفاته الملك الصالح وهو مجزوز الذوايب مشقوق الجيب حاف حاسر وأجلسوه فى الايوان الشمالى على التخت والدست الباقى من عهد تاج الدولة تتش فوقف الناس يضطربون ويضطرمون ولما كفن ودفن حضر القاضى كمال الدين وشمس الدين محمد بن المقدم وجمال الدولة ريحان وهو أكبر الخدم والعدل ابو صالح بن العجمى أمين الأعمال والشيخ اسماعيل خازن بيت المال وتحالفوا على ان تكون آراؤهم واحدة وايديهم متساعدة وان ابن المقدم مقدم العسكر .

قال : وأنشأت فى ذلك اليوم كتابا عن الملك الصالح الى صلاح الدين ترجمته(٣) ولده اسماعيل بن محمود ومفتتحه(٤) اطال الله بقاء مجلس سيدنا الملك الناصر السيد الأجل وأدام سموه وعظم أجرنا وأجره فى والدنا السعيد الملك العادل . ومنه واجتمع أمراء الحضرة ومماليك الدولة وانشاء النعمة وأولياء الطاعة وارقاء الخدمة على البيعة المؤكدة والايمان المغلظة والمواثيق المستحكمة بعقائد متعاقدة على الصفاء وأعضاد متعاضدة

---

(١) يضيف أبو شامه .. وصارت الى جنات عدن اعدت للمتقين . الروضتين(٢) ١ — ٢ ٥٧٥ .

(٢) بعدها يضيف أبو شامه :

عجبت من الموت كيف اهتدى الى ملك فى سجايا ملك
وكيف سوى الفلك المستدير فى الأرض والأرض وسط الفلك

الروضتين ١ — ٢ — ٥٨١

(٣) يعنى بكلمة ترجمة هنا — التوقيع وامضاء الملك الصالح .

(٤) يقصد بهذا بداية الخطاب .

بالوفاء وحلف الأصاغر والأكابر والغايب والحاضر والبادى والحاضر واذعنت الرءوس (وعنت الوجوه(٥)) وسكنت النفوس وعمت بركات الوالد السعيد رحمه الله فى ثبات ملكه أوان زلزال طوده الشامخ وسكون الدهماء(٦) بعد حال تخلخل عزه الباذخ . ومنه وما ههنا ما يشغل السر غير شغل الفرنج خذلهم الله وقد عرف السيد ادام الله علوه ما يتعين عليه فى مثل هـــذا الخطب الملم واليوم المدلهم من كل ما يعرف من خصوص وفائه وخلوص ولائه وطيب المحتد وزكائه وكرم النجر وسنائه فما كان اعتماد مولانا السعيد الملك العادل رضى الله عنه الا عليه وسكونه اليه الا لمثل هـــذا الحادث الكارث فقد أدخره لكف أنياب النوايب وأعده لحسم أدواء المعضلات اللوازب وامله ليومه وغده ورجاء لنفسه وولده ومكنه قوة لعضده وايدا ليده .

قال : واتفق نزول الفرنج بعد وفاة نور الدين على الثغر وقصدهم بانياس ورجوا ان يتم لهم الأمر ثم ظهرت خيبتهم وبان اليأس وذلك ان شمس الدين بن المقدم خرج وراسل(٧) الفرنج وخوفهم بقصد صـــلاح الدين / (١٦٨ ب) بلادهم وانه قد عزم جهادهم وتوصلوا وتكلموا فى الهدنة وقطع مواد الحرب والفتنة وحصلوا بقطيعة استعجلوها عـــدة من أسارى الفرنج استطلقوها وتمت المصالحة وعقدت بعد المصافاة المصافحة .

قال : وانشأت فى ذلك كتابا الى صـــلاح الدين بما تم من المصالحة فى ثالث ذى الحجة فى الاعتذار عن ترك اعلامه بالحال ومنه . اتفق عند الصدمة الأولى من الحادثة الكارثة نزول الفرنج على بانياس فى أعداد من الخيل والرجل خارجة عن حـــد القياس على حين غفلة من أهلها وقلة من ذخيرتها وخيموا على حزنها وسهلها ولم يسع الوقت لمكاتبة المجلس العالى ثانية وظننت أن الأولى كافية ولاعنة عزايمة الى نجدتنا ثانية فأخبار الكفار ليست بخافية .

كتاب بالانشاء الفاضلى عن الملك الناصر تعزية للملك الصالح بوفاة والده رحمه الله أوله :

---

(٥) (وعنت الوجوه للحى القيوم وقد خاب من حمل ظلما) سورة طه — آية رقم ١١١ .

(٦) فى الأصل غير واضحة وكذا يستقيم المعنى .

(٧) في الأصل — واراسل .

« لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة »(٨) انزل الله الصبر وضاعف التأييد والنصر بالجناب العالى الملكى الصالحى وبيته فى محل الامتحان والاختيار وبصره بحجة التذكر والاستبصار وأخلصه بخالصة ذكرى الدار والهمة تدرس(٩) قوله (انما هذه الحياة الدنيا متاع وأن الآخرة هى دار القرار(١٠)) وهناه بالملكة التى اقتعد ذروتها وعلا محلها واحتلى عقيلتها وكان كفوها وبعلها وأورثه سريره وسريرته وكان أحق بها وأهلها ان تعاطى الخادم الابانة عما دهمه من الم الفجيعة الفظيعة والمصيبة التى رمت القلوب بالسهام المصيبة احتاج الى خاطر حاضر ولب حاضر وبنان جار وبيان محار وهيهات فالقلوب بأسرها فى أسرها والعقول بجمعها معقولة من سمعها والصدور بالهموم مملوءة والوجوه بالوجوم ممنوه ليوم سرت الحادثة فيه مسرى الزلزال هز أعطاف كل بلد وطلع مطلع الكسوف بذ الأنوار عن كل عين ويد واستوى الخلق فيه فمن المعزى واعتدى الحق فيه بين الحزن المجتمع والشمل المجزى ياله ناعيا فجع الاسلام باسكندره فتوحا وجنودا وبحضرة ذكر مثله فى الطيب وخلودا (انا لله وانا اليه راجعون(١١)) قول من عز عزاؤه وصدع قوله وتفرقت أجزاؤه وصبر مغلوبا ويرجو أن يكون على الله جزاؤه ، ولو وقى من الحمام واق أو أخر أحد من العمر فوق المقسوم قدر فواق لوفى تلك الروح الكريمة ذلك الفعل الكريم ، وتلك اليد التى ما أظلم الخطب البهيم الا طلعت بيد كيد الكريم ولكنه القدر الذى يتجرا(١٢) على الجازع والصابر والمشرع الذى يؤلف بين الوارد والصادر والقضاء الذى يسوق الخلق الى الصعيد الواحد والمواعد الذى لا يجزى فيه والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والد حتى يرث الله الأرض ومن عليها ويعيد الخلق منها اليها ، واذا ودعنا الدارج رضوان الله عليه بلا حول ولا قوة الا بالله فانا نستقبل القايم بالحمد لله شكرا على بقاء من وهب وصبرا عن لقاء من ذهب ، فان قضى أجل فقد قضى أمل ، وان صدع القلوب وجل فقد جبرها جذل ، وان خر جبل فقد علا والحمد لله جبل ، وان ثلم جانب من المجد فقد سلم جانب ، وان افل طالع من سماء المجد فقد طلع

---

(٨) سورة الاحزاب آية رقم ٢١

(٩) فى الأصل — تدس

(١٠) سورة غافر آية رقم ٣٩ .

(١١) سورة البقرة .. آية رقم ١٥٦ .

(١٢) فى الأصل غير منقوطة .

غارب ، وان فارقنا العز عقدا فقد وهن منه العظم فقد استأنفناه عقد قد راق منه النظم ، وان استقل سرير الفنا بمودعه راحلا فقد استقبل بمودعه نازلا لاجرم انه سد ثلم الرزية(١٣) واطلع التهنية آخذه باعناق التعزية يلتقى اللفظان فيصطرعان ويحل الضدان فى القلب وعجبا لهما فى محل واحد كيف يجتمعان حتى اذا تؤمل ثواب الله الذى قدم عليه القادم وسلطان الله الذى قدم اليه القايم زادت السلوة ورجحت واحتجبت الأيام به ونجحت وكادت العيون تسترجع ماءها الذى سمحت والقلوب تنسخ آية السلو التى قال قايل الا انها نسخت وهذه الخدمة نايبه عنه فى العزاء بهذه النايبه وفى الهناء بالموهبة الثانية وللدولة من الخادم يدان فان انقبضت فعلى قايم سيف نصرها وان انبسطت فبالعطاء الذى به قيام أمرها ، وعينان عين تكلؤها على البعاد وعين لولا استزادة طيف مفقودها ما صافحت يد الرقاد .

ومنه أصدرت هذه الخدمة يوم الجمعة التى اقيمت فيه الخطبة بالاسم الكريم وصرح فيه بذكره فى الموقف المعظم والجمع الذى لا لغو فيها ولا تأثيم(١٤) وأشبه يوم الخادم أمسه فى الخدمة ووفى ما لزمه من حقوق النعمة وجمع كلمة الاسلام عالما أن الجماعة رحمة والله تعالى يأخذ ملك المولى الملك الصالح ويصلح به / (١٦٩ ا) وعلى يديه ويؤكد عهود العلماء الراهنة لديه ويجعل للاسلام باقية واقيه عليه ، ويوفق الخادم لما ينويه من توثيق سلطانه وتشييده ومضاعفة ملكه ومزيده وييسر منال كل أمل صالح وتقريب بعيده .

قال : ولما وصل صلاح الدين ما كتب اليه من الكتب الصالحية لم يعجبه ما جرى مع الفرنج من المهاداة والمهادنة وتأثر قلبه بما آثرته قلوبهم وكيف اندملت ندوبهم فكتب الى جماعة(١٤) من الاعيان بالشام كتبا دالة على التوبيخ والملام .

قال : ولما توفى نور الدين رحمه الله اختل أمرى واعتل سرى وفاض دمعى وغاض بحرى وغلب حسادى وبلغ مرادهم أضدادى . وكان

---

(١٣) فى الأصل المرزية وكذا يتطلب السياق .
(١٤) سورة الطور ٢٣ . يتنازعون فيها كأسا لا لغو فيها ولا تاثيم .
(١٥) اضافة يتطلبها السياق .

الملك الصالح صغيرا فصار العــدل ابن العجمى وزيرا وتصرف المخالفون فى الخزانة والدولة كما أرادوا وولوا وصرفوا ونقصــوا وزادوا واقتصروا بى على الكتابة محروم الدعــوة من الاجابة فمشيت أمرهم على عرج وتجلدت على كربهم منتظر فرج وفى عزمى العــود الى العراق وشاقنى اليه لاعج الأشواق ومما نظمته فى تلك الأيام قبل الخروج من دمشق فى العشرين من ذى الحجة فى الشوق والحنين ومرثية نور الدين :

ترى يجتمع الشمل ترى يتفق الوصل	ترى العيش الذى مر مريرا بعدهم يحلو
ترى من شاغل الهم فؤادى المبتلى يخلو	بغيرى شغلوا عنى وعندى بهم شغل
وكانوا لا يملون غمــا بالهم ملــوا	وراموا سلوة المغرم والمغرم لا يسلو
ترى يرجع من طيب زمانى ذلك الفضل	أخلائى ببغداد وهل لى غيركم خل(١٦)
هبوا ان الفيه منكم فبالأرواح ما تملوا	اعيذونى من الهجــر فبهجرانكم قتل
لفقـــد الملـــك العـــادل	يبكـــى الملـــك والعـــدل
وقـــد اظلمـــت الآفـــاق	لا شـــمس ولا ظـــل
فايـــن الكـــرم والعـــدل	وايـــن النـــافل الجـــزل(١٧)

قال : وكانوا لضعف وثوق بعضهم ببعض يتبعون ما ابرموه امس فى يومهم بنقض ولهم كل يوم قسم جــديد على قسم حدوده ويمين يمين الحالف بها لا محــالة بما شرطوه فيهــا من المقال واكدوه وكم عقدوا ما حلوه وحلوا ما عقدوه .

قال : وكان الأمير كمشتكيين النايب قد سمع بمرض نور الدين فاخفاه واستأذن فى الوصول الى الشام فأذن له سيف الدين غازى وخــرج وسار مرحلتين وسمع النعى فأغذ(١٨) السير ونجا بماله وندم صاحب الموصل على الرضا بترحاله وكان عنده بوفاة عمه بشاره وظهرت على صفحــاته منها اماره فنودى فى الموصل يوم ورود الخبر بالفسحة فى الشرب جهارا وزال العرف وعاد النكر وأنشد قول ابن هانىء :

---

(١٦) فى الأصل .. أخل

(١٧) قصيدة طويلة ذكرها أبو شــامة وتتضمن هــذه الابيات . الروضتين(٢) ١ — ٢ — ٥٨٨ .

(١٨) الاغذاذ فى السير هــو الاسراع فيه . انظر لسان العرب ٣ — ٥٠١ .

فـــــلا تســـــقنى سـرا   فقـــد أمـــكن الجهــــــــر

وقيل انه اخذ المنادى على يده دفا وعليه قدح وزمر وزعم انه خرج بها أمر فـــلا حرج على من يغنى ويشرب ويسكر ويطرب وعادت الضرائب والمكوس .

واما كمشتكين فانه وصل الى حلب واجتمع هناك بالأمير شمس الدين على واخيه(١٩) مجد الدين ابى بكر وهـــو رضيع نور الدين وقد تربى معه مفوض اليه جميع مقاصده وحكمه فى ملكه وكانت حصونه به محصنة ومعاقد معاقله بشره مبرمة وكان يسكن معه فى قلعة حلب ، وشيزر مع أخيه شمس الدين على ، وقلعة جعبر(٢٠) وتل باشر مع ســـابق الدين عثمـــان(٢١) ، وحارم(٢٢) مع بدر الدين حسن وعين تاب(٢٣) وعزاز نوابه فيها وهو يصونها ويحميها ، وهم أعيان الدولة وأعضـادها وأبدال أرضـها وأوتادها فلما توفى نور الدين رحمه الله لم يشكوا فى أنهم يكفلون بولده فأقـــام شمس الدين على وهو أكبرهم وأنبههم وأجودهم وأوجههم ودخل قلعة حلب وســـكنها وعرف ما جـــرى بدمشق من الاجتماع واتفاق ذوى الأطماع فكاتبهم وأمرهم بالوصول اليه فى خدمة الملك الصالح ونفذ ثم استقر الأمر المحوط واستحكمت الأسباب والشروط وحمل المـــال وحسنت الأحـــوال واستمر الأمر وسكن الدهر الى أن قصـــد الفرنج تلك الديار وسيأتى شرح ذلك فى موضعه ان شاء(٢٤) الله تعالى .

---

(١٩) فى الاصـــل : اخوه .

(٢٠) تقع على الفرات بين بالس والرقة . كانت تسمى قديما دوسر ، قيل سميت قلعة جعبر لان صاحبها كان يسمى جعبر بن مالك ملكها نور الدين فى ٥٦٣ هـ معجم البلدان ٢ ـــ ٨٤ ـــ ٨٥ . قـــارن حاشـــية رقم ٤ فى الروضتين(٢) ١ ـــ ١ ـــ ٢٩ .

(٢١) فى الأصل عثمن .

(٢٢) حارم حصن وكورة من أعمال حلب تجاه انطاكية ، انظر معجم البلدان ٢ ـــ ١٨٤ .

(٢٣) قلعة حصينة ورستاق بين حلب وانطاكية وكانت تعرف بدلوك معجم البلدان ٣ ـــ ٧٥٩ .

(٢٤) فى الأصل انشاء .

ذكر تيسير فتح قلعة جعبر

قال : كان صاحبها شهاب الدين مالك(١) بن على بن مالك من آل عقيل من بنى المسيب نازلا منها فى مناط الكوكب سامى المرقى / (١٦٩ ب) والمرقب وهى التى قتل زنكى بن اقسنقر(٢) وهو على حصارها وتحقق عند الناس ان القدر من انصارها . فاغتر برقدات عيون الليالى عنه ونزل فيها مسترسلا وقصد أن يتصيد فتقنصه بنو كلب وتقربوا به الى نور الدين وذلك فى رجب سنة ثلاث وستين فلم يزل عنده بحلب محبوسا وبعين حفظه محروسا فتارة يرغبه وآونة يرهبه ، مرة يعده ودفعة يوعده . وسير فخر الدين بن مسعود الزعفرانى فحصرها ودام الحصار وابطأت فى استفتاحها الاقــدار ومضى مجد الدين أبو بكر أكبر أمراء نور الدين وهو رضيعه وصنيعه فلم ير له فى فتحها مجالا فلم يزل يتوسط مع صاحبها حتى اصحب بعد جماحه واشتط فيما اشترطه من اقتراحه وهو سروج(٣) بأموالهــا والملوحة(٤) وأدوم(٥) والباب(٦) بأموالها وعشرون ألف دينار فاذا تعجل له ذلك كله وحصل من اليمين على استظهار سلم القلعة عن اختيار منه وايثار فأخــذ جميع ما شرط وسلم القلعة فى صورة مكره لا فى صورة مختار .

قال : ودخلت سنة أربع وستين وخمسمائه وتسلم مجد الدين قلعة جعبر وصعد اليها يوم السبت منتصف المحرم ووصل كتابه الى حلب فسار نور الدين وانا فى خــدمته وطلع الى القلعة يوم الخميس العشرين من المحرم فأنشدته هــذه القصيدة قلت ومنها ·

اسلم لبكــر الفتوح مفترحــــا ودم للمــــك البــــلاد منتزعـــا

---

(١) انظر ابن الأثير — الكامل ١١ — ٢٢٠ وما بعدها .
(٢) فى الأصل — قسنقر .
(٣) بلدة قريبة من حران من ديار مضر معجم البلدان ٣ — ٨٥ .
(٤) الملوحة بالفتح ثم تشديد اللام وضمها وحاء مهملة . قرية كبيرة من قرى حلب معجم البلدان حـ ٤ — ٦٣٨ .
(٥) يقرب العمق ويظن انه جبل . معجم البلدان ١ — ١٦٩ .
(٦) يعرف بباب بزاغة بليدة فى طرف وادى بطنان من أعمــال حلب بينها وبين منبج نحو ميلين والى حلب عشرة أميال وهى ذات أسـواق . معجم البلدان حـ ١ ص ٤٣٧ .

كان مقيما منها على الفلك الأعلى شــــهاباً بنـــوره صـــدعا
لكنمــــا الشــــهب ما تنير اذا لاح عـــمود الصباح فانسطعا
يدفعها طايعـــا اليك وكـــم عنهـــا أبا بجهـــده دفعـــا(٧)

ذكر مسير الفرنج الى مصر

قال : كانت الفرنج فى النوبتين اللتين استعان بهم شاور على أسد الدين قـــد شاهدوا الديار المصرية واطلعوا على العورات وكشفوا المستورات وطمعوا فى البلاد وتجمعوا لها بالاحتشاد وتوجهوا اليها سايرين وشايعتهم على قصدهم من أعيان مصر جماعة ما كانت للمصرين عليهم طاعة وشاوروا الفرنج على شاور لأنهم أعداؤه وقد أعياهم(١) دواه وهم ابن الخياط وابن قرجلة وامثالهم وتوجهوا من عسقلان فى النصف من المحرم ووصلوا الى بلبيس أول يوم من صفر واستولوا على أهلها قتلا وأسرا وأقاموا بها خمسة أيام ثم أناخوا على القاهرة فى عاشر صفر وأحرق شاور مصر فى اليـــوم التاسع منه وخاف عليها من الفرنج وبقيت النار تعمل فيها الى خامس شهر ربيع الآخر وكان غرضه أن يأمن عليها من العدو الكافر (٢) ثم ضاق الحصار وعرف شاور أنه يضعف عن الحماية وأن مبدأ الحفظ لا يصل الى الغاية فشرع فى تمحل الحيـــل فأرسل الى ملك الفرنج يبذل له المودة وقال أمهلنى حتى أجمع لك الدنانير وأطمعه فى ألف ألف دينار معجـــلة ومنجمة ثم قال له : ترحل عنا وتوسع الخناق وتظهر الارفاق وعجل له مائه الف دينار حيلة وخداعا وواصل بكتبه الى نور الدين مستصرخا ومستنفرا وبما نال الاسلام من الكفر مخبرا وسير الكتب مسودة بمدادها كاسية لباس حدادهـــا وفى طيها ذوايت مجذوذة ظن أنها من شعور أهل القصر للاشعار بما عراهم من بليه الحصر وأرسلها تباعا وارادف بهـــا(٣) نجابين سراعا وعامل الفرنج بالمطال وبالارسال بعد الارسال حتى أتى الغوث ولمـــا سمع أســـد الدين بخبر الفرنج ساق من حمص فى ليلة واحـــدة الى حلب وقال لنور الدين ان الفرنج قـــد استحكم فى البلاد المصرية طمعهم ، وليس سواك فى الوجود

---

(٧) انظر الروضتين (٢) ١ — ٢ ٣٨٧ — ٣٨٨ .
(١) فى الأصل — اعداهم .
(٢) فى الأصل : والكفار ، والواو زائدة .
(٣) فى الأصل : بين .

من يزحمهم(٤) ومتى تجمع العسكر وكيف تدفعهم فقال له : ان خزانتى لك فخذ منها ما تريد وأطلق له فى العاجل مائتى ألف دينـار وأمر خازنه ولى الدين اسماعيل بأن يوصل اليه كثير ما يلتمسه والقليل . فمضى نور الدين لتسلم قلعة جعبر ومضى أسد الدين وحشد التركمان ولما عاد استقل نور الدين الى دمشق وقدم صلاح الدين اليها السبق وكان وصوله اليها بكرة الأحد التاسع والعشرين من صفر وخرجنا الى الفوار وأسد الدين هناك فى العسكر الجرار وأطلق لكل فارس عشرين دينارا(٥) وعرضنا أكثر من خمسة آلاف / (١٧٠ ا) من الرجال الأبطال وأضاف اليهم نور الدين ألف فارس(٦) من أمراء مماليكه عز الدين جرديك وغرس الدين(٧) قلج ومن أمراء خواصه عين الدولة ابن كوخات وينال بن حسان ومن(٨) شذعنى ذكرهم واجتمع فى يوم كتاب الديوان والبيوت والأمراء وركبت العساكر فى تلك الصحـراء فى عددهم الموفورة وألويتهم المنشورة فعرضناهم فى ساعة واحدة بأقلام متعددة ورحلوا على قصـد مصر فى نصف شهر ربيع الأول وخيم نور الدين فيمن أقام معه برأس المـاء نازلا بمنزلة الفقيع(٩) على تلها مقيما الى أن يأذن الله فى تلك العقدة بحلها فوصل المبشر برحيل الفرنج من القاهرة عند وصـول خبر وصول العسكر فسيرنا(١٠) كتب البشاير بالفتح والظفر .

ذكر ما اعتمده أسد الدين عند وصوله الى مصر وكان وصوله اليها فى سابع عشر ربيع الآخر

قال : ولمـا سمع الفرنج نهوض عسكر الاسـلام اجفلوا اجفال النعام

---

(٤) فى الأصل يزحهم .

(٥) انظر

H. A. R. Gibb; The Armies of Saladin, Studies on Islamic Civilization, pp. 47 : 90.

(٦) فاء زائدة فى الأصل .

(٧) انظر النوادر ص ٥٣ — حاشـية رقم ٤ . وقد ورد فى هـذه الصفحة اسم غرس الدين وفى الحاشية ورد عز الدين .

(٨) فى الأصل — وكما .

(٩) فى الأصل : الفصيح

(١٠) فى الأصل : فسرنا وكذا يستقيم الكلام .

ورحل ملكهم الى بلبيس ثم عاد الى الساحل ودخل أسـد الدين فى التاسع(١) منه الى الايوان وخلع عليه وفى العاشر منه نزل أهل مصر الى مصر وسكنوها وتودد شـاور الى أسـد الدين وتردد وتجـدد بينهما من الوداد ما تأكد فقال صلاح الدين هـذا أمر يطول ومسألة(٢) فرضها يعول ومعنا هذا العسكر الثقيل ولا استيلاء مع استيلاء شاور ولا سـيما اذا راوغ وغارر(٣) فأنفذ(٤) أسـد الدين الفقيه عيسى(٥) الى شاور وقال : أخشى عليك ممن معى من النـاس فلم يكترث بمقاله وركب على سبيل انبساطه واسترساله فاعترضه صـلاح الدين فى الأمـراء النورية فبغته وشحته(٦) وقبضه وأثبته ووكل به فى خيمة ضربها له وحاول امهاله فجاء من القصر من يطلب برأسه ، جاء الرسـول بعد الرسول وأبوا أن يرجعوا الا بنجح السؤل فحم حمامه وحمل الى القصر هامه وذلك يوم السبت سابع عشر ربيع الآخر وتقلد أسد الدين الوزارة واستقل بأوزارها وعاد بالقاهرة الى دارها ونعت بالملك المنصور ولمـا جاء المبشر الى الشام كتبت اليه أهنيه بقصيدة أولهـا :

بالجـد أدركت ما أدركت لا اللعب ... كـم راحة جنيت من دوحـة التعب
افخـر فان ملـوك الأرض قاطبـة ... أفلاكهـا منك قد دارت على قطب
فتحت مصر وأرجـو أن يصـير بها ... ميسرا فتح بيت القدس عن كثب(٧)

---

(١) قارن الروضتين(٢) ١ — ٢ ٣٩٨ اذ يقول : ودخل أسد الدين فى الرابع من شهر ربيع الآخر ... ومن المرجح ان يكون التاريخ الذى ورد فى أبى شامة غير صحيح لأن مختصر البرق يقول : ودخل فى التاسع .. وخلع عليه فى العاشر ... وقد كانت وزارته شهرين وخمسة أيام تبدأ من ١٧ ربيع الآخر وتنتهى فى ٢٢ جمادى الآخرة وهذا يؤكد صحة التاريخ الوارد هنا

(٢) فى الاصـل : وسئله الضبط من الروضتين(٢) ١—٢—٣٩٨ .

(٣) الاصل : غاوز . والضبط من نفس المصدر نفس الصفحة .

(٤) نفذ . هكذا وردت فى الاصل والضـبط فى نفس المصدر نفس الصفحة .

(٥) هو أبو محمد عيسى بن محمد بن عيسى بن محمد بن أحمد ابن يوسف بن القاسـم بن عيسى بن محمد . ويقال له الهـكارى الملقب ضياء الدين . توفى فى ٦٣٦ هـ وقال ابن خلكان انه حضر الصلاة عليه . انظر ترجمة له فى ابن خلكان وفيات الأعيان ١ — ٥٠٢ — ٥٠٣ .

(٦) فى الأصل : وتحته .

(٧) قصيدة طويلة ذكرها أبو شامة . انظر الروضتين(٢) ١ — ٢ — ٤٠٣ — ٤٠٤ .

وكتبت الى صـــلاح الدين كلمة اولها :

لــو أن عـــذرى لــك يالاح لاح ما كنت عــن ســكرى ياصاح صاح
وما شــقائى وســقامى ســـوى لواحـظ الغيـد المراض الصـحاح

قال : وكتب لأسد الدين منشورا من القصر كتب العاضد فى طرته بخطه هذا عهد لا عهد لوزير بمثله وتقلد أمانة رآك فلان(٨) أهلا لحملها(٩) فخذ كتابك بقــوة واسحب ذيل الفخار بأن اعتزت خدمتك الى بنــوة النبــوة واتخذ للفوز سبيلا (ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها وقــد جعلتم الله عليكم كفيلا(١٠) .

ذكر وفاة أسد الدين
يوم الاحد الثانى والعشرين من جمادى الآخرة
وولاية صلاح الدين فى الخامس والعشرين منها

قال : ولـمـا تسنى أمر أســد الدين وعلا سنا سلطانه وملك بملكه زمام زمانه وقر غرار الكرى وغرار الظبى فى اجفانه فاجأه القــدر وجاءه الكدر فى صفائه وقضى القضاء لأمل بانقضائه فخمدت ناره وغاض ماؤه وتوفى يوم الأحد الثانى والعشرين من جمادى الآخرة .

ولـمـا فرغ العسكر بعد ثلاثة أيام من التعزية اختلفت آراؤهم واختلطت اهواؤهم فاجتمعت الامراء النورية على كلمة واحــدة وايد متساعدة وعقدوا لصلاح الدين وقالوا هــذا مقام عمه وألزموا صاحب القصر بتوليته ونادت السعادة بتلبيته ، وشرع فى ترتيب الملك وتربيته ، وفض ختوم الخزائن وفرق ما جمعه أسد الدين فى حياته ، ورأى أولياءه(١) تحت الويته وراياته وأحبوه ولم تزل محبته غالبة على مهـابته وهو يبالغ فى تقريبهم كأنهم ذوو قرابته وما زاده الملك الا ترفعا وما زاده(٢) الا تأصلا فى السماح وتفرعا . وكتب

---

(٨) يقصد الخليفة العاضد .
(٩) فى الأصل : لحمله .
(١٠) سورة النحل . آية رقم ٩١ .
(١) فى الأصل أوليائه .
(٢) فى الأصل هاء ناقصة .

له العاضد من القصر منشور الوزارة / (١٧٠ ب) ولقبه بالملك الناصر ومن الفاظ هـذا المنشور فى مخاطبة صـلاح الدين : فيومك واسطة فى المجد (بين يديك(٣)) فامسك وكل ناد من أندية الفخار لك أن تقول فيه ولغيرك أن يمسك فبشراك أن انعمه منكم موصولة بوالد وولد وأن شمس ملكه بكم كالشمس أقوى ما كانت فى بيت الأسد .

قال : وكان بالقصر استاذ(٤) له على حكم القصر استحواز وبدا من شرار شره دخان ومن رشاش كيده رذاذ ، وتآمر(٥) هو ومن شايعه على أن يكاتبوا الفرنج فكتبوا ملطفات بالاستدعاء وسيروها على سبيل الخفاء فأتفق ان رجـلا من التركمان عبر بالبيضاء(٦) فرأى نعلين جديدين مع انسان فأخذهما على سبيل الامتحان . وقال : لو أنهما للبسه لكان بهما أثر استعمال فأخذهما وجـاء بهما الى صـلاح الدين ووصف الحال فامر بنقبهما ووجد فى طيهما أحرفا مكتوبة(٧) مكتومة وتأملها فاذا هى للفرنج(٨) من القصر وكان مقصودهم أن صـلاح الدين اذا سمع بخروج الفرنج خـرج الى القتال ويخرجون وراءه لانتهائه ويقدم الفرنج على لقائه ويأخذون امامه والمصريون من ورائه فأخـذ الكتاب وقال : دلونى على كاتب هـذا فدلوه على يهودى من الرهط فلما احضروه ليسألوه ويعاقبوه قدم التلفظ بالشهادتين والدخول فى عصمة الاسلام ثم اعترف بما جناه وأن الآمر به مؤتمن الخـلافة فرأى اخفاء هذا السر واستشعر الخصى فما صار يخرج من القصر مخافة واذا خرج لم يبعد مسـافة وصـلاح الدين عليه مغضب وعنه مغض الى ان استرسل . وكان له قصر يقال له الخرقانية(٩) فخلا فيه يوما للذة له ولم يدر انه يوم ذلته فانهض اليه صـلاح الدين من اخـذ رأسه ونزع من حياته

(٣) ما بين الحاصرتين مطموس فى الأصل .

(٤) يقصد مؤتمن اخلافة .

(٥) فى الأصل .. تومر .

(٦) قرية قريبة من بلبيس — تعرف الآن بعزبة أبى حبيب ، محافظة الشرقية .

(٧) فى الأصل : حرف .

(٨) فى الأصل .. من الفرنج الضبط من الروضتين (٢) ١ — ٢ ٤٥١

(٩) من قرى محافظة القليوبية قريبة من القناطر الخيرية .

لباسه وذلك فى يوم الأربعاء العشرين(١٠) من ذى القعدة سنة أربع وستين .
ولما قتل ثار السودان وثاروا يوم الخميس يوم قتله وكانوا أكثر من خمسين ألف من كل أخضر ينظر من عينه الموت الأحمر ، وأغبر لا يجلوه الا اليوم الأغبر . وكانوا اذا قاموا على وزير قتلوه فحسبوا ان كل بيضاء(١٢) شحمه وان كل سوداء فحمة فأقبلوا ولضرامهم حجمه ولضرابهم فحمه فقال أصحابنا : هذا مبدأ الروع وريعانه وعنفوان العنف وعنوانه فهاجوا الى الهيجاء وكان المقدم الأمير أبو الهيجاء السمين فاتصلت الحرب بين القصرين وأحاطت العسكرية بهم من الجانبين ودام الشر يومين حتى أحس الاساحم بالحين وكلما لجأوا الى محلة أحرقوها عليهم وحووا ما حواليهم واحرجوا وأخرجوا الى الجيزة وأذلوا بالنفس عن منازلهم العزيزة وذلك يوم السبت الثامن والعشرين من الشهر فما خلص السودان بعدها من الشدة ولم يجدوا الى الخلاص سبيلا وأين ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا .
وسير نور الدين الأمير فخر الدين تورانشاه بن أيوب أخا صلاح الدين الى مصر وكان خروجه من دمشق عاشر شوال ووصوله اليها ثالث ذى القعدة ورأى ان يمده به ويشد به أزره ويصون مصر(١٣) بصفوة فخره ويستديم على الكفر والبدعة ظهوره وظهره قال : وكثرت كتب صلاح الدين الى أصدقائه بالشام فمنها كتاب وضمنه هذا البيت .

وانثر الدمع من قبل أبيضا   وقد حال مذ بنتم فأصبح ياقوتا

---

(١٠) ذكرها أبو شامة فى الخامس والعشرين من ذى القعدة . انظر الروضتين ١ — ٢ (٤٥١) . وذكرها ابن واصل فى يوم الأربعاء لخمس بقين من ذى القعدة سنة أربع وستين وخمسمائة — مفرج الكروب ١ — ١٧٥ — ١٧٦ وهو بذلك يوافق أبا شامة ويقول ابن الأثير : فى أوائل ذى القعدة قتل مؤتمن الخلافة . الكامل ١١—٢٢٨ . ويقول المقريزى : فى يوم الأربعاء لخمس بقين من ذى القعدة . الخطط ٣ — ص ٣ ويرجح أن هذا هو التاريخ الصحيح .

(١١) مما يذكر هنا أن الفاطميين استعملوا عناصر غير عربية فى الجيش الفاطمى . استعملوا السودان وغيرهم من الجند المرتزقة ، وقد كانوا دائما يمثلون عنصر شغب فى الداخل . وقد شجعت عمة الخليفة العاضد هذا العنصر وبلغت مكانتهم شأوا عظيما حتى أن أستاذ القصر كان واحدا منهم .

(١٢) سبيل : وردت فى الاصل . وبها لا يستقيم المعنى . انظر الروضتين (٢) ١ — ٢ ص ٤٥١ .

(١٣) فى الأصل — بمصر .

ومنها كتاب آخـر ضمنه هذا البيت

ما كنت بالمنظـور أقنــع منكــم   ولقــد رضــيت اليــوم بالسموع

قال : وفى هــذه السنة قتل العاضد بالقصر ابنى شاور وعمهما يوم الاثنين رابع جمادى الآخـر وذلك أنه لمـا قتل شاور عادوا بالقصر وكانما نزلوا فى القبر .

قال : ودخلت سنة خمس وستين ونزل الفرنج مستهل صـفر على دميــاط وأحاطوا بهــا بحرا بمراكبهم وبرا بكتائبهم فوقع اليأس والبؤس وقنطت النفوس فسبق اليها تقى الدين بن أخى السلطان وشهاب الدين خاله وتوافد اليها الأمراء فرجع اليها بعد الاشفاء الرجاء(١٤) . واقام صلاح الدين بالقاهرة فى دار ملكة ينهض اليها المدد بعد المـدد واتصل الحصــار واستشرى الشر لكن الاصحاب أولياء أولياء الله صبروا وصابروا وتزاوروا وامسوا على القتال واصبحوا وتاجـروا لله وربحوا وهــدوا بنيان الكفر المرصوص المرصوف وأهلكوا بالعشرات الألوف وأقاموا على دمياط أحــدا وخمسين يوما ودب فيهم الفناء / (١٧١ ا) وهب عليهم البلاء (وذهب عنهم الرجاء(١٥)) ورحلوا عنها بالذل الاكمل والصفار الاشمل .

ولما وصل الخبر الى الشام اغتم نور الدين وامر الأمير قطب الدين خسرو الهذبانى أن يسير بالعسكر ويخوض بهم العجاج الاكدر فوصل قبل رحيل الفرنج بأسبوع فوقع روعه من الكفر فى كل روع فان للنجــدة قايلة كانت أو كثيرة صيتا يورث شمل العدد تشتيتا وحبل ذى العتد تبتيتا .

قال : وكتبت عن الملك العادل نور الدين الى العاضد كتابا منه :
أطال الله بقاء فلان ولا زالت عوادى نعمه محدقة بأوليائه أحداق الاجفان بالاحداق ، وعوادى نقمه محــرقة لأعدائه احــراق النيران أهل الشقاق وما أعلت رايات النصر للدين وتليت آيات الذكر المبين الخادم يهنىء بمــا أسناه(١٦) الله من الظفر الذى أضحك سن الايمان وحصل أهل الشرك فى

---

(١٤) فى الأصل : الدماء .
(١٥) ما بين الحاصرتين فى الاصل غير واضح وكذا يستقيم السياق .
(١٦) فى الأصل : سناه .

شرك الخذلان وأعاد جيش الكفر واهى الجأش وبدا الضلالة بادية الارتعاش حتى عاد حزب الشيطان مخذولا وسيف الله فى رقاب اعدائه مسلولا وذلك ببركات الدولة التى سطع فخرها ولولا صدق اهتمامه باهل الاسلام وحفظ الاولياء الذين يذبون عن الدين ويحافظون على الذمام لكاد ركن الحق يميل لكيد الباطل فوفق الله فلانا وأيده بنصره وأجرى قضاه وقدره على وفق أمره ورد كيد العدو الكافر فى نحره .

قال : وفى هذه السنة كنت رسولا بخلاط(١٧) عن نور الدين وخرجت من دمشق ضحوة نهار الأربعاء تاسع عشر ذى الحجة ومتوليها حينئذ ظهير الدين سكمان المعروف بشاه أرمن ودخلت خلاط ثانى صفر وعدت على طريق ماردين(١٨) ومتوليها البى بن تمرتاش بن ايلغازى ابن ارتق المنعوت بنجم الدين وعدت الى دمشق فى ربيع الأول أول فصل الشتاء وعدت الى عادتى فى الانشاء وكانت سفرتى فى الرسالة ممزوجة لم يف بشكايتها شكرنا .

قال : وفى أول هذه السنة خرج نور الدين الى داريا(١٩) فأعاد عمارة جامعها وتبرك بضريح أبى سليمان الدارانى(٢٠) رحمة الله عليه وعمر مشهده وأعاد الى الحالة الحالية مسجده وشتا بدمشق . ولما دخل فصل النيروز استأذن الأمير نجم الدين أيوب فى قصد ولده والخروج من دمشق الى مصر بأهله وجماعته وسبده ولبده ، وسار ووصل الى مصر فى السابع والعشرين من رجب وقضى العاضد من حقه ما وجب ، وركب لاستقباله .

---

(١٧) خلاط بكسر أوله وهى قصبة ارمينيا الوسطى . انظر معجم البلدان ٢ — ٤٥٨—٤٥٩ .

(١٨) ماردين بكسر الراء والدال وهى قلعة مشهورة على قمة جبل الجزيرة مشرفة على دينسر ودارا ونصيبين . معجم البلدان ٤ — ٣٩٠ .

(١٩) من قرى دمشق بالغوطة . والنسبة اليها دارانى على غير قياس . انظر معجم البلدان ٢ — ٥٣٦ والروضتين (٢) ١ — ٢ — ٤٦٣ .

(٢٠) هو عبد الرحمن بن عطية الزاهد ويقال أصله من واسط . روى عن الربيع ابن صبيح وأهل العراق . توفى بداريا فى ٢٥٣ هـ وقبره معروف بها يزار . معجم البلدان ٢ — ٥٣٦ .

وقال ابن خلكان : هو أبو سليمان عبد الرحمن بن أحمد بن عطية الدارانى الزاهد . والدارانى نسبة الى داريا وهى قرية بغوطة دمشق والنسبة اليها على هذه الصورة من شواذ النسب . ابن خلكان وفيات الأعيان حـ ١ ص ٣٤٧ .

ولما عزم التوجه الى مصر شرع في تفريق أملاكه وتوفير ماله فيه شركة على اشراكه ، ولم يستصحب شيئا من موجوده وجعله نهبة جوده .

وكان نور الدين لما برز نجم الدين خرج الى راس الماء بعسكره وخيامه وارهف للجد في الجهاد حد اغرامه ثم اقام بعد توديعه والوفاء(٢١) بحق تشييعه الى ان اجتمعت عليه عساكره ثم توجهنا الى بلاد الكرك مستهل شعبان ونزلنا أياما بالبلقاء(٢٢) على عمان ، وكانت الشعاب معشبة والمراعى ممرعة ، ثم سرنا على طريق الوالة الى الكرك واقمنا عليها اربعة أيام وقاتلناها اشد قتال ونصبنا عليها منجنيقين ورجونا ان اقمنا أن نبلغ الغرض ونؤدى في فتحها المفترض لكن وصل الخبر بأن الفرنج قد اجتمعوا ووصلوا الى ماعين فقال نور الدين نرى ان نصرف أعنتنا اليهم وبالله نستعين فرحلنا ومعنا أمراء بنى ربيعة وقد استصحبوا من العرب المشيخة المطيعة ومقدما الفرنج هنفرى وفيليب بن الرقيق في مائتى(٢٣) رمح وألف فارس من التركبولية وراجل كثير من السرجندية فلما رأوا مثار عجاجنا ولوا مدبرين وقالوا : قد حصل مقصودنا من رحيلهم عن الحصن ولما عدنا وصلنا الى حوران واستقبلنا شهر رمضان فختمنا بعشترا(٢٤) وادينا فرض الصيام .

ذكر الزلزلة التى عمت بلاد الشام

قال : واصبحنا يوم الاثنين الثانى عشر من شوال وانا في خيمتى جالس فأحسست بالأرض تحتى تموج كالبحر اذا عصفت به الرياح الهوادج فما اروعها زلزلة وأصدعها آية من الله منزلة وتواصلت الأخبار من جميع بلاد الشام بما احدثته من الانهداد والانهدام وان معاقد معاقلها انحلت واختلت (والقت ما فيها وتخلت(١)) فرحل نور الدين من عشترا يوم الثلاثاء ووصل

---

(٢١) فى الاصل : الوفا .
(٢٢) كورة من أعمال دمشق بين الشام ووادى القرى قصبتها عمان . معجم البلدان ١ — ٧٢٨ .
(٢٣) فى الأصل : ماتى .
(٢٤) موضع بحوران من أعمال دمشق . معجم البلدان ٣ — ٦٧٩ .

(١) سورة الانشقاق : آية ٤ .

الى بعلبك يوم الأربعاء وسقنا وراءه ووصلنا يوم الخميس . وقد شرع نور الدين لما تهدم / (١٧١ ب) من بنيانها فى التأسيس وكانت قلعتها تملقت فأقام بنية تشييد أركانها ثم أتاه الخبر بما تم على حمص وحماه وبعرين وحلب لأن أمر الله لا سيما بحلب غلب وزع عمارتها وسلب السلب فتقدم بترتيب أمور العمارة ، وسلم الى الثقات مالا ووكل بالعمل صناعا ورجالا ثم سار الى حمص واظهر للم(٢) شعثها الحرص . واما حصن بعرين(٣) فقد كان بيد الأمير زين الدين عمر بن لاجين فلما وقع سببه واخذ الى مصر مذهبه فانه كان صهر صلاح الدين فطلبه . ورتب نور الدين رحمه الله الأمير الكبير عين الدولة بن كوخات فى خمسمائة فارس فانه كان من الفرنج على خطر فجعلهم من مجاورته على حذر . وكان الهم الكبير فى حلب لانهدام مبانيها وانهداد مغانيها فوصل نور الدين اليها وجد فى عمارتها وأقبل عليها ورد الى أحكم القواعد بنيانها وأما سور البلد فانه جدد منه المنهدم وكان بذلك مغرما فلم يستكثر المغرم واخذ له فى كل بلد مجلسا حتى يكون من الزلزلة بعون الله مصونا .

قال : من مكاتبة انشأتها الى المواقف المقدسة المستنجدية فى المعنى قد أحاط العلم الشريف أجله الله بهذه الحادثة التى ألمت بالشام من الزلزلة التى تداعت له الثغور بالائتلام والمعاقل والحصون بالانهداد والانهدام ولم يكن الا (عبرة لأولى الابصار(٤)) موعظة وآية من الله لعباده منذرة موقظة وقد عمت(٥) حتى عطلت كل حال وشغلت كل بال والحقت كل جديد ببال والحمد لله على كل حال وما سكنت النفوس من رعبها الا بما دهم الكفار من أمرها فانها وافقت يوم عيدهم وهم فى الكنائس فأصبحوا للردى فرايس (شاخصة ابصارهم ينظرون(٦)) (فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون(٧)) ولولا اشتغالهم بما عراهم حيث

---

(٢) فى الاصل : لكم .

(٣) بليد بين حمص والساحل هكذا تتلفظ به العامة وهذا خطأ وانما هو بارين . معجم البلدان ١ — ٦٧٢ .

(٤) سورة آل عمران آية رقم ١٣ .

(٥) فى الاصل : عميت .

(٦) سورة القلم آية رقم ٤٣ .

(٧) سورة النحل آية رقم ٢٦ .

انقلعت كل قلعة لهم من أساس بنيانها ورجف كل بلدة فى أيديهم بهلاك سكانها لم تؤمن فى نوبة هـذه النبوة معرتهم ولم تخش بعد هـذه المضرة الا مضرتهم وان بالثغور الاسلامية شـدة افتقار الى تحصينها واعادة ابنية حصونها قبل أن يستفحل الداء ويتفرغ لشـغلها الأعداء وما أولى المواقف المقدسة بايلاء الأيادى واسدائها واعانة من تكفل بسد ثغور الاسلام وصد أعدائها وما أحوج الخادم الى نظرة شـافية وعارفة لهذا المحـذور كافية ولا ينهض بعبء هذه النوبة الا بما يرفد به من المعونة وبما يشمله من بركات الأيام الزاهرة الميمونة(٨) .

ذكر توجه نور الدين
الى الموصل بعد وفاة أخيه قطب الدين(١)

قال : فوصل الخبر بوفاة قطب الدين مودود بن زنكى بالموصل فأشفق من أمرها المهمل أن الخادم المنعوت بفخر الدين عبد المسيح(٢) قد تعرض للحكم واقام أحـد اولاده وهو سيف الدين غازى مقام أبيه ليتحكم فى الموصل وفيه فقال نور الدين انا أولى بالبلاد والشفقة على الأولاد وسار حتى عبر الفرات عند قلعة جعبر واستصحب العسكر وادلج ليلا وسـار وأسرى واصبح على الرقة وفيها أمير يسمى كردك فتمنع فأخذ منه البلد عنوة بالسلم شبيهه واطاعه لـما عجز ولم يلق كريهة . قال ودخلت سنة ست وستين : يوم نزلنا على الرقة ونور الدين ساطع النور جامع الأمور مصمم العزم آخذ بالحزم جار من عدله واحسانه على الرسم قال : واستدعانى نور الدين ونحن بظاهر الرقة وقال : قد آنست بك وأمنت اليك وأنا غـير مختـار للفرقة لكن المهم الذى عـرض لا يبلغ فيـه غيرك الغرض فتمضى الى الديوان العزيز جـريدة وتؤدى عنى رسـالة سديدة سعيدة وتنهى انى قصدت بيتى وبيت والدى ومعى طريقى وتالدى فامضى وخـذ لى اذنا فى ذلك . وامر ناصر الدين محمد بن شيركوه أن يسير بى الى الرحبة فى رجال مامونى

---

(٨) يضيف أبو شامة قصيدة طويلة فى مدح نور الدين تبدأ بهذا البيت
هل لعانى الهوى من الأسر فادى ولسارى ليل الصبابة هادى
الروضتين (٢) ١ — ٢ — ص ٤٦٨ .

(١) حكم من ٥٤١ — ٥٦٥ هـ بالموصل .

(٢) وزير قطب الدين ، كان نصرانيا آذى علماء المسـلمين . حاول الاستبداد بالموصل لكن نور الدين قمع محاولته .

الصـــحبة وسرت منها على البرية غربى الفرات بخفـير من بنى خفاجة(٣) وعبرت على هيت(٤) ثم عرسنا بالانبار(٥) ورحلنا منها وجزنا على نهر شيلا(٦) وعقرقوف(٧) فلما وصلنا الى قرب بغداد سيرت غلامى ابراهيم ليخبر الديوان العزيز بالوصول وانتظرت ما جـرت به العادة فى تلقى الرســول فجاءوا وعبروا بى الى الديوان العـزيز وخصونى باسـباب / (١٧٢ أ) التمييز واجتممت بالوزير شرف الدين بن البلدى وكانت بينى وبينه صداقة صادقة فى ايام الوزير ابن هبيرة فانه كان نايبه بواسط وانا مشرفه ثم انتقل هو الى الديوان الشريف بها ناظرا(٨) ونبت عن الوزير فمن هناك تأكدت(٩) الصداقة فما صـدق كيف رآنى وبحبه وحباته حبانى وقرظنى عند امير المؤمنين وقال له بمثله لا نسمح بل يكرم ويخدم ويشرف ويمنح فاحتبسنى عنده شهرين يعدنى(١٠) من الامام بأجل منصبين من الانشاء والنيابة وشفع(١١) سؤلى فى حق مخدومى بالاجابة والاصابة فقلت له اذا قضيت حـق الرسالة عدت الى عدتك فى الحلية والحـالة فلما مرض المستنجد بالله ورأيت مبادىء وهنه تتجدد على مر الجديدين استأذنته فى العود فأذن وسير معى فى الرسالة

---

(٣) ذكر ياقوت بنى خفاجة فى حديثه عن رصافة الشام وقال : وفيها دير عجيب وعليها سور وليس عندها نهر ولا عـين جارية انما شربهم من صهاريج عندهم داخل الســور . ولبنى خفـاجة عليهم خفـارة يؤدونها صاغرين . معجم البلدان ٢ — ٧٨٥ ويبدو أن بنى خفاجة كانوا على دراية بمسالك هذه المنطقة لذلك يقول النص : وعبرنا بخفير من بنى خفاجة . هذا ويرجع أصل بنى خفاجة الى اليمن . معجم البلدان ٢ — ٩٦٨ .

(٤) بلدة على الفرات من نواحى بغداد فوق الانبار . معجم البلدان ٤ — ٩٩٧ .

(٥) مدينة على الفرات فى غربى بغداد . معجم البـلدان ١ — ٣٦٧ وما بعدها .

(٦) احدى ضواحى الكوفة فى ياقوت شـيلى نهر من أنهـار احـدى ضواحى الكوفة المعروفة بشيلى معجم البلدان ٣ — ٣٥٨ .

(٧) عترقوب كما وردت فى الأصل وردت فى معجم البـلدان عقرقوف وهى قرية من نواحى دجيل بينها وبين بغداد أربعة فراسخ مجعم البلدان ٣ — ٦٩٧ .

(٨) فى الاصل : ناضرا .

(٩) فى الاصل : تألدت .

(١٠) فى الاصل : غير منقوطة .

(١١) فى الاصل : غير منقوطة .

الفقيه مجد الدين اليزدى المدرس الحنفى وذلك فى العشر الأخير من شهر ربيع الأول فسلكنا الشهباء على النهج الاسهل وجينا الى سنجار ونور الدين على حصارها وهـدم اسوارها ولـما فتح البلد دخله وملك من ذخـره منتخبه ومنتحله ثم سلم البلد الى ابن أخيه عماد الدين زنكى بن مودود ولم يزل فيه لكونه خصه(١٢) مخصوصا بكل مقصود ومطلوب ثم رحل نحو الموصل وقصد بلد(١٣) واستوضح منها الجد ونزل(١٤) هناك فى دجلة على مخاضته فاستسهل من خوضها والعبور فيها ما ظن متصعبا . وجاء دليل تركمانى قدامنا وهـو يقطع دجلة تارة طـولا وتارة عرضا أمامنا ونحن وراءه كخيط واحد حتى عبرنا الى الجانب الشرقى برجالنا واثقالنا واقمنا بقية ذلك اليوم حتى تم عبور القوم ثم رحلنا فنزلنا على الموصل من شرقها وخيمنا على تل توبة(١٥) فاستعظم أهلها تلك النوبة فما خطر ببالهم اننا نغير بغير مراكب وأنا نأخذ عليهم ذلك الجانب فعرفوا أنهم محصورون مقهورون وانقطعت عنهم السبل من الشرق ، وتعذر عليهم الرقع لاتساع الخـرق ، وبسـط العطاء وكشف الغطاء وتكلم فى المصلحة والمصالحة الوسطاء ومد الجسر وقضى الأمر وأنعم نور الدين على أولاد أخيه ومثلوا بناديه واقر سيف الدين غازى على قاعـدة ابيه والبسه التشريف الذى وصل من أمـير المؤمنين المستضىء وأعاده الى البلد ثم دخل قلعة الموصـل من باب السرو واقام بها سبعة عشر يوما وحـدد مناشير أهل المناصب وتوقيعات ذوى المراتب فأمضى قضاء القاضى حجة الدين بن نجم الدين الشهرزورى على قاعدته ونظر فى أحـوال الموصل ومعاملاتها ووجوه اموالها وجباتها فالفى معظمها محظورا محـذورا فتقدم باسقاطهـا واطلاق قناطها وأمرنى فكتبت بذلك منشورا .

---

(١٢) فى الأصل : خسه .

(١٣) ربما قيل لها بلط بالطاء . اسمها بالفارسية شهر أباذ على نهر دجلة قريبة من الموصل : معجم البلدان ١ — ٧١٥ .

(١٤) فى الأصل : وذل .

(١٥) موضع مقابل مدينة الموصل فى شرقى دجلة متصل بنينوى معجم البلدان ١ — ٨٦٦ .

ذكر الشيخ عمر الملاء(١)

قال : كان بالموصل رجل من شيوخ الصالحين وائمة العارفين يعرف بعمر العلاء وكان العلماء بل الملوك والأمراء يزورونه فى زاويته وله كل سنة دعوة فى أيام مولد النبى صلى الله عليه آله وسلم يحضره فيهـا صاحب الموصل ويحضر الشعراء وينشدون فى ذلك المحفل فى مدح النبى صلى الله عليه وآله وسلم وكان يخرج لهم جوايزهم . وكان نور الدين من أخلص محبيه وأحب مخالصيه وكان يستشيره ويكاتبه ، وكان بالموصل خربة واسعة متوسطة للبلد وقالوا ما شرع فى عمارتها الا من ذهب عمره فأشار الشيخ عليه بابتياعها وبنائها جامعا تقام فيه الجمع والجماعات فانفق فيها اموالا جاوزت حـد الغزارة ووقف عليها ضيعة من ضياع الموصل . وكان الفقيه عماد الدين النوقانى الشافعى تلك السنة من الوافدين الى الشام وكان من اكابر علماء الاسـلام من اصحاب محمد بن يحيى ومعاصريه فسأله ان يكون مدرسا فى هـذا الجامع فقال : وكتبت له منشورا عند عودنا الى دمشق بذلك فى سنة سبع وستين . قال وحضر مجاهد الدين قايماز(٢) صاحب اربل فى الخـدمة النـورية بالموصـل وذلك فى مستهل جمادى الآخـرة وزخرت الموصل بأمواج هداياه الزاخرة . قال : وولى نور الدين سعد الدين كمشتكين بقلعتها نايبا وأمر فخـر الدين عبد المسيح بأن يكون له فى خدمته مصاحبا واقتطع عن صاحب الموصل حران ونصيبين والخابور والمجـدل(٣) وعاد الى سنجار واعاد عمارة اسواها . ونزلنا بحران فى خامس عشر (١٧٢ ب) / جمادى الآخـرة ثم رحلنا على قصـد حلب ووصلنا اليهـا فى خامس رجب قال ونظمت هـذه الأبيـات على مذهب لزوم ما لا يلزم .

الحمد لله فـزنا وللمطالـب حـزنا حزنا السرور ومات الحسود هما وحزنا
ان الاعـادى ذلوا بنصرنا وعـززنا وعاد سهلا من الأمر كل ما كان حزنا

قال : وفرض القضاء والحكم بنصيبين وسنجار الى الشيخ شرف الدين ابى سعد بن ابى عصرون فولى بها نوابه وحكم فيها أصحابه .

---

(١) انظر الروضتين (٢) ١ — ١ ص ٢٠ ، ٢١ ، ٢ ، ٤٨٠ وأيضـا الروضتين ١ــ٢ ص ٨٥ .

(٢) فى الأصل : ــ قايمان ــ انظر النوادر السلطانية ١٢٣ وردت ترجمة له فى ابن خلكان . وفيات الأعيان . حـ ١ ص ٥٣٩ .

(٣) اسم بلد طيب بالخابور معجم البلدان ٤ــ٤١٨ .

ذكر وفاة الامام المستنجد بالله وولاية الامام المستضىء أبى محمد الحسن ووصول رسله الينا

قال : ووصل الخبر بوفاة المستنجد بالله وجلوس الامام المستضىء بأمر الله وقد بويع له يوم السبت تاسع ربيع الآخر سنة ست وستين وكان الوزير أبو جعفر المعروف بابن البلدى ركب يوم وقوع الارجاف فى عدة معه وعدة من الأمراء فلما لم يصح الخبر تفرقوا الى منازلهم ورجع الوزير الى داره وقيل ان أمير المؤمنين خف ما به فأغلق أستاذ الدار باب العامة فأحس الوزير حينئذ بزوال السلامة وقرع سن الندامة وجاءه أحد الحجاب يعزيه وللحضور فى المشايعة(١) يستدعيه فمضى ومعه زعيم الدين أبو جعفر صاحب الخزن فلما دخل صرف به الى موضع كان فيه مصرعه وأمضه بالسيف من دمه تجرعه وشفع عماد الدين بن عضد الدين(٢) رئيس الرؤساء فى الزعيم فبقى على سننه القويم وتولى عضد الدين الوزارة واخرج جميع من فى الحبوس ومن جملتهم مخلص الدين بن الكيا الهراس(٣) فانه اعتقل من مبتدأ خلافة الامام المستنجد الى منتهاها وعاش بعدها حياة فى عطلة ما اشتهاها. وقيل قتل فى ذلك اليوم فى الحبس جماعة لم يؤثر الوزير ظهورهم ومنهم عز الدين محمد بن الوزير ابن هبيرة وغيره . وجاءنا رسل الخلافة ونحن بشرقى الموصل قصد تل توبة مبشرين بخلافة الامام المستضىء بأمر الله واتفق ذلك اليوم عبور دجلة واجتاب نور الدين تشريف الاحتباء وركب يوم النزول عن التل فى الأهبة السوداء واليد البيضاء وذلك بمرأى ومنظر من أهل الموصل الحدباء وامرنى باصدار خدمة الى الوزير يشكر الآلاء والامتثال للأوامر الشريفة باقامة الدعوة الهادية فى جميع الأقطار والأمصار والخطبة على منابرها ونقش سكة الدرهم والدينار .

قال : وكنت يوما عند نور الدين فى ناديه وهو مقبل على بأياديه ويسألنى عن الديوان العزيز ورسومه ثم قال : وانت تمضى فى الرسالة الى

---

(١) فى الأصل غير منقوطة .

(٢) وهو عضد الدين أبو الفرج محمد بن عبد الله بن هبة الله بن المظفر بن رئيس الرؤساء . أنظر الخريدة عراق ١ ص ١٣ ، ١٤ . أنظر أيضا ابن الأثير الكامل حـ ١١ — ٢٩٦ .

(٣) هو ابن الكيا الهراس الذى وردت ترجمة له فى ابن خلكان وفيات الأعيان حـ ١ — ص ٤١٢ .

منزل الجلالة وتهنىء الامامة والوزارة وهناك الشيخ شرف الدين بن أبى عصرون جالس وهو فى الزاوية كالس(٤) ووجهه لما يشكوه من المرض عابس وكأنه متحيد عن نور الدين وقربه متفقد رأسه فى عبه فلما سمع حديث بغداد رفع رأسه وحولق واستعاذ وأبل واستقل واعترض واستدل وانقلب وما به قلبه وتكلم وكلماته مهذبة وثاب ما معناه : أنا القيام بالرسالة واقامة الدلالة والنصرة والادالة وجلا الجلالة فقلنا : هو شيخنا وكبيرنا وهو الأولى فليعتمد عليه المولى وليس لهذا المقام مثله ولا دراك هذه الفضيلة الا فضله واذا وضح الامام المذهب الى الامام فقد تسدى مرامى المرام . واستقر أن يسير رسولا يستقبل اقبالا وقبولا . قال وعلقت انا على شغلى من الانشاء وحررت أجوبة الكتب الواصلة مع الرسل للمهناء(٥) ونظمت هذه الأبيات وخدمت بها الفرض الأشرف قلت ومنها :

قد أضاء الزمان بالمستضىء وارث البرد وابن عم النبىء
جاء بالعدل والشريعة والحق فيا مرحبا بهذا المجىء(٦)
فهنيئا لأهل بغداد فازوا بعد بؤس بكل عيش هنىء

قال : ولما وصل الرسل الى مدينة السلام وعرض(٧) التهنئة التىنظمتها تاج(٨) الدين أخى المقيم بها وسير لى تشريف بأهبة أمامية ومبلغ مائة دينار أميرية وصار التشريف والذهب مع تشريف أخى أنعاما مستمرا وادرارا استمر لاستقبال سنة ست وستين وأمضاه الامام الناصر لدين الله فى أيامه فى كل سنة .

قال : ووصل هذا الانعام بحلب فى شعبان من هذه السنة فنظمت هذه الكلمة وأرسلتها الى أخى تاج الدين ليعرضها وأولها :

(٤) كلس فلان على قدمه وكلس اذا جبن والكلسة فى اللون ـ انظر لسان العرب ٦ ـ ١٩٧ .
(٥) فى الأصل لهناء .
(٦) يضيف أبو شامة البيت التالى :
ومض ان كان فى الزمن المظلم فالعود فى الزمان المضى
الروضتين (٢) ١ ـ ٢ ص ٤٨٥ .
(٧) فى الأصل : وعرضوا .
(٨) فى الأصل : شرف .

هل عايد زمن الوصـــال المنقضى أم عايد لى فى الصـــبابة ممرضى
لا اشتكى الا الغــرام فانه بلوى على مـــن السـماء بهـــا قضى
(١٧٣ ا) لهفى على زمن الشباب فاننى بسوى التأسف عنه لم أتعـــرض

ومنهـــا :

ياحسن أيـــام الصـبى وكأنهـــا أيـــام مـــولانا الامـــام المستضى
قسم السـعادة والشقاوة ربنـــا فى الخـــلق بين محبـــه والمبغض
اصفى ظـــلام العـــدل بعد تقلص وبنى أساس العـــدل بعد تقوض

قال وقد عرف العالمون اننى من انشاء الدولة الامامية واحد تابعيها(٩) وما عشت الا بعيشها ولا درجت الا من عشها وانا الى الآن فى محاسنها وميامنها .

قال : فى ذكر صديق له ببغداد يقال له علم الدين على بن اسماعيل الزكاندار هذا الصديق كان ببغداد لى مصادقا وفى حبى صادقا ، وقد جمعنا الفضل وانتظم بالموانسة بيت الشمل . وكنا متصاحبين ليلا ونهارا ومتصافيين سرا وجهارا فلما سافرت الى الشام وحالت بيننا دواعى البين وعوادى الأيام شق عليه التفرق وأوحشه وعدم الورد الذى اعتاد رويا عطشه وتوالت الى كتبه وبعث خاطرى على اعتياب عتبة فمن الرباعيات التى صدرت بها الكتب اليه :

ما أخجلنى وقـــد أتتنى الـــكتب تشكوا وتقـــول أنهم قـــد عتبـــوا
هم أهل مودتى رضـــوا أم غضبوا ما أعظـــم زلتى اذا لـــم يهبـــوا

ومنهـــا :

هبت ســـحرا فنبهت وســـواسى نشوى خطـــرت عليلة الانفـــاس
أهدت أريج الرجـــاء بعـــد اليأس ما اطيب بعـــد وحشتى ايـنـــاس

(٩) فى الأصل ما معها .

قال : ومن المقطوعات التى كنت أواصل بها ذلك الصديق :

جامع الشمل بعد طول الفراق للمحبين كافل بالتلاقى
ولعل الأيام تسمح بالوصل وتقضى لبانه المشتاق
يا اخلائى الكرام المضاهين بطيب العروق طيب العراق

ومنها :

يا صبورا على الصبابة بعدى لك طول البقاء ما أنا باق
فأجرنى من النوى بالتلاقى وارث لى لا لقيت ما أنا لاق

عاد الحديث الى المتجددات بمصر والشام فى هذه السنة قال : فوصل نور الدين الى دمشق وأدى فرض الصيام وخرج بعد العيد الى الخيام وكان قد أخرج سرادقه الى جسر الخشب ناجح الرأى راجح الأرب . وكان بها شهاب الدين الارتقى ومحمد بن الياس بن ايلغازى بن أرتق صاحب البيرة وهو ذو الرتبة المنيفه المنيرة فى طريق القصد الى الخدمة وقد فارق حمص ونزل باللبوة وركب متصيدا فصادف(١٠) الفرنج قد أغاروا فى ثلثمائة راكب من كل سال عن الحياة سالب فصادفهم وصادفوه وانكروه وما عرفوه فما زال يغلبهم ويشلهم ويتلهم بدمائهم ويعلهم حتى تم على يده قتلهم بأسرهم واسرهم وذلك فى يوم الأربعاء السابع عشر من شوال هذه السنة .

ورحل الينا ونحن بعشترا(١١) فركب نور الدين ووقف وجاء شهاب الدين ونزل وقبل يده وشكر نور الدين جلادته وجلده وعرض عليه الاسارى المقدمين(١٢) (مقرنين فى الاصفاد(١٣)) مسجونين فى الاغلال والاقياد ومعهم مقدم الاسبتار الكبير الأعور بحصن الاكراد(١٤) وعدة مقدمون من أهل الشرك

---

(١٠) فى الاصل : فصاف .
(١١) موضع بحوران من أعمال دمشق معجم البلدان ٣ — ٦٧٩ .
(١٢) فى الأصل المقدمون .
(١٣) سورة ابراهيم ية رقم ٤٩ ، سورة ص آية رقم ٣٨ .
(١٤) حصن منيع على الجبل الذى مقابل حمص من جهة الغرب وهو جبل الجليل المتصل بجبل لبنان وهو بين بعلبك وحمص . وكان بعض أمراء الشام قد بنى فى موضعه برجا وجعل فيه قوما من الأكراد طليعة بينه وبين الفرنج وأجرى لهم أرزاق فتدبروها بأهاليها ثم خافوا على أنفسهم . باعه الأكراد منهم ورجعوا الى بلادهم وملكة الفرنج — معجم البلدان ٢ — ٢٧٦

والعتاد وفرق شهاب الدين الباقين(١٥) من الاسارى على الأمراء والاجناد .

قال : وكان بمصر حبس للشحن يعرف بدار المعونة لاقامة العقوبات وسفك الدماء فأعادها صلاح الدين مدرسة للشافعية وعمرها فنشر بها اعلام الادلة الشرعية وذلك فى أول سنة ست وستين .

وفى النصف من المحرم عمل دار الغزل مدرسة للمالكية . وعول على القاضى صدر الدين عبد الملك بن درباس(١٦) فى القضاء والحكم بمصر والقاهرة وساير اعمالها الظاهرة وذلك فى السادس والعشرين(١٧) من جمادى الآخرة ، وخرج فى هذه السنة الى الغزاة بعساكره واغار على الرملة وعسقلان وهجم على ربض غزة وأقلت على الداروم(١٨) ملك الفرنج تجرى معه / (١٧٣ ب) الذقن ورجع فى الحادى عشر من شهر ربيع الأول الى القاهرة ثم وصل الخبر بخروج قافلة من دمشق فيها أهله فأشفق عليها وأحب أن يجمع بها شمله فخرج فى النصف من ربيع الأول وكانت بايلة قلعة فى البحر قد حصنها أهل الكفر فعمل لها مراكب وحملها الى ساحلها على الجمال وفتح القلعة فى العشر الأول من ربيع الآخر واستحلها واستباح بالقتل والاسر أهلها وشحنها بالعدد والعدد وحصنها بأهل الجلاد والجلد واجتمع عليها بأهله ثم ساروا على سمت القاهرة ودخلوا اليها فى السادس والعشرين من جمادى الآخرة(١٩) وسار الى الاسكندرية ليشاهدها ويرتب قواعدها وهى أول دفعة قدم اليها فى أول سلطانه فعم أهلها باحسانه وامر بعمارة سورها وتجديد بنيانه .

---

(١٥) فى الاصل : على .

(١٦) يقول المقريزى : ــ ومن حينئذ اشتهر مذهب الشافعى ومذهب مالك بديار مصر وتظاهر به الناس واختفى مذهب الشيعة من الامامية الاسماعيلية وبطل من حينئذ مجلس الدعوة بالجامع الأزهر وغيره . اتعاظ الحنفا الجزء المخطوط ورقة رقم ٦٥ .

(١٧) انظر الروضتين (٢) ١ــ٢ ص ٤٨٦ حيث أورد أبو شامة هذا التاريخ كالتالى ــ وذلك فى الثانى والعشرين من جمادى الآخرة .

(١٨) قلعة بعد غزة للقاصد الى مصر الواقف فيها يرى البحر خربها صلاح الدين لما ملك الساحل فى ٥٨٤ هـ معجم البلدان ٢ ــ ٥٢٥ .

(١٩) قارن الروضتين (٢) ١ ــ ٢ ص ٤٨٦ حيث يقول ودخلوا فى السادس والعشرين من جمادى الأولى اليها .

وفى النصف من شعبان اشترى تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ابن أخى السلطان منازل العز بمصر وجعلها للشافعية مدرسة واشترى الروضة وحمام الذهب وغيرها من الأملاك ووقفها عليها .

وفى النصف من جمادى الآخرة أغار شمس الدولة أخو السلطان بالصعيد ثم دخل القاهرة فى عاشر رمضان .

وفى الثالث والعشرين من جمادى الآخرة مات القاضى ابن الخلال(٢٠) وكان من الأماثل الأفاضل ولم يزل صاحب ديوان الانشاء ولما كبر جلس فى كسر الانزواء وكان الأجل الفاضل يوصل اليه كل ما كان له وقام به مدة حياته لكرم عهده وتكفله .

ودخلت سنة سبع وستين قال : استفتح السلطان سنة سبع بجامع كل طاعة وسمع وهو اقامة الخطبة(٢١) فى الجمعة الأولى منها بمصر لبنى العباس وعادت الدولة بها ثابتة الأساس ، وعفت البدعة وصفت الشرعة ، وأقيمت الخطبة العباسية فى الجمعة الثانية من المحرم بالقاهرة للامامة المستضية المضية الزاهرة واعقب وفاة العاضد فى عاشورا بالقصر . وجلس السلطان للعزاء واغرب فى الحزن والبكاء ثم تسلم القصر بما فيه من خزاينه وذخايره ودفاينه . وكان قد نافق مؤتمن الخلافة وقتل وصرف من هو زمام القصر وعزل ووكل بهاء الدين قراقوش(٢٢) بالقصر وجعله زمامه

---

(٢٠) القاضى ابن خلال هو يوسف بن محمد المعروف بابن الخلال الملقب بالموفق صاحب ديوان الانشاء بمصر فى دولة الحافظ أبى الميمون عبد المجيد العبيدى . ذكره العماد فى الخريدة . استخدم القاضى الفاضل عند حضوره . ولم يزل ابن الخلال بديوان الانشاء الى أن طعن فى السن وعجز عن الحركة فانقطع فى بيته ويقال أن القاضى الفاضل كان يرعى له حق الصحبة والتعليم فكان يجرى عليه كل ما يحتاج اليه الى أن مات فى الثالث والعشرين من جمادى الاخرة سنة ٥٦٦ هـ انظر أبن خلكان ٢ — ٥٣٩ — ٥٤٣ . وانظر أيضا الخريدة شعراء مصر ١ — ٢٣٥ .

(٢١) لأول مرة منذ اكثر من قرنين يخطب للخلافة العباسية على منابر القاهرة بعد انقراض الدولة الفاطمية التى استمر حكمها فى مصر من ٣٥٩هـ الى ٥٦٧ هـ .

(٢٢) وهو أبو سعيد قراقوش بن عبد الله الأسدى الملقب ببهاء الدين انظر ابن خلكان وفيات الأعيان ١ — ٥٤٣ .

واستنابه مناب نفسه وأقامه مقامه فما دخل الى القصر شيء ولا خرج الا بمرأى منه ومسمع .

ولما توفى العاضد أمر السلطان بالاحتياط على أولاده فى موضع خارج القصر جعله برسمهم على الانفراد ، وقرر ما يكون رسمهم للكسوات والأقوات والازواد قال:وهم الى اليوم فىحفظ قراقوش واحتياطه واستظهاره يكلؤهم(٢٣) ويحرس بمين حزمه فى ليله ونهاره وجمع الباقين من عمومتهم وعترتهم من القصر فى ايوان وابعد عنهم النساء لئلا يتناسلوا وهم الآن محصورين وقد نقص عددهم وقلص عددهم . ثم عرض من بالقصر من الجوارى والعبيد فوجدوا أكثرهن حراير فأطلقهن ، وجمع أموال لهن موات فأعتقهن وجمع الباقيات فوهبهن وفرقهن وأخلى(٢٤) دوره وأغلق قصوره وسلط الجود على الموجود وأبطل الوزن والعد عن الموزون والمعدود وأخذ كلما صلح له ولأهله وأمرائه وخواص مماليكه وأوليائه من أخاير الذخاير وزواهر الجواهر والعقود والنقود والمنظوم والمنضود وما لا يعد احصاء ولا يعد استقصاء فوقع فيها القضاء وكشف عنها الغطاء واسرف فيها العطاء ، واطلق البيع بعد ذلك فى كل رخيص منها وغال وبال وأسمال ومنقول ومحمول ومصنوع ومعمول واستمر البيع فيها مدة عشر سنين وتنقلت الى البلاد بايدى المسافرين ومن جملتها الكتب(٢٥) فانى قد أخذت منها جملة فى سنة اثنتين وسبعين وكانت خزاينها مشتملة على قريب من مائة وعشرين الف مجلدة مؤيدة من العهد القديم مخلدة ، وفيها بالخطوط المنسوبة ما اختطفته الأيدى واقتطفه التعدى ونقلت منها ثمانية أحمال الى الشام وتقاسم الخواص بدور القصر وانتقل اليه الملك العادل سيف الدين لما ناب عن أخيه واستمر سكناه فيه .

---

(٢٣) فى الأصل : يكلاوهم .

(٢٤) فى الأصل : واخا .

(٢٥) فيما يتعلق بالمكتبة الفاطمية فى القاهرة وجهت تهمة تدمير الكتب أما بحرقها أو تبديدها الى صلاح الدين ولكن لم يعثر حتى الان على نص أو دليل يؤكد أو يدعم هذه القضية وكل ما هناك أن الكتب بيعت أو وزعت على من لهم اهتمام خاص بناحية علمية معينة .

وخطب لامامنا المستضىء فى قوص وأسوان والصعيد وشاعت البشاير وسار بها البادى والحاضر وتملك السلطان أملاك المنتمين اليهم منأشياعهم وضرب الألواح على دورهم ورباعهم ثم ملكها امراءه وخص بها أولياءه وباع منها أماكن ووهب مساكن .

كتاب فاضلى من صلاح الدين الى المبارك بن منقذ والى قوص وكتابنا هـذا وارد على الأمير مجد الدين : عندما كان من نفوذ قضاء الله وقدره محتوما فيما كان منصوبا وموسوما وذلك لمرض امتدت فيه أيامه واستولت عليه آلامه الى أن انقصمت به عراه وانحلت معه قواه وأتاه من أمر الله ما أتاه وحضرنا فى أيوانه ونقلنا بانتقاله أسرار الأمر الى خلانه ليعلم أن الله استأثر / (١٧٤ أ) بوفاته وآثره وآثرنا لحسن العهد بموافاته وبلغنا الغاية فى أحمال أمره والتوديع له الى قبره واطابة نفوس مخلصيه واقرارهم فى قصره وانكفأنا الى مستقرنا والامور لدينا مطردة والأحوال قبلنا متمودة والدهماء ساكنة والدنيا بنظرنا آمنة ، وسبيل الامير أن يوعز الى الخاطىء يوم الجمعة بالدعاء لمن الكلمة عليه مجموعة والدعوة له فى الاقطار مسموعة وهو الامام المستضىء بأمر الله أمير المؤمنين وليلزم الناس العافية فانها أسبغ عطاء وأسبل غطاء فى تنقل الايام عبرة « لمن كان له قلب أو القى السمع وهو شهيد(٢٦) » ومن تعظه الأيام من قريب « فأولئك ينادون من مكان بعيد(٢٧) » .

قال : وكان صلاح الدين لا يخرج عن أمر نور الدين ويرجع فى جميع النصائح الى رأيه المتين وقد كان كاتبه نور الدين فى شوال سنة ست بتغيير الخطبة وانتزاع نكر هذه القضية وأيقن أن أمره متبوع وقوله مسموع ونطقت بذلك ألسن الخواص والعوام فسير نور الدين شهاب الدين ابا المعالى المطهر بن الشيخ شرف الدين بن أبى عصرون بهذه البشارة واشاعة ما تقدم له بها من الاشارة وامرنى بانشاء بشارة عامة تقرأ فى ساير بلاد الاسلام وبشارة خاصة للديوان العزيز بحضرة الامام فى مدينة السلام .

---

(٢٦) سورة ق اية رقم ٣٧ .

(٢٧) سورة فصلت اية رقم ٤٤ . (أولئك ينادون من مكان بعيد)
ف : زائدة فى النص .

ذكر وصول عماد الدين صندل رسولا من دار الخلافة بالخلع والتشريفات لنور الدين ، وصلاح الدين(١)

قال : كان عماد الدين صندل هذا من أكابر الخـدم المقتفوية وتولى أستاذية الدار العزيزة بعد عزل كمال الدين بن عضد الدين عنها وهو أكبر من أرسل وجاء بالتشريف لنور الدين بأهبته السوداء العراقية وحلله الموشية وطوقه الثقيل وسرجه الخاص الشريف وحصانه المحصن المنيف ولواء الحمد المعقود وفرجية النسج المعـمود ومثال التقليد المشـهود وكتاب التقريظ المحمود .

وعين يوم يحضر فيه الرسول ونصوا على من يحضر فى مجلس نور الدين عند اجتيابه تشريف الاحتباء وأغفلوا ذكرى قصدا منهم لاغمامى فلما حضرت الرسل طلبنى نور الدين فلم يرنى فنفذ ورائى واستحضرنى وقام لقيام الرسل حتى حضرت وكان مقصودة ان يعرفهم منزلتى واختصاصى عنده فناولنى الكتاب الشريف لأتلوه فتناوله منى الموفق بن القيسرانى خالد وكان عنده فى مقام الوزير وله انبساط زايد فداريته وما ماريته وتركته يقرأ وانا ارد عليه وارشده فى التلاوة الى مالا يهتدى اليه حتى انهاه فأعجب نور الدين صمتى وسمتى وأجتاب الأهبة ولبس الفرجة وتقلد مع تقلد السيفين طوقها وخرج وركب من داخل القلعة وهـو حال بما عليه من الخلعة ، واللواء منشور والنضار منثور ، والمركبان الشريفـان أحدهما مركوبة والآخـر بحليته مجنوبة وسألت عن معنى تقليد السيفين فقيل هما للشام ولمصر والجمع بين البلادين وخـرج الى ظاهر دمشق حتى انتهى الى منتهى الميدان الأخضر ثم عاد جميل المحضر جليل المنظر لبيقا بالأعظمين السرير والمنبر .

وكان وزن الطوق مع أكرته ألف دينـار من الذهب الأحمر ، وحملوا لصلاح الدين تشريفا رايقا رايعا ، لكن تشريف نور الدين أميز منه وأفضل وأجمل وأكمل فسير تشريفه برمته اليه بمصر ليجتابه وشرف أيضا من عنده بخلع يشرف بها أصحابه ووصلت تلك الخلعة اليه فلبسها وطـاف بها فى الحادى والعشرين من رجب وهى أول أهبه عباسية دخلت الديار المصرية فقضى أهلها منها العجب ، وكانت مع الرسل اعلام وبنود ورايات وأهب عباسية للخطباء فى ديار مصر فسيرت الى صلاح الدين ففرقها على المساجد والجوامع والخطباء والقضاة والعلماء .

---

(١) توجد بالهامش

قال : وكان صلاح الدين واعد نور الدين ان يجتمعا على الكرك(٢) والشوبك(٣) ويتشاوروا فيما يعود بالصلاح المشترك فخرج من القاهرة فى الثانى والعشرين من المحرم فاتفق للاجتماع عايق ولم يقدر للاتفاق قدر موافق فلقى فى تلك السفرة شدة وعدم خيلا وظهرا وعدة وآب الى القاهرة فى النصف من شهر ربيع الأول .

قال : وكان مع الرسول لخاصتى من الامام رسم التشريف والانعام وهو مائة دينار واهبة شريفة بجبة وعمامة .

وكان لى أيضا مع رسول الوزير عضد الدين وهو الحافظ الدمشقى(٤) آخر العجيب المائة عن مكارمه ومناقبه منبية ولما عاد الرسول فى سابع عشر جمادى(٥) الآخرة سيرت الى الوزير هذه المدحة واستزدت المنحة قلت وهى قصيدة أولها :

عسى أن تعود ليالى زرود(٦) ويقضى المنى بنجاز الوعود
وتشرق أيامنا الزاهرات ويورق فى روضه الوصل عودى

(١٧٤ ب) / قال : ولما عاد الرسول عاد معهم شهاب الدين بن عصرون بأجوبة الكتب عن نور الدين .

قال : وكان نور الدين لا يقيم فى المدينة أيام الربيع والصيف محافظة على الثغر ورعاية للبلاد وهو متشوق الى أخبار مصر واحوالها فراى اتخاذ الحمام المناسيب وتدريجها على الطيران لتحمل اليه الكتب بأخبار البلدان وتقدم الى بكتب منشور لأربابها واعزاز أصحابها .

---

(٢) الكرك بفتح الراء قلعة حصينة جدا فى طرف الشام من نواحى البلقاء فى جبالها بين ايله والبحر الاحمر والبيت المقدس . معجم البلدان ج ٤ — ٢٦٢ انظر الروضتين (٢) ١ — ٢ — ٥٢٦ حاشية رقم (١) .

(٣) الشوبك بالفتح ثم السكون قلعة حصينة فى أطراف الشام بين عمان وايله والبحر الاحمر قرب الكرك . معجم البلدان ٣ — ٣٣٣ . انظر الروضتين (٢) ١ — ٢ ص ٥٢٦ حاشية رقم ٢ .

(٤) أبو منصور بن محمد بن الحسن بن هبة الله بن الحسين الدمشقى الملقب فخر الدين . وهو ابن أخى الحافظ ابن عساكر الدمشقى . ابن خلكان وفيات الأعيان ١ — ٣٤٩ .

(٥) فى الاصل : جميدى .

(٦) فى الاصل : مطموسة ولا يظهر سوى رود من الكلمة . وزرود من أيام العرب مشهور بين تغلب وبنى يربوع — انظر معجم البلدان ٢ — ٩٢٨

قال : وفى رجب من هذه السنة فوض الى المدرسة التى بحضرة حمام القصر وعول على فى التدريس بها والنظر فى أوقافها وكان الشيخ فيها الفقيه ابن عبيد فلما توفى خلف ولدين واستمرا فيهما على رسم الوالد ثم خدعهما رجل مغربى استهواهما بعمل الكيمياء ونهج بهما سبيل الاغواء فصاهراه وظاهراه فغاظ نور الدين هذا المعنى واحضرهما واستوفى عليهما أنواع التوبيخ فلم يجد من أحدهما لأمره سمع النصيح فقال لى : تسلم الموضع ورتبنى فيه مدرسا وناظرا وكان ليلة الخميس وحضر القاضى كمال الدين وعلماء البلد بكرة التدريس فاستمرت الولاية وشملتنى من الله الرعاية .

قال : ودخلت سنة ثمان وستين والأمور سديدة والثغور مسدودة والوية الأولياء بالنصر معقودة والطوالع مسعودة والمواسم مشهودة والمواسم المحمودية محمودة .

قال : ذكر تفيض اشراف ديوانه الى :

كان نور الدين رحمه الله كلما رتب لديوانه مشرفا وجده الى نواب ديوانه متعرضا وبتصريفهم متصرفا فمنهم من يقصر عن مطاولتهم ولا ينهض لمقاومتهم فاذا عرف انه لا يسوء ولا يسر ولا ينفع ولا يضر عنفه وصرفه وعزف عنه وتعيفه ، ومنهم من يعرف أنه اذا حادثهم ونافقهم لا يظفر بقبول ولا يفوز بمأمول فيوافقهم ويرافقهم فاذا عرف حاله بعد حين كان بعزله غير ضنين . وكنت قد توليت شغله وتفيأت ظله بح نوابه فى خفض قدرى وضيق صدرى وأنا أحلم عنهم ولا انتقم منهم فلما كثر منهم التهاون وظهر منهم التعاون لم يخف عن نور الدين سر أمرى وعلم أن لطى المداراة معهم أمرى وكان ذكيا المعيا لا يخفى عليه الأحوال ولا يتهرج لديه الرجال ولم يزل لايناسه بى واطلاعه على سرى يشملنى بما لا يخطر ببالى عارفته وعاطفته . وأنا اذا انصرف النواب من ديوانه أجلس ملازما للخدمة فى ايوانه فاذا خرج الخادم لشغل ولا يرى منهم أحدا حاضرا عاد اليه فاخبره بغيبتهم ويقول ما رأيت الا فلانا وربما خرج وتقدم الى بكفاية ذلك المهم وأعجبه دوام تلك الشيمة منى وكان يريد تقديمى ولكنه للحزم على الثبات والتأنى . فبينا أنا ذات يوم أطلت القعود وادمت على الباب الركود والفيت لنار حركاتى بعد الظهر الخمود فنزلت الى منزلى لاتبلغ بقوت وأعود الى الباب فى وقت موقوت اذ جاء من يطلبنى وعلى الفيئة يعتبنى فتضجرت فى نفسى

وعدمت انسى وقلت : ما أصعب هــذه الخدمة وما أصعب هــذه النقمة أما أترك لطعامى ومتى يتسدد مرامى مرامى . وحين حضرت خــرج الى خازنه ولى الدين اسماعيل وقال : يامرك بأن تتولى اشراف مملكته وتكون الحافظ الأمين فى دولته فقلت يعفينى فأنا وحيد فى الغربة وبهذا العمل عديم الدربة وهــؤلاء النواب قد خلا لهم الميــدان وطاوعهم على تقادم السنين الأمكان ، ولهم خبرة بالأعمال ومعرفة بالأحوال وكأنهم على حصنهم العربية قد حازوا قصب الرهان وكأنى على برذون أعرج فكيف أسابقهم فى الميدان . فعاد بالجواب وقال اتبع أوامرنا وأنت على الصواب فجمعت بين المنصبين وقسمت زمانى على النصيبين فمــرة للكتب والمناشير وتارة للاثبات فى الدساتير ولم اثق بنايب وباشرت العمل بنفسى على انهم لا يلتفتون نحوى ولا يبالون بكدرى وصفوى ولا يجرون الا على ماألفوه من العادة ولا يشاورونني فى الأبداء والاعادة . فما زلت أرد طباعهم وأصد أطماعهم حتى قويت على العمل ورويت من عله النهل .

قال : وكان من عادة نور الدين انه اذا اقطع اميرا اقطاعا وعين بعبرته ضياعا قرر عليه رجالا ذوى عــدد لا ينقصون فى خيل وســلاح وعدد فاذا نقص مغل الاقطاع عن المبلغ اتم له نقدا من خزانته .

قال : وأمر ان يركب كل امير بعدته وهيئة باسه فى الحــرب وشدته ونحن نبكر لعرضه والأمير الحاجب ضياء الدين بكر يسان متولى هذا الأمر وهو يجمعنا كل يوم من الفجــر وكان هــذا الأمير اكبر حجاب أسد الدين شيركوه واخص أصحابه فلما توجه مخدومه الى مصر لم يصحبه ولم يرقه ملك مصر بترك وطنه بالشام ولم يعجبه . فمال اليه نور الدين لزنة حصاه وزينة حجاه / (١٧٥ أ) ورفع قدره الى رتبة الأمراء الأكابر واعتمد على نهضته فى الموارد والمصادر .

ذكر ما سيره صلاح الدين من مصر من الأموال

قال : ولما عرض صلاح الدين بعد العاضد بالقصر خزانته واستخرج منها دفاينه سير منها عــدة من الامتعة المستحسنة والآلات المثمنــة من قطع البللور واليشم والأوانى التى لا يتصور وجــود مثلها فى الوهم ومعها ثلاثة قطع من البلخش اكبرها نيف وثلاثون مثقالا ، والثانية ثمانية عشر

مثقالا والأخرى دونها وقرن(١) بها من اللآلى مرصوفها ومكنونها وحمل معها من الذهب ستين ألف دينار ووصلت من غرايب المصوغات بما لا يجمع مثله فى اعصار واعمار ومن الطيب والعطر مالم يخطر ببال عطار فشكر نور الدين همته وقال : ماكانت بنا حاجة الى هذا المـــال ولا نسد به خلة الاقلال فهو يعلم أنا ما أنفقنا الذهب فى ملك مصر وبنا فقـــر الى الذهب وتمثل بقول أبى تمام :

لم ينفـــق الذهب المربى بكثرتـــه   على الحصـــا وبه فقر الى الذهب

فاستنزره وما استغزره واستقل المحمول فى جنب ما حـــرزه وتروى فيما يدبره وافكر فيما يقدمه فى هذا المهم ويؤخره .

ذكر خروج الملك الناصر صلاح الدين ونزوله على الكرك والشوبك

قال : خرج فى النصف من شعبان(٢) ومعه الفيل والحمارة العتابية والذخاير النفيسة التى انتخبها من خزائن القصر وقد سبق ذكر تسييرها الى نور الدين ووصلت الحمارة وكثر لها النظارة ، وأما الفيل فانه وصل الينا فى سنة تسع وستين ونحـــن بحلب فاهداه نور الدين الى ابن اخيه سيف الدين غازى صاحب الموصل ثم سيره نور الدين(٣) الى بغداد هدية للخليفة وسير نور الدين الحمارة الى بغداد مع هدايا وتحف سنايا .

وأما صلاح الدين فانه أقام على تلك الحصون وأدار عليها رحى الحرب الزبون ولم يبرح حتى برح بها وفرق عنها عربها وخـــرب عمارتها وشنت على أعمالها سراياه بغاراتها ومن جملة عربانها الذين رغبهم وسيرهم الى الشام نور الدين صلخد بنوعباد فانهم وصلوا فى مائتى فارس من ابطال الحرب وكماة الطعن والضرب ووصل على أيديهم كتاب صلاح الدين الفاضلى ونسخته .

---

(١) انظر الروضتين(٢) ١ — ٢ (٥٢٤) .
(٢) انظر الروضتين (٢) ١ — ٢ (٥٢٥) حيث يورد أبو شامة هـــذا التاريخ كما يلى : وخرج صلاح الدين فى النصف من شوال .
(٣) انظر الروضتين ١ — ٢ ص ٥٢٦ حيث يقول أن سيف الدين هو الذي أرسل الفيل الي بغداد .

سبب هـذه الخدمة الى مولانا الملك العادل أعز الله سلطانه ومد أبدا احسانه ومكن بالنصر أمكانه وشيد بالتأييد مكانه . علم الملوك بما يؤثر المولى أن يقصد الكفار بما يخمص أجنحتهم ويقلل اسلحتهم ويقطع موادهم ويخرب بلادهم وأكثر الأسباب المعينة على ما نرى أن لا يبقى فى بلادهم أحد من العربان وان ينتقلوا من ذل الكفر الى عـز الايمان ومما اجتهد فيه غاية الاجتهاد وعده من أعظم الاسباب ترحيل كثير من أنفارهم والحرص فى تبديل ديارهم الى أن صار العدو اليوم اذا نهض لا يجد بين يديه دليلا ولا يستطيع حيلة ولا يهتدى سبيلا ولو كان هؤلاء العربان يرغبون فى الديار المصرية لكان يحمل كلهم ويسوقهم كلهم ولكن هواهم فى الشام ورغبتهم فى بلاده دون غيرها من بلاد الاسلام . ولو أن المولى خلى لهم اقليما واقطعهم اقطاعا عظيما ليقطعهم عن الكفر وبلاده ويبعدهم عن تكثير سواده لكان فى ذلك قد أحسن فعلا وحمل عن المسلمين ثقلا فكيف وهم يخدمون فى البلاد خدمة من عرف مدالجها وخبر طرقها ومناهجها فما يدعون جهدا فى اخرابها وشن الغارة عليها ومواصلة الفتك فيها .

ذكر بعض المتجددات بالشام

قال : حضرت عند الملك العادل نور الدين بدمشق فى العشرين من صفر والحديث يجرى فى طيب دمشق ورقة هوائها وبهجة بهائها وازهار رياضها وانها كزهر سمائها وكل ما يمدحها ويطريها فقال نور الدين انما حب الجهاد يسليني عنها فما أرغب فيها قال فارتجلت فى هذا المعنى فقلت :

ليس فى الدنيا جميعا بلدة مثل دمشق ويسليني عنها فى سبيل الله عشقى

قال : واتفق أن خرج كلب الفرنج اللعين فى جنود الشياطين يقصد الغارة على ناحية زرا(١) من حوران وأناخ بأول ليلة بقرية بسـمكين(٢) ووصل الخبر الى نور الدين وهو نازل بالكسوة اليهم وأقدم بعساكره عليهم فلما عرفوا وصوله رحلوا الى منزلة الفوار وأصبحوا بكرة السبت غرة شهر ربيع الأول راحلين الى السواد صارفين أعنة الجياد عن أسنة الصعاد

---

(١) تدعى أيضا ذرع من أعمال حوران معجم البلدان ٣٢ — ٩٢١
(٢) فى الاصل بسبستكين والضبط من الروضتين(٢) ١ — ٢ — ٥٢٨ وعن سمكين انظر ياقوت . معجم البلدان ج ٣ ص ١٤٠ .

وشلتهم مقدمة عسكرنا حتى نزلوا بالشلالة ونزل نور الدين بعشترا وأنفذ سرية الى أعمال طبريه ولما عادت لحقها الفرنج عند المخاضة فوقف الشجعان / (١٧٥ ب) وثبت من ثبته الايمان حتى عبرت السرية بجمالها وعادت وقد نصرت صوارمها ونفدت لهازمها ولما أنهضنا السرية رحلنا من عشترا وخيمنا بظاهر زرا .

قال : وكنت عند مسيرنا الى اللقاء لنور الدين مسايرا وله مجاورا وهو يقول كيف تصف نهوضنا الى الجهاد وسواد وجوههم بدخولهم فى السواد وهو يبتسم وقد تقدم أمراؤه الى المعركة ويقول لم أرك قوى القلب وأقول وكيف لا يقوى قلبى بخدمتك وانا فى عصمتك هذه القصيدة فى وصف الحال :

عقدت بنصرك راية الايمان | وبدت لعصرك آية الاحسان

قلت ومنها :

كم مصعب عسر المقادة قدته | نحو الردى بخزايم الخذلان

ومنها :

وعلى غناء المشرفية فى الطلا | والهام رقص عوالى المران(٣)
وكأن بين النقع لمع حديدها | نار تألق من خلال دخان
غطى العجاج به نجوم سمائه | لتنوب عنها أنجم الخرصان
ولوا وقلب شجاعهم فى صدره | كالسيف يرعد فى يمين جبان
يمتاح من قلب القلوب دماها | بالسمر منح الماء بالاشطان
فمن العراق الى الشام الى ذرى | مصر الى قوص الى اسوان
لم تله عما فى البلاد وانما الهاك | فرض الغزو عن همذان
اذعنت لله المهيمن أذعنت | لك أوجه الاملاك بالاذعان
سير لو أن الوحى تنزل أنزلت | فى شأنها سور من القرآن

قال : وفى هذه السنة غزا شمس الدولة تورانشاه اخو صلاح الدين

---

(٣) ذكر أبو شامة القصيدة فى الروضتين (٢) ١ — ٢ ص ٥٢٩ .

بلد النوبة وفتح حصنا لهم يعرف بابريم وهى بلاد عديمة الجدوى عظيمة البلوى ثم جمع السبى وعاد به الى أسوان وفرق على أصحابه فى الغنايم السودان .

ذكر وفاة نجم الدين أيوب والد السلطان

قال : وركب نجم الدين فشب به فرسه وذلك بالقاهرة عند باب النصر وسط ذى الحجة يوم الاثنين الثامن من ذى الحجة وعاش ثمانية أيام بعد وقوعه وتوفى فى يوم الثلاثاء السابع والعشرين من ذى الحجة فى الساعة الرابعة وكان ولده صلاح الدين عنه غايبا فى بلاد الكرك والشوبك فدفن الى جانب أخيه أسد الدين فى بيت بالدار السلطانية ثم نقلا بعد سنتين الى المدينة النبوية .

عاد الحديث الى الشام قال : ودخل نور الدين دمشق وشتا بها ولما طاب الزمان تقاضاه عزمه بالحركة ، وكان قصده بجانب الشمال لتسديد ما اختل هناك من الأحوال ولتجديد العهد بتلك الأعمال فبدأ بمصر وشرع فى انفاذ من يستكفيه(١) من الرجال فى تقدير ما يحمل كل سنة اليه من الأموال .

ذكر مسير الموفق خالد القيسرانى الى مصر

قال : وكان نور الدين منذ ملكت مصر يؤثر أن يقرر له فيها(١) مال للحمل يستعين به على تحمل كلف الجهاد والأيام تماطله والأقدار تحول بينه وبين ما يحاوله وهو ينتظر أن صلاح الدين يبتدىء من نفسه بما يريده وهو لا يستدعى منه ولا يستزيده فلما حمل من أخاير الذخاير ما حمله وعلم مجمله ومفصله تقدم الى الموفق أن يمضى ويطالب ويقتضى . ويعمل أيضا حيازة بالأعمال المصرية وعين له ما يحمل اليه معه من الهدايا والتحف السنايا والثياب المعلمة والخيل المسومة ورحل نر الدين على سمت البقاع وخرج خالد معه للوداع فأعاده بعد ان قرر معه ما أراده وأمره بالمقام الى حين دخول خازنه بتسليم ما سبق ذكره من الاقسام فلما نزلنا بعين الجر(٢) تذكر ما عد به من الأمر فاستدعى ولى الدين اسماعيل متولى خزانته

---

(١) فى الاصل . يستلفيه .
(١) فى الاصل : فيه .
(٢) عين الجر : بلد بالبقاع بين بعلبك ودمشق معجم البلدان ٣ — ٧٦٠

وشهاب الدين أبا صالح بن العجمى ناظر ديوانه فاستدعى ولى الدين اسماعيل وعدل خزانته وأمرهما بالعود الى دمشق وتسليم ما كان عنده ليتسلمه خالد وكلاهما بعد انجاز الشغل الى المعسكر معاود .

قال : ولما ودع الموفق / (١٧٦ ا) خالد مستوفى المملكة النورية أراد أن يستنيب أحد اخوته ومن يثق بكفايته فقال نور الدين يقوم العماد بهذا الشغل فجمعت بين الانشاء والاشراف والاستيفاء . ووجدت الخدم الثلاث بكفالتى الوفاء . ثم تعصب فخر الدين الزعفرانى وكان من الأمراء الكبار لرضى الدين يعقوب رئيس سنجار وبذل فى منصبى خمسة آلاف دينار فقال نور الدين : أما العماد فلا نبيع كفاة الرجال بالقناطير المقنطرة من المال وأخذ عشرة آلاف دينار وولاه منصب الاستيفاء وجلس معنا أشهرا . فكتب يوما الى نور الدين اننى أريد أن يكون لى فى كل بلد نايب حتى أقدر على الوفاء بما بذلته فقال نور الدين : كأنه يريد أن يوفينى المال من مالى وفرايد أعمالى فصرفه ورد الى العمل وحقق منه بتقريره الى الأمل . قال وخرج يوما من عند نور الدين من قال : قد أمر المولى أن كل من كان للموفق عليه رسم يوصله الى العماد فانه بعده بمحل الاعتماد وقد مال الى وعول فى مناصبه على وطالعته كل يوم بمرافق عملى ومنافع شغلى فما اتحف بتحفه ولا اخص من أحد بعطية الا أطالعه بها(٣) واطلعه على سببها(٤) فكان يعجبه منى تلك الشيمة ويقول : تصرف فيه تصرفك فى مالك . وكانت مواد عنايته لى وافره ومن وجوه رعايته سافرة ثم اعتمد على اعتمادا كليا وجعلنى له نجيا واذا اراد أن يكتب الى أحد منهم يقول أكتب اليه من عندك . ومن جملة ذلك أن سعد الدين كمشتكين وكان نايبه بالموصل فى خدمة سيف الدين صاحبها أخذ من رجل الف دينار بعلة عللها فجاء وتظلم فأمر لى نور الدين ان أكتب اليه بردها عليه فقال : ما ينفعنى الا كتابه وتوقيعه فانهيت ذلك اليه فقال ما معناه : أما يعلم كمشتكين أنك كاتبى وأمينى وصاحبى ولا تكتب الا بأمرى فاخالف كتابك اليه قلعت عينيه فمضى اليه بكتابى فسارع الى طاعته ورد عليه الألف فى ساعته .

---

(٣) فى الاصل : به .
(٤) فى الاصل : سببيه .

ذكر الوصول الى حلب والتوجه منها الى الروم وفتح قلعتى مرعش وبهنسى

قال : ووصلنا الى حلب واستغزرنا من ردها الحلب وقضينا الأرب وكان السلطان قلج أرسلان صاحب الروم وقــد تعدى على بلاد قر أرسلان فكتب يشكو ويتضرر وأن مقاومته عليه تتعذر فغار من ذلك غيرة المغتاظ وعزم على قصــد بلد قلج أرسلان وبدأ ببلدة مرعش ونزل على حصنها فى العشرين من ذى القعدة وأمن من فيها وتسلمها وما حاصرناها أكثر من يوم فما غالونا برسوم . قال ومما كتبت الى صديق لى بدمشق ومنها :

كتابى فــديتك مــن مــرعش وخــوف نوايبهــا مــرعشى
ترنحــنى نشــوات الغــرام كأنى مــن كأســه منتشى
أسير وأعلن بــرح الغــرام(١) فقلــبى يسر ودمــعى يشى

قال : فرتب فيها واليا وجــدد من رثها ما كان باليا ، وتولى عنها وجاء الى بهنسى وواليها يعــرف بقايماز(٢) السلطانى فاطلنا حصارهــا وازلنا استظارها وقامت المجانيق على سورها(٣) ورخصت المهج الغوالى فى سوقها ودام مرجوما حتى انقض الجــدار فطلب من فيها الامان ودخلها نور الدين وقرعها ونعتها بعد ان صرعها وملك تلك البلاد وأقطعها الاجناد .

قال : وفى هــذه السنة وصل الفقيه الامــام العالم(٤) قطب الدين النيسابورى وهو فقيه عصره ونسيج وحده قدوة الاســلام ومفتى الأنــام فسر نــور الدين بدنو نــوره وحضر غايب أنســه بســنا حضــوره ونزل فى حلب بمدرســة باب العــراق فأطلعــه الى دمشــق ودرس وشرع نور الدين فى انشاء مدرسة كبيرة للشافعية لفضله وأدركه الأجل

---

(١) وردت فى الروضتين الجوى . الروضتين (٢) ١ـ٢ـ٥٤٣ .
(٢) فى الاصل : قايمان .
(٣) فى الاصــل : سوقها .
(٤) انظر النوادر . وعنه أيضا انظر الروضتين(٢) ١ـ٢ـ٥٤٥ .
(٥) فى الاصــل : مطموسة .
(٦) فى الاصــل : جاروت والضبط من الروضتين(٢) ١ — ٢ — ٥٤٥ .
ويقول المحقق فى حاشية رقم ١ « هى الخارخية كانت داخل بابى الفــرج والفراديس شمال الجامع الاموى . بناها سيف الدين جاروج التركمانى . انظر النعيمى . الدارس فى تاريخ المدارس ج ١ ص ٢٥٥ .

دون ادراك عمارتها لأجله ونقل الله قطب الدين الى جواره فى الأيام الناصرية فى سنة ثمان وسبعين .

قال : وعلى ذكر قطب الدين ذكرت وفادة شيخ الشيوخ عماد الدين أبى الفتح محمد بن على بن محمد بن حموية الى الشام فى أوائل سنة أربع أو فى سنة ثلاث وستين وأغفلت ذكره فى موضعه فما سأستدركه ههنا . وكان كبير الشأن لم يكن له فى علم الطريقة والحقيقة مساو فأقبل عليه نور الدين بكليته وأمرنى بانشاء منشور له بمشيخته صوفية الشام ومن جملة ما اتحفه به عمامة بأعمدة ذهبية نفذها صلاح الدين اليه فآثر بها شيخ الشيوخ فبذل فيها ألف دينار بزنة ذهبها فلم يجد من سامها الى طلبها قال :

(١٧٦ ب) / دخلت سنة تسع وستين ونور الدين قد فتح الحصون مرعش(٧) وبهنس(٨) واربيل(٩) وكيسون(١٠) وكان مليح بن لاون متملك الأرمن فى خدمته آويا الى ظل عصمته . وقد وصل الى خدمته ضياء الدين مسعود ابن قفجاق فخصه بالحباء والتشريف وأنزله من ظل احسانه فى المحل المنيف ووفد اليه صاحب ملطية فأجزل له العطية وهو الذى قتله أخوه وملك البلد وحده ولم يفلح بعده . وكان فى خدمته أيضا الأمراء من المجدل فسرحهم بالعطاء الاجزل وأظهر أنه ينزل على قلعة الروم على الفرات فتقبل مستخلف الأرمن(١١) بالبراءة وحمل خمسة آلاف دينار على سبيل الجزية والصغار ، وعاد الى حلب وقد نجح فى كل ما طلب .

---

(٧) مرعش الضبط من ياقوت مدينة فى الثغور بين الشام وبلاد الروم معجم البلدان ١—٤٩٨ .

(٨) بهنسا هكذا وردت فى معجم البلدان وهى قلعة حصينة بقرب مرعش وسميساط . معجم البلدان ١—٧٧٠ .

(٩) غير واضحة فى الاصل . وردت فى معجم البلدان اربل وهى بين الزابين من أعمال الموصل معجم البلدان ١ — ١٨٦ .

(١٠) وردت فى معجم البلدان كيسوم وهى قرية من أعمال سميساط وفيها حصن كبير . وردت فى ابن الاثير كيسون . ابن الاثير — الكامل ١١— (٢٥٧) ووردت أيضا فى الروضتين كيسون . الروضتين(٢) ١—٢—٥٤٤ انظر حاشية رقم ١ فى نفس المصدر نفس الصفحة .

(١١) ذا النون بن دانشمند حكم على ملطية وسيواس وقيسارية توفى فى ٥٦٩ هـ/١١٧٤ م .

ذكر عود القاضي كمال الدين الشهرزورى الى بغـداد

قال : كان القاضى كمال الدين توجه(١) من دمشق عام أول الى بغداد رسولا ووجد من الديوان العزيز عزة ودنوا واقبالا وقبولا . وأمـــر أمير المؤمنين المستضىء بضرب دنانير للنثار لا ينقص كل دينار عن عشرة مثاقيل وأحضر لنور الدين مما وصل اليه من النضار المطبوع باسم النثار خمسين عددا وزنهـــا خمسمائة دينار فشكر علو تلك الهمة وسأل دوام النعمة .

قال : وكانت ناحيتا درب هرون وصريفين(٢) من أعمال العراق لزنكى ابن آقسنقر والد نور الدين قديما من أنعام أمير المؤمنين فسأل نور الدين أحياء ذلك الرسم فى حقه فأنعم بهما أمير المؤمنين المستضىء عليه ووجه بهما مثاله اليه . وكان من مراده ان يستوهب ببغداد على شاطىء دجلة أرضا ويبنى فيها للشافعية مدرســة ويقف عليهـــا الناحيتين فقيل له : ما ثم موضع يصلح لهذا (الأمر الا دار التمر(٣)) فعاقه أمر القـــدر عن قدرته على الأمر .

فقال : وأراد نور الديـــن أن يسرع الى دمشق الأوبة ويقضى فيها الشتوة فالتاث سره لالتياث سريته وشكاة جاريته فتصدق عنها بالالوف والتزم لله فى شفائها بنذور ووقوف وأقام حتى ترجح ترجى ابلالها ثم سيرها فى محفة تحمل على ايدى الرجال وتأخر نور الدين جريدة مع عـــدة من مماليكه وأمرائه وتقــدم الى ان اسايره وأسامره فى طريقه فسرنا على طريق قبه وملاعب والمشهد وسلمية ، وكان اذا سار لا يدركه من يسايره ، فوصلنا الى سلمية من حلب فى يومين ، فجاءه الخبر بأن الفرنج قد اغارت على حوران ، فركب قبل العشاء وأدلج ووصل الى دمشق والصبح قد تبــلج

---

(١) فى الاصل : توجد بالهـــامش .

(٢) من قرى الكوفة معجم البلدان ٣ — ٣٨٦ . قارن الروضـــتين(٢) ١ — ٢ — ٥٤٩ حاشية رقم ١ . حيث يقول انهما أى درب هرون وصريفين من أعمال بغـــداد .

(٣) هذه العبارة بين الحاصرتين غير واضحة فى الاصـــل والضـــبط من الروضتين(٢) ١ — ٢ — ٥٤٩ .

وسمع الفرنج به فتفرقوا . وكان أخـوه سابق الدين عثمان(٤) رسولا وكان رجـلا بعيدا عن الدهاء ، غير خبير بتدبير الأحكام وآلايها يحمل قول كل قايل على الصـدق ، ولا يتصور فى ذهنه أمر سـوى الحق ، وهو كما يقال ساذج سليم القلب فلما(٥) وصل الى دمشق تلقوه بالاكرام وأنزلوه فى دار بعيدة عن الاقوام يبكرون اليه كل يوم للسلام واذا جـاء الى القلعة تلقوه الى الباب وأجلسوه فى صـدر الايوان وقام بين يديه حواشى السلطان، وهو لا يعلم بما يدبرونه وما الذى يقررونه ثم قال شمس الدين هو الودى والولى وبأمر الملك الكفيل الملى فنريد أن يستظهر منه باليمن . وقال شهاب الدين العدل لسابق الدين أنا أصل الى حلب معك فأعطنى يدك أن تنفعنى وأنفعك فمضى وخرج معه . قال وخرجت الى طريق سابق الدين لأودعه وحسبته لا تخفى عليه الاشارة فاذا هو أعجمى لا توقظه العبارة ، وخلوت به وقلت احترزوا من الكيد قبل أن تقعـوا كالصيد فى القيد ، وصرحت له بالأمر وخوفته من الغدر وحسبته مأمونا على السر فلما سايره فى الطريق العدل أبو صالح وجاذبه أطراف الكلام أمال اليه أعطاف الاستسلام ووفاه فى صوره الوفا مكايل مكايده ، وأراه أنه يزجى له محامل محامده حتى اذا وصل الى حلب وبعد شمس الدين على خرله ساجدا وأظهر أنه لم يزل يتمنى المثول فى خدمته مغرما واحـدا واستوثق يمينه وشمس الدين لطهارة دينه يعتقد طهارة دينه ، واستقر الأمر على ان يحملوا الملك الصالح الى قلعة حلب ، وهـو يتسلم ممالكه ويكون فيها أتابكه ورد أخاه سابق الدين للمضى فى الخدمة ، ووصل سعد الدين كمشتكين أيضا فى تلك الأيام الى دمشق ليجدد بالخـدمد عهده ، ويذكر من الرأى ما عنده ، واستقبلهم الملك الصالح وكنت راكبا فى موكبه مسايرا الى جنبه وهـو لا يسمح(٦) فى ان اتباعد عن قربه فلما أبصرنى العـدل صعب عليه قربى وسايرنى الى جنبى وقال : سابق الدين حـدثنى بما حدثته ولو كان ممن ينبعث لبعثته والفيت من انفاسه دخان الجمر لفحنى منها شرر الشر فجيت الى كمشتكين اعتقد أنه صديق الدهر فمت الى بعذر الذعر . وقال : انقطع عنى حتى أصلح أمرك فعرفت انهم أدخلوا رأسه فى المخلاه وأنه ليس من الامتعة المخلاة

---

(٤) فى الاصـل : ساقطة .
(٥) فى الاصـل : فمـا .
(٦) فى الاصـل : يفسـح .

فهجرتهم على قصـــد المقاطعة / (١٧٧ ا) ولم اجد بدا من المسالمة والموادعة لأن لى تجملا وثروة وخيلا وعـــدة لو تركتها ونجوت بنفسى لكسفت فى الأخذ بالحزم شمسى ، لكنى أوهمتهم أنى معهم ، ومعاذ الله أن أدعهم حتى وصلت الى حلب فى صحبتهم ثم عرجت على دار محى الدين الشهرزورى بالحاضر واقمت مدة اظهر لهم مودة . ثم أزمعت ورحلت وقطعت الفرات والجزيرة الى الموصل والقيت بها العصا لمـــا وصلت .

ذكر مسير الملك الصالح من دمشق الى حلب
بتاريخ يوم الخميس الثالث والعشرين من ذى الحجة

قال ولمـــا عزم الملك الصالح المسير بيت الجماعة التدبير ، فأقام شمس الدين بن المقدم بدمشق ، وجمال الدين ريحان والى القلعة ، والقاضى كمال الدين الشهرزورى وسار الملك الصالح ومعه كمشتكين والعدل ابن العجمى الوزير وولى الديـــن اسماعيل الخـــازن ومعهم سابق الدين عثمان وهم يستعطفونه ويتلطفونه حتى قربوا من تل السلطان ، ووصلت رسل شمس الدين على بالاحسان فخلفوا الرسل وراءهم ، ورحلوا للمسافة مساهم وادلجوا حتى وصلوا وثوب الليل شقه الصباح ، وصـــدر الفجر رحبه الانشراح فتلقاهم الكبير والصغير والمـــأمور والأمير . وكان شمس الدين بالقلعة راقدا عشاشه وناشدا انتعاشه فجاء أخـــوه بدر الدين الحسن متلفيا فبغتوه بالقبض وجاهـــروا ســـابق الدين فى مبرم عقـــده بالنقض واستصحبوهما محمولين ، وسبقوا الخبر ركضا حتى دخلوا القلعة ، وكان واليها شاذبخت ، وهـــو معهم فى الباطن مطلعا على سر الشر الكامن فما احس بهم الشمس الا وقـــد كسفوه وأظهروا له خفى كرهم وكشفوه واعتقلوا الأخوة الثلاثة(٧) فى مطمورة وشمتوا القلوب بما جنوه فعادت غير معمورة . وجاء ابن الخشاب مقدم الشيعة فسفكوا دمه على الحالة الشنيعة وغاظ السلطان صـــلاح الدين هذا الخبر وتطاير من حلب الى مصر من نارهم الشرر ، ومن بعدها كم فاضت العبرات واستفاضت العبر .

---

(٧) يعنى أولاد الداية وكانوا من أخلص أصدقاء صلاح الدين وقد خرج صلاح الدين مسرعا من مصر بعد وفاة نور الدين وكانت مهمته الأولى رعاية شئون الملك الصالح كما قال وهناك فى حلب بذل الجهود لانقاذ أولاد الداية .

قال : ودخلت سنة سبعين وخمسمائة والملك الصالح في قلعة حلب مستقر وأمره مع أصحابه مستمر وانا في دار القاضي محى الدين مقيم ، والى التوفيق من الله مستقيم اترقب للانفصال الوقت ، ولا اجد من المقوتين الا المقت . وجاءنى من أخبرنى انهم وضعوا عليك من الاسماعيلية من يتمم حيلة وتقتل غيله ، فقلت ما مع هؤلاء سلامة ، وما على الكرم أن فارق أهل اللوم ملامة فتحولت عن المنزل النائى وجعلت الدأب دأبى ، وانقلبت الى حران وسيف الدين غازى صاحب الموصل قد خيم على سروج فقدمت على قصده العروج لأستأذن(٨) والى الركب اعرج(٩) وقصدت فخر الدين عبد رب المسيح وأنبأته بعزمى الصريح ورغبنى فى خدمة سيف الدين ، فأبيت وقلت ما جيت بهذه النيه فأخذ لى كتابا الى الموصل ، ومضيت اليها وأقمت بها على عزم العود الى بغداد لاجمع بأخى شملى لكن صدنى المرض ، وحرف مزاج جوهرى العرض وذلك فى شهر ربيع الأول . وشغف بالتردد الى كمال الدين بن الوزير جمال الدين محمد بن على أبى المنصور الجواد فكتبت اليه وقد عادنى(١٠) قطعة منها .

قل فى الكرام له مشبه وان كثروا
همة مباركة فى الشفا لها أثر
ليس فى السيوف سوى للمهند الأثر

قال : وسأذكر خروجى من الموصل فى أوانه فى ريعان الملك الصلاحى وعنفوانه قال : وطمع سيف الدين غازى فى بلاد عمه ، وعاد فخر الدين عبد المسيح الى خدمته وعاد عزه فى مكانته ومكنته ، واستعاد الخابور والرقه(١١) وحران وسروج والرها وأدرك فى تلك الأعمال كل ما اشتهى ، فمضى العدل ابن العجمى من حلب اليه للاصلاح ودخل له تحت الاقتراح وتمت المصالحة ، وعلق رهن أخوة مجد الدين فى الاعتقال ، وضيقوا عليهم فى القيود والاغلال ، والزموهم بتسليمه الحصون ورفضوا حكم المروة ،

---

(٨) فى الاصل : لاسنا .
(٩) فى الاصل : أعوج .
(١٠) فى الاصل دعانى .
(١١) فى الاصل : ورقه .

ونقضوا عهد الفتوة . وكان الموفق خالد بن القيسرانى قد وصل ونحن بدمشق من مصر وحمل معه لخاصته المال الوثر وأخذ أمان ملك الفرنج حتى عبر الساحل وطوى الينا المراحل ، ولزم داره بسكون وعقل ولم يدخل مع القوم فى شغل .

وأما صلاح الدين(١٢) فانه اعتقد أن ولد نور الدين يتولاه بعده أخوة مجد الدين وهم أصدقاؤه وخلصاؤه ، وغارلهم والملك النورى ، وقال : انا أولى بحفظه وصونه ، وكتب الى شمس الدين بن المقدم ينكر ما أقدموا عليه من تفريق الكلمة وكيف اجترأوا على أعضاء الدولة وأركانها بل أهلها / (١٧٧ ب) واخوانها وأنه يلزمه أمرهم(١٤) وأمرها ، ويضره ضرهم وضرها فكتب ابن المقدم اليه يردعه عن هذه العزيمة ويقبح له استحسان هذه الشيمة ويقول : لا يقال عنك أنك طمعت فى بيت من غرسك وأصفى مشربك ، وأضفى ملبسك فما يليق بحالك ومحاسن أخلاقك وخلالك غير فضلك وأفضالك فكتب اليه صلاح الدين بالانشاء الفاضلى : وصل كتاب الأمير أطال الله بقاه ، وأحطنا بانشائه والمكتوب وما نريد معرفته أنا لا نؤثر للاسلام وأهله الا ما يجمع شملهم ويؤلف كلمتهم ، وللبيت الاتابكى الا ما يحفظ أصله وفرعه ، ويدفع ضره ويجلب نفعه ، فالوفاء انما يكون بعد الوفاة، والمحبة انما تظهر آثارها عند تكاثر العداه ، وبالجملة أنا فى واد والظانون ظن السوء فى واد ، ولنا من الصلاح مراد لن يبعدنا عنه مراد ، ولا يقال لمن طلب الصلاح انك قادح ولا لمن القى السلاح انك جارح وما مرادنا الامصلحة تؤثر لا فتنة تثار ، وخدمة تنير لا مضرة تسدى وتثار فلو زرنا على غير هذا السبيل لما سلكنا مراجعة الخطاب ومطالعة الكتاب فلا يحمل أمرنا الا على أحسنه ، ولا يظن بنا الا الخير الذى طبعنا أخص بوجوده من معدنه .

قال : وكان عزم صلاح الدين ان يسارع الى التلاقى ، ويعتمد فى اصلاح الدولة وانجاح البغية اعتماد الوفى الوافى ، فاتفقت عوايق وطرقت طوارق راعت مباديها ثم أحمدت غاياتها ، وانحلت بعد الملمات المدلهمات

---

(١٢) فى الاصل : صلاح .

(١٣) فى الاصل : أمره .

غياباتها فمنها نوبة الكنز(١٤) ونفاقه ، ونوبة أسطول(١٥) صقلية ووصوله الى ثغر الاسكندرية وارهاقه ، وكان وصوله اليها فى السادس والعشرين من ذى الحجة سنة تسع وستين وانهزامه مستهل المحرم سنة سبعين .

قال : ووجدت كتابا من صلاح الدين الى بعض امراء الشام بشرح الحال وهو : هذه المكاتبة صادرة من الأمير بعد أن وصل الأسطول الصقلى الى ظاهر ثغر الاسكندرية حماها الله تعالى فى وقت الظهر من يوم الأحد السادس والعشرين من ذى الحجة ولم يزل متواصلا الى وقت العصر وكان ذلك على حين غفلة من الموكلين بالنظر لا على حين خفاء من الخبر فأمر هذا الأسطول توالت به الأخبار وعظمت الشناعات عنه فى الآفاق والاقطار وروع ابن عبد المؤمن(١٦) فى البلاد المغربية وهدد به فى الجزائر الرومية صاحب قسطنطينية . وكان عسكر الوالى غايبا ولم يحضر فى ذلك اليوم الا العدد القليل منه وأصبحوا فى يوم الاثنين الذى يليه على ما هم عليه من انتشار راجل الثغر فاشار جماعة من عقلاء الاتراك بأن يرد الناس من المكان البعيد ويقفوا من السور بالمكان القريب فخلا البر وأمكن الأسطول الصقلى فى النزول الأمر ، واستنزلوا خيولهم من الطرايد ، وراجلهم من المراكب فأما الخيل فعدتها على ما حققته أخبار الاسارى على الانفراد وعلم بالارجاف السابق الى البلاد الف وخمسمائة راس منها رامحة الف وتركبولية خمسمائة وكانت عدة راجلهم فى كل شينى مائة وخمسين راجلا فيكون ثلاثين الف

---

(١٤) حاكم اسوان قام بحركة مضادة لصلاح الدين والدولة الصلاحية وجمع حوله العناصر الموالية لدولة المصريين لكن أبا الهيجاء السمين استطاع ان يردع هذا التمرد .

(١٥) كان وصول أسطول صقلية الى الاسكندرية جزءا من الاتفاق الذى تم بين عمورى ملك بيت المقدس وبين وليم الثانى لغزو مصر بناء على طلب من عمارة اليمنى وزملائه . كانت الخطة أن يتقدم عمورى بجيشه برا بينما يغزو اسطول صقلية الاسكندرية بحرا وبدأ فعلا وليم الثانى تنفيذ الجزء الخاص به من العمل أما عمورى فلم يتمكن وذلك بانكشاف أمر عمارة اليمنى فى مصر . ومن الجدير بالذكر أن هذا الاسطول لم ينجح فى تنفيذ مهمته ومن ثم قفل عائدا الى صقلية . انظر الروضتين (٢) ١ — ٢ — ٥٩٨ .

(١٦) هو أبو محمد عبد المؤمن بن على القيسى الكومى المتوفى سنة ٥٥٨ هـ . ابن خلكان . وفيات الاعيان جـ ١ ص ٣٩٠—٣٩٢ .

مقاتل عن مائتى شينى . وكانت عدة الطرايد ستا وثلاثين طـريدة تحمل الخيل وكانت عـــدة السفن التى تحمل آلات الحـــرب والحصار من الأخشاب الكبار وغيرها ست سفن ، وكانت عـــدة المراكب الحمالة برسم الازواد للرجال أربعين مركبا وفيها من الراجل المتفرق وغلمان الخيالة وصناع المراكب وأبراج الزحف ودباباته المنجنيقية ما يتمم خمسين الف راجل ولمـــا تكاملوا نازلين على البر خارجين من البحر حملوا على المسلمين حملة لم يكن حاضرها من أصحابنا سوى محمود بن البصار فاستشهد فى سبيل الله واستمرت الحملة على المسلمين الى أن أوصلتهم الى السور وجدفت مراكب الفرنج داخلة الى المـــاء ، وكانت به مراكب مقاتلة ومراكب مسافرة فسبقهم أصحابنا اليها فخسفوها وأغرقوا(١٧) ما احترق منها واستمر القتال الى وقت العشاء من يوم الاثنين المذكور ونزلوا بخيامهم وضربوها على البر ، وكانت ثلثمائة خيمة وباتوا على الاهتمام بالات الحصار ولمـــا اصبحوا يوم الثلاثاء زحفوا وضايقوا ونصبوا ثلاث دبابات وثلاثة مجانيق كبار تضرب بحجارة ســـود استصحبوها من صقلية . واما الدبابات فانها تشبه الأبراج فى جفاء أخشابها وارتفاعها وكثرة مقاتليها وزحفوا بها الى أن(١٨) قاربت السور ولجـــوا فى القتال عامة النهار . ووردنا الخبر الى منزلة العسكر بفاقوس على جناح الطاير يوم الثلاثاء ثالث نزول / (١٧٨ ا) العدو فاستنهضنا العساكر الى الثغرين الاسكندرية ودمياط وكان الأميران بدر الدين أيوب وفارس الدين تميرك فسبقا الى الاسكندرية برجالهما وانضاف اليهما من كان فى اقطاعه بالبحيرة المجاورة للاسكندرية من المقاويد وغيرهم فى يوم الثلاثاء والأربعـــاء وعاد بعض عسكر تقى الدين من برقه من القرب واستمرت الحـــرب ، وقدمت الدبابات ، وضربت المنجنيقات وزاحمت(١٩) الســـور الى أن صارت منه بمقدار الاماح فاتفق أصحابنا على ان فتحـــوا أبوابا من قبالتها من السور ففتحوا الأبواب على غفله ، وخرجـــوا منها على غرة ، وركب من كان هناك من الأمراء والخيل وخرجوا فارين من الأبواب ، وتكاثر صياح اهل الثغر من جميع الجهات فاحـــرقوا الدبابات المنصوبة وصدقوا القتال وانزل الله على المسلمين النصر وعلى الكفار الخـــذلان والقهر . ومازالت المكافحة بالسيوف

---

(١٧) فى الاصـــل وأحرقوا . وبها لا يستقيم المعنى .

(١٨) اضافة يقتضيها السياق .

(١٩) في الأصـــل : زاحمته .

الى وقت العصر من يوم الأربعاء وقد ظهر فشل(٢٠) الفرنج ورعبهم ، وقصرت عزايمهم وفترت حربهم ، واحرقت آلات قتالهم ودخل المسلمون الى الثغر لقضاء فريضة الصلاة ، وأخذ ما يكون به قوام الحياة ، وهم على نية المباكرة . وكنا قد سيرنا أحد المماليك فركب فرسا وجنب فرسين فاوقف الثلاثة طاويا واخذ رابعا من ضيعته ودخل الثغر بعد العصر بعد ان أعلم كل من لقيه من الاتراك أنه فارقنا على المعديه ، وسبق بين ايدينا بالبشارة ، فارتفعت الصيحة وعلت وخرجت الخلايق التى كانت للصلاة والعشاء دخلت وثابت اليها عزايمها بعد الكلال ، وتداعت رجالها وقبائل الثغر الى القتال واوقع الله فى قلوب المسلمين أنا فى أوساطهم وبين ظهورهم ، وصار الخارج من بيته يروم ان يتسرع ليجاهد بين أيدينا ، ولنرى اثر الذى كان يرجوا أن يصل خبره الينا وقضى الأمر ونزل النصر وواقعوا الفرنج فى خيامهم وهاجموهم ، وقد كاد يخلط الظلام وتسلم أهل البلد الخيام بما فيها من همم الملوك العالية وتحملاتهم الغالية وفتكو(٢٢) فى الرجالة أعظم فتك ، وتسلم أصحابنا الخيالة فلم يسلم الا من نزع لبسته ورمى فى البحر نفسه ، وتقحم أصحابنا البحر على بعض المراكب المذكورة فخسفوها واتلفوها فولت بقية المراكب هاربة وجاءتها أحكام الله غالبة وبقى العدو بين قتل وغرق وأسر وفرق واحتمى ثلثمائة فارس فى رأس تل فأخذت خيلهم ثم غلب أهل الثغر عليهم فقتلوا وأسروا وفيمن أسر رجل كبير كان عمر خمسين شينيا ، وأما المأخوذ من اليزك والنعم والآلات والأسلحة فقد ذكر انه لا يملك مثله ولا يوجد لفرنج الشام أيسره ، وأما الخيل فانها اكاديش فحول ولم يعد معهم فرس واحد منها .

واقلع هذا الأسطول من الثغر يوم الخميس ولا يعلم اين يقصد من البلاد والأعمال على انه لا بقية فيه لحرب ولا قتال . وكان عدوا ثقيلا وكان خطبه جليلا الا أن ذكروا أن مكيدتهم فى اللقاء ضعيفة وحضر من عقلاء خيالتهم المأسورين من استجبر وأمر أن يصدق فذكر أن النفقة كانت فى الفارس لخمسة أشهر وهم الف فارس منهم سبعمائة نقديته من ثلاثين دينار مشاهرة الى خمسة وعشرين دينارا الى عشرين الى خمسة عشر ومنهم

---

(٢٠) فى الاصل : فتل .
(٢١) فى الاصل : وقتلوا .

من له خمسون ومنهم من له مائة من مشاهيرهم ، وأن الاقطاعية ثلثمائة فارس وان التركبولية خمسمائة فارس لكل منهم خمسة دنانير ومؤنته على ملكهم على ان فرسا لا يموت ، ومنهم من له عشرة دنانير وللقائد والرئيس عشرون دينارا وأن العدة تناهز اربعة ألف رجل خارجة عن جرخية(٢٢) وسرجندية عدتهم خمسة آلاف رجل وان المقدمين ثلاثة أحـدهم ابن عم ملك صقلية والحمد لله على هـذه النعمة التى احـدثت للقلوب استبشارا وخفضت للشرك علما ورفعت للتوحيد منارا ، وأظهرت للملة الحنفيـة على أعدائها استعلاء واستظهارا ، وأعلنا الأمير ليكون فى شكر الله عليه مشاركا ويأخذ من حمده تعالى بحظ يتعين على مثله أن لا يوجـد له تاركا ان شاء(٢٣) الله تعالى .

قال : وفى أول هذه السنة سنة سبعين قام من كان المعروف بالكنز(٢٤) فى الصعيد وجمع من كان فى البلاد من السودان والعبيد ، وكان عنده من الأمراء اخ لحسام الدين ابى الهيجاء السمين ففتك به وبمن هناك من المقطعين ففارت حمية اخيه وثارت للثأر وساعده أخو السلطان الملك العادل سيف الدين وعز الدين موسك ابن خاله وجاءوا الى مدينة / (١٧٨ ب) طود(٢٥) فأتى السيف على أهلها ، وباتت(٢٦) بعد عزها بذلها ثم قصد الكنز فسفك دمه وظهر بعد ظهور وجوده عدمه ولم يبق للدولة بعد كنزها كنز وسال(٢٧) دمه فلم ينتطح فيها عنز .

---

(٢٢) والجروخ هكذا تجمع وهى آلة حربية تستعمل لرمى السـهام والنفط المشتعل والحجارة

انظر ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٣٥٣ ، ٤٥٦ .

قارن :

R. Dozy, Dict. Arabes., Paris, 1927. 2. Toms.

(٢٣) فى الاصـل : انشـا .

(٢٤) حاكم أسوان فى أول أيام صلاح الدين . عن الكنوز وهم احدى بطون (ربيعة) انظر البيان والأعراب ٥٠ ، وأيضا اتعاظ الحنفاء مخطوط ورقة رقم ٦٠ ب . وقد أشار اليهم كل من أبى شامة وابن واصل . ومعظم المصادر العربية أشارت الى ثورة الكنز . انظر ابن شداد ــ النـوادر السلطانية ص ٤٧ حاشية رقم ٥ .

(٢٥) بلدة بصعيد مصر قرب قوص .

(٢٦) فى الاصـل : بات .

(٢٧) فى الاصل غير واضحة .

ذكر توجه صلاح الدين الى دمشق وتملكه

قال : ولما خلا باله مهد لاستضافة الممالك ، وأوضح بعزايمه اقامة سنن المسالك وخرج الى البركة مستهل صفر ورحل الى بلبيس ثالث شهر ربيع الأول وكان رسل صاحب بصرى شمس الدين جاولى وشمس الدين ابن المقدم عنده تستورى فى البعث والبحث زنده وتستقدمه وجنده فسار ووصل اليه بالسرى الى أن أناخ على بصرى فاستقبله صاحبها بكل ما اسعد به ذخره ، وشد أزره ، وسدد أمره ، واستضاف الى بصرى صرخد(١)، وتفرد بالسبق الى الخدمة وتوحـــد (٢) وسار فى الخدمة معه الى الكسوة وركب صلاح الدين يوم الاثنين انسلاخ شهر ربيع الأول وسار واعتمد فى تعبية(٣) عساكره الاستظهار وحسب(٤) ان فى البلد من يقوى للامتناع ويقوى بالدفاع فأقبل وهو يسوق حتى دخل دمشق وخرقها كأن الله خلقها الى دار العقيقى مسكن ابيه وبقى جمال الدين ريحان الخادم فى القلعة على تأبيه فراسله حتى استماله واغزر له نواله حتى تملك المدينة والقلعة ، وملك ابن المقدم داره وكل ما حواليها وبذل له طلبته التى اشار اليها وأظهر أنه جاء لتربية الملك الصالح وتدبير ملكه وأنه أحـــق بصيانة حقه . واجتمع به أعيانها واصبح هو سلطانها فزاره القاضى كمال الدين الشهرزورى فوفاه حقه من الاحترام وأجراه على مالاق بسعادته والسلام .

فصـــــل

من كتاب فاضلى عن صلاح الدين : ان الله ملكنا دمشق عناية وعنوة ولم يكتب فيها بحمد الله الى خطيه خطوة ، ولا حدثت عثرة فيقال فى أمرها لعله يقال ، ولا استعيرت صفة فى ذكرها لعلة تقال . وعرض فى المبادىء تعرض(١) من العسكر الدمشقى فعلموا أن الهشيم تذروه الرياح(٢) والصريم

---

(١) فى الاصل : صـــلخد .
(٢) فى الاصل : غير منقوطة .
(٣) فى الاصل : تعبـــة .
(٤) فى الاصـــل : رحب .

(١) فى الاصل ساقطة . الضبط من الروضتين(٢) ١—٢—٦٠٢ .
(٢) فاصبح هشيما تذروه الرياح . سورة الكهف اية رقم ٤٥ حيـــث يتمثل فى أسلوبه بها .

يمحوه الصباح ، والسيف أصدق أنباء والحق أعز أبناء والباطل يضمحل عفاء . « والزبد يذهب جفاء(٣) » الا وأنا رأينا العفو أقرب للتقوى ، وأمثل فى سلوك الطريقة المثلى فحفظنا الدماء فى أهبها وأرحنا القلوب من نصبها ، ورددنا السيوف عن قرب تغيظها فى قربها ، وتركنا الرماح وأطرافها تضطرم وقدا وتضطرب حقدا ، وقلنا لنار الغيظ « يانار كونى بردا(٤) ونظرنا فى أحوال البيت النورى أعلاه الله فاذا هو قد أطفيت مصابيح نوره ، وكاد ذكره فى الذهاب يلحق بمذكوره فاستأنفنا تدبيرات نؤمل أن الله سبحانه يقيم البيت الكريم على عمده ويغنيه عن مسايدة من لا يغنيه عن سنده ، وقضينا حق الملك الكريم الصالح وحق والده رحمه الله باظهار الاحسان فى كفالته ، واستشعار الجميل فى خدمته . وقد كان ريحان مانع بتسليم القلعة ريثما علم ان لا يبقى بالرماح ريحانه وبقدرما احتوى ضال فكره وأبصر حيرانه فأعطيناه أمانا وبوأناه منها مكانا ، وصعد الأجل الأخ سيف الاسلام فملكها وسكنها واستقر ركابنا بالدار النجمية لتنفيذ الأمور والأوامر ، وتدبير الرعايا والعساكر .

قال : ولما سمع المدبرون للملك الصالح باقبال صلاح الدين المؤذن بادبارهم حاروا فى حوارهم ، ولبسوا شعار استشعارهم وراسلوا بالعنف معنفين وبالعسف معتسفين . وكان الواصل منهم قطب الدين ينال بن حسان وقد تجنب فى قوله الاحسان وقال له : هذه السيوف التى ملكتك مصر وأشار الى سيفه تردك وعما تصديت له تصدك فحلم عنه السلطان واحتمله ، وتغافل كرما وأغفله وذكر أنه وصل لترتيب الأمور ، وتهذيب الجمهور وتربية ولد نور الدين ، واستنقاذ أخوة مجد الدين . فقالوا له : أنت تريد الملك لنفسك ونحن لا ننزع فى قوسك ولا نبنى على أسك فارجع حيث جئت أو اجتهد واصنع ما شئت ولا تطمع فيما ليس فيه مطمع ، ولا تطلع حيث مالصعودك فيه مطلع . ونال من تقطيب القطب ينال ما أحال الحال وأبلى البال وابدى التبسم وأخفى الاحتمال .

---

(٣) سورة الرعد آية رقم ١٧ .

(٤) سورة الانبياء . آية رقم ٦٦ « قلنا يا نار كونى بردا وسلاما على ابراهيم » .

ذكر رحيل السلطان الى حمص
مستهل جمادى الأولى

قال : ولما رأى أن القصد لا يفضى الى مقصود ، وأن القوم لا يميلون الى نهج محمود عول على أخيه سيف الاسلام طغتكين/(١٧٩ أ) فى دمشق وأنالتها ورعاية رعيتها ، ورحل ونزل على حمص يوم الاحد حادى عشر جمادى الاولى ودخلها يوم الثلاثاء . وبقيت القلعة على الامتناع الى أن أذن الله تعالى لها فى الاستفتاح(١) ورتب عليها من الأمراء من تفى حركته بسكون الدهماء وقلعتها امتنعت وعلى سيوفها ارتفعت فسار الى حماة وأخذها فى مستهل جمادى الآخرة ومضى ونزل حلب فى ثالث هذا الشهر على قصد الحصر ، وكانت الشتوة ذات أنواء وثلوج ، وعواصف هوج ، ومضايق كربة بلا فروج ومداخل شدة بلا خروج . وجرت شدة امتدت للمساق عدوى الشقاق مدة . وعصم الله حشاشته فى تلك النوبة من سكاكين الحشيشية(٢) ، وأجرى من حفظه ما كان فى غيب من المشية . قال وسبب ذلك أن الحلبيين لما اشتد عليهم الحصار استعانوا بالاسماعيلية ، وعينوا لهم أموالا وضياعا ، وبذلوا من البذول أنواعا . فجاء منهم فى يوم بارد من فتاكهم كل عات فعرفهم صاحب بوقبيس ناصح الدين خمارتكين . وقال لهم : لأى شىء جئتم ، وكيف تجاسرتم على الوصول وما خشيتم فبدروه بسكينهم وقتلوه ، وجاء من يدفع عنه ففتكوا به(٣) وبالجراح أثخنوه، وعدا أحدهم ليهجم على السلطان فى مقامه وقد شهر سكين انتقامه وطغرل الامير جاندار واقف ثابت حتى وصل اليه فشمل بالسيف رأسه ، وما قتل الباقون حتى قتلوا جماعة وأقام السلطان الى مستهل رجب ثم رحل والى حمص تحول وبحصر حصنهم اشتغل . وسبب ذلك أن قومص طرابلس ريمند الصنجيلى كان فى أسر نور الدين رحمه الله مذ كسرة حارم ، وبقى فى الأسر أكثر من عشر سنين ثم سعى الامير فخر الدين الزعفرانى فى خلاصه .

---

(١) فى الاصل : الا ستمرا .

(٢) المحاولة الاولى لقتل صلاح الدين وهو محاصر حلب فى ٥٧٠ هـ — ١١٧٤/١١٧٥ م انظر :

B. Lewis, Saladin & The Assassins, **BSOAS**, XV, 1953.

وأنظر أيضا لنفس المؤلف

The Assassins A Radical Sect in Islam, London, 1967.

(٣) في الاصل : فقتلوا .

وكان فى آخر عهد نور الدين فغلب عليه وهو أكبر خواصه وخلصه بمبلغ مائة وخمسين ألف دينار ، وفكاك ألف أسير واتفق هلاك ملك الفرنج فى أول هذه السنة فتكفل بالملك بين يدى ولده المجذوم فلما نزل السلطان على حلب وجد فيما طلب كاتب الحلبية الحشيشية فجرى منهم ما ذكروا ثم كاتبوا القومص بطرابلس وقالوا له أنت طليقنا ، وكنت رفيقنا فى الأسر والآن أنت عتيقنا وحقنا عليك متعين وبرهان ذلك بين فجاء الخبر بتوجه القومص فى الافرنجية الى حمص فرحل عن حلب مستهل شهر رجب فرجع الملعون ناكصا على عقبيه خوفا مما يقع فيه ويتم عليه .

وأقام السلطان على قلعة حمص شهرا ، وقد استشهدت من الجانبين عدة وجرت شدة والسلطان مقيم فى بيت فى أعالى المدرسة يشاهد منه الحرب حتى هاجم رجاله يوما باب القلعة وهجم عليهم الرجال من فوق فقبضهم أهل القلعة ثم راسلوا السلطان فى طلب الامان فهاب لاجل الرجال المقبوضين عليهم فأعطاهم الأمان ، وسلموا الحصن وسلموا وتجاوز عما اجرموا ثم نهد الى بعلبك وفيها خادم يعرف بيمن فسلم الموضع بسلم وهدنه وذلك يوم السبت رابع شهر رمضان .

قال : ووجدت كتابا عن السلطان الى أخيه سيف الاسلام وهو بدمشق يبشره بفتح قلعة بعلبك وهو بالمثال الفاضلي ومنه : نحن نبشر الأخ أدام الله طروق البشاير سمعه ونزول المسار ربعه بفتح قلعة بعلبك بالسلم الذى أغمدت فيه السيوف وقرت به من الأولياء العيون ورغمت من الأعداء الأنوف وكتابنا هذا اليه وسنجقنا فوق قلعتها مستقل ، ومعتمدنا من أعلى شرفاتها مطل ، فالحمد لله الذى قرب كل بعيد وسهل كل شديد وجعلنا حيثما كنا مقصودين بعادات نصره محفوظين بمعقبات أمره ، والأخ يضرب نوبة البشارة ويظهر اثر موهبتها السارة ليزيد الله العدو هوانا ويعلم كل من خالف سلطاننا أن الله لم يجعل له سلطانا .

قال رحمه الله فى ذكر ما آل اليه أمره وهو بالموصل : قال فوصل نجاب وذكر أنه فارق صلاح الدين بالكسوة فهاجنى الطرب لقصده لسابق معرفته ، وقديم وده ، وخرجت من الموصل رابع جمادى الاولى وعبرت الخابور في مخاضة المجدل وجئت الي الرقة ودخلت الي دمشق في ثامن جمادي

الآخرة ، وصلاح الدين نازل على حلب ، فنزلت فى مدرستى ، وعـدت الى منزلتى ، والفيتها وفيها مدرس يتولاها وقالوا أن العماد خلاها . فدخلـت اليها واخرجته وأبعدته عن النهج الذى نهجه وكنت فى غبر المى وعقـابيله ارتقب اعتدال مزاجى ، فاقمت حتى استقمت وصبرت الى أن عاد السلطان الى حمص وانتظرت طيب الزمان ومطاوعة الامكان ، وقصدت السـلطان وقد تسلم قلعتها فى شعبان قال وهنأته فى فتح بعلبك بأبيات منها :

(١٧٩ب)فتح تسنى فى الصيام كأنما	شـكرا لمـا منح الأنام صـيام
من ذا رأى فى الصـوم عيد	سعادة حلت لنا والفطر فيه حرام
باليمن هذا الشـهر مشـهور	كما قد عم بالبركات هذا العام

قال : ولزمت خدمته ارحل برحيله وانزل بنزوله ، وأواصـل حضرته وأنشده شعرى وأقول ليت شعرى الى ما يؤول أمرى . أحضر فى كل وقت على سبيل المجالسة ونهج المؤانسة لا أمت بمعرفة ولا أنبس ببنت شـفة ولمـا كثر ترددى اليه وتوددى وتصبرى على العطلة وتجلدى اقترحت على قرائحى الاكثار للسلطان من مدايحى ، واحتجت الى أحياء الموات والاذكار بسابق الحرمات فهام به الفهم وكثر فيه النظم الى أن دخلت فى خدمته وصرت كاتب حضرته فشغلنى انشاء الرسايل عن انشاء المدايح ، فغلب النثر وقل النظم ولو ذكرت مدايحى فى هذه السنة لكبر حجم الكتاب وخرج عن حـد الاسـهاب .

قال : وكنت ليلة عند السلطان وهو يذكر جماعة من الشعراء وعنده ديوان الامير مؤيد الدولة اسامة بن منقذ ، وهو به مشغوف وقد استحسن قصيدة له طائية ولو عاش السلطان لاقر بفضلها فنظمت فى مدح السلطان كلمة أولهـا :

عفا الله عنكم ما لكم أيها الرهط	قسطتم وفى قلب المحب لكم أقسط
شرطتم له حفـظ الوداد وخنتم	حنانيكم ما هكذا العهد والشرط

ذكر الوقعة الاولى مع المواصلة والحلبيين

قال رحمه الله : لمـــا تسلم السلطان قلعة بعلبك عاد الى حمص وخيم ثامن رمضان بظاهرها وخيمنا فى عاشره على حماه . وكان قد وصل عـــز الدين مسـعود أخو سيف الدين غازى صاحب الموصل نجدة لها ولما عرفوا أن السلطان مشغول بالحصون تركوا وجاءوا الى حماه فحصروها فعرفوا أنهم لا ينالون منها فرحلوا عنها . وراسل مقدموا حلب المواصـــلة النايب السلطانى فى حماه قبل وصوله اليها أننا وصلنا للصلح والاجتماع فيما يعود بين الجانبين بالنصح والنجح فكتب الى السلطان وهو ببعلبك يحثه ويحضه لعله يتم عقد صلح لا يتأتى نقضـه فمضى السلطان فى خف وجمع غير وجــف رجاء للايتلاف وتنكب مذهب الخلاف فجاء من الحلبيين الأمير ســعد الدين كمشتكين وشهاب الدين أبو صالح بن العجمى واجتمعوا بالسلطان لمـــا طلبوا أن يرد عليهم الحصون ، واستقر أن يقنع بدمشق نايبا عن الملك الصالح وله خاطبا وعلى الانتماء اليه مواظبا ، وأن يرد كل ما أخذه من الخـــزانة وأن يسلك فيه سبيل الامانة . فلما رأوه لكل ما يلتمس منه مجيبا ، ولكل ما يستبعدونه من مرام قريبا ، ورأوه فى عسكر خفيف ومطمع عفيف ومجمع لفيف قالوا خبره صحيح وأن الذى يعرض له من عجزه صريح ، وهو فى قافلة ما أهون أخذها ، فشرعوا فى الاشتطاط ، وجاوزوا حد الاشتراط ، وطلبوا الرحبة وأعمالها فقال هى لابن عمى ناصر الدين محمد بن شيركوه ، وكيف الحق به فى رضاكم المكروه فقاموا متغضبين ونفروا وارتحلوا ونفذوا وراءهم من يردهم فما اكترثوا به ولا احتفلوا وذهبوا، وهم يقولون كيف نرتاع لقول هؤلاء والى متى نصبر على البلاء ، وفارقنا الى مخيمهم وربضوا تلك الليلة فى مجثمهم ، وأصبحوا على الرحيل الى جانب العاصى واظهـــروا أنهم على المصاف وعزم الانتصاف فعبر السلطان الى سفح قرون حمـــاه خيامه وركـــز فى مقابلتهم لمقاتلتهم أعلامه وقد اجتمـــع عســـكر الموصــــل والجزيرة وحلب والسلطان ينتظر وصول أمرائه الواصلين الى دمشـــق من مصر قال : فوصل فى ذلك الوقت لتوفيق الله ومساعدة قدره العســـكر المصرى فى عشرة من المقدمين الاكابر وهم تقى الدين عمر وعز الدين فرخشاه ابنا أخى السلطان ، وشهاب الدين محمود بن تكش خاله وخواص رجاله ووصلوا الى المعركة أمام الزحف واقتسموا ميمنه وميسرة تقدموا زحفا وسدا واستدنوا ما ظهر بعيدا فأبصروا أولئك ما لم يبصروه وانكروا ما لم يعرفوه،

وأسودت الدنيا فى عيونهم وأحسوا باخفاق ظنونهم ، ونحن وقفنـا وراء الصفوف نبصر عجاجهم ونسمع ضجاجهم ثم رأينا الغبرة تبعد عن صـوبنا فقلت أن النصر لحزبنا فان الهزيمة لو كانت علينا لثـارت الغبرة الينا فكان الأمر كما ظننته ، فان السلطان لما هزمهم طردهم الخيل حتى طرد النهار الليل وسار حتى زحزحهم عن أثقالهم وأحمالهم ودوابهم ورجالهم . وحقن الدماء وسكن الدهماء ونزل فى منزلتهم واستقال الدين من زلتهم ثم سرنا ونزلنا بقرا حصار(١) من أعمال حلب وهنـاك عيدنا عيد الفطر وشـكرنا الله على أداء فريضة الصوم واقتناء فضيلة النصر . (١٨٠ ا)

كتاب فاضلى الى زين الدين الواعظ فى المعنى أوله : الله سـبحانه وتعالى الحمد عندنا عوايدهم قد صارت كالأمر المعروف ، والواقع المألوف والضياء اللازم للصباح ، والعرف المتضوع مع الرياح فلا تستغرب غرايبها وان كانت بديعة ولا تبهر عجائبها وان كانت وسيعة وشيعة . وكان الحلبيون والمواصلة قد صاروا بنيانا مرصوصا فى الخلاف ، وعقدا واحدا فى الشقاق والانحراف ، وحصروا حماة أياما وهم فيها المحصورون ، وأن جندنا جند الله وهم المنصورون ثم ارتحلوا عنها ولم تزل المراسلات تكرر والمعاقدات تنقض بعد أن تقرر الى أن كان آخر رسايلهم ما بيننا الا السيف فرضينا به حكما وأرسلنا حبلهم على غاربهم ، وعلمنا أن البغى معترض دون مطالبهم ولما كان يوم الاحد تاسع عشر شهر رمضان ركبنا والعساكر قد انتظمت عقودها والاطلاب قد اطرد مسرودها ، والسيوف قد كادت تلفظها غمودها ، والرماح ساقها الى الاوراد ورودها فلما تصافحت أطراف القنا مع النحور ووصلت صدور الرماح الى الصدور ، تخور له الصخور وانزل الله نصره علينا فلاذوا بالفرار ، وذموا عواقب الاغترار ، واستولت على أبطالهم حلقات الاسار وحاز العسكر المنصور من القوة والعتاد وآلات الحرب والطراد ما ملأ كل يمين وشمال حتى لم يبق فارس الا قاد الجنايب ولا راجل الا سبق الراكب بما استكثر من المراكب وكان المقام كريما واليوم عظيما ، وكان هذا الفتح لفتوحنا أميرا وهذا اليوم بما بعده من سـعادات الايام بشيرا ، وكتـابنا ونحن على أثر المنهزمين سايقون الى مستقر القرار الذى يسترجون سـابقون

---

(١) فى الاصـل : نفرا .

قال ونظمت فى هذه الوقعة فى مدح ناصر الدين محمد بن شيركوه قصيدة أولها :

وكتيبــة مثــل الرياض كأنما	راياتهــا منشــورة أزهــار
وكأنما خضر البيــارق للقنــا	ورق وهامات العداة ثمــار
وكمايم الاغمــار عن زهر الظبى	فتقت فكل صــقيلة نــوار
وعلى شعاع الشمس لمحديدها	يبدو كما يعلو الجبين نضــار
عبيتها بعــزيمة مشفوعة بالنصر	منــك تعينهــا الاقــدار

ومنهــا :

أهــلى بجلق والعراق مراقبوا	حالى وطــرف رجائهم نظــار
وقطعت أبــواب الملوك اليــكم	ليكون منك الى النجــاح بدار
بادرت نحــوك بالرجاء مؤمــلا	والصــفو تهجر دونه الاكــدار

قال : فنزل السلطان قرا حصار بنية الحصار فجاءت رسلهم بالاقتياد وأجابوا الى المراد وقالوا : اقنعوا بما أخذتموه الى حماة ولا تشمتوا بنــا العداة فاسترد عليهم كفر طاب والمعرة على انا لا نسومهم المضرة والمعرة واستوفينا عليهم الايمان المستقرة وأحضرنى السلطان فى ذلك اليوم لتحرير نسخة اليمين ورآنى الحلبيون الذين فارقتهم انى الى جانبه السلطان جالس وبأمره مستأنس فنظروا شزرا وعظموا ما ظنوه نزرا فما وقف الســلطان فى عرض ولا شاب صحة قوله بمرض وسألهم فى المعتقلين أخوة مجد الدين فأجابوا وفرجوا عنهم وتم الصلح وعم النجح ورحلنا ظافرين ظاهرين ونزلنا بحماة يوم الاثنين ثانى عشر شوال وهناك القينا العصا فما اســتقرت بنا النوى ونوينا الى حصار بعرين .

ذكر وصول رسل دار الخــلافة

قال : ولما وصل السلطان الى حماه تلقاه رسل دار الخلافة بالتشريفات السنية والأمثلة الرضية والجنايب العربية والتحف الامامية والتقليد والتمليك والتحكيم والتفويض فأفاضوا على السلطان وأقاربه الخلع واتبعــوا فى التشيع به الأتباع والشيع ولبس الأهبة السوداء كأنه بدر التمام تجلى أنواره

فى الظلام ، وكأنه انسان عين الاسلام نظر من سوادها ، وصحيفة السعادة تلألأت امدادها من مدادها ، وركب(١) ولواء الحمد فوقه خافق والمركب الخاص تحته سابق وافيض على ناصر الدين محمد بن شيركوه بن عم السلطان تشريف مقارب للتشريف السلطانى منير منيف وخص من الديوان العزيز بالتفضيل والتمييز .

قال (١٨٠ ب)/ولم يبق فى ذلك الصوب الا حصن بعرين مع الامير فخر الدين مسعود الزعفرانى ، ولما وصل السلطان الى الشام لجأ الى ظل الاكرام ، ولازمه ظنا منه أنه يقدمه على العساكر ويجريه على عادته فى العهد النورى سقاه الله فان نور الدين رحمه الله قدمه على العساكر فى آخر عمره ، وأقطعه الرها وحماه وكفر طاب وحمص وسلمية وبعرين فعرف انه لا يتم له هذا المراد ولا يصح عليه الاعتماد فأصبح يوما مفارقا ولحجاب الحجى خارقا ، فنزل السلطان على بعرين فأخذها سلما فى العشر الاخر من شوال وانتظمت تلك الفتوح على تواتر ونوال .

قال : واذكر انا عبرنا نهر العاصى عايدين وقد انكسفت الشمس وادلهم النهار وغلب القلوب الاستشعار ، وخفيت الرسوم ، وظهرت النجوم ، وجينا الى حمص ثم الى بعلبك ثم البقاع بعزم العود الى دمشق ، وأقطع حماه خاله وصهره شهاب الدين محمودا ، وانعم بحمص على ابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه ووصلنا الى دمشق فى هذا الشهر برايات الفتح والنصر قال :

ذكر ما أسفر عنه حالى ومال آمالى

قال : قد قرر حسادى عند السلطان ، وقالوا : شغله الكتابة وهى منصب الأجل الفاضل ، وهو يستنيب فيه من يراه من الأفاضل ، وهذا (تصرفه برفد جزيل)(١) ووجه جميل ، والسلطان مع شدة رغبته فى متوقف والى ظهور وجه النجاح فى أمرى متشوف وكنت قد آنست مدة مقامى فى

---

(١) اضافة يقتضيها السياق حيث انها فى الاصل ركب .

(١) ما بين الحاصرتين فى الاصل : غير واضح والضبط من الروضتين ٢ ١ — ٢ — ٦٤١ .

المعسكر بالأمير نجم الدين بن مصال وهو ذو فضل وأفضال(٢) وله يد عند السلطان فى النوب التى قصدوا فيها مصر لا سيما عند كونه محصورا بالاسكندرية ، فلما ملك أحبه وأختار قربه فلزمت له التردد اليه ، وجعلته الوسيط بينى وبين الأجل الفاضل والخدمة من أنجح الوسايل وقفت خاطرى على تقاضيه نظما ونثرا فدخل الأجل الفاضل الى السلطان وعرفه أنه فى راغب وأنه فى ترتيبى حاجب فقال له أنت كاتبى ومدبر ملكى وصاحبى ولو رتبت كاتبا لظن أن فى الحال نقصا . فقال أنا لا يمكننى الملازمة الدايمة فى كل سفرة وغدا تكاتبك ملوك الاعاجم ولا يستغنى فى ذلك عن عقد الملطفات وحل التراجم ، وأنا ما أحضر فى كل أوان والدولة مفتقرة الى كافل بها غير متوان والعماد يفى فى الوفاء باختراع كل بكر واختراع كل عوان، ولك اختاره وقد عرف فى النوبة النورية مقداره ، والجواد عينه قراره ، فوافق قوله مراد السلطان وعرف أن الأجل الفاضل أجل فضلى وحلى عطلى وأخذ خط السلطان بما قرر لى من شغلى فاعتل كبد من حسد وانحل عقد ما فسد ، وراح من الفضل ما كسد ، وعاود الروح منه الجسد .

ودخلت سنة أحدى وسبعين

والسلطان فى مستهل المحرم فى مرج الصفر من دمشق بالمخيم والاسلام وافى المغنم بادى المغرم والعساكر على حظوظها من العز وخاصته والسلطان حاث ولسر عزمه باث فبينا نحن فى تصميم عزم وتتميم حزم اذ وصل رسل الفرنج وقد جنحوا للسلم وغرضوا بسوم الهدنة وضرعوا فى تقلد المنة وفيهم ماجد غلام هنفرى وهو يثق بقوله السلطان فما زال يرددهم حتى دخلوا تحت كل شرط وقربوا من المراد كل ما شحط وتقبلوا بكل ما فيه للاسلام غبطه ، فترجمت الفايدة ووضحت فى المصالحة المصلحة الزايدة . ولما تمت الهدنة أذن السلطان لعسكر مصر فى الانصراف واستجداد العدد منها والاستئناف والاقامة ريثما يستوعب المغل ويخرج فى المهام الدخل وسار الأجل الفاضل ليزول به هناك الشواغل ولما تم مع الحلبيين الصلح لم يقطع المواصلة مواصلتهم بالعتب والرسل والكتب فحملوهم بالبعث بعد البعث على النقض والنكث وحالفوهم فى الباطن وهم مستمرون معنا على الوفاق الظاهر ، واتفق أن المواصلة نفذوا الى الحلبيين من أخذ عليهم

---

(٢) فى الاصل : غير واضحة ويحتمل قراءتها أفضال .

المواثيق وتوجه ذلك الرسول منهم الى دمشق ليأخذ للمواصلة من السلطان عهده ويكشف ما عنده فلما خلا به لخلابه طالبه بنسخة الرأى المقتدح والشرط المقترح فغلط وأخرج من كمه نسخة يمين الحلبيين لهم ناولها اياه فتأملها وأخفى السر وما أبداه وردها اليه وقال لعلها قد تبدلت وما أعلمه بالقضية التى عليها اشتملت فعلم الرسول انه غلط ولم يمكنه تلافى ما فرط وقال السلطان : كيف حلف الحلبيون للمواصلة ومن شرط ايمانهم أنهم لا يعتمدون أمرا الا بمراجعتهم لنا واستئذانهم ، وعرف من ذلك اليوم أن العهد منقوض والوفاء مرفوض والغدر عندهم مفروض .

قال: وفى أول هذه السنة وصل الى دمشق الجماعة الذين خرجوا/(١٨١ أ) من بغداد موافقة لقطب الدين قايماز وما بدا(١) لانفسهم بالالتجاء الى السلطان والاحتراز .

ذكر السبب فى ذلك

قال : كان قطب الدين قايماز محكما فى الدولة الامامية من أول الأيام المستنجدية ، وهو الآمر والناهى ، والمفاخر والمباهى وقد بلغ فى التحكم الى أقصى غايات التناهى ، والامام المستنجد توفاه الله وهو عنه غير راض واجترأ عليه والقدر عنه متغاض ، وبسط يده فى الدولة المستضية ، وصل وعقد وأصدر وأورد ، وقرب وابعد وصوب وصعد ثم تجبر وتكبر ، وقوى على وزير الخليفة عضد الدين بن رئيس(٢) الرؤساء وأخافه ورام اتلافه حتى استعاذ منه برباط شيخ الشيوخ وسلم بحمايته من أذى المذكور فارتكب مخالفة الخليفة وخرج عن أمر السنة الشريفة وعن له ان يحيط بالدار احاطة الحصار وحسب أنه فاز من القوة والجند بالاستظهار فلما نجح الخليفة فى ازعاجه واعجازه لم تف حقيقة عزه بمجازه وحكم باذلاله القدر الذى حكم باعزازه ، ولم ينج لما احيط بداره الا بفتح باب فى جداره وركب وخرج مفلتا غير لافت،

---

(١) فى الاصل : وابدا والضبط من الروضتين٢ ١-٢-٤٤٦ .

(٢) هو عضد الدين أبو الفرج محمد بن عبد الله بن هبة الله بن المظفر ابن رئيس الرؤساء أبى القاسم كان استاذ الدار فى أيام الخليفة المستنجد ووزر للمستضىء ثم قبض عليه فى ٥٦٧ هـ وقتله الباطنية فى ٥٧٣ هـ . خريدة القصر . العراق . ج ١ ص ١٣ ، ١٤

وأنظر ابن الاثير . الكامل . ج ١١ ص ٢٩٦ .

وحل بالحلة المزيدية فى أوائل ذى القعدة سنة سبعين ففارقها متوجها نحو الموصل متشوشا أمره متشورا فكره قد خلاه خلانه وخانه اخوانه واحاط به غمط احسان الامام وغفرانه وجذبه الى الأجل نهاية زمانه ، ومرض وعانى المضض وتوفى فى بعض قرى الموصل بقربها وتحول الى تربها ، وتفرق من صحبه من أصحابه فى البلاد ، فمنهم من رجع الى بغداد على سبيل السداد ومنهج الرشاد ، ومنهم من جاء الى الشام والتجأ الى ظل الاكرام ، ومنهم حسام الدين تميرك بن يونس وكان فى قديم الدهـــر للسلطان المؤمل ففرح بلقائه وابتهج بروائه ، ومنهم عز الدين اقبورى بن أرغش، وطالما اليهتمطش فانه كان صهره قديما وعنده كريما ، وأسف عز الدين على ما تركه من ماله وكان ذا خزائن مملوءة ، وآلاف مؤلفة من بدر النضار وعقود الجواهر والخيل المسومة ، فخرج بفرشه منهلا خاليا وعنها ساليا فآواه واعز مأواه وكتب فى حقه الى الديوان العزيز كتب شفاعة فما كان الذنب الذى ارتكبوه مما يقبل الصفح ، وما زال السلطان يسعده ويسعفه حتى صح وزنه ومسح حزنه وهون عليه ذهب مصر ذهاب ما ســـواه ولكن أين الترب الذى تولى بعدما تولاه . وكان عز الدين أقبورى عند السلطان أعز الأعزة وعزمه فى مصالحه غصب المهزة والسلطان خال بنته وهى زوجة عز الدين فرخ شاه ابن أخيه وصعب عليه من محل عزه فحاجه ولزمه بحكم القرابة والمروءة والسماحة حـــاجة وكثر على الديوان العـــزيز لحرمانه ومواته وخدماته احتجاجه .

قال : وهذا فصل من كتاب فى المعنى(١) الى نجـــم الدين نجاح عن السلطان وهل تكون الشفاعات الا لأهل الكباير ، يسع عـــواطف الأيام الا لذوى الجراير وعفو أمير المؤمنين وهو أرأف بأوليائه وارحم ، ولا غنى عن جذبة من جذبات همته المباركة فى التكفل بأمر المذكور لازالت مكارمه متكفلة بانجاح الأمور .

قال : ولما سار الأجل الفاضل الى مصر اعتمد على فى تنفيذ الأوامر والتفرد للاصدار والايراد بالأمر . وواظب السلطان على الجلوس فى دار العدل والقيام بدار البدل لكشف المظالم وبث المكارم . ومن جملة ما حصل فى خزانته بمصر من الاعلاق النفســـية دوى محلاة نضارية وفضية ثقيلات

---

(١) في الاصـــل : المعنـــاه .

الأوزان غاليات الأثمان فتسلط عليها يد أياديه وفرقها على جماعة مواليــة فقال لى يوما اكتب لأمين الدين قاضى حماه الى مصر بدواة محلاة فقلت بل اكتب بدواتين أحدهما للطـــالب والأخرى للكاتب فتبسم استبشارا بالسؤال واهتزازا للنوال ووقع بهما فى الحال .

وكتبت الى الأجل الفاضل رسالة فى صفة الدواة ، ومنها قد أحاط العلم الأشرف بأن الكاتب معظم أدواته دواته ، وبها يتوفر وتحيى حرماته ومواته وهى صاحبته التى لا يؤثر طلاقها ومعشوقته التى لا يحب فراقها ، المرضعة لبنها الهيف الهيم ، الملحفة النهار ليلها البهيم .

قال : ومدحت فى مستهل شهر ربيع الأول الملك تقى الدين وكان قد فوض اليه ولاية دمشق بقصيدة أولها :

أحـــاط بـــورد وجنتـــه الجـــنى بنفســـج خط عارضـــه الطـــرى
وجـــال وشاحه فى الخصر منـــه مجـــال الوهم فى السر الخـــفى
وجـــاذب حقفه غصـــن قصيـــف فيا ويح الضـــعيف من القـــوى
(١٨١ب)/يواخذ طرفهبالذنب قلبى فياجور الســـقيم على البـــرى

ومنها :

يفيـد العـاقل اليقظ التغـابى فياجـــور الســـقيم على البـــرى
ولم يصب السهام على أعتـــدال بهـــا لولا اعوجـــاج فى القسى

قال : وشاع الخبر عن المواصلة بالخروج فى الربيع ، وحشد الجموع وحشر الجميع ، واطلاق السنتهم بالتشنيع . وكنا فى كانون ونحن لبيوت المغانى فى دمشق بانون وأمرنى السلطان بأن أنشىء عنه الى الملك العادل سيف الدين وهو بمصر ما يشيع له السر ، ويعرفه الأمر ، وأن يلمز الأمراء بالاستمداد لوقت الاستدعاء قال ثم ظهر من المواصلة الخـــلاف وصح عنه الأرجاف وجاءوا الى نصيبين بجنودهم وبنودهم وحشدوهم فكتب السلطان الى الأمراء بالاستدعاء والاستبطاء ، فوصل من مصر من وقـــع على حضوره التنصيص ، ونفذ بالأمر التعميم والتخصيص . ووصل الأجل الفاضل وشملت الفواضل ، ونجحت الوســائل . ولـــا تحقق اجتماع الموصلية والحلبية ،

وباتفاقهم بالهمم الأبية أيقنا منهم صدق القصد وضلالهم عن نهج الرشد فرحلنا من دمشق فى شهر رمضان فما عرجنا على بلد ، ولا انتظرنا ما ورانا من مدد حتى جزنا حماه ، وخيمنا بقرب بوقبيس فى مرجه وبعث النصر فى أوجه وبحر الظفر فى موجه فالقينا ذلك الشعب مشعبا فاسمنا الخيول وضممنا الذيول فركب السلطان عند استكمال امداده، واحتفال أجناده ففرض وفرض وحرض وحرض وصرح بالجد وعرض وجاءنا الخبر انهم فى عشرين الف فارس سوى سوادهم وما وراءهم من امدادهم وانهم موعودون من الفرنج بالنجدة ، وأنهم يزيدون كل يوم فى القوة والشدة وما كان اجتمع من عسكرنا سوى ستة آلاف فارس فقال الصواب مسيرنا اليهم والاقدام عليهم . ونحن بالقعود لا نستزيد عددا وهم كل يوم فى زيادة جموع ، وما بقي وراءنا من أنا ننتظر وبقدومه نستظهر فرتب عسكره ميمنة وميسرة وقوى بقلبه قلبه ، وأمد الله بحزب ملائكته حزبه .

ذكر الوقعة مع المواصلة والحلبيين يوم الخميس عاشر شوال

قال : وأقمنا بقية شهر رمضان بالمرج القبيسى وبدلنا فقد الحرب بالنسى ونقول قد وصلوا الى حلب وما عرفنا منهم الطلب فان خرجوا فى الطلب الى حدودنا خرجنا اليهم بجدودنا وذكرناهم بعهودنا . ولما وصلت المواصلة الى حلب اطلقوا من كان فى الأسر من ملوك الكفر وفيهم ابرنس الكرك وجوسلين خال الملك وقرروا معهم أن يدخلوا من مساعدتهم فى الدرك . وكان وصولنا الى مرج بوقبيس فى الخامس والعشرين من شهر رمضان فلما عيدنا ووصل الخبر بوصولهم الى تل السلطان عبرنا العاصى عند شيزر ورتبنا العسكر وأعدنا الاثقال منها الى حماه وجردنا الكمت والكماه وسار يوم الثلاثاء بعزم اللقاء وتفرق الخيل على الجباب والمصانع يوم الأربعاء ، وأخذ حظها من الارتواء ثم ادلج ليلا وصبح القوم بكرة الخميس بالخميس وعرس بقريهم الأسد مع العريس . ولما طلع الفجر نظروا واذا الخيل عليهم مطلة وبوارق البيارق فوقهم مستهلة ، والصواهل محمحمة والقناطل مدمدمة والجاليشية دايرة والجاوشية فاغرة والخبايا مرنة والمنايا مرجحنة فحين غامرهم الجيش خامرهم الطيش وقالوا ما أوقع هؤلاء أما عرفوا أنهم عند بحارنا جداول وعند جبالنا جنادل وعند صقورنا بغاث وعند ذكورنا اناث فامتطت جبالهم الرماح وهزوا بالمراح الرماح وشاموا بوارق القضب

وانقضوا بشهب الشهب ، وسلوا من النبل الجعاب ومن الزعف العباب وصف سيف الدين غازى صاحب الموصل أمام قلبه وتراكمت قدامه سحب صحبه وقد فوق اليهم السهم كأنه مستوى بيت القوس وشمس برج الأسد للفرس يخطب كفو الكريم لاقامة العرس ملابس وللجمال جميل اللبس، شباب حوله شباب ، وشهاب تجلله من لثام الزرد سحاب بعزه معتز وبغروره مغتر ، وبعطف اللدن مثل رمحه الى اللقاء مهتز بعمره غير مبال لا يخطر الخطر له ببال والملك الصالح مع الحلبيين فى خلابه بارز فى أطلابه وقد جمع كل بطل كمى وأجدل ضرحى ومن ساير قبائل الاكراد ومن المماليك الاتابكية / (١٨٢ أ) كل كميش وهجان واكديش وكان الأمير مظفر الدين كوكبرى بن زين الدين على كوجك على ميمنته وهو فى كتيبته الشهبا وداهيته الدهيا ودهته الحشيا ، وفى مقابلته ميسرتنا وفيها شمس الدين صاحب بصرى ومعه جماعة مجمعة فحمل عليها مظفر الدين ففلجها وطحنها وأوهى عقودها وأوهنها وساق اثقالها ، وقتل رجالها فظنوا أنهم ظفروا وفازوا وكثروا وحازوا .

وكان السلطان فى قلبه وراء التل وهم لا يبصرونه فتحين اليه فل الميسرة المكسورة فهاج نحوه بالهمم الموتورة ، وساق وأشرف من التل على القوم، وقال : لا ونية بعد هذا اليوم وبدر من أصحابه أميران بالجملة واختلطا مع الجاليشية فأحاطوا بهما ولم يفلتا واتلفا ، وحينئذ ظهر البرج مبرح الغطا وكانوا حلفوا انهم لا يبقون على أحد ولا يقرون من الصلاحية روحا فى جسد .

وقويت أطماعهم بظفر الميمنة وقتل من لقوه فى المتدمة فحملوا حملة واحدة راكضة الينا طاردة والسلطان واقف فى صفة الف بالفه ، واثق بزحفه ، مايح بحره فى غدير زاعفه . وكانت حملتهم من مسافة بعيدة ، وشقه مديدة فقال لأصحابه تثبتوا وقفوا ودعوهم يتعبروا(٣) ويركضوا وينقصتوا قواهم ويرفضوا واذا قربوا منا ابعدناهم ، واذا وصلونا(٤) قطعناهم فنحن

---

(١) فى الأصل : فظمها .
(٢) فى الاصل : غير منقوطة .
(٣) فى الاصل : يعتبرا .
(٤) فى الاصل : مطموسة .

نعطيهم الأشواط ، ونوليهم الافراط ، وهم يصلون متسابقين متفرقين فاذا دنوا من بنيان صفنا المرصوص انقض عليهم جداره ، ولفح وجوههم أواره . وكانت حملتهم وقدام الالوف مائون وامام المائين عشرات وقد سبقتنا آحاد منتشرات ، فلما حملتهم حملتنا وصدمتهم صدمتنا عكستهم وأركستهم وردت أولهم على آخرهم وسيارهم الى سايرهم ، ولم يعرف ساقيهم ما تم على مقدمهم ، ووقع التخاذل والتفاشل فى ميمنتهم وميسرتهم ، وركب السلطان اكتافهم حتى اخرجهم من خيامهم ووكل بسرادق سيف الدين غازى عز الدين فرخشاه ، وركض وراءه حتى علم انه تعداه ، ووقع فى الاسر جماعة من الامراء المقدمين ثم من عليهم بالخلع والتشريفات بعد نقلهم الى حماه ، واطلقهم واعتقهم بعد أن استرقهم .

ثم نزل فى السرادق السيفى فتسلم خزاينه واصطبلاته ومطابخه ورواسى عزه ورواسخه ، والقدور على المواقد رقود ، والندامى المواعيد قيام وقعود ، والخمور مقدمة ، والزمور مقدمة ، والملحنون والمرقنون(٥) جلوس وبأيدى البدور شموس ، والخيل على طايلها صفون ، وما نطول الحديث فللحديث شجون ، فبسط فى جميع ذلك أيدى الجود وفرقها على الحضور والشهود وأبقى منها نصيبا للرسول والوفود ، ورأى فى بيت الشراب بل فى السرادق الخاص طيورا من القمارى والبلابل والهزاز والببغاء فى الأقفاص فاستدعى أحد الندماء هو المظفر المعرى الأقرع وهو مما به يتجشى ويتجشع فقال له : طب نفسا فاستبدل من الوحشة انسا وخلع عليه وقال له : خذ هذه الاقفاص واذهب بها الى سيف الدين واوصلها اليه وسلم عنا عليه وقل له : عد الى اللعب بهذه الطيور فهى سليمة لا توقعك فى المحذور .

ولما كسر القوم وولوا مدبرين ركضوا الى حلب فلم يقف بعضهم على بعض ، وظنوا ان العسكر وراءهم ركضا وراء ركض ، وما سار وراءهم عسكر لكنهم لشدة رعبهم قطعوا نياط القلب ، وما صدقوا كيف يصلون الى حلب فيغلقون أبوابها ويسكنون اضطرابها .

---

(٥) المرقن هو الكاتب ، وقيل المرقن يحلق حلقا بين السطور كترقين الخضاب ، ورقن الشيء أي زينه . انظر لسان العرب .

وأما سيف الدين فانه ركض فى يومه من تل السلطان الى بزاعة(٦) ، وجاوز فى سوقه الاستطاعة ، وفرق وفارق الجماعة .

ومن الانشاء الفاضلى فى هـذه الوقعة الى الأستاذ جلدك بدمشق كتاب منه نشعرك ايها الأستاذ الأجل بكسرة المواصلة والحلبيين والديار بكريين يوم الخميس عاشر شوال على تل السلطان بعد أن وقفوا وواقفوا ، وأخلف الله ظنونهم بما نكثوا وعصوا وخالفوا فأظهر الله فيهم القدرة ودمر عليهم بهذه الكسرة ، وأخذهم من امرهم على غرة ، وأجرانا على أفضل عوايدنا من الاستظهار والنصرة .

ولم تزل الجيوش بعقب المنهزمة فاذا طرح الراكب الى الأرض عفت عنه السيوف المتضرمة ، وكذلك عودنا الله أن نغفر مع الاقتدار ، ونقيل عظيم العثار ، والحمد لله الذى مكن لنا فى الأرض ، ولم يجعلنا ممن يفعل فى العباد ما لم يرض .

قال رحمه الله :

(١١٨٢) ذكر وصول شمس الدولة تورانشاه أخى السلطان من اليمن ودخوله الى دمشق فى سابع شوال

فكتب السلطان بخطه من الانشاء الفاضلى :

« قال أنا يوسف وهذا أخى قد من الله علينا انه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع اجر المحسنين »(١) فالحمد لله الذى أذهب الحزن(٢) ووهب

---

(٦) بليدة فى وادى بطنان من أعمال حلب بينها وبين منبج نحو ميلين والى حلب عشرة أميال . معجم البلدان ٤٣٧/١ .

(١) سورة يوسف ، آية رقم ٩٠ .

(٢) اقتباس من الاية ٣٤ سورة فاطر التى نصها « وقالوا الحمد لله الذي اذهب عنا الحزن » .

الحسن واغاث الشام بسحاب منشؤه(٣) من اليمن ، وارضانا باللقاء اليوم كما اسخط أمس بالفراق على الزمن .

نفسى الفـداء لغايب عن ناظرى ومحـله فى القلب دون حجـابه
لولا تمتـع مقـلتى بلقـائه لوهبتهـا لمبشرى بايابـه

واسعد الله المجلس السامى فى مقدمه ، واسعد هـذه الاعمال بموطىء قدمه ، وأجرى الأرزاق بحكمى سيفه وقلمه واعاد الاسـلام واهله بنعمه وجوده عن نقمة عـدمه ويقسم الخـادم انه لو جاز أن تسـافر نفس عن جثمانها ، وترحل عن أجفانها لسرت مهجته الى لقـاء آمالها ، واهتدت مقلته الى مجلسه الكريم بما أفاض من الأنوار على مسالكها ، والحمد لله ثم الحمد لله ثم الحمد لله قول الشاكر الذى قـدر النعمة حـق قدرها ، وعلم بعد الاطالة انه عاجز عن شكرها ، وانهض الله بركاتها حمله وسقى الله طريقا أوصله وان نحلت سحب عليها فاجفانى ، وأهلا بليلة قدر لقاؤه فى صبيحتها بقدر وصبيحة عيد فطر هلالنـا فيه نير وجهه الأكبر ، ولـو ان اليوم يصام فيه الفرض لنذر كلما كررته الجمعة صيامه ، ولولا الشـغل بالعدو الذى لا مشغل للقلب الا به لالقيناه من حيث كان فى مقامه الجليل مقامه وما انطوت(٤) فى الغسولة(٥) ليلة الاثنين الثانى والعشرين من شهر رمضان .

عاد الحديث الى ما جـرى بعد الكسرة قال : اما صاحب الموصل فانه أسرع اليها أوبته وشكر سلامته واستأنف اللهو واللعب ، وأكل وشرب ولعن الدرب واصطنع(٦) الطعن والضرب وأما الحلبيون فأنهم أوثقوا الأسباب وغلقوا الأبواب واسقطوا(٧) فى أيديهم حين افرطوا فى تعديهم ، وتصرفوا بالاستبصار وتهدفوا للحصار ، وأما السلطان فانه عبر بحلب ولم يعـرج عليها ولم يعج اليها ونزل على حصن بزاعه(٨) وتسلمه وفى سلك ملكه نظمه

---

(٣) فى الاصـل : منشـاوه .
(٤) فى الاصـل : ومنطوت .
(٥) الغسولة : من قرى دمشق معجم البلدان ٣–٨٠٢ .
(٦) فى الاصـل : واصطمن .
(٧) فى الاصل : وسقطوا .
(٨) في الاصل : غير منقوطة وقد سبقت الاشارة اليها .

وذلك يوم الاثنين الثانى والعشرين من شوال . وأما منبج فانه كان فيها الأمير قطب الدين ينال والسلطان لا ينال منه الأحسان ، وكان فى جر عساكر الموصل اليه أقوى سبب ولا يحفظ معه شرط أدب ، ويواجهه بما يكره فلما قرب من بلده آثر أن يثيره منه ويأخذه من يده فسلط النقابين على حصنه فنزل مستأمنا ، وسلم القلعة بما فيها والذخاير التى تحويها فقوم ما تسلم بلثمايه الف دينار وساومه على ان يخدم ويأخذ بلده وذخيرته وعدده فأبت نخوته ونبت حميته ، وأنفت غيرته وغارت أنفته ، وسهل عليه عسيره وامر أمره ، ومال عليه فى ماله دهره ، وكأنما جمع ذلك المال ليفرقه هذا الجود ، ومطل بديون المكارم ليقضيها هذه النقود . ومضى الى صاحب الموصل فاقطعه الرقة وبقى فيها الى أن أخذها السلطان منه مرة ثانية فى سنة ثمان وسبعين .

وعادته عادة منبج وصاروا بحاله الذى جمعه متفرقين ، ثم عاش بعد ذلك أحوالا وأثث أحوالا ، وجمع مالا وانتهت به صروف الدهر وأحداثه واستحقه من بعده وراثه فاقرضوه السلطان على ان يقتنوا به املاكا ، وينالوا به من فارطهم استدراكا ، فانقضى عصر السلطان ونعب بالتفرق غراب البين ولم أدر كيف جرى حديث ذلك البين . قال : ثم سلم منبج الى من بجده عمرها وبجوده غمرها ، وبسياسته ساسها وأنس ناسها .

ذكر النزول على عزاز(١) فى ثالث ذى القعدة

قال : ولما كان حصن عزاز أعز الحصون ، والاسلام ضاحك عن ثغرة المصون وهو من الثغور الاسلامية التى يتعين سدادها ، ويجب بأمداد الرجال امدادها اشفق السلطان لموافقة الحلبيين للفرنج من هذا الحصن فانه ان تسلمه الفرنج عادت معاقد الاسلام فى معاقلها الى الوهن ، فنزل عليها وقطع بين الحلبية وبين الفرنج وكان حصارها / (١٨٣ ا) حصار حلب على الحقيقة ، وخيم عليها وأخذ بمضايقها وهى محمية بالرجال محشوة ، بالأبطال مملوة ، بالعدة والأسلحة قوية من عراداتها وزنا يزنها

---

(١) عزاز بفتح أوله وتكرير الزاء وربما قبلت بالالف فى أولها ، والعزاز الارض الصلبة وهى بليدة فيها قلعة ولها رستاق شمالى حلب بينهما يوم وهى طيبة الهواء عذبة الماء .
معجم البلدان ٣ — ٦٦٧ .

بالقوادم والأجنحة ، وهى غـير ملبية لدعاتها ولا مبالية بعداتها لا تهب أذعانا ، ولا تهاب سلطانا فخطب السلطان كيف تسلط خطبها ، وقدم نصبه فى تقديم منجنيقات ونصبها ، ورجم الحصن رجم الزانى المحصن ، واستشـهد عليه وفيه جماعة، وصعب الأمر واستمر الحصر وعيل الصبر ، وضـجر المقاتل وحرض بالباس الباسل . وأخرج السلطان مناطق الذهب ونقوده ، وقلايد العقيان وعقوده يعنى أن من أغنى أغناه ، ومن أبلى أبلاه فقامت هناك للموت أسواق واشتريت باعـلاق النفوس من النفايس أعلاق .

ذكر قفز الحشيشة على السلطان ليلة الاحـد حـادى عشر ذى القعـدة(١)

قال : وكان الأمير جاولى الأسدى خيمته(٢) قريبة من المنجنيقات ، وكان السلطان يحضر فيها كل يوم لترتيب المهمات ، وحض الرجال ، والحث على القتال ليكون المقاتل اذا كان بمرأى من السلطان احتد واشتد وبذل الجهد ، وهو غار يناديه بار يبث أياديه . والحشيشة فى زى الأجناد وقوف والرجال عنده صفوف اذ قفز واحد منهم فضرب رأسه بسكينه فعاقته صفائح الحديد المدفونة فى كمته عن تمكينه ، ولفحت المدية خـده فخدشته ، وساحت قطرات دم غشته ، فقوى السلطان قلبه وثبت لبه وحاش رأس الحشيشى وجذبه ووقـع عليه وركبه وأدركه سيف الدين يازكوج فأخـذ حشاشة الحشيشى وبضعه وقطعه وجاء آخـر فاعترضه الأمير داود بن منكلان فمنعه فجرحه الحشيشى فى جنبه بحد سكينة ، وكانت منيته بعد أيام فى تلك الضربة . وجـاء آخر فعانقه الأمير على بن ابى الفوارس وضمه من تحت ابطيه وبقيت يد الحشيشى من ورائه لا يتمكن من الضرب فنادى اقتلونى معه فقد قتلنى واذهب قوتى فطعن ناصر الدين محمد بن شيركوه بطن الجارح بسيفه ومازال يخوضه حتى القاء لحتفه وخرج آخـر من الخيمة منهزما وعلى الفتك بمن يعارضه مقدما فصادفه الأمير شهاب الدين محمود فتنكب عن الطريق ووافقه حسن التوفيق فثار على الكلب أهل السوق فقطعوه اربا اربا . وأما السلطان فانه ركب وجـاء الى سرادقه وصوته جهورى

---

(١) المحاولة الثانية لقتل صلاح الدين .

(٢) فى الاصل : جمعـه .

وزهوه قسورى ، ودم خده سايل وعطف روعة مايل ، وطـوق كراغنـده بتلك الضربة مشكوك مفكوك لكن نهج سلامته بوقاية الله وعصمته مسلوك فما أفرج روع روعه حتى علم أن جرح خـده سالم ، وأن صبح جده باسم فانه كان سلا سلامته وأقام القوم قيامته من بعد دين رغب ووهب واحترز واحتجب ، وضرب حول سرادقه على مثال خشب الخركاه تازيرا وأوثقـه تحجيرا ، وجلس فى بيت الخشب وبرز للناس كالمحتجب وما حدث الا من عرفه ومن لم يعرفه صرفه ، وما قرب الا من يثق باعتقاده ويعتمد على سداده واذا ركب وابصر فى موكبه من لا يعرفه أبعده ثم سأل عنه فان كان مستشفعا أو مستسعدا أشفعه(٣) وأسعده .

قال : وأنس بى فمن عرفته قربه ومن أثبت على كفايته اسـتكفاه(٤) وندبه وقد اصطنعت أقواما فرعوا المراقب ، وافترعوا المراتب فجحدوا من بعده عارفى(٥) ومعرفتى ، وانكروا صفوتى وصفتى ، وليتنى خلصت من شرهم ونجوت من ضرهم ، وكان السلطان الى مستنيما ولصحبتى مستديما حتى لا يؤثر غيبتى عن ناد يحضره وكل ما اسوغه من أمر يحضره .

ذكر مكرمة فاضلية

قال : قال الأجل الفاضل للسلطان تنبيها له فى حقى على الاحسان ان الذى عينت للعماد من الجامكية(١) بدمشق حوالته ولم يتسـع به عندنا ضائقته ، فان الطرق مقطوعة ، والسبل ممنوعة فعين له من الخـزانة فى الصحبة كل شهر ما ينفقه فقرر لى مثل ما كان لى من قبل واستمر المبلغان وتقلدت بهذه العارفة طولى الامتنان ومن تمام انعامه انى هنيته بعزاز يوم عيد الأضحى على العادة ثم جئت اليه العصر مسلما وليعض الأحوال مستعلما فقال ما جئت اليوم مرتين الا لأمر باعث وقد فهمت المعنى . ووقع له أنى لتشريف السلطان متقاضى وأننى عليه الا بما يرضاه لى منه غير راض . وأرسل الى الخزانة واخذ لى أحسن واثمن ثوب وعمامه واتبع ذلك نفقة مشفوعة بكرامة سوى ما قرره للعيد من وظيفة واقامة .

---

(٣) فى الاصـل : اسعفه وكذا يقتضى الجناس .
(٤) فى الاصـل : استكفاؤه .
(٥) فى الاصـل : عارفنى .
(١) جامكية هى الراتب الجارى على شخص ما ، انظر ابن مماتى — قوانين الدواوين ص ٣٥٥

ذكر فتح عزاز يوم الاثنين حادى عشر ذى الحجة

(١٨٣ب) قال : وأقام السلطان عليها ثمانية وثلاثين يوما يسومها القتال سوما حتى وجت جنوبها ، وكثرت ثقوبها ، ونحبت قلوبها ، فاقتصر من فيها بعد طول النزال على النزول وانتهت مدة وقوفنا منها على الطلول وسلموا القلعة كرها ، قال : وقلت فيها قصيدة أولها :

سلطت المطل على نجازها وضيمت حتى فى مجازها

وصالها من الحياة منيتى من لى بالفرصة فى انتهازها

وجنتها الوردة فى احمرارها وقدها البانة فى اهتزازها

شمس الضحى فى الحسن لم تضاهها بدر الدجى فى التم لم يوازها

ومنها

تمل من فتح عزاز نصرة أوقعت العداة فى اغترارها

اليوم ذلت حلب فانها كانت تنال العز من عزازها

ذكر خلاص رجل مسلم من نكبه عظيمة بشفاعة كريمة

قال : كان عسكر حلب مدة مقامنا على عزاز يطلب من عسكرنا غرة فأغارها يوما على العلاقة وبلغ الينا صريخ المخافة ، فركب السلطان والعساكر معه نحو الصارخ وأخذ الحلبيون ما وجدوا وعادوا فما أدرك أصحابنا الا فارسا فأخذوه وسيروه الينا .

وجاء السلطان وهو مغتاظ ومعه من أصحاب الموتورين قوم غلاظ فأحضر وأمر بقطع يده ، وكان المأمون باقامة تلك السياسة حسام الدين سنقر الخلاطى وهو كامل الكياسة فقلت له بمسمع من السلطان سهل ساعة لعله يقبل منى شفاعة ، ثم قلت هذا لا يحل وتدرك بل دينك عن هذا بحل وما زلت اكرر عليه الحديث حتى تبسم ، وشاهد عبوسى فتشر ، ورجع

عما به ثم أمر بحبسه ، ودخل ناصر الدين بن أسد الدين وكلح وبسر ودمذم وزمجر وقال : لم لا يقتل ولماذا اعتقل فوعظه السلطان وسكن غيظه ثم أطلق سراحه وتم نجاحه .

ذكر النزول على حلب منتصف ذى الحجة

قال : ولما امنا من جانب عزاز وجدنا من الله فى عدته النجاز سرنا الى حلب ونزلنا عليها عند حاضر الياروقية ، والسلطان يركب كل يوم مع العسكر ، وربما طاف حول البلد وتأمل أسواره ، واستوضح بعيانه أسراره ، وأقمنا نتصرف فى الاعمال ونصرف العمال لجباية الأموال ، والبلد فى ضجيج وأجيج وأمر مريج ، وسب تشنيع وتجنيس فى القد وتطبيق وتنويع فما تم الا ألسنة تعيث وطبول تستغيث والمراسلة بالقول العنيف ، والمواصلة بالتنفيذ والتعنيف ، والسلطان لا يهمه غمهم ولا يغمه همهم ويزيد من حمد الناس له ذمهم ، وقد علم أنهم جاهلون(١) بنيبهم ذاهلون وانه سوف ينبوا حدهم ويخبوا وقدهم .

قال : وكان حصن حارم قد تولاه سعد الدين كمشتكين واشفق عليها ، ومضى اليها خوفا من النزول عليها وما ظن أن السلطان يعجل من عزاز النجاز فلم يرمنها الى حلب الجواز فلما حضرناها وحصرناها ضاق كمشتكين بالمقام فى حارم ذرعا فعاد يمترى فى الضراعة الينا ضرعا ويقول : لو فسحتم لى فى دخول حلب لقضيتم من وفائى بشرط خدمتكم المجب ، وهو يخشى انه ان استمر هناك مقامه بطل فى سلك جماعته انتظامه ، وتفردوا دونه بما يصدرونه ويوردونه ، وهو على النار الحامية وعساكرنا قد أخذت عليه الطريق فكتب الى السلطان يسأله ان يرفع عن نهجه الحجر ، وكتب الى الحلبيين يسألهم ان يراسلوا فى أمره فراسلوا السلطان فى شأنه وان يقلدهم من أجازته طوق امتنانه فانه أول حضوره يبتدىء بالوصول الى حضرته والمثول لخدمته وقرروا على انفاذ معروف رهينه تقيم عنده الى أن يدخل

---

(١) فى الاصل : جاهلان .

عليهم ويستوفى عليهم فى اليمين عقده ونفذوا بحكم الرهن نصرة الدين(١) بن زنكى حتى يدخل الرسول ويخرج فأمرنى بالدخول فى صحبة الرسول وهو شمس الدين الوزير أبى المضاء فلما دخلوا أبعدوا عنا الغلمان وأفردونى ورفيقى فى مكان ضيق بغير اسراج ولا مرفق ولا بساط ولا كساء ولا خبز ولا ماء وبتنا بليلة الغدر(٢) ونحن جياع عطاش ولا لحاف ولا فراش وعندنا جماعة يحرسون فانهم يشتمون ويشمتون ، ويلعنون ويطعنون ، وما أنسنا حتى تبسم الفجر وقلنا لعله يرتفع الحجر . / (١٨٤ ا) فاحضرنا عند الملك الصالح وعنده ابن عمه عز الدين مسعود أخو صاحب الموصل وكانوا عملوا نسخة يمين فما نظرت فى شرط ولا تعيين فحلفناهم كما أرادوا وسكتنا فيمانقصوا وزادوا وخرجنا الى غلماننا ودوابنا وهم فى آخر نفس وخرجنا الى السلطان كأنا قد نشطنا من قيد وعرضنا النسخة وقلنا له كل من حلف بهذه اليمين يمين ولا كانت حلب ولا كمشتكين .

قال : وجاء كمشتكين وعبر آمنا ولميزل منافقا مداهنا وعاتبنى السلطان وعصب بى جرمهم وألزمنى حكمهم ثم عرف الحال والآن المقال وعاد اليهم رهنهم . وتوبتنى تلك النوبة وصحت الانابة وما حدثت نفسى بعدها برسالة ولا تعرضت لعثار يحوجنى الى استقالة ، ورفهت قدمى ووجهت قلمى أتوسل بالخط لا بالخطى واسطوا بقلمى الذارى على نوى السطى وأرسل الرسل برسايلى ولا أخرج من فضاء فضايلى ولا أدخل فى لواذع عواذلى قال :

ودخلت سنة اثنتين وسبعين

والسلطان بظاهر حلب مقيم وللمصابرة فى حصرها مستديم ، وكنا نؤثر أن تصير الكلمة واحدة ، والالسنة لسنة الجحود جاحدة ، والملك

---

(١) اسم « نصرة الدين » مكرر مرتين .

(٢) فى الاصل : القدر وكذا المرجح ولا احتمال لأن تكون القدر لأن النزول على حلب فى منتصف ذى الحجة ، والقدر فى العشر الاواخر من رمضان كما ورد فى الحديث .

الصالح من حكم الخارجين خارجا حتى يتولاه السلطان بالتربية ويبادر الى ندائه بالتلبية . لكن قومه قاموا بالاصرار على الاصرار ، وسدوا عن مطالعة سبيل الأنوار ثم عادوا الى السلطان مستعطفين وللاحسان مستسعفين وعرفوا أن العقوبة اليمة ، وان العاقبة وخيمة فدخلوا من باب التدلل والتذلل ، ولاذوا بالتوصل والتوصل(١) واظهروا التودد ، واكثروا التردد ، وحضروا بأذهانهم بعد ما غابوا واعترفوا بأنهم أخطأوا وما أصابوا .

وصفى السلطان وصفح ، وأصلح واصطلح ، ولما ملك انتجع وأبقى للملك الصالح حلب وأعمالها ، واستقرى كل عثرة فأقالها ورد اليه عزاز واعتذروا عن كل ما أسخطه وحلفوا له على ما شرطه ، وكان الصلح لهم وللمواصلة وللديار بكريه عاما ، ولشمول المصالح الجامعة ضاما وكتبت نسخ ايمان بأسامى ملوك ديار بكر والروم وصاحب الموصل على الشرط المعلوم وهو أنه ان غدر منهم واحد وخالف ولم يف بما عليه حالف كان الباقون عليه يدا واحدة حتى يفى الى الوفاء والوفاق ويرجع الى مرافقة الرفاق .

وسار بهذه الرسالة اليهم سعد الدين أبو حامد وكان جلدا كافيا وبتدبير الأمور وافيا فمضى الى الملوك ونظمهم من سلك نهج الموافقات فى السلوك .

ذكر الرحيل من حلب

قال : ولما انتظم بحلب الصلح وتم النجح ذكر السلطان ثأره عند الاسماعيلية وكيف قصدوه بتلك البلية ، فرحل منها يوم الجمعة لعشر بقين من المحرم مصمما على الجهاد الأعظم ، وأناخ على حصنهم مصيات(٢) فانهض اليه الرجال وحرض الأبطال وأمر بنصب المنجنيقات الكبار . وأقام أياما

(١) يرجح أن تكون احداهما بالسين عوضا عن الصاد .

(٢) حصن حصين مشهور للاسماعيلية بالساحل الشمالى قرب طرابلس وبعضهم يقول مصياف . معجم البلدان ٤ ــ ٥٥٦ .

وأنظر :

B. Lewis. " Kamal el-Din" s Biography of Rashid el-Din Sinan., Arabica, Revue d' Etudes Arabes, XIII Fascicule, 3, 1966.

واستطال عليهم فريقه واستطار فيهم حريقه ، وشرع العسكر يخرب ديارهم ويقرب دمارهم حتى جاء خاله شهاب الدين الحارمى وهو صاحب حماه وشفع فيهم لأن بلده جار نواحيهم ، وأراد الأمن من خوف عواديهم وكانوا قد راسلوه وأرغبوه وأرهبوه . وكان شهاب الدين مقبول مأمول الطول ورأى أيضا من أمرائه ميلا الى الانكفاء وأبت تركهم همته الأبية لولا الشفاعة الشهابية ورحلنا وقد انتقمنا منهم .

ذكر كسرة على الفرنج

قال : كان شمس الدين بن المقدم متولى بعلبك وأعمالها ومدبر أحوالها فعرف أن الفرنج قد أغاروا على البقاع فكمن لهم عند العياض واوتر عليهم حنايا المنايا بتفريق التوفيق فى الانباض واسر منهم سوى من قتل أكثر من مائتى أسير وأحضرهم عندنا ونحن على مصياف ، ولولا هذا الحادث لم يصرف عنها الأحداث .

وكان قد خرج الملك المعظم شمس الدولة أخو السلطان حين سمع ان الفرنج على الخروج وباسطهم(١) عند عين الجر(٢) فى تلك المروج ووقع عدة من أصحابه فى الاسار منهم سيف الدين أبو بكر بن السلار واجترا(٣) الفرنج بتلك الجولة واغتروا(٤) بتلك الصولة ، وانبسطوا فى تلك العياض وانهاضوا بما قدم ابن المقدم من الانهاض .

ووصل السلطان الى حماه فاجتمع فيها بأخيه شمس الدين يوم الثلاثاء ثانى صفر وهو أول يوم لقائه بعدما أزمع عنه الى اليمن السفر ، وتعانق الاخوان فى المخيم فى الميدان وتحدثا فى الحدثان . وكان قد وصل الى السلطان من أخيه هذا عند مفارقة اليمن كتاب ضمنة هذه الأبيات من شعر أبى المنجم(٥)

---

(١) فى الاصل : وما سطهم والتصحيح من الروضتين(٢) ١ ـ ٢ ص ٦٧٠ .

(٢) فى الاصل : ساقطه التصحيح من الروضتين (٢) ١ـ٢ـ٦٧٠ وعين الجر بين بعلبك ودمشق فى اقليم البقاع معجم البلدان ٣ـ٦٧٠ .

(٣) فى الاصل : واجتر .

(٤) فى الاصل : واغتر .

(٥) ابى المنجم المصرى : هونشو الدولة على بن مفرج المنجم ولد سنة ٥٤٩ وتوفى سنة ٦٣٠ هـ انظر الخريدة ـ قسم الشعراء المصريين ـ جـ ١ ص ١٦٨ ، ١٦٩ .

المصرى قلت ومنها :

(١٨٤)/أبدى التجلد والجوانح تلتظى — وأرى التصبر والحشى تتقطع
وحملت من فقد الأحبة مفردا — ما ليس يحمله الأحبة أجمع
والى صلاح الدين أشكو أننى — من بعده مضنى الصبابة موجع
جزعا لبعد الدار منه ولم أكن — لولا هواه لبعد دارى أجزع
ولاركبن اليه متن عزائمى — ويخب بى ركب الغرام ويوضع
حتى أشاهد منه أسعد طلعة — من أفقها صبح السعادة يطلع

قال : فسألنى السلطان أن أكتب اليه فى جوابها على وزنها ورويها فقلت أبياتا منها :

صب تولى حالتيه فى الهوى — جلد له عاصى ودمعى طيع
ذو ناظر ربع الكرى فى جفنه — خال وحوض الدمع منه منزع
مولاى شمس الدولة الملك الذى — صبح السيادة من سناه يطلع
لولا ترجى قرب عودك لم يكن — لى فى الحياة لأجل بعدك مطمع
قسما ببيت أمه زواره — والطايعون الساجدون الركع
ان لى سواك من الحوادث ملجأ — أو لى سواك من النوايب مفزع

قال : ولما رآنى(١) بالمخيم بميدان حماه عند أخيه مخصوصا بتوقيه وتوخيه بشرلى وبش ، وشرع فى تقريظى والثناء على قريضى . ثم سرنا الى دمشق ووصلنا اليها فى سابع عشر صفر ، ووجه النجح قد سفر ، وفوض ملك دمشق الى أخيه الملك المعظم وعزم على السفر الى مصر .

ذكر وفاة القاضى كمال الدين بدمشق فى سادس المحرم وما آل(٢) اليه أمر القضاء

قال : كان القاضى كمال الدين بدمشق فى الايام النورية الحاكم المطلق وكان صلاح الدين حينئذ يتولى فى دمشق أسباب الشحنكية ، وكمال الدين

---

(١) فى الاصل : رأى .
(٢) فى الاصل : ومال اليه .

يعكس مقاصده بالاحكام الشرعية، وربما كسر أغراضه وأبدى عن قبوله اعراضه وأهدى الى صحته أمراضه الى أن نقله الله من نيابة الشحنكية الى الاستقلال بالملك فصار كمال الدين من قضاة ممالكه المنتظمة الملك وكان فى قلبه منه ما فيه وما فرط منه فات تلافيه . فلما ملك دمشق اجراه على جملته واحترم نوابه وأكرم أصحابه وفتح للشرع بابه واذهب بحقوقه حقوده ، وأعرض عن عقوقه عقوده .

وكان ابن أخيه ضياء الدين القاسم بن تاج الدين الشهرزورى قد هاجر الى صلاح الدين بمصر فى ريعان ملكه ، فأذنت هجرته فى درك المراد بادارة فلكه ، وأنعم عليه هناك بجزيرة الذهب(٦) ، ومن دار الملك بمصر بدار الذهب ، ووفر حظه من الذهب وملكه دارا بالقاهرة جميلة جليلة ، ورتب له وظايف ، وخصه بلطايف . ووصل مع السلطان الى الشام وأمره جار على النظام ولما اشتد بكمال(٧) الدين المرض ، وكاد يفارق جوهره العرض أراد أن يبقى فى ذويه فوصى مع حضور ولده بالقضاء لضياء الدين بن أخيه علما منه بأن السلطان يمضى حكمه لأجل سؤاله فيه وتوفى فى سادس المحرم من هذه السنة وعمره ثمانون سنة لأن مولده كان سنة اثنتين وتسعين واربعمائة وفارق ولم يخلف مثله ، ومن شاهده شاهد العقل المكنون والفضل المدون ، وكان بارا بالابرار مختارا للاخيار . واذا كان له صاحب حفظه ونبه له ناظر حظه وأيقظه ، وقد قواه نور الدين رحمه الله وقلده الحكم فى أيامه وسدد مرامى مرامه ، وهو الذى سن دار العدل لتنفيذ أحكامه بحضرة السلطان حتى لا يبقى عليه مغمز ولا ملمز لذوى الشان فيما دبره من الشان .

وهو الذى تولى بناء أسوار دمشق ومدارسها والمارستان ، واستقرت

---

(٦) جزيرة الذهب ضاحية من ضواحى الجيزة أنظر ابن مماتى قوانين الدواوين ص ١٢٦ .

(٧) فى الاصل : كمال .

قاعدته فى دولة السلطان . وتوفى ونحن نحلب(٨) محاصرون . وجلس الضياء ابن اخيه مكانه فأثبت وامضى وأغضب وأرضى واشهد وسجل وجرح وعدل .

وكان الفقيه شرف الدين/(١٨٥ أ) أبو سعد عبد الله بن أبى‌عصرون قد هاجر من حلب الى السلطان وقد أنزله بدمشق ، وهو شيخ المذهب(٩) الشافعى وأقوم العلماء بالفتيا وأعرفهم بما تقتضيه(١٠) الشريعة من مصالح الدين والدنيا .

والسلطان يؤثر ان يفوض اليه منصب القضاء ولا يرى عنه عزل الضياء ، وأفضى بسر مراده الى الأجل الفاضل ، وكان الفقيه ضياء الدين عيسى يتعصب لشيخه ويجد فى رفع الحكم الضيائى بفسخه ، واستشعر القاضى ضياء الدين من عزله وتزلزلت قدمه فى شغله ولو قوى نفسه ونفسه وثبت على الأباء المحض أسمه لما خرج القضاء على حكمه ولا واجه السلطان بصرفه عن منصب عمه . وأشاروا عليه بالاستعفاء ، وانه كاره لمنصب القضاء فكتب يستعفى فقيل لا وجه لاستعفائك فلح القول فاستفهم عن معنى طلبه وابداء سببه فقال : ما أوثر الا فراغ الشر والخلاص من تبعات هذا الأمر فأصيب سؤله واجيب سؤاله وهنىء بأنه مجدد قبوله واقباله وأبقى عليه الوكالة الشرعية(١١) عنه فى بيع الاملاك واستجد عليه الاقبال السلطانى بعطلته وعزا عنده بعزلته وزاد فى اعلاء منزلته .

---

(٨) فى الاصل : بحلب ولعله من خطأ الناسخ حيث أن الحصار يجرى من قبل السلطان لمدينة حلب وهو خارجها .

(٩) فى الاصل : غير معرفة .

(١٠) فى الاصل : يقتضيه .

(١١) الوكالة الشرعية : اشير اليها آنفا عند الحديث عن ابن حيوس.

ذكر وفاة شمس الدين بن أبى المضاء الوزير

قال : كان رسولا كافيا وبما يمضى فيه من مهم وافيا ، وهو أول خطيب بالديار المصرية فى عصرنا للدولة العباسية ، وفيه ترفع وتكبر ، يعجبه الناموس ولا(١) يوحشه الا الجاه المأنوس واذا مضى الى الديوان العزيز قصده الشعراء فأكثر خلعهم وجوايزهم وبعث على مدحه سرايرهم وربما عاد وعليه ديون تراه فى هيأته وهيبته كأنه وزير ، وكلامه اذا خاطبته نذر يسير وهو الذى ضوع للسلطان وعرف عرف ظهير الدين منصور العطار وشد به ظهر الاستظهار ، وحصل للسلطان بصدق صداقته الانتفاع والارتفاع ، وتزايدت له فى القوة والحظوة الاشياء والاشياع . فوصلنا الى دمشق وقد قضى نحبه وأتى ربه ، وكانت وفاته ليلة الجمعة الثانى عشر من صفر فحمل السلطان غمه ، وقرب ولده وجبر بتربيته يتمه . ثم تعين ضياء الدين الشهرزورى بعده للرسالة الى الديوان العزيز واستتبت له الى آخر العهد السلطانى هذه وتمهدت بتردده فى الجانبين العمارة ، وذاك بعد المضى الى مصر والعود الى الشام فانه بعد ذلك خاطبت فى هذا المرام .

ذكر مؤيد الدولة أبى الحرث اسامة بن مرشد(٢) بن على بن منقذ وعوده الى الشام عند علمه بوصول السلطان

قال : كان من الامراء الفضلاء ، والسادة القادة العلماء ، قد متعه الله بالعمر وطول البقاء ، وهو من المعدودين من شجعان الاسلام وفرسان الشام ولم يزل بنو منقذ ملاك شيزر(٣) ، ولما تفرد بالمعقل منهم من تولاه لم يرد أن يكون معه فيه سواه فخرجوا منه سنة أربع وعشرين وسكنوا

---

(١) فى الاصل : ساقطة وهكذا يقتضى السياق .

(٢) أبو المظفر أسامة بن مرشد بن على بن منقذ بن نصر بن منقذ الكنانى الكلبى الشيزرى . الملقب مؤيد الدولة ومجد الدين . ولد فى ٤٨٨هـ وتوفى فى ٥٨٤ هـ ، انظر ابن خلكان ١ — ٧٨ — ٨٠ وانظر أيضا معجم الادباء ٢ — ١٧٣ — ١٩٦ ، من كتاباته الاعتبار ، المنازل والديار ، نشر وتحقيق المكتب الاسلامى . دمشق ١٩٦٥ . ترجم له ابن العديم (بغية الطلب) مخطوط رقم ٢٩٢٥ . أحمد الثالث جـ ٢ . أوراق ٢٠٤—٢١٢

(٣) شيزر انظر معجم البلدان ٣ — ٣٥١ . وهى قلعة بالشام قرب المعرة .

دمشق وغيرها من البلاد وكلهم من الاجواد الامجاد وما فيهم الا ذو فضل وكمال ونبل ، وما منهم الا من له نظم مطبوع وشعر مصنوع وهذا مؤيد الدولة أعرقهم فى الحسب ، أعرفهم بالأدب ، وكانت جرت له نوبة فى أيام الدمشقيين وسافر الى مصر وأقام هناك سنين فى دولة المصريين وعاد الى الشام فلم يمكنه نور الدين من المقام وصار الى حصن كيفا(٤) وتوطن وابتنى هناك الدار والعقار . ولما سمع بالملك الصلاحى نبا الى دمشق وذلك فى سنة سبعين . قال : وكنت اسمع بفضله وأنا بأصفهان وانشدنى له مجد العرب العامرى(٥) بها سنة خمس وأربعين هذين البيتين وهما من مبتكرات معانيه فى سن قلعه :

وصاحب لا أمل الدهر صحبته	يشقى لنفعى ويسعى سعى مجتهد
لم القه مذ تصاحبنا فحين بدا	لناظرى افترقنا فرقة الأبد

قال : فلما لقيته فى دمشق فى سنة سبعين أنشد فيهما مؤيد الدولة لنفسه مع كثير من شعره المبتكر من جنسه .

وشاهدت ولده عضد الدين أبا الفوارس(٦) مرهفا وهو جليس صلاح الدين وأنيسه وبابن حمدون النديم(٧) لا يقيسه . وقد كتب ديوان شعر أبيه لصلاح الدين وهو لشغفه به مفضله على ساير الدواوين ولم يزل هذا الأمير (١٨٥ ب) العضد مرهف صاحبا له بمصر والشام الى آخر عمره . وتوطن بمصر فلما جاء أبوه أنزله ارحب منزل وأورده أعذب منهل،

---

(٤) حصن كيفا ويقال كيبا . قلعة عظيمة مشرفة على دجلة بين آمد وجزيرة ابن عمر . انظر معجم البلدان ٢ — ٢٧٧ .

(٥) مجد العرب العامرى هو الأمير مجد العرب مصطفى الدولة أبو فراس محمد بن غالب العامرى . من شعراء القرن السادس . وردت ترجمة له فى الخريدة ومختارات من شعره أنظر الخريدة — عراق ١ — ١٤٢ حاشية رقم ٧ .

(٦) وهو العضد أبو الفوارس مرهف بن اسامة بن منقذ . ذكره ابن العديم فى البغية .

(٧) ابن حمدون وهو أحمد بن ابراهيم بن اسماعيل بن داود بن حمدون النديم أبو عبد الله . وسمى النديم لأنه كان ينادم الخليفة المعتصم ثم الواثق من بعده . انظر معجم الادباء ١—٣٦٥—٣٧٢ .

وملكه من اعمال المعرة ضيعة زعم انها قديما تجرى فى أملاكه وأعطاه(٨) بدمشق دارا ووظف له غيثا من فواضله مدرارا فاذا كان بدمشق جالسه وآنسه وذاكره فى الأدب ودارسه . وكان ذا رأى وتجربة وخلال مهذبة يستشيره فى نوايبه ويستنير برأيه فى غياهبه واذا غاب عنه فى غزواته كاتبه واعلمه بواقعاته ووقعاته ويستخرج رأيه فى كشف مهماته وحل مشكلاته وبلغ عمره سبعا وتسعين سنة فان مولده سنة ثمان وثمانين واربعمائة ومات سنة خمس وثمانين(٩) ومن أبيات أوردها عماد الدين لنفسه فى هذا الموضوع قوله :

نفسى فدا شادن ... على الدل نشا
واتى زيف قهره ... بحملهما مرتعشا
وخده من أثر اللثم ... كأنه قد خدشا
وكاد يمحو لثمه ... عذارة المنتشا
كأنما وجنتيه ورد ... بطل رشتا
رأيته فكدت من عجبى ... به أن ادهشا
هممت احيانا به ... لولا التقى أن أبطشا

ذكر تفويض القضاء الى ابن أبى عصرون

قال : ولما استعفى القاضى ضياء الدين لم يبق فى منصب القضاء الا فقيه ينعت بالأوحد كان ينوب عن كمال الدين فأمره السلطان بأن يجرى على الرسم ويتصرف فى الحكم . وكان السلطان لاحياء القضاء فى البيت الزكوى مؤثرا ولذكر مناقبه مكثرا وقد سبق منه الوعد للشيخ شرف الدين ابن ابى عصرون ففوض اليه القضاء والحكم والامضاء على أن يكون محيى

---

(٨) فى اصل : واعاه .

(٩) وهذا خلاف ما ذكره ابن خلكان فى الوفيات ١ـ٧٨ـ٨٠ حيث ذكر ان سنة ٥٨٤ هى سنة وفاته .

الدين أبو المعالى محمد بن زكى الدين(١) والاوحد(٢) داود قاضيان يحكمان ، وهما عن منابته يوردان ويصدران ، وتوليتهما بتوقيع من السلطان . فاستمر الأمر ولم يزل الشيخ شرف الدين متوليا للقضاء سنتى اثنتين وثلاث وسبعين فى ولاية أخى السلطان المعظم فخر الدين . فلما عدنا الى الشام تكلم الناس فى ذهاب بصره ففوض السلطان القضاء الى ابنه محيى الدين أبى حامد محمد كانه نايب أبيه واستمر القضاء الى انقضاء اسمه من سنة سبع وثمانين .

وفوض ديوان الوقوف بجامع دمشق وغيره من المساجد الى القاضى الأجل مجد الدين بن الزكى فتولاه الى أن انتقل الى موقف من عمل(١) الاعمال وتولاه بعده أخوه محيى الدين على على الاستقلال الى آخر عهد السلطان وبعده . وبنى على قاعدة الشريعة فيها حلة وعقده ثم تولى القضاء بدمشق بعد صرف من قبله وأحيى بما اعتمده بيته وفضله .

ذكر وصلة السلطان للخاتون العصمية بنت الامير معين الدين فى آخر صفر

قال : كانت هذه الخاتون المنعوتة بعصمة الدين فى عصمة نور الدين فلما توفى رحمه الله أقامت فى منزلها فى دمشق بالقلعة مستقلة بأمرها ونهيها ، ساكنة فى احدى حجرها آمنة فى خفاره خفرها . صادقة فى اخراج الصدقات صالحة فى الاستكثار من الأعمال الصالحات ، فرأى السلطان أن يحلى عطل الملك بخطبتها ، ويصل جناح النجاح بوصلتها فأحضر الشيخ شرف الدين والقضاة واخوها لابيها سعد الدين مسعود بن انر حاضر وعقد باذنها وتمت عقدة النكاح ودخل عليها وبات عندها ثم خرج بعد يومين لدمشق مودعا وعلى عزم المسير الى مصر مزمعا .

---

(١) وهو أبو المعالى محمد بن أبى الحسين بن محمد بن يحيى الملقب محيى الدين المعروف بابن زكى الدين تولى قضاء دمشق فى ٥٨٨ هـ. وكان أبوه وجده وولداه أيضا من قضاتها وتوفى عام ٥٩٨ هـ انظر الترجمة له فى ابن خلكان وفيات الاعيان ١—٥٩٢—٥٩٦ .

(٢) الاوحد داود بن ابراهيم بن عمر بن بلال الشافعي وكان ينوب عن كمال الدين . الروضتين(٢) — ٢ — ٦٧٤ .

ذكر الخروج من دمشق بكرة يوم الجمعة رابع شهر ربيع الاول

قال : ولما استتمت بالشام للسلطان أمور ممالكه ، وأمن على مناهج أمره ومسالكه وبلغ حساب النصر الى فدلكه أزمع الى مصر الاياب وسحب اليها وقد أمحلت بعده السحاب ، وعاود بحر نيله بحر نيلها وأعاد من عساكره الاسد الى غيلها ، وبرز مضاربه من أول الشهر وتقدمه الامراء والملوك الى المنازل ، وخرج بكرة يوم الجمعة رابع الشهر بمرج الصفر ، ثم رحل منه قبيل العصر الى قريب الصنمين(١) قال : وكنت أقمت حتى أديت فرض الجمعة فخرجت بعد الصلاة ووصلت الى (١٨٦ أ) المخيم السلطانى وقد مضى من الليل هزيع وقلبى الى الأهل ولمفارقتهم جزوع ولشدة اشواقى ما نزلت منزلاً الا ونظمت أبياتا فمن ذلك ما قلت يوم المسير :

بعت بمصر دمشق عن غرر
منى فياغبن صفقة البائع

وقلت بالزرقاء :

أعدتك يا زرقاء حمراء اننى
بكيتك حتى شيباؤكم بالدم
فياليت شعرى هل أعود اليهم
وهل ليت شعرى نافع للمتيم

قال ونظمت فى طريق مصر قصيدة مشتملة على ذكر المنازل بالترتيب واتفق أن السلطان فى بعض السنين سير الملك المظفر تقى الدين الى مصر ، وكان لا يستدعى منى شاديه لانشادها فى ناديه ، ويطرب لسماعها ، ويعجب بايقاعها وأولها :

هجرتكم لا عن ملال ولا غدر — ولكن لمقدور اتيح من الدهر
وأعلم انى مخطىء فى فراقكم — فعذرى فى ذنبى وذنبى فى عذرى

---

(١) قرية من أعمال دمشق فى اوايل حوران بينها وبين دمشق مرحلتان . معجم البلدان ٣ — ٤٢٠ .

أسير الى مصر وقلبى أسيركم ... ومن عجب أسرى وقلبى فى أسر
تذكرت أحبابى بجلق بعدما ... ترحلت والمشتاق يأنس بالذكر
ومن فارق الاحباب مستبدلا بهم ... سواهم فقد باع المرابح بالخسر

قال : وكان الدخول الى القاهرة يوم السبت السادس والعشرين من شهر ربيع الاول ، وتلقى السلطان أخوه الملك العادل سيف الدين ، وتلقانا خير مصر وجنت الينا ثمراتها ، وجلبت علينا زهراتها ، وحلقت أنظارها وعلقت أقراطها ، وزينت أطرافها وأوساطها ، ودخل السلطان داره ، وراجع الفلك مداره ووفق الله فى جميع الامور ايراده واصداره . قال : ولم يبق لى من الشغل الا الكتب التى الى الشام ولم يكن ذلك على الدوام فان فى كل ديوان كتابا وفى كل عمل نوابا فتوفرنا على الاجتماع فى المغانى لاستماع الأغانى والشعر(٢) فى الجزيرة والجيزة والاماكن العزيزة والاستمتاع(٣) بالجواهر والاعراض ، والحضور فى المدارس للاستدلال والاعتراض والتدريس للطلبة ورواية الاحاديث النبوية والمباحثة تارة فى المعانى الادبية وتارة فى المسائل الفقهية ، والحضور عند السلطان فى كل ليلة للمشاورة الملكية والمحاضرة الانسية ، والمذاكرة النسكية .

وكان مشغوفا بمجالسة خواصه من العقلاء وموانسة ذوى اختصاصه من الفضلاء فاذا أراد الانصراف بعد هزيع من الليل قام الى صلاة العشاء واذا فرغ من الصلاة جماعة تفرق الجمع ورفع الشمع فان كانت له حاجة الى انشاء كتاب أو البوح بسر صواب أجلسنى وأملى على مقاصده وقمت وسهرت تلك الليلة لتحرير الكتب ثم ابكر اليه وأعرضها عليه فان رأى الزيادة فيها أو تبديل شىء من معانيها وصل بى الى مقاطعها ووقفنى على مواضعها فما أبرح حتى أسوى قوامها وأروى اوامها واذا استصابها وقد أتممت نصابها توجها بتوقيعه ويقول توجهها ولا تعوقها وتسددها الى الاغراض وتفوقها . قال :

---

(٢) كذا وفى الاصل ليست واضحة المعنى ولعلها « البشر » أو « الشعر » .
(٣) في الاصل : الاستماع .

ذكر انموذج من انعامه على بمصر

كان لبيع الكتب فى القصر كل اسبوع يومان ، وهى تباع بالمجـــان وأرخص الاثمان ، وخزائنها بالقصر مزينة البيوت مقسمة الرفوف مفهرسة بالمعروف فقيل للامير بهاء الدين قراقوش متولى القصر ، والحال والعـــاقد للامر هذه الكتب قد عاث فيها العث وتساوى سمنيها والغث ، ولا غنى عن تهويتها ونفضها واخراجها من بيت الخزانة الى أرضها وهو تركى لا خبرة له بالكتب ، ولم يدر أن فى نفضها انفاضها وان فى تصحيحها أمراضها ، وهى مبوبة فى مقاصيرها معينة فى محاجيزها ، مثبتة بخطوطها المنســوبة واعدادها المحسوبة فى دساتيرها .

وكان مقصود دلالى الكتب أن يوكسوها ويخرموها ويعكسوها فاخرجت وهى أكثر من مائة الف من أماكنها وغربت عن مســـاكنها وخربت أوكارها وذهبت أنوارها وشتت شملها فاختلط ادبيتها بنحويتها ، وشرعيتها بمنطقيتها، وطبيها بهندسيتها ، وتواريخها بتفاسيرها ، ومجاهيلها (١٨٦ ب) بمشاهيرها .

وكان فيها من كتب الأمصار والتواريخ الكبار ما يشتمل كل كتاب على خمسين أو ستين مجلدا اذا فقد منها جزء لا يخلف أبدا فاختلطت واختبطت فكان الدلال يخرج عشرة عشرة من كل فن كتبا متبرة فتسام بالدون وتبــاع بالهون . والدلال يعرف كل شدة وما فيها من عدة ويعلم أن عنده من أجناسها وأنواعها وقد شارك غيره فى ابتياعها حتى اذا ألفى كتابا قد تقوم عليه بعشرة باعه بعد ذلك لنفسه بمائة . فلما رأيت الأمر حضرت القصر واشتريت كما اشتروا ومريت الاطباء كما مروا ، واستكثرت من المتاع المبتاع ، وحــويت نفائس الأنواع ولما عرفت السلطان ما ابتعته وكان بمائتين(٤) انعم بها على ثم وهب لى أيضا من خزانة القصر ما عينت عليها .

ودخلت عليه يوما وبين يديه مجلدات كثيرة انتقيت من القصر وهو ينظر فى بعضها فبسط يدى لقبضها وقال لى كنت طلبت عينتها فهل فى هذه منها فقلت كلها وما استغنى عنها فاخرجتها من عنده بحمال . وكان هذا منـــــه بالاضافة الى سماحته اقل نوال واهنا رفد بغير سؤال .

---

(٤) فى الاصــل : غير منقوطة .

قال : وكتبت اليه رقعة ذكرت فيها أننى غرمت فى طريق مصر ما يقارب ثلثمائة دينار وأننى من تعويض عنه على أمل وانتظار(٥) فأمر(٦) باطلاق ذلك من بيت المال . وشملنى الانعام الفاضلى فى تحصيله وتعجيله للحال ، ورتب لى بمصر وظيفة دارة وميرة بمصالحى بارة ، واقطعنى من الانعام ما بقى بعده على الدوام ومرور الايام مستمرا مضافا الى ما هو مقرر بالشام فما يزال يتبع الانعام بالانعام ويقرن الفرد منه بالقوام ، ويعلم أن الدنيا قليلة اللباث كثيرة الأحداث فتناهز فرصه بالاغتنام وادخار حمد الكرام .

ذكر القاضى ضياء الدين القاسم بن يحيى بن عبد الله الشهرزورى(١)

قال : وكانت للقاضى ضياء الدين بالقاهرة دار جميلة ، هى دارة بدره ودايره قدره ومجال جماله وفضل أفضاله ، وبمصر له منزل هو قطعة من دار الذهب بدار الملك القديم مقيمة على قواعدها المستقيمة ، فهو تارة يضيفنا فى داره بالقاهرة بمقاريه الباهرة وتارة يقرينا فى منزله بمصر بالطافه الظاهرة ، ونحن عنده فى أرب وجد وطرب وجد وسماع وغناء واستمتاع واستغناء .

قال : وعملت فى تلك الايام أبياتا يغنى بها ومنها :

ان لم تجد بالوصل مت بحسرتى	ان الفراق منيتى يا منيتى
لك ناظر ذو صحة فى علة	ما صحتى الا لديه وعلتى
كم منة لك فى الوصال قوية	واراك فى البحران تضعف منيتى

ومنها :

قلبى العليل فكيف سوغ	وصف طرفك بالعليل
وأنا المحب المستهام	فما لخصرك والنحول
سلبت شمايلك العقول	فما يراد من الشمول

---

(٥) فى الاصل : وانظار .
(٦) فى الاصل : فاه .

(١) فى الاصل : الشسم وقد سبقت ترجمته آنفا .

وسـلاف ثغرك ليس يشـفى   غـير رشـفتها غليـلى
ولقد ظميت فسـل سـبيلا   نحـو ذاك السلسـبيل

قال : واقترحنا على القاضى أن يفرجنا فى الاهرام فأضاء وجه بشره لهذا المرام . وكانت له جزيرة الذهب فى طريقها فعبر بنا اليها وتحمل من الكلف ما هو غير مطيقها فبتنا فيها ومعنـا فلك ومراكب ، وملك ومواكب وشداة وحداة وولاة وحماه ، وقصدت تلك الليلة لطيبها ، وأخذ كل نفـس بمصـيبها .

وبكرنا وسيف الصباح قد شق برد الظلماء وابن ذكا قد جلا وجـه السماء ، وقدمنا المراكب وعدينا الجنايب فلما انتهى العبر وانقضى الصـبر جزنا بالجيزة فرأينا أرضـا(٢) رضية وبقعة فضية فيها قوم قعود فى حلـق متطلسون وبزى فقهائنا فى العراق والشام متلبسون فظننتهم طلبـة علم يدرسون فلما أحسوا بنا طاروا وصاروا الى حيث صاروا وقيل لهم شاربوا المزر وحاقبوا الوزر فقلت لهم ما بال كل منهم بطرحة فقالوا هذا زى هذه البلاد ولا لوم على العرف المعتاد .

ثم مضينا ودفعنا الى مخاض وارتفاع بعد انخفاض فخاضـت بغلة القاضى وعثرت وتوحلت (١٨٧ ا) والقلوب لاجله توجعت وتوجلت فخرج سالما ولتطييب أنفسنا باسما فاستأنفنا قصد الاهرام وقد سبقنا اليهـا غلماننا بالخيام فنزلنا ودرنا حول الهرمين وطاف عليها القاضى من حسن خلقـه وحسن تخلقه بكرمين .

وكان معنا القاضى شمس الدين أبو فلان فما منا الا من هو زهير وقد ظفر بهرمين وشب لنا هنـاك المكان والزمان وطـالما كانا فى تلك الرمال هرمين (وقد ظفر بهرمين)(٣) ودرنا فى تلك البرارى والرمال والصحارى ، وهالنا أبو الهول ، وضاق فى وصفه مجال القول . ورأينا العجايب وروينا الغرايب واستصغرنا فى جنب الهرمين كل ما استفظمناه . وتداولنا الحديث فى الهرم ومن بناه فكل يأتى فى وصفه بما نقله وعقله واجتهد فى الصعود اليه فلم يوجد منهم من يوقله وحارت العقول فى عقوده ، والافكار فى توهم حدوده ولما أتممنا الفرجة عزمنا العوده وما أرفق تلك الشيمة واهنأ وأسنى تلك الصنيعة النصيعة .

(٢) فى الاصل : أيضـا .
(٣) هكذا فى الاصـل .

ذكر بنـاء السـور على القاهرة ومصر

قال : ولما ملك السلطان مصر واتاه الله على الاعداء بها النصر رأى ان مصر والقاهرة لكل واحدة منهما سور لا يمنعها ، ولا قوة لأهلها تحميها(١) وتردها(٢) وقال : ولو أفردت كل واحدة بسور احتاجت الى جند مفـرد ونظر مجرد والرأى أن أدير عليهما سورا واحدا من الشاطىء الى الشاطىء ثم يتكل فى حفظها على الله الكالىء . فأمر ببناء قلعة فى الوسط عند مسجد سعد الدولة على جبل المقطم فابتدأ من ظاهر القاهرة ببرج فى المقسم وانتهى به الى أعلى مصر ببروج وصلها بالبرج الأعظم .

ووجدت فى عهد السلطان ثبتا رفعه النواب ، وتكمل فيه الحسـاب وهو داير البلدين مصر والقاهرة بما فيه من ساحل البحر والقلعة بالجبل تسعة وعشرين الف وثلثمـائة ذراعا . شرح ذلك قياس ما بين قلعـة المقسم على شاطىء النيل والبرج بالكوم الاحمر بساحل مصر عشرة ألـف وخمسمائة ذراع ، ومن الربعة بالمقسم الى حايط القلعة بجبل مسجد سعد الدولة الى البرج بالكوم سبعة ألف ومائتى ذراع قياس داير القلعة بمسجد سعد الدولة ثلاثة آلاف ومائتى وعشرة أذرع ، وذلك بطول قوسه وأبدانه وابراجه من النيل الى النيل على التحقيـق والتعـديل وذلك بالذراع القاسمى(٣) بتولى بهاء الدين قراقوش الاسدى ، وبنى القلعة على الجبـل وأعطاها من حقها من أحكام العمل وقطع الخندق وهناك مساجد يعـرف أحدها بمسجد سعد الدولة اشتملت عليها القلعة ودخلت فى الجملة .

وحفر فى رأس الجبل بئرا ينزل فيه بالدرج المنحوتة من الجبـل الى المعين ، وتوفى السلطان وقد بقيت من السور مواضع ، والعمارة فيهـا

---

(١) فى الاصـل : نحيها .

(٢) فى الاصـل : وتزعها .

(٣) وردت فى الاصل القاسمى وهى واضحة تماما . كتاب الروضتين٢ ٢ـ٦٨٨ حاشية رقم ١ يذكر المحقق أنها أيضـا فى الاصـل القاسمى ، وصححها هو من كتاب مفرج الكروب الى الذراع الهاشمى . انظر ابن واصل، مفرج الكروب ٢ ـ ٥٢ .

مستمرة وأمر ببناء المدرسة بالتربة المقدسة الشافعية وتولاها الفقيه نجم الدين الخبوشانى(٤) وأمر باتخاذ دارا فى القصر بيمارستان .

وقال : وخرج السلطان من القاهرة يوم الاربعاء الثانى والعشرين من شعبان وقد استصحب من أولاده الافضل عليا والعزيز عثمان ، وجعل طريقه على دمياط ، ورأى فى الحضور بالثغر المذكور ومشاهدته الاحتياط.

وكان له بها سبى كبير جلبه الاسطول فامتد بظاهر البلد يومين ليتبعه النزول قال : ووهبت منه جارية اخترتها وآثرنى بثمنها لما اشتريتها .

ثم وصلنا الى ثغر الاسكندرية وترددنا مع السلطان الى الشيخ الحافظ أبى طاهر أحمد بن محمد بن السلفى الاصفهانى(٦)، وسمعنا عليه ثلاثة أيام يوم الخميس ويوم الجمعة ويوم السبت رابع شهر رمضان . قال ونظمت فى الطريق مقطوعات ومنها .

يوما بجى(٧) ويوما فى دمشق وبالفسطاط
يوما ويوما بالعراقين
كان جسمى وقلبى الصب
ما خلقا الا ليقتسما بالشوق والبين

ومنها

احبكم حب النفوس نقاها   واشتاقكم شوق الظماء للورد
ترحلت عنكم والفؤاد بحاله   صبور على البلوى مقيم على الوجد
(١٨٧ ب)
فان رمتم عذرى فانى على الوفا   وان خنتم عهدى فانى على العهد

---

(٤) وهو أبو البركات محمد بن الموفق بن سعيد بن عبد الله . وكان فقيها شافعيا وعول على التدريس فى المدرسة المجاورة لضريح الشافعى بمصر وولد ٥١٠ هـ وهو من خبوشان قرب نيسابور . ابن خلكان وفيات الأعيان ج ١ـ٥٩٧ . وقارن الروضتين(٢) ج ٢ ص ٦٨٩ .
(٥) انظر ابن خلكان ١ـ٣٧ـ٣٩ .
(٦) جى بالفتح ثم التشديد اسم مدينة ناحية اصبهان القديمة وتسمى أيضا شهرستان . معجم البلدان ٢ـ١٨١ .

ذكر اللســان الصــوفى

قال : وكان حينئذ بمصر شيخ صوفى من أهل بلخ قد جرب الدهــر وعانى العقد والفسخ ، وعاين الاثبات والنسخ وجاور بغداد والكرخ ، ظريف طريف ، عفيف ، لطيف لا يأكل وحده ولو أنه رغيف . له مع نجم الدين أيوب صحبة قديمة ومودة كريمة وقد ملك من قلوب الملوك قبولا ، ولم يزل بشمول عارفتهم مشمولا فبنى دارا على شاطىء النيل وفتح بابه لمن يضيفه من أبناء السبيل ، وفيها بركة وبستان وروح وريحان ، ومن كل شهى ولذيذ ألــوان وللحلاوات على شيمته الحلوة حوالات ، وللحاجات عند سجيته الســمحة ناجات له فيما يدخل السرور فى أنفس أصدقائه اخراجات .

وما زال يدعونا الى داره ولا يخلينا فى ليالى الجمع من انتظــاره ، ويضيفنا منفردين ومجتمعين ، ويحضرنا المستمعين والمفردين . وكان محبــا للادب ولدفاتره مستنسخا ومؤثرا للفضل ولمعاشره معاشرا مصرحا فاذا عرف ميلنا الى كتاب قدمه وقدم على تقديمه قسمه ويحلف أنه لا يأخذ ثمنه وإنه لاجلنا ادخره وخزنه ثم وقف داره على الصوفية من بعده وانتقــل بعد سنين الى النعيم وخلده .

عاد الحديث قال : ولما عدنا من ثغر الاســكندرية صمنا بقية الشهر فى القاهرة ، والسلطان متوفر على نشر العدل وافاضة الجود وســماع أحاديث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم . وهناك لسماطه ســموط وخوان مبسوط وكلنا بما هو فيه من النعمة مغتبط مغبوط ، وكان اذا فرغ من الطعام ، وخف ثقل الزحام تخلف عنده من جرت عادته من الجلســاء وخواص الأمراء ثم قضينا فرض العشاء ووصلنا بالتراويح والاســتغفار والتسبيح . ثم ان شاء جلس وبمن يقربه استأنس واذا أراد البكور قاس(١) وجلا من نشره القس وبكر وركب « والصبح قد تنفس »(٢) .

---

(١) فى الاصــل : قلس .

(٢) سورة التكوير آية رقم ١٨ « والصبح اذا تنفس انه لقول رسول كريم » .

ذكر وصول الرسل ووقوع بعضهم فى الاسر

قال : قد سبق ذكر انفاذ سعد الدين أبى حامد رسولا الى الاطراف للاستحلاف ورفع الخلاف وتأليف الكلمة العايدة بالاسعاد والاسعاف . ومضى أبو حامد وسرنا نحن الى مصر ثم وصل الخبر بأنه قد عاد بعد ما استفاد وبلغ فى تبليغ الرسالة المراد . ووصل ومعه من صاحب الموصل القاضى عماد الدين بن كمال الدين الشهرزورى(١) والحاجب ضياء الدين أبو بكر البغدادى ورسولان أحدهما من نور الدين قرا ارسلان يقال له المظفرى والآخر من قطب الدين صاحب ماردين وهو الضياء الرحبى ، وحضروا بدمشق عند الملك المعظم شمس الدولة أخى السلطان واستحلفوه ودخل لهم تحت ما كلفوه ، واستوفوا عليه اليمين بالموافقة على ما شرطوه ووصفوه .

فأما القاضى الشهرزورى فانه عاد الى الموصل واستبعد طريق مصر واستعمل الوقار فما خف وعاف وعف ، فأما الباقون فانه حسن لهم سعد الدين ركوب الخطر وكروب السفر ووعدهم بالغنى وأخذهم على طريق فى بلد الفرنج ، ان قطعوه فى يومين على غرة منهم نجوا فما جاء أمرهم كما رجوا بل شمر بهم القدر فأعرضهم وأخرجهم بالمضايقة وأحرضهم فسبق أبو حامد والضياء أبو بكر بمن معهما فى نهج وعر ، وحصل رسولا الحصن وماردين فى أسر الملاعين الماردين ووصل الناجون الى مصر واجروا حديث حادث السفيرين الأسيرين فاغتم السلطان واهتم ثم فكهما من الاسر بعد سنين حين فتح حصن بيت الاحزان(٢) .

كتاب فاضلى الى صاحب الموصل فى هذه النوبة مع رسوله : أحق المودات أدام الله أيام المجلس وأنفذ عزمته وأعلى كلمته وأتم نعمته وشرف همته وحفظ ذمته وسدد حكمه وحكمته بأن يؤكد أسبابها ويقصد استثباتها ويحافظ وجود استقامتها مودة أرض الله سبحانه(٣) انتظامها وأتم النعمة

---

(١) ذكره ابن خلكان فى آخر ترجمته لأخيه أبى حامد . وقال : كان لكمال الدين ابن آخر يقال له عماد الدين توجه رسولا الى بغداد عن نور الدين فى ٥٦٩ هـ . انظر ابن خلكان وفيات الاعيان ١ — ٦٠٠ .

(٢) بيت الاحزان بلد بين دمشق والساحل سمى بذلك لانهم زعموا انه كان مسكن يعقوب . بنى الفرنج فيها حصنا . انظر معجم البلدان ١ـــ٧٧٥ .

(٣) توجد بالهامش .

على أهل الاسلام تماما وعادت على مسرات الاولياء بتخليصها وعلى جموع الاعداء بتمحيصها وعلى الملة الحنيفية بافرادها بمزية النصر وتخصيصها وعلى عباد الله ورعايا أوليائه بسبوغ ظلال الالفة بعد تقليصها ووعدت فى انتظام المصالح واتصالها ، وفل شأفة الكفر واستيصالها وسددت الى نحور الكاشحين ما كان طايشا من مناصل الأولياء ونصالها وتلك المودة هى التى تلقى الدعوة اليها بالتأمين وتلقى الراية (١٨٨ أ) المنصور منها باليمين . ورفع الكتاب الواصل بسببها على الجبين وعلم أن الخير ما اشتمل عليه نجواه والصواب ما دل عليه فحواه . قال سبحانه فى كتابه الكريم « لا خير فى كثير من نجواهم الا من أمر بصدقة أو معروف أو اصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما »(٤) . وأحلى الصفو ما تبع الكدر وأجلى الصحو ما كان غب المطر ، وأهنأ الراحات ما كان فى أثر تعب السفر .

والآن قد حفظت المودة مجراها ، وألقت الثقة عصاها ، ولاح لعين السرى دجاها بل أشرقت شمسها وضحاها ، وجرت عمدة الله الايمان « وقد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها »(٥) .

ووصل الحاجب أبو بكر كتب الله سلامته واحسن صحابته بعد أن عاد القاضى عماد الدين الى مستقر عزه من الحضرة ، وقنع بحضوره واستيفاء اليمين الملكية المعظمية البرة . وكانت القناعة فى موضوعها والثقة فى مستقرها ومستودعها فان النفس واحدة ولكنها(٦) ساكنة فى جسدين والمصافحة لازمة واليد منها كاليدين ووصل هذا الحاجب بعد أن لقى من سفره نصبا ، وكانت سلامته مع أخذ المضيق عليه من طريقه آية عجبا فانها شقة بعيدة ومشقة شديدة وبلاد مطوحة ومسالك تكاد يكون فيها أسباب العطب مرجحة .

ولم يكن التزم من مقصده الا الكتاب الذى كان على يده فان التعظيم بحسب قدر المناسب الى قدره العلى ومجده الجلى وشرفه الأولى ، وعن الذى هو أبلا أعيان الاوصاف عين الملى ، فسرت فيه نعمة السلامة وتوفرت عليه مزية الكرامة ونظمت اليمين التى احتفل بمحضرها واقترنت الاحكام

---

(٤) سورة النساء آية رقم ١١٤ .
(٥) سورة الشمس آية رقم ٩ — ١٠ .
(٦) فى الاصل : لكنه .

بظاهرها والصفاء بمضمونها وأقام الى أن أستكرم له التوفيق واختبرت له الطريق ، وتوجه مصحوبا بلطف الله وأمانه داخلا فى حرز كنايته وضمانه ، ونسخة اليمين على يده سايره والمشافهة له تستولى على المقاصد الباطنة والظاهرة . وقد سرى هذا الاتفاق من الالسنة الى القلوب وتأكدت فيه قضايا سفرة الوجوب مؤكدة الرجوب ، واستبشرت الأنفس بأن الله سبحانه يجعله أحد ما ينجز به وعد نصره المكتوب ولزم للمنة به شكران يحمله الله سبحانه وتعالى فقد « ضعف الطالب والمطلوب »(٧) .

وكذا للامير مجاهد الدين قايماز أدام الله تأييده فى ذلك السعى المشكور والأثر المأثور وتجارة الخير التى لا تبور ، والعزم الذى يتوضح فى ظلام الخطب منه « نور على نور »(٨) فهور شكور بلسان احسانه ، معدود اذا اتسع ميدان الفضل من سبقه وفرسانه .

وأما الكتب الكريمة الاتابكية فانها نعمة لا يخفى قدرها ، ومنه لا يمطل شكرها ، وحسنة تتقدم الحسنات ذكرها ، ولو ان المودة قد تأكدت لقيل أنها مما يتأكد به عهدها ، وينتظم به عقدها ، ويشرق به فى آفاق الخواطر سعدها وبحسب ذلك نرغب فى أن نجعل قوت الأنفس منها ادرارا وسماء الانعام بها مدارا مع ما يودع من أخبار نعمة الله سبحانه لديه على أنها نعمة ظاهرة آثارا متظاهرة ايثارا . لا زال الجناب السامى لتحايل الصدور مستخلصا ، ولنهر المكارم مستفرصا ، ولصفقات المودات مسترخصا ، وللقلوب على ما يجب من الموالات مستحرصا ولا برحت الايام بحسناته موسومة وأتم الله نعمه فانها بينه وبين الخلق مقسومة وهو تعالى فاعل ذلك بكرمه ان شاء .

ذكر خروج السلطان الى مرج(٩) الفاقوس فى ذى الحجة من السنة

قال : وخرج السلطان الى الفاقوس وخيم بمرجها وزخرت بحار عساكره هناك بفوجها وموجها . وكان مقصوده ارهاب العدو فى ثغره

---

(٧) سورة الحج آية رقم ٧٣ .

(٨) سورة النور . آية رقم ٣٥ .

(٩) فى حوض مصر الشرقى وهى آخر ديار مصر من جهة الشام . معجم البلدان ٣—٨٤٥—٨٤٦ . وهى الآن احدى مراكز محافظة الشرقية .

وازعاجه بذعره وهو يركب للصيد والقنص والتطلع الى أخبار الفـــرنج لانتهاز الفرص . ولم يخل كل يوم من انهاض سرية سرية واعتراض البرية الكافرة فى كل معقل وبرية .

وكان مرحبا رضيا ، ومفضاء مضيا ، وصحارى واســعة ، وبرارى شاسعة وهو مصطاد وسيع ومصطاف وشيع ، ومراد مريع كله ربيـــع ، وشملنا فيه جميع ولكل رجاء من الجود السلطانى شــفيع ، ولكل توقيــع توقيــع .

ودخلت سنة ثلاث وســبعين

والسلطان بمرج الفاقوس من أعمال مصر الشرقية ، والاســـلام زاهر زاه والكفر واهن واه ، والنصر مضمون ، والعصر ميمــون ، وسر التوحيد سار ، وقلب الشرك محزون ، وذخر المال مبذول ، وكنز الحمد مذخور ومخزون ونحن فى اجتماع واتساع وارتفاع وامتناع لا شيم كهام ولا رنة شاك ولا أنة باك ، ولا شكاية مظلوم ، ولا حكاية محروم ، والأيام ظاهرة الايامن باهرة المحاسن ، وقد طابت للزمان واهله انفاس ونفوس ودارت على الدنيا من الطاف الله كئوس . قال ونظمت فى الأجل (١٨٨ ب) الفاضل قصيدة ميمية فى منتصف المحرم وأولها :

ريم هضـــيم يروم هضـــمى	من سقم عينيــه عين ســقمى
قد نقطت شمس وجنتيــــه	للحســـن من خاله بنجــمى
واهى منــاط الوشــاح حلـت	فيه بوجــدى عقـــود عــزمى
نطاقة فى القيـــاس نطـــق	يــدور من خصره بوهـــمى

ومنهـــا

عندى مواعيد للمعالى تمطــل	دهـــرى فيهــــا برغمى
نتيجـــة النجح منـــك تقضى	أن المواعيـــد غير عقـــمى

ذكر علم الدين الشاتانى(١)

قال : قد سبق ذكره فى الايام النورية ، وهو من أدباء الموصل وشعرائها بل من فصائحها وظرفائها وله نتف وطرف . ووفد سنة اثنتين وسبعين(٢) الى مصر واصطنعه الملك(٣) عز الدين فرخشاه وانزله فى داره، وقرر له احسانا دارا ، وجمع له من رفده ومن الامراء ذوى الفواضل مبلغ ألف دينار ، وأذن صبح نجح أمله منه بأسفار ، وكان عندنا فى المخيم(٤) فى المحرم من هذه السنة وقد مدح السلطان بكلمة مطلعها :

غدا النصر معقودا براياتك الصفرا
فسر وافتتح الدنيا فانت بها أحرى

وأقام(٥) حتى اجتاب خلعة الاحتباء(٦) وعقد له السلطان حبى الحباء .

قال : وكتب الأجل الفاضل من عنده مكاتبه الى عز الدين يحمده على اصطناعه ورفعه من حضيض حظوظه الى بقاع ارتفاعه . فصل منها(٧) : لولا حق وجب على الملوك أداؤه ، وسر خدمة تعين عليه أبداؤه لامتثل الأمر فى أن يدوم(٨) سرور المجلس السامى بالحباية ، وأن لا يعارض صفو عيشه بكدر كتابه . لكن لم يتسع له مع(٩) عود القاضى الفقيه الامام الرئيس الكامل علم الدين وهو ينهى أن المذكور صايغ حليه الذكر وفارس حلية الشكر وخطيب الأيادى ، والعالم بما يورده فى كتب محاسنه (ومنهم أميون

---

(١) هو أبو الحسن بن سعيد بن عبد الله بن بندار بن ابراهيم الشاتانى كان فقيها غلب عليه الشعر . ولد فى ٥١٠ هـ وتوفى فى شعبان فى ٥٩٩هـ. ونسبته الى شاتان بلدة بنواحى ديار بكر . انظر ابن خلكان ج٢ص١٧٥ . وقد ذكره العماد فى الخريدة . انظر شعراء الشام ٢ــ٢٦١ــ٢٨٤ . انظر أيضا الروضتين٢ ــ ٢ ــ ٦٦٦ .

(٢) فى الاصل : وستين .

(٣) فى الاصل : المال والضبط من برق ٣ ورقة ٦ ب .

(٤) انظر برق ٣ ورقة ٦ ب .

(٥) فى الاصل : واقوم التصحيح من برق ٣ ورقة ٦ ب .

(٦) فى الاصل : وفى برق ٣ ورقة ٦ ب غير منقوطة .

(٧) فى البرق ٣ ورقة ٦ ب منه .

(٨) برق ٣ ــ ورقة ٦ ب يديم .

(٩) فى الاصل : بالبيع والتصحيح من برق ٣ ورقة ٦ ب .

لا يعلمون الكتاب الا أمانى(١٠) وما برح مذ فارق الركاب العـالى فى هذه الأيام التى طالت عليه ببعده فكأنها أعوام كما قصرت عليه تلك الأيام بقربه فكأنها أحلام اذا ذكر المولى سبح بحمده وبادر من غير تشيع بتعفير خده وصلى على ذكره وسلم وأورد من آيات مجده ما كان بايراده أقوم ولا نقول أعلم فان الخلق قد اشركوا فى هذا العلم وامتروا فى هذا الحكم .

عرف العالمون فضلك بالعلم وقال الجهـال بالتقليد

بل لا يقول أحد بالتقليد فى فضايله لما عندهم من فواضله :

فان مر من يثنى عليه حقايب فانت الذى تثنى عليه الحقايق(١١)

وكل سحاب يمطره فالمولى منشىءافواجه، وكل بحر يغمره فهو باعثأمواجه، والمولى مقفو أثر الاحسان متبوعه ، ومن الذى يتبعه فيستطيعه ، فمن أعطاه أودنا فانما عرفه بتعريفه واستتشرف ناظره اليه بتقريبه له وتشريفه والمولى كما قال حبيب الأدباء حبيب :

ففى كل نجد فى البلاد وغاير مواهب ليست منه وهى مواهبه

وفى هذه القصيدة بيت يليق بأوصاف بيته الكريم وهو :

الى سـالب الجبار بيضة ملكـه وآملـه عـاد عـليه فسالبـه

والملوك لا يستزيد الاحسان لأنه ناقص عن غاية ولكنه يشاركه فى الشكر وان كان المذكور اشهر آياه واظهر آية(١٢) .

ذكر بروز السلطان بقصد الغزاة الى غزة وعسقلان ونوبة الرملة(١)

قال : وعاد السلطان الى القاهرة وأقام بها ثم تقاضته عزمته واهتمت

---

(١٠) سورة البقرة آية رقم ٧٨ .

(١١) ورد فى برق ٣ ورقة ٧ أ حقائق بدون التعريف .

(١٢) قارن برق ٣ ورقة ٧ ب .

(١) قارن برق ٣ ورقة ٧ ب .

بالغزاة(٢) وجد بالجهاد وجده وجهده وجردت سربجياته وأسرجت جسرده وقلقت بفرارية أجفانه وفاضت على النحور غدرانه ، وتلبست بالأجسام أبدانه ، وصافحت أشاجع الشجعان صفاحه ، وأسفر في ليل العجاج من غرر وهمه صباحه وخرج من القاهرة يوم الجمعة ثالث / (١٨٩ أ) جمادى الأولى بعد الصلاة وخيم بظاهر بلبيس في خامسها بخيمته(٣) لقصد الغزاة، ثم تقدمنا الى السرير وخيمنا بالمبرز ، قال : ونودى خذوا زاد عشرة أيام أخرى زيادة للاستظهار ، فقلت لغلامي قد بدأ لي وقد خطر الرجوع ببالي وأنا صاحب قلم لا صاحب علم وقــد استشعرت نفسي في هذه الغزوة من عاقبه ندم ، والمدى بعيد والخطب شديد والطريق كله في الرمل وجمالي وبغالي لا تقــوى على الحمل وهذه نوبة السيوف لا نوبة الاقلام والواجب على كل منا أن يلزم شغله ولا يتجاوز محله لا سيما ونواب(٤) الديوان قد استأذنوا في العود وأظهرت سرى للمولى الفاضل فسره اشفاقا على .

وكان السلطان أيضا يؤثر ايثارى ويختار اختيارى فقال أنت معنا أو عزمت أن تدعنا فقلت العزم للمولى وما يختاره لي فهو أولى ، فقال تعود وتدعو لنا وتسأل الله أن يبلغنا في النصر سؤلنا . قال وكنت كتبت الى المجلس الفاضلي أبياتا ونحن بالمبرز يوم الاثنين العشرين من الشهر مما على سبيل المداعبة(٥) ومنهـــا :

قيل لي سر الى الجهــاد ومـــاذا ... بالــغ في الجهاد جهد مسيرى(٦)
ليس يقــوى في الجيش جــأشي ... ولا قوسي(٧) يرى موترا الى موتور

قال : وما انقطعت عن السلطان في غزواته الا في هذه الغزوة ، وقد عصمني الله فيها من النوبة . قال : وكنت لمـــا فارقت القاهرة استوحشت وتشوقت الى أصدقائي وتعطشت . وكتبت من المخيم ببلبيس الى القاضي شمس الدين محمد بن محمد موسى بن الفراش اذكر له لواعج الاستيحاش

---

(٢) قارن برق ٣ ورقة ٧ ب .
(٣) في الأصــــل : نحميه .
(٤) في الاصل : واو ساقطة .
(٥) قارن برق ٣ ورقة ٩ أ .
(٦) قصيدة طويلة وردت في برق ٣ ورقات ٩ أ ، ٩ ب .
(٧) في الاصل : فرس والضبط من برق ٣ ورقة ٩ ب .

وكان أصدق صديق واشفق شفيق وقد تصاحبنا من الأيام النورية واستشرته فى التأخر عن السلطان فكتب فى الجواب وقال : رافقه ولا تفارقه فانه يعرف لك حقك فكرهت رأيه وتلوت سور الخطر وأيه وضمنت الكتاب هذه الابيات :

اذا(٨) رضيتم بمكروهي فذاك رضا	لا أبتغى غير ما تبغون لى غرضا
وان رأيتم شفاء القلب فى مرضى	فاننى مستطيب ذلك المرضا
أنتم أشرتم بتعذيبى فصرت له	مستعذبا استلذ الهم والمضضا
أن رمتم عوضا فى محبتكم فحاشى	لله ان أبقى بكم عوضا
لله عيش يقضى عندكم ومضى	وكان مثل سحاب برقه ومضا
قد أظلم الأفق فى عينى بغيبتكم	فان اذنتم لشخص فى الحضور أضا
ما كنت أعهد منكم ذا الجفاء ولا	حسبت ان ودادى عندكم رفضا

قال فكتب الى فى الجواب ابياتا منها :

ارسلت سهم(٩) عتاب قد جعلت له	قلبى وان لم تكن عينته غرضا
لا تنسبونى الى ايثار بعدكم	فلست أرضى اذا فارقتكم عوضا

عاد الحديث قال : ثم ودعت السلطان وعدت وما تأخرت الا الهاما من الله تعالى بالنجاة من تلك الورطة حيث حكم فى تلك النوبة بالعثرة ، ورجعت وأنا بين عادل وعاذر وناه وآمر ثم رحل فى سلطان مقدما ولعزمه فى الجهاد مصمما وسار فى جيش مجر من سواد القتام فى ليل ومن بياض البيض فى فجر ، ومن حب الغزو فى وصل ومن سلو الحياة فى هجر فنزل على عسقلان يوم الأربعاء التاسع والعشرين من جمادى الأولى وسقاهم من الموت فسبى وسلب وغنم وغلب وجمع من كان معه من الاسارى هناك فضرب منهم الأعناق وسقاهم من الموت الكأس الدهاق ، وتفرق الفرق فى الأعمال مغيرين ومبيدين ولما رأوا أن الفرنج نايمون خامدون استرسلوا وانبسطوا / (١٨٩ ب) وناموا وأقاموا وتوسط السلطان البلاد وسلط عليهم البلاء .

---

(٨) فى الاصل : لا والضبط من البرق ٣ ورقة ١٠ أ .
(٩) كذا : وفى الاصل معهم .

واستقل يوم الجمعة مستهل جمادى الآخرة بالرملة(١٠) راحلا ليقصد بعض المعاقل فاعترضه نهر عليه تل الصافية فازدحمت على العبور اثقال العساكر المتوافية فما شعروا الا بالفرنج طالبة باطلابها حازبة بأحزابها مصحره ، حادرات اسادها فى غابها ، زايرة بزئيرها فى مساعير سعيرها وذلك يوم الجمعة أول الشهر(١١) وقد تفرق الجمع وأمن الروع وسرنا(١٢) والضياع مقبرة ولرحى الحرب عليهم مديرة فوقف الملك المظفر تقى الدين وتلقاهم بصدره ، وسبك الرجالة(١٣) بنيران سيوفه ، وصدهم عن الحملات بوقوفه ثم حمل على الخيالة بخيله وجرفهم بسيله فاستشهد من أصحابه عدد من الكرام انتقلوا الى نعيم دار المقام ، وهلك من فرسان الفرنج أضعافها .

وكان لتقى الدين ولد يقال له أحمد شاب أول ما طر شاربه وهو فى ريعان شبابه الطرى فقال له يا ولدى قد جاءت نوبتك فأين سطوتك فأقر عينى باقدامك واحسم داء الفزع ببراعتك وحسامك(١٤) ، فحمل وبلغ الطعان وراع تلك الرعان فأردى فارسا وفرسه وصد العدو وحبسه وخرج سالما الى أبيه يعتقد أن تلك النهضة تكفيه . فقال له : عد يا أحمد فان العود أحمد وقسا قلبه حتى كان مراده أن يستشهد فقدم الولد طاعة الله وطاعة والده على هوى نفسه وغامر وحشة الروع بأنسه ، واذنت الحملة الثانية بكسوف شمسه فاستشهد .

وكان له(١٥) ولد آخر اسمه شاهانشاه فى الاسر ، وسبب ذلك عزته الداعية الى الاغترار فانه خدعه بعض مستأمنى الفرنج بدمشق وقال له تجى الى الملك وهو يعطيك الملك ، وزور له كتابا واستحضر على لسان بعضهم خطابا فسكن الى صدقه وصحبه ولم يدر انه خدعه وسلبه فلما

---

(١٠) فى الاصل : ساقطة والاضافة من برق ٣ ورقة ١٣ أ .
(١١) جمادى الاخرة .
(١٢) زيادة عن الاصل والغريب أن العماد لم يكن حاضرا هذه الوقعة ومع ذلك يتحدث كشاهد عيان .
(١٣) بعدها يضيف العماد العنوان التالى : ذكر الحملة التقوية واستشهاد ولده .
(١٤) قارن برق ٣ ورقة ١٤ أ .
(١٥) ساقطه فى الاصل والزيادة من البرق ٣ ورقة ١٤ أ .

تفرد به شد وثاقه وغله وقيده وضيق خناقه الى الداوية ، واخـذ به مالا وجدد عندهم له حالا وجمالا وبقى فى الاسر أكثر من سبع سنين حتى فكه السلطان بمال كثير واطلق للداوية كل من كان عنده لهم من أسير . قال ولو ان لتقى الدين رداء لأودى القوم وأغلى السوم لكن الناس لمـا عرفوا الوقعة تفرقوا وراء اثقالهم ثم نجـوا برجالهم دون رحالهم ، وضربوا مجملتهم على السلطان فثبت ووقف على مقدمته من تخلف .

وسمعته يوما يصف تلك النوبة ويقول رأيت فارسـا يحث نحوى(١٦) حصانه وقد صوب الى مجرى سنانه ومعه آخـران قد جعلا شأنهما شأنه فرأيت ثلاثة من أصحابى خرج كل واحـد منهم الى واحـد فبادروه وطعنوه وقد تمكن من قربى فما مكنوه وهم ابراهيم بن قنابر وفضل الفيضى وسويد ابن غشم المصرى واتفق بسعادة(١٧) السلطان أن هؤلاء وأمثالهم من فرسان العسكر وافقوه(١٨) وما فارقوه ومازال السلطان يسير ويقف حتى لم يبق من ظن أنه يتخلف ودخل الليل وسلك الرمل ولا ماء ولا دليل ولا كثير من الزاد والعلف ولا قليل(١٩) وتعسفوا السلوك فى تلك الرمال والاوغـات والاوعار حتى وصلوا الى الديار المصرية(٢٠) واذن ذلك بتلف الدواب وفقد كثير ممن لم يعرف له خبر ولم يظهر له اثر .

وفقد الفقيه ضياء الدين عيسى وأخـوه الظهير ومن كان فى صحبتهم فضلوا عن الطريق وكانوا سايرين الى وراء فاصبحوا بقـرب الأعـداء فاكتمنوا فى مغارة وانتظروا فى بلد الاسلام على عمارة فدل عليهم الفرنج من زعم أنه يدل بهم فأسروا وما خلص الفقيه عيسى وأخـوه الا بعد سنين بستين أو(٢١) سبعين ألف دينار وفكاك جماعة من الكفار عندنا من أسـار وما اشتدت هذه النوبة بكسرة ولا عـدم نصرة وان النكاية فى العدو وبلاده بلغت منتهاها وأدركت كل نفس مؤمنة مشتهاها لكن فى الخروج من تلك البلاد تشتت الشمل وتوعر السهل وسلك مع عـدم المـاء والدليل الرمل ، وقبض من ضل به الطريق الاسر والكبل . ومما قـدره الله تعالى من أسباب

---

(١٦) فى الاصل ويجرى والتصحيح من البرق ٣ ورقة ١٤ ب .
(١٧) فى الاصـل السعادة والتصحيح فى البرق ٣ ورقة ١٥ أ .
(١٨) فى الاصل واقفوه والضبط من برق ٣ ورقم ١٥ أ .
(١٩) فى الاصل والقليل والتصحيح من برق ٣ ورقة ١٥ أ .
(٢٠) لا توجد فى البرق قارن برق ٣ ورقة ١٥ أ .
(٢١) اضافة يقتضيها سياق الحديث .

السلامة استظهار الأجل الفاضل فى دخـــوله الى بلاد الأعــداء باستصحاب الادلاء(٢٢) وانهم ما كانوا يفارقونه فى الغداء والعشاء وينفق عليهم ويقوم بكل ما يحتاجون اليه فلما وقعت الوقعة بدوابه وغلمانه وأصحابه واثقاله وجماله وثب أصحابه فى تلك الرمال والوهاد التلال حتى أخــذ خبر السلطان فقصده وفرق ما كان معه من الأزواد على المنقطعين وجمعهم فى خـــدمة السلطان / (١٩٠ أ) أجمعين وكان الناس فى مبدأ توجه السلطان ودخول الأجل الفاضل معه الى البلاد ربما تحدثوا وقالوا لو قعد وتخلف كان أولى به فان الحـــرب ليست من دابه . ثم عرف أن السلامة والبركة والنجاة فى استصحابه .

قال : وجاء الخبر الى القاهرة مع نجابين فخلع عليهم واركبوا واشيع بأن السلطان نصره الله وأن الفرنج خذلهم الله ، وانهم كسروا(٢٣) وغلبوا وركبت لاسمع حديث النجابين وكيف نصر الله المسلمين ، واذا هم يقولون ابشروا فان السلطان وأهله سالمون وانهم واصلوا غانمون فقلت ما بشر بسلامته الا وقد تمت كسرة وما تم سوى بسلامته نصره وكان كما حررته .

ولمـــا قرب خرجنا الى تلقيه ودخل الى القاهرة يوم الخميس منتصف الشهر ونابت سلامته مناب النصر وسيرنا بها البشاير وانهضنا ببطاقاتها الطاير لاخراس السنة الأراجيف وأبدال التأمين من التخويف ، فقد كانت نوبتها هايلة ووقعتها غايلة .

كتاب فاضلى عن السلطان الى بعض الأمراء يذكر ما دفعه الله فى نوبة الرملة(٢٤) من البلاء ، نعم الله سبحانه فى كل ما تصرفنا عليه توجب أن نصرف اليه شكرنا ، والطافه الجميلة فى كل ما يفضى بنا اليه يقتضى أن نبلى فى حبها عذرنا . ومكاتبتنا الى الأمير صادرة فى يوم الخميس الخامس عشر من جمادى الآخــرة عند قفولنا من الغزاة التى صرفنا الله فيها عن الكفار ليبتلى صبرنا . والعساكر المنصورة سالمة بجمهورنا مقسومة نعم الله فى الكافة بين آمرها ومأمورها .

---

(٢٢) برق ٣ ورقة ١٥ ب يضيف قبل الادلاء : الكنانية .
(٢٣) فى الاصـــل : كثروا والضبط من برق ٣ ورقم ١٦ أ .
(٢٤) وفى الاصـــل : الرماية .

وقد كانت هـذه العساكر جاست خـلال ديار الكفار وقاتلت البلاد واهلها بالسيفين الحديد والنار ، وحكمت القتل تحكيما عجل فيه الارتياح الى أمر الله عن مهلة الاسار واستباحت لهم معاقل واصابت لهم مقاتل ، وشغلت العساكر كسرتها وفيها للعساكر دوما شغل شاغل(٢٥) .

وكانت العـدو رامها مستيقظة فلم يطقها وبارزها(٢٦) على باب عسقلان فلم يثنها من غاية ولم يعقها بل ولاها ظهره عجـلا وفر تحت الليل وجلا ثم طرقها فى حال انبثاث منها وانتشار وشغل بالنهب والاغترار(٢٧) وتباعد من الأطلاب وخفة من رجالها وخلو من الأسلحة التى احتاجت فى لباسها الى اثقالها فقتل من العدو أضعاف المقتولة من المسلمين وكانت البادرة للكافرة والعاقبة كما وعـد الله للمتقين ، وسلم الله الخلق من المهالك الموحشة والمجاهل المعطشة ، والظلم المدهشة والافتراقات التى منها تفل الجيوش المجيشة حفظا لدينه ونعمة يجب شكرها على كل مسلم والا فان الأعمال موبقة والسيئات موثقة والكثرة اعجبت وأعجلت والثقة(٢٨) بغير قادر اخجلت . ولم يفقد مع البعد فى المسافة والتتبع بالمحافظة فقد المـاء فى القفر وعدم الأدلاء وكثير من أظهر من أمراء العسكر وأكابرها واصاغرها الا نفر قليل أكرمهم الله بالشهادة مقبلين غير مدبرين ومتقدمين غير متأخرين وليس منهم من لاسمه فى الأسماء شهرة ولا من يعتقد العدو ان له بقتل مثله كثرة وعدنا فحملنا الضعيف والمنقطع ورفقنا فى السير حتى لحـق المفترق بالمجتمع والأمير يتلو كتابنا على بياض الثغر وذوى هيأته ويستدعى شركتنا فى شكر الله الذى هـو أيسر واجباته ليسكنوا أن الأمـور قايمة والعساكر سالمة والغزوات تتصل ولا تنقطع والطلبات للعدو باذن الله تسهل ولا تمتنع وراية هـذا الدين ترتفع ولا تنخفض ، وأنوار هذه الملة تتسع ولا تنتقص . ولا فلت لنا والحمد لله هـذه النبوة عزيما ولا أحالت منا عن طلب الكافرين غريما وما عدونا ما قال الله سبحانه (وما زادهم الا ايمانا وتسليما(٢٩)) .

---

(٢٥) كذا وفى الأصـل : مطموسة .
(٢٦) وبادرها هكذا وردت فى البرق ٣ ورقة ١٧ أ .
(٢٧) فى الاصـل : واغترار .
(٢٨) فى الاصـل : ثقة والتصحيح من البرق ٣ ورقة ١٧ أ .
(٢٩) سورة الاحزاب آية رقم ٢٢ .

ويسقط بعدها البندارى ٤ أوراق وردت فى برق ٣ ورقة ١٧ ب، ١٨ أ، ١٨ ب ، ١٩ أ ، ويتصل الكلام فى ١٩ ب .

قال : وحيث كانت للملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب فى هـــذه المغزوة اليد البيضاء أنشدته قصيدة فى سابع(٣٠) رجب وأولها :

جفون البيض أم بيــض الجــفون وسمر الخط أم هيف الغصون(٣١)
الا ياعاذلى دعـــنى وشـــأنى وما يجـــرى المدامع من شــئونى
فـــان صبابتى داء دفـــين وكـــم أبقـــى على الـــداء الدفـــين
وحايلة الوشـــاح رأت جمـــالى على هوجـــاء حـــايله الوضـــين
(١٩٠ب) بكت شجوا وأرزمت المطايا وهـــاج انينهـــا الشـــاجى انينى
فلى ولهـــا وللانضاء شجوا حنين فى حنـــــين فى حنـــــين
وقالت ما ظننتك قـــط تنـــوى مفارقتى لقـــد ســاءت ظنـــونى
فقلــت سراى للعليـــا وانى تخــدت لها أمينـــا من أمـــونى
الى عمر بن شاهنشاه قصـــدى ثقى بغنـــــاى منـــه وارقبينى
ولست أرى سوى علياك(٣٢) تاجا يليـــق بدر مدحـــتى الثمـــين

واهتم السلطان بعد ذلك بافاضة الجود وتفريق الموجود وانتقاد الناس بالنقود والنسايا الصادقة الوعود وتعويض ما وقف من الدواب ونفق من الغراب حتى حصلوا على أحسن منها وأجود وأحمى وأحمد .

ذكر ما تجدد فى هذه السنة بالشام

قال : وقعت المنافسة بين الحلبيين مدبرى الملك الصالح واستولى على أمره ابن العجمى أبو صالح ، وكان مرهوب الشداة مشبوب الشـــباه مخوف البطش مخشى النهش ولا يلزم طوره ولا يعرف أحـــد غوره ولا يرض أمرا فوق أمره ولا يريد الا الاستبداد بخيره وشره .

وكان سعد الدين كمشتكين الخادم مقدم العسكر وأمير المعشر وكبير المحشر وهـــو صاحب حص حارم وقـــد حسده أمثاله من الأمراء لأنه مستقل

---

(٣٠) فى سابع عشر رجب هكذا وردت فى البرق ٣ ورقة ١٩ ب .
(٣١) قصيدة طويلة اختار منها البندارى هذه الأبيات .
قارن برق ٣ أوراق ٢٠ أ ، ٢٠ ب ، ٢١ أ ، ٢١ ب ، ٢٢ أ ، ٢٢ ب .
(٣٢) فى الأصل : علياء . الضبط من برق ٣ ورقة ٢٢ ب .

بالادارة فسلموا للعدل الاستبداد والتمكين من منافسة كمشتكين فصار يبرىء ويقسط ويرفع ويحط وبرأيه يتسلط وفى المخاوف يتهور ويتـــــورط فقفزت عليه الاسماعيلية فى جامع حلب بعد الصلاة وفجعوه فى الحياة وشغلوه بمرارة المنون عن المنى الحلوة المشتهاة .

ومن بعـــده انبسط كمشتكين بعـــد انكماشه ، واغتر بوفور ريشه ورياشه ، وترك المبالاة باوشاب الملك وأوباشه فقالوا هـــو الذى قتل العدل وحسن للاسماعيلية الفتك به والقتل ، وحسنوا للملك الصالح وهو صبى وعلموه وهو غبى وقالوا : أنت السلطان ولا حكم الا لك وقد استكملت الحجر وارفع عنك الحجر وهـــذا كمشتكين يحتقرك وأنت كثير ويستصغرك وأنت كبير وبالأمس تقلد وزر وزيرك وأشار بالفتك بمشيرك ، وما زالوا به حتى بسطوا يده على قبض المذكور وطالبوه بتسليم قلعة حارم وارتكبوا فى تعذيبه المحارم فكتب الى نوابه بها فنبوا واصروا على الامتنـــاع وأبوا فحملوه ووقفوا به تحت القلعة فلما طال أمره قصر عمره فتركوا رقبته وفكوا رقبته واستبد الصغار بعده بالأمور الكبار وامتنعت القلعة عليه ونزل عليها الفرنج ودافع عليها الكمشتكينية ولزموا فى حفظها النخوة والحمية ثم رحل الفرنج عنها بقطيعة بذلها لهم الملك الصالح ، ونزل(٣٣) أصحاب كمشتكين عنها وهم رزايا طلايح ، وولى بها مملوكا لأبيه يسمى سرخك .

ذكر نزول الفرنج على حماة يوم الاحد العشرين من جمادى الأولى ورحيلهم عنها بعد أربعة أيام

قال : قد وصل فى هـــذه السنة الى الساحل من البحـــر كند كبير يقال له كند أفكنت من أكبر طواغيت الكفر . ونايب السلطان بدمشق أخوه الملك المعظم شمس الدين فخر الدين تورانشاه وقـــد بذل الفرنج ما أمنت به البلاد من معراتهم وسلمت الغلات من غاراتهم ، وهـــو خايض فى أمره وانفاده غايض فى بحر ملاذه ، واشتغل كل من الامراء فى ثغره بهـــزله وجده وبدا للكافر الواصل ضعف المعاقل وخلوها من الجند المقاتل ومن جمله شروط هدنة الفرنج انهم اذا وصل لهم ملك كبير ما لهم فى دفعه تدبير

---

(٣٣) برق ٣ ورقة ٢٥ أ واستنزل .

(١) برق ٣ ورقة ٢٥ أ يضيف ونزولها على حصن حارم .

أنهم يعاونونه ولا يباينونه ويحالفونه ولا يخالفونه فاذا عـــاد عادت الهدنة كما كانت وبحكم هذا الشرط حشدوا الجنود وجندوا الحشود(٢) .

ونزلوا على حماة فى العشرين من جمادى الأولى وصاحبها شهاب الدين محمود محموم ، والملك بمرضه مهموم مغموم . وكان سيف الدين على بن أحمد المشطوب بالقرب فدخلها وخرج للحرب ، واجتمع اليه رجال الطعن والضرب وجرت ضروب من الحروب ، وكاد الفرنج تهجم على البلد فأخـــرجوهم من الدروب وواصلوا الاشتجار وقطعوا الأشجار ، وكشفوا الأسوار وأبعدوا (١٩١ أ) فى الانجاد والأغـــوار ، فأعجزهم القدر الغالب وتجمعت عـــلى كتبهم الكتايب ، وهم فى كل يوم يقلون ، والمسلون يكثرون ثم سقطت مهابتهم فما صدقوا كيف يرحلون ، فكسفت ادبارهم وكسحت آثارهم وكثر قتلهم وأسارهم ثم تجمعوا بعد حين ونزلوا على حارم وقالوا رجالها على صاحب حلب عاصية ،وهى من نجدة المسلمين قاصية ، وصاحبهم قـــد قتل وهم موتورون فحاصروهم شهرين وجرح أكثر من فى الحصن وغلب وهن الوهن .

ثم تسامع الحلبيون برحيلنا من مصر لقصـــد الشام ، وقالـــوا أول ما يصـــل صـــلاح الدين يتسلم حارم فراسلوا الفرنج وأرهبوهم وقالـــوا صلاح الدين واصـــل فتنازلوا عن النزال بما قـــرروه من قطيعة المـــال وعدة(٣) من الاسارى فرسان القتال(٤) ورحل الفرنج وما انفصلوا عن حارم الا بعد انفصالنا عن مصر .

وأما الحلبيون فانهم راسلوا من بقى بحـــارم ، وقـــد قتل وجرح مقاتلوهم ، ولما فرج الله عنهم تركوا فى طاعة الله العصيان ، وخرجـــوا ، ومضى كل واحد فى طريقه (وحصلت القلعة للحلبيين)(٥) .

قال : وقد مضى ذكر شهاب الدين محمود بن تكش الحـــارمى خال السلطان وصهره ومرضه عند نزول الفرنج على حماه وقد مرض أيضا ولده

---

(٢) قارن البرق ٣ ورقة ٢٥ ب .
(٣) فى الأصل : مدة .
(٤) فى الأصل : لقتال .
(٥) هذه الجملة غير موجودة فى البرق ، قارن برق ٣ ورقة ٢٧ أ .

الأمير تكش(٦) وهو شاب فى ريعان أيامه(٧) وعنفوان حسنه واحسانه فمات يوم الاربعاء سابع جمادى الآخرة ومات شهاب الدين يوم الاحد بعده بثلاثة أيام وانتقلا الى جوار الواحد الأحد وافق ذلك وقت وقعة الرملة فأصيب السلطان فى الشام بخاله وابن أخته منه وكان هذا شهرا طويلا أورث عويلا وحزنا طويلا ، وسلم السلطان الى قضاء الله وقدره وعلم أن كل صفو مردف بكدره فانفق أموالا استوعبت الآمال ، وأعادت بعد الاعوجاج والاعتلال الصحة(٨) والاعتدال فشد الرحال وعزم الترحال .

ذكر الخروج من القاهرة والتوجه الى بلاد الشام(١)

قال : وخرجنا لقصد الشام من القاهرة يوم السبت السادس والعشرين ورحلنا بالخميس بعد صلاة عيد الفطر يوم الخميس . وكان الخبر قد وصل بأن الفرنج حين انفصلوا عن حماه نزلوا على حارم فحث السلطان العزايم سابع الشهر وقطعنا عقبة ايله يوم السبت العاشر وارويناً الخوامس(٢) والعواشر وهناك على الساحل يحفر الرمل فيخرج الماء العد العذب ويروى منه الركب وتحمله الصحب . وههنا سألنى السلطان أن أعمل ابياتا خفيفة لطيفة يكتب بها الى أخيه بدمشق فارتجلت .

الشوق أبرح ما يكون اذا دنا أمد اللقاء
وتزيل أيام التدانى جور أيام التنائى
العبد يخدم بالسلام وبالتحية والدعاء
للسيد الملك المعظم ذى الجلالة والعلاء

قال : وكنا سايرين فى رفقة من أهل الأدب فعبر بنا مرموق فى صورة ملك اسمه شاه ملك فاقترح على لغز فى اسمه فارتجلت .

---

(٦) فى البرق ٣ ورقة ٢٧ ب دكش .
(٧) فى الأصل : أمامه .
(٨) فى الأصل : الفقه .

(١) غير موجود بالبرق وانما وردت العبارة التالية : ذكر الرحيل من المخيم بالبركة الى الشام يوم عيد الفطر بعد صلاة العيد يوم الخميس . انظر برق ٣ ورقة ٢٨ ب .
(٢) فى الأصل : الخواس .

أسم محبوبی سد اسی اذا سقط الثلث فعكس الكلمة
واذا قدم ثانی شطره فهو سلطان لنا ذو عظمة
عربی عجمی نصفه كله معنی لمن قد فهمه

قال : وانما أوردت هذه اللمعة لأعلم انی فی ظعنی وأقامتی ما خلوت ممن يقترح زناد قريحتی ويقترح ما ينشره من فضلتی .

قال : وما زلنا نسير حتی وصلنا الی دمشق يوم السبت الرابع والعشرين من شوال فاستقبلنا أهلها بنعم ذات نوال ، وامددنا من فواكهها برخايص وغوال وجددنا العهد بلقيا أصدقائنا من أديب ولبيب وطبيب وأمين وأمير ووال(٣) قال :

تذكرت فی جلق داركم بمصر فيا بعد ما بيننا
وما أتمنی سوی قربكم وذلك والله كل المنی(٤)

(١٩١ ب) كتاب فاضلی الی السلطان : ورد علی المملوك أدام الله أيام المجلس العالی الملكی الناصری ونصره علی أعدائه ، وملكه أرضه بعدل حكم سمائه ، ولا أخلی من نعمتی نظره وخيره قلوب وعيون أوليائه ، وأعز الاسلام ورفع عن أهله البلوی بلوائه . الكتب الكريمة التی تسر الناظرين بثمارها الأصفر وتبشر الأولياء ان كانوا غايبين مع الغيب بأن خطهم حاضر مع الحضر .

وقد كانت الفترة قد طالت أيامها واستطالت آلامها ، والطرقات التی سبق الی الأنفس اتهامها (الحمد لله الذی أذهب عنا الحزن)(٥) وأولی من النعمة ما اشتری الحمد عنا بلا ثمن ، وذلك من فضل الله علينا وعلی الناس ، ووعده سبحانه منتظر اذ يقول فی كتابه (وعد الله الذين آمنوا

(٣) هنا يسقط الاصل الأوراق : ٣٠ ب ، ٣١ أ ، ٣١ ب ، ٣٢ أ ، ٣٢ ب ، ٣٣ أ ، ٣٣ ب ، ٣٤ أ ، ٣٤ ب ، ٣٥ أ ، وجزء كبير من ٣٥ ب .
يتحدث العماد عن كتبه التی الفها خريدة القصر وجريدة العصر الی آخر سنة اثنتين وسبعين ووردت فيه من بعد سنة خمسمائة وهو فی عشر مجلدات ضخمة . والف أيضا الذيل علی الخريدة .
(٤) قصيدة طويلة اقتبس منها البنداری هذه الأبيات من ٣٥ ب — حتی ٣٦ ب .
(٥) سورة فاطر آية رقم ٣٤ .

منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا(٦) وصدق صلى الله عليه وسلم واله فى قوله : ان اختيار الله للمؤمن خير من اختياره ، وان مواقع أمله خير منها مواقع أمضية الله واقداره(٧) .

فقد كانت حركة احتاجت اليها البلاد التى انفصل عنها ، والبلاد التى قدم عليها اما المصرية فبكونها على عــدة من نجدته آجــلا ، واما الشامية فبكونها على تقدة من نصره عاجلا فقد تماســكت من المسلمين الارماق(٨) وقد انقطعت عن المشركين الأعنــاق .

تهابـ بـــك البـــلاد تحـــل فيهـــا ولـــولا الليث مـــا خيف العـــرين

وعرض المملوك جميع ما وصل اليه من مكاتبات المولى على العلم العادلى ، فأدركها تحصيلا وأحــاط بها جملة وتفصيلا . والمولى خلد الله ملكه فكل ما أشار اليه من عزيمة أبداها ونية أمضاها فهو الصواب الذى أوضح الله مسالكه ، والتوفيق الذى قرب الله مداركه ومن أطاع الله أطاعه كل شىء ومن استخاره بين الرشد من الغى فالله يجعله من كل حادثة بنجوة ويكتب أجره فى كل حركة ونفس وخطوة .

ومنه قد كان العدو خذله الله نهض ووصل الى صدر(٩) فوجدها أمنع من عقاب لوح الجو ، وعاد متخلف النيــة مخلف النو وكفى الله امــره وصرف شره . ومنه المملوك ينهى انه وقف على نسخ الكتب العراقية المباركة وهى دالة على جميل النية ، ووقوع الاهتمام بهذا الجانب وحمل اليهم بما يجرى له مع الأعــداء ، والمشاركة المشكورة فى (السراء والضراء(١٠)) واوهب أن يتلقى هـــذا الاحسان بغاية الاعتداد ، ويجرد فيه لسان الشكر والاحماد وتوسع القـــول فى أن جميل الآراء الشريفة هـــو العدة والعمدة والمرجو فى

(٦) سورة النور آية رقم ٥٥ .

(٧) قارن مسند ابن حنبل جـ ٣ ـــ ١١٧ . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عجبت للمؤمن ان الله لم يقض قضاء الا كان خيرا له .

(٨) فى الأصل : الارمان .

(٩) فى الأصل : صور والتصحيح من البرق ٣ ورقة ٣٨ ب .
قارن الروضتين٢ جـ ٢ ص ٨٠٧ .

(١٠) ما بين الحـــاصرتين ورد كاتالى فى برق ٣ ورقة ٣٩ أ : فى الشدة والرخاء .

الدنيا والآخـــرة ، والعاجلة والآجلة ، وتعجل اعادة الرسول فما يكون كلفته الا واسعة والمطالب باقامته متشتته .

ومنه فى صفة الرسول ومن يختار للرسالة وشروطها ، وان كان ولابد من رسول فيلمح المولى من أمره النزاهة حيث لا يثقل تثقيلا لا ينفعنا، ويستثقل به من نفذ اليه، والعقل حتى يعرف ما يأتى ويذر ، والصدق فانه لا رأى لكذوب والاستقلال بالقول فان غيبة الحجة فى وقتها خذلان عظيم والمولى يعرف كل من طلب فما ينبغى أن يقال مع معرفته خـــذ فلانا ودع فلانا ولو أن عندنا عرضا مهما لكان انهاض الفقيه قطب الدين النيسابورى واجبا لأن حرمته كبيرة ومعرفته ثاقبه فلا يعدل عن استشارة ظهير الدين فقد تجرد لقضاء الحق والأنصباب الى هذا الجانب والتشهى بمحبته والخطب فى جله .

ومنه فى معنى شرف الدين بن عصرون وكان قد كف بصره ، وحـــديث قاضى دمشق لا يعجل فى أمره ولا يستبدل به الا بعد ظهور الخـــيرة فيمن تقدمه فالمنصب كبير وجمع شروط الاختيار عسير وايلام قلب رجل شـــارف منتهى عمره مع كونه لم يظهر منه ما يذم من أثره مما لا يحتاج اليه .

ومنه ونوبة العدو فى الرملة فقد كانت عثرة علينا ظاهرها ، وعلى العدو باطنها ولزمنا ما نسى من اسمها ولزمهم ما بقى من عزمها ، ولا دليل أدل على القوة من المسير بعد شهرين من تاريخ وقعتها الى الشام نخـــوض بلاد الفرنج بالقوافل الثقيلة والحشود الكثيرة ، والذى تضمنه صـــاحب منبج عن الحلبيين والمواصلة فما هو الا ظن توهمه أو نقلة ناقل يجب أن يتفهمه فأى سبب يحمل قوما أفردتهم الايام بلذاتهم ، وقام المولى بينهم وبين اهل معاداتهم يسهر وهم ضاجعون ويتعب وهم وادعون ، ثم أنهم قد جربوا ولدغوا وطلبوا فما بلغوا ما هو عنها بالحديث المرجم .

عاد الحديث قال : لما دخلنا دمشق وجدنا رســـل دار الخلافة قـــد وصلوا بأسباب العاطفة والرأفة ، وكان حينئذ صاحب المخزن ظهير الدين (١٨٢ ا) أبو بكر منصور بن نصر العطار وهو من ذوى الاخطار وله التحكم فى الايراد والاصدار وقد توفر على محبة السلطان وتربية رجائه ، وتلبيـــة دعائه فوصل كتابه ورسوله بكل ما سر السراير ، ونور البصاير ، وكان الكتاب بخطه واقترح على السلطان أبياتا يكتبها فى كتاب اليه بخطه فقلت ما ضمنه الكتاب وهو :

وأفاض فى شكر العوارف عارفا | بقصور باع الشكر عن نعمـائه
وتأمل الخط الـكريم فأشرقت | انوار حسن العهد من اثنـائه
أضحى ظهير الدين أفضل صاحب | يستمسك الداجى بصدق ولائه(١١)

مكاتبة فاضلية فى التهنئة بمولود . المملوك يقبل الارض بالمقـام العالى الناصرى ، نصر الله الاسلام بمقامه وأهلك اعـداء الحق بانتقـامه ويهنىء المولى بنعمة الله عنده وعند الاسلام وأهله من زيادة فى ولده وكثرة فى عدده وهو الامير أبو سليمان داود انشأه الله نشوء صالحى خلقه ، وجعله كما جعل أباه من أنصار حقه ، وكانت ولادته فى الساعة الرابعـة من ليلة الاحد لسبع بقين من ذى القعـدة ومن الله بكمال خلقـه ووسامة وجهه وسلامة اعضائه وتهلل عزته وابتسام اسرته ودل به على أن هـذا البيت الكريم فلك الاسلام لا يطلع فيه الا البدور كما دل على عناية ربه بأبيه فانه تعالى قال : « يهب لمن يشاء اناثا ويهب لمن يشاء الذكور »(١٢) .

وهذا الولد المبارك هو الموفى لاثنى عشر ولدا بل لاثنى عشر نجمـا توقد فقد زاد الله فى أنجمه عن انجم يوسف عليه السلام نجما ورآهم المولى يقظة ورأى هو تلك الانجم حلما ورآهم ساجدين له ورأينا الخلق له سجودا، وهو سبحانه قادر على أن يزيد حدود المولى حتى نراهم آباء وجدودا(١٣) .

ومن كتاب فاضلى آخر . أدام الله دولة مولانا الملك الناصر وخصـه بتشييد بناء السلطان ولا أخلى منه عيون الاولياء فاما القلوب فانه لها ساكن وانها له أوطان ، وأوزعه أن يشكر ما به من نعمة والهمه أن يخلف محمدا صلى الله عليه وسلم بأحسن الخلافة فى أمته ، وحفظ عليه كل عمل ، بيده قاضيته ، ولقاء كل خير بيده ناصيته :

وان اكثر الداعون فيما دعوا له | فلا تلحين من بات يدعو لنفسه

كتبت هـذه الخـدمة بعـد انقضـاء عيد النحـر على ما شرع فيه من سنة واستحب من قربه وعلى نيابة المولى الملك العادل أوفى نيـابه وعلى هذا قال الخلق لغيبة المولى .

---

(١١) يسقط البندارى الأوراق التالية ٤١ ب — ٤٧ أ وقد وردت فى البرق ٣ وهو عبارة عن مراسلات بين السلطان والجهات المختلفة .
(١٢) سورة الشورى آية رقم ٤٩ .
(١٣) يتبع ذلك فى البرق أشارات مختصرة الى أولاد السلطان قارن أوراق : ٤٨ أ : ٥٠ أ .

تراهــم كبيت غـــير الكسر وزنــه
فالفـــاظه نثـــر ومعنـــاه قايم

❋ ❋ ❋

دنا العيد او تدنوا به كعبـــة المنى
وركن المعـــالى من ذوابة يعـــرب
فياعجبــا(١٤) للدمع يرمى جمـــاره
ويا بـــعـــد ما بينى وبين المحصـــب

كتب المولى عند المملوك كالجنة التى قال الله تعالى واصفا لها : « وفيها ما تشتهيه الانفس وتلذ الاعين وانتم فيها خالدون »(١٥) وان لم يخلد المملوك فيها جسما فقد خلده الفخر فيها اسما ونعمة المولى بها وبخيرها تجل عن الوصف .

وما علمت لســانى كل عن صفة وما علمتك الا فوق ما اصــف

والله ما يهيج البروق اللامعة، والحمايم الساجعة والنسيم فى الاصال والخواطر اذا خطر بها ايام الوصال مايهيج هذه الكتب وانها لتلقح من سحب العيون ما تلقحه مراقات(١٦) السحب وبالجملة كل دم حقنة المولى لجهاده قد اجراه دمعا ببعاده وذكر المولى انشودة وانها ربما كانت للقاء ميعادا :

متى ان يكن حقا يكن احسن المنى يا برد ذاك الذى قالت على كبـــدى
فســوغونى المنى حتى اعيــش بهـــا

وقد ينعــش الفتى بعد عثـــرة ويصطنع الحسنى سراة بنى عجــل

❋ ❋ ❋

سقى الله دارا شــوقتك بغيــرها واذنتــك نحوى يا زياد بن عامـــر
اصـــايل ترب ارتجى ان انالهـــا بلقياك قد زحزحن برد الهـــواجر

❋ ❋ ❋

والمملوك الان يعالج من الاشواق غريمين كريمين غريم ينزع به الى كعبة الحزم وغريم يرجع به الى كعبة الامم .

---

(١٤) فى البرق ٣ ورقة ٥٠ ب فياويلتى .
(١٥) سورة الزخرف آية رقم ٤٣ .
(١٦) فى برق ٣ ورقة ٥١ أ وردت هذه الكلمة مؤلفات .

لو سرت من ذا الى هذا وكيف به ما ما سرت من حرم الا الى حرم

وحديث ما يلزم الخزانة من المغارم فقد قال أحد وزراء الرشيد له وقد أراد سفرا الى احدى غزواته يا أمير المؤمنين تكثر الكلف قال ومتى قلت :

(١٩٢ ب)

لا يستقر بكفه أمواله فكأنما هى عابرات سبيل

وما ضاع مال ورث الحمد أهله . ومنه للمولى أولاد صاروا رجالا ويجب أن يستنجد للقلاع رجالا كما فعل السابقون أعمارا وأعمالا ، وقيل القلاع أنوف من حملها شمخ بها ما فى الرجال على النساء أمين .

وزهدنى فى الناس معرفتى وطول اختيارى صاحب بعد صاحب
ولا كنت أرجوه لدفع ملمة من الدهر الا احدى النوايب

ومنه عز الدين اقبورى يطول المولى عنان صبره ، ويودعه بلطف خلقه وتحمل جفوة ظاهرة ، مع العلم بسلامة باطنه ، ومن كان يخص ايادى الموت عنده تسفيره بستة آلاف دينار فلا بد من احتماله لتناسب أسباب المعروف عنده ومنه من أبيات فى ذكر السلام وتبليغه الى ولده الملك العزيز عثمان :

وغريبة قد جئت فيها أولا ومن اقتفاها كان بعدى الثانى
فرسولى السلطان فى ايصالها والناس رسلهم الى السلطان

ومن اجابة السلطان عن بعض الكتب الفاضلية بالانشاء العمادى . وردت المكاتبات الكريمة الصادرة عن الحضرة السامية الاجلية الفاضلية ضاعف الله سمو ظلالها ونمو أفضالها وبلوغ آمالها وسبوغ ظلالها مؤرخات بثالث عشر شوال ورابع عشر ومنتصفه نظام سطور الطرس وظلام ديجور النفس فى صدفة وسدنة متضمنات شكر ما من الله به من سلف الاحسان مبشرا بما أعده لنا من مونيقة مهديات للنصائح الفصايح ، فأضاءت بطلوعهن مطالع المطالب عن سنا النجح ، ووصلت مناهج المسار ومباهج المبار سافرة الوجه مسفرة الصبح وتضاعف من الانس بمطالعة الكتب الوحشة لما ينوب من مشاهدة طلعة القرب . فأما ما انهاه المجلس السامى بعد رحيلنا من بزاعة المقيم فانه شرح ما تجدد لنا بغيته ، وأوضح طرفا مما وجدناه من

الوجد عند عدم الاستيناس بكريم حضرته احاط علم الكريم بأن اليمن مقرون بحضوره وان استقامة الملك فى اموره بحسن تدبيره ولولا متابعة ارادته ومطاوعة بغيته لما سمعنا على الكرة بغيته ، ولكننا ضننا به لكننا ظننا انه يجد من ذلك التعب الدايم راحة ويكون حمام موارد الاحجام له مستباحة مستماحة . انى والملكة بارئه وآلائه متسقة العقود ، مشرقة السعود ، فايزة العهود ، ناجزة الوعود لا زالت اقلامه لمقاصد النجاح محررة وأحكامه لقواعد الصلاح مقررة والايام بميامنه المباكرة مباكرة والممالك لمشاركة تدبيراته المشكورة مشاركة .

ومنها وتلقينا رسل الخلافة المعظمة بألطاف البشرى وأصناف اليسرى والرسالة المباركة مشتملة على ثلاثة فصول ضامنة لاجابة كل سـؤال واصابة كل سؤل .

فأول الفصول اظهار الاغتمام بما جرى من نبوة تلك النوبة ، وثانيها عرض المال والرجال الذين بهما مال الرجا الى دار الحظوة ، وثالثها قبول الشفاعة فى عز الدين اقبورى والاعتداد بها وعدها من المنن الحلوة والمنح الصـفوة .

عاد الحديث قال : وخرج السلطان للصيد فى ذى الحجة نحو قارا فشكوت ضرسى وعدمت انسى ، واتفق رجوع عز الدين فرخشاه لحمى عزته ورجعت معه احاضره وأسامره ليلا ونهارا واجتنى من رياض أخلاقه المونقة ازهارا فانشدنى بيتى المتنبى .

وزايرة كأن بها حيـاء ... فليس تزور الا فى الظـلام
اذ ما فارقتنى غلـتى ... كانا عاكفان على حـرام

فقال : وحماتى بالصد منها فانها لا تزور الا نهارا ولا تهجم الا جهارا ولا بفرقتى يفرق ولا أخلص من نارها بعرق فنظمت فيه كلمة طويلة فى صفة الحمى .

(١٩٣ آ) وزايرة وليس بها حيـاء ... فليس تـزور الا فى النهـار
ولو عرفت لظى سطوات عزمي ... لكانت من سـطاي على حذار

أحماك اســـتعارت لفــح نار | لعزمك لم تزل ذات اســـتعار
وما أحمى مزاجك غير لطــف | ليوقد ناره عنــد الغـــوار
ولفح العارض الســـارى دليل | من الغيث الملث على انهمــار
وما أن حم ليث الغـــاب الا | لخلقك سالب لب المقـــار

ذكر استشهاد عضد الدين وزير الخليفة في العشر الاولى من ذى القعدة فى هذه السنة

قال : ولمــا صفى للوزير عضد الدين أبى الفرج بن المظفر رئيــس الرؤساء موارد النعماء ، وأمن من صروف الدهر نوايب الاعتداء تفرد بشغله وفاض عدله وفيض فضله واستكمل الرى من نهله وعله ، وتغاشت أبصار الملوك عن الصعود الى محله . وذهل والدهر غير ذاهل وغفل والخطب غير غافل وعزم على الحج لاداء فرضه وارتقى بحركته الى سمائه وقــد قرب سكوته تحت أرضه وكان من أمره فيما باح القضاء بسره أنه سير الاثقــال وقدم الرجال ، وحسب الارزاق ولم يحسب الآجال وخرج فى موكب تعنوا له وجوه نجوم الاملاك وتخبوا لشمسه نجوم الافلاك وهو يتجلى فى بهو جلاله وهو فى حليته حالته كالبدر فى هالته . وأمر أن لا يحجب عنه مظلوم ولا يمنع عنه مهضوم ولا يبعد ذو غصة ولا رافع قصة . فانه قد خرج من بيته الى الله مهاجرا والى بيته الحرام سايرا فوقف له فى مضيق غربى دجلة كهل فيــه جرأة وكفر وجهــل ، وفى يده قصة عليها يتجدث وبها يتغوث وهو يصرخ ويقول لا أسلم قصتى من يدى الا الى يد مولانا الوزير فهو كهف المضيم ، وموبل المستجير . فقال : دعوه ولا تمنعوه فأومأ ليوصــل قصته فانتهــز فرصته وقرب نحوه وضربه بمدية وهتك حجاب روحه وغادره لقى بجرحه.

وبدر كمال الدين أبو الفضل بن الوزير فقتل قاتل أبيه بسيفه وكان مع ذلك الجاهل رفيقان فخرجا ومعهما سكينان فجرح احدهما صاحب البـــاب بموافقة الوزير فى شهادة الوفاة فعثا الملاحدة وقطعوهم وأحرقوهم قبل دخولهم النار بالنيران وختم الله للوزير بالشهادة وفاز فى عليين بالشهادة فاستقل ظهير الدين أبو بكر منصور بن نصر العطار صاحب المخزن بالدولة وكان لسلطاننا ظهيرا ، وللملك الناصر نصيرا وكان الرسل قد مضوا الى الوزير فلم يصادفوه وتولى ظهير الدين امرهم فالفوه فى الاعتنــاء بالأمــر

كما الفوه . وكان المندوب فى الرسالة القاضى ضياء الدين الشهرزورى فانه كان لها يترشح وبأدريتها يتوشح ورأى السلطان فيه يترجح فتعين للرسالة وسار بقوة القلب والبسالة فلقى من ظهير الدين ما دنا به من الظهــور وحصل منه على الوفر الموفور والعرف المشكور واقتضت المهام مقامه هناك عدة من الشهور ، وكانت من الانعام الامامى وظيفه داره ، ومبرته به وبمن معه باره . وكانت مياومته بالدنانير الامامية تبلغ العشرين فاذا انقضى الشهر تضاعف مائين وذلك سوى وظايف الطعام والعلوفة والاغنام وسوى التحف والهدايا والتشريفات وما وصله من الصلات سفر به وشرف من نقود النفقات كان السلطان قد نفذ معه على عادة انفاذه كل سنة الى اعيان العراق وأمثاله واكارمه وافاضله والعلماء والشعراء والمتصوفة من الفقراء عطايا وهدايا وخلعا وتشريفات وسنايا . وربما بلغ المبلغ الوفا يسرى بها الى ذوى المعروف معروفا .

ذكرى مكرمة ههنــا

قال : جئت الى الصفى بن القابض المتولى والخازن وقلت له اطلعنى على أسماء الذين سيرتم اليهم العطايا على يد الرسول فتلقى قولى بالقبول فلما تأملت الدستور فقدت فيه اسامى جماعة من الأصدقاء قد أهملت فى العطايا فقلت له : ههنا خمسة أسماء لم يجر لها ذكر (١٩٣ ب) ويغتنم لهم حمد ودعاء وشكر فقال : كم نصيبهم فقلت مبلغ مائتى دينار فلم يقابل قولى بانكار فوزنها وحدها وسلمها الى عدنان النجاب وقال : الحق بهــا الرسول وخذ منه بها الوصول . فقلت له هلا استأذنت السلطان فقال قولك المقبول والسلطان لا يقول فى هذا ما لا تقول .

فصل من انشاء الفاضل فى مطالعة الى السلطان : النوبة الحادثة للوزير عضد الدين نوبة نابية راجعة فاجعة واعظة رادعة « وما ربك بظلام للعبيد »(١) فقد كان عفى الله عنه قتل ولدى الوزير ابن هبيرة رحمه الله وازهق انفسهما وجماعة لا يحصى .

من يــر يومــا يريــــه　　　والدهـــر لا يغتـــر به

(١) سورة فصلت آية رقم ٤١ ,

وهو من ذرية لم تزل قاتلة مقتولة وما زالت السيوف عليها ومنها مسلولة فهم فى هذه الحادثة المسمعة المصمة كما قال : دريد أبى القتل الا آل صمة والأبيات المولى يحفظها وهى فى الحماسة ومنها :

أبى القتـل الا آل صـمة أنهم — أبوا غيره والغدر يجرى الى القدر
قسمنا بذاك الدهر شـطرين — بيننا فما ينقضى الاونحن على شطر

وقد ختمت له السعادة بما ختمت به له الشهادة لا سيما وهو خارج من بيته الى بيت الله قال سبحانه « ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله »(١) .

ان المسـاءة قد تسر وربمـا — كان السرور بما كرهت جديرا
ان الوزير وزير آل محمـد — اودى فمن يشناك كان وزيرا

هذان البيتان قالهما شاعر فى أيام السفاح أبى العباس أول خلفاء بنى العباس فى وزيره أبى سلمة بن الخلال ، وكان دعامة دولتهم وقايم دعوتهم ولذلك قصة طويلة .

ذكر عز الدين اقبورى وعوده

قال : قد سبق ذكر الامير عز الدين أقبورى بن أرغش وأنه فى نوبة قطب الدين قايماز خرج وخلى ببغداد من أمواله وذخايره القناطر المقنطرة فاعتنى به السلطان وكرر الشفاعة فى حقه ورد سناه من رضاء الديوان العزيز الى أفقه ، وسفره بأمواله وسيره باجلال ، وسمع فى طريقه باستشهاد الوزير فجبنت نفسه وزال بالعود الى بغداد أنسه فلما وصل كتابه أخلف فى أمره حسابه .

من كتاب فاضلى فى معناه . وما للمماليك حاصل الاهتمام به واستثبات النظر فى أمره أمر الامير عز الدين أقبورى وعودته وضعف نفسه وكان سبيله أن يتوكل ويقدم فان ذمة المولى ما كانت تخفر فيه والقايم الآن مقام الماضى صاحب غير متهم المودة وبالجملة المخاطر كثير الخواطر ومالى غير هذا الرأس رأس .

---

(١) سورة النساء آية رقم ١٠٠ .

ولقد ضربنا فى البلاد فلم نجد أحدا سواك الى المكارم ينسب
فاصبر لعادتنا التى عودتنا أولا فارشدنا الى من نذهب

وقال :

فلو كنت تحصى ماوهبت من الندى تبينت ما تجنى عليك المكارم

قال : ولما وصل الرسول الى الموصل بلغه استشهاد الوزير فتوقف ووافق وصوله اليها وفاة ابن عمه القاضى عماد الدين أحمد بن القاضى كمال الدين الشهرزورى .

فصل

من كتاب فاضلى : فى ذلك كله مكاتبة ضياء الشهرزورى بالاتمام لطيته والنفوذ لوجهته صواب ، وعلم أيضا وفاة ابن عمه فسبحان من قارب بين الخلق فى الارزاق والآجال .

يدلى ابن عشرين فى قبره وتسعون صاحبها راتع
اغتبط الولد مع نضارة الشباب المقتبل
وعمر الوالد مع ذبول الشيب المشتمل
ليعلم أن الشيب ليس بمسلم وأن الشباب الغض ليس بمانع

وليكون العبد حذرا من نعيات الآجال فى كل الاحوال ، والله تعالى يطيل للمولى العمر كما أطال له فى القدر ويسمع منه ولا فيه ويبقيه سندا للدين الحنيفى فان بقاءه(١) يكفيه .

(١٩٤ أ) ذكر الامير شمس الدين بن المقدم

قد سبق ذكره وانه من أكابر الامراء المقدمين وله سوابق ومواتت وشوافع وحرمات ، وهو السابق الى مكاتبة السلطان فى تصويب رأيه الى الوصول الى الشام وتدارك أمر الاسلام ، وأن السلطان لما تسلم قلعة بعلبك أنعم بها عليه فأقام بها مستقرا ، ولما وصلنا فى هذه نوبة الى الشام

---

(١) فى الأصل : بقاء .

لم يحضر كما جرت العادة للخدمة والسلام فانه انتهى اليه أن الملك المعظم شمس الدولة طلبها من أخيه وأنه لا يمكنه الرد فى نحر مباغيه وعلم أنه اذا أحضر حظر عليه العود وكوتب مرارا سرا وجهارا فأبى الا الاباء وشارف السلطان منه ومن أخيه الحياء ، ومكث طويلا عسى أن يجمع بين القلوب ويدفع ما لزم من الخطوب وهو فى ذلك يستعين بالله فى هدايته الى الصواب . وفى هذه السنة أربعنا عن مخيم السلطان بتل حارم من الشعراء ونزلنا منها بالعراء والعشب واص والخطب قاص والزمان غير عاص ، ونجح الآمال غير متعاص والمرعى مريع وشمل المسار جميع(١) ولله فى الاحسان الينا صنيع نصيع وروض لنا وسيع وشيع .

ودخلت سنة أربع وسبعين

والسلطان فى أمر بعلبك مفكر ، والرسل بينهما الينا رايح أو مبكر وشمس الدولة أخوه(١) لا يقبل عذرا ولا يرى عما طلبه صبرا ، وكانت سلطنة الشام له فلما وصل السلطان أخذت عقوده فى الانحلال وأموره فى الاختلال فأراد موضعا ينفرد بحكمه ، ويجرى فيه من طيب عيشه على رسمه فلم يتعين له سوى بعلبك فطلبها والسلطان يريد أن يحفظ قلب ابن المقدم فكلما رفق به عنف ، وكلما استأنف معه لاستمالته عزف فما زالت الموارد(٢) الصافية تتكدر والضماير السهلة تتوعر حتى استأذن الملك المعظم فى التوجه الى بعلبك فأذن له وعقد بها أمله وقصر على تسلمه عمله . وتوجه عز الدين فرخشاه الى حوران لحفظ الثغور ورعاية الجمهور وسرنا(٣) الى حمص ونزلنا على العاصى لاستدناء الآمال القواصى العواصى(٤) .

فصول من كتب فاضلية وردت فى أوايل هذه السنة . فصل له من كتاب : فأما المتحصن(٥) بقلعة بعلبك فقد ضرب بينه وبين السعاد بحجاب ،

---

(١) فى الأصل : وجميع .
(١) فى الأصل : أخو .
(٢) فى الأصل : المواد وكذا يستقيم السياق .
(٣) فى الأصل : وصرنا .
(٤) فى الأصل : العاصى .
(٥) فى الأصل : التحصن .

وصرف عن باب الخير وهو باب مولانا الذى ما بعده سوى لله باب وقد خدعه الرأى الذى تبعه وولاه النظر الذى دله . ولو هدى لصوابه ووفق لرشاده فتحت له أبواب الانابة ومهدت لدعائه أسباب الاجابة قبل أن يحق عليه الكلمة وتشتد عليه حدب الحكمة ، وتخبطه الارجل خبط السلمة .

فصل آخر من كتاب آخر فى المشورة والفكر: المملوك يقول: ان كثرة الشك محاماة عن اليقين المعتقد ، وكثرة الفكر أمان من تطرق الرأى المستنقد وأنه لا تنال الزبدة الا بالمخض ولا يتأكد الابرام الا بعد النقض ، واذا تكرر صقل السيف كان التكرار أظهر لجوهره ، واذا تكرر سقى الغصن كان أخرج ثمره(٦) ولا سيما وكل أمر ابتدأ به المولى واستدركه ونهى عنه ثم أمر به لم يفت منه فايت ولا خرج عن اليد منه خارج .

فصل آخر : لا شك أن المولى تغرق الجبال فى بحره ، وتضيق(٧) العظايم فى سعة صدره ، وهذه عادة الخواطر والله سبحانه قد اشرك بين الخلق فيها ولكنه عند الصواب أفرده . والملك فيما يرد عليه منها بمثابة الشجرة فيما يرد عليها من مائها ما يتنقى صفوه تستسيغه فينبو عن قذاه فتمجه وتلفظه . ومن أمثال العرب رب عجلة تهب ريثا . وقال النبى صلى الله عليه وآله وسلم : « ما كان الرفق فى شىء الا زانه ولا كان الخرق فى شىء الا شأنه(٨) . ولعمر والله أن الفرص اذا لاحت لا يحمد الرفق فيها وانما يحمد الى أن يلوح مضاربها ويحمد مطالبها . والله تعالى يقدر المولى على نيل أعراضه ويسدد سهمه لمطابقة أغراضه .

فصل آخر : المولى عفيف الا أن نوابه والمشارف مأمون الا أن كتابه الا انه غير متصرف(٩) .

ولكل شرع آفة موجودة   نور السراج على سراه يدخن

فصل آخر : وأما سور القاهرة فعلى ما أمر به المولى شرع فيه والله يعمر المولى الى أن يراه نطاقا مستديرا على البلدين ، وسورا بل سوارا يكون

---

(٦) فى الأصل : الثمره .
(٧) فى الأصل ويضيع وكذا يتطلب السياق .
(٨) حديث أبى داود جهاد ١ — ابن حنبل — ٦ ص ٥٨ ، ١١٢ ، ١٢٥ ، ١٧١ ، ٢٠٦ ، ٢٢٢ .
(٩) قارن البرق ٣ ورقة رقم ٦٧ ب حيث يقول : « الوالى عفيف الا الا أن نوابه ، والمشارف مأمون الا أن كتابه ، وفلان ثقة الا أنه غير متصرف .

به الاسلام محلى اليدين محلا الضدين والأمير بهـــاء الدين قراقوش ملازم الاستحثاث بنفسه ورجاله لازم لما يعنيه بخلاف أمثاله قليل الثقيل مع حمله لاعباء التدبير وأثقاله .

فصل آخر فى حق نقل القضاء : (١٠) (١٩٤ ب) من شرف الدين الى أبنيه . أما ما أورده المولى دفعة أولى وثانية فى معنى الحكم بدمشق فالمولى متوقف فى مقام التوقف متردد فى مكان التردد ولن يخلو الامر من قسمين والله يختار للمولى خير الاقسام . أما ابقاء الامر باسم الوالد بحيث يبقى رأيه ومشاورته وفتياه ويتولى النيابة ولداه ويشترط عليهما المجازاة لاقل زله وترك الاقالة لاقل عثرة فطالما بعث حب المنافسة الراجحة على اكتساب الاخلاق الصالحة وأما أن يفوض الى الامام قطب الدين فهو بقية المشايخ وصدر الاصحاب ولا يجوز أن يتقدم عليه فى بلد الا من هو أرفع طبقة فى العلم منـــه .

فصل آخر من كتاب فى معنى أخيه شمس الدولة : وأما المولى المعظم وما قام به من المغارم الجليلة وحمله من التكاليف الثقيلة فالمولى لا يحاسبه فيما يعطيه فانه اذا أعطاه فقد جعله واسطة بينه وبين سايليه . وقد كان معاوية أجاز عبد الله بن جعفر بعشرة آلاف ألف درهم(١١) فقيل له فيها واستكثرت فقال : انما اعطيت بنى هاشم وبنى أمية وأهل الحرمين فلم يعد عبد الله بن جعفر الى بيته الا بعد أن تحمل خمسة(١٢) آلاف درهم دينا والدين داء يصيب الكرام ويسلم منه اللئـــام ولو كان ما يفعله المولى المعظم فعل صديق لوجب أن يفدى بالاحداق فكيف فعل أخ لا يجرى المماليك مجراه فى التوفيق والوفاق .

فصل فى ذم ماء دمشق : عرف المملوك من الكتب الواصلة التيـــات المولى الامير عثمان والحقير مما ينال ذلك الجسم الكريم يؤثر فى قلـــوب الاولياء الأثر العظيم وقليل قذاة العين غير قليـــل وماذا يقول فى بلد لـــو صحته الحمية من مائة لكانت أكثر من أسباب صحة المحتمى وشفائه فانه

---

(١٠) قارن الروضتين (٢) جـ ٢ — ٢ .
(١١) برق ٣ ورقة ٦٨ ب عشرة ألف ألف درهم .
(١٢) برق ٣ ورقة ٦٨ ب خمسة ألف ألف درهم . انظر الذهبى . تاريخ الاسلام ٢ — ٢١٨ .

ماء يوكل وبقية الامواه تشرب ويجد وخامته من ينصف ولا يتعصب ونرجو أن يكون هذا المولى قد أمسك عن الفاكهة الدمشقية التى لا يخفى كثرة فضلاتها وعن أكل اللحوم المجلوبة التى نقلها سير الطريق الى شر حالاتها .

فصل آخر . والعرب جنس كالحنظل كلما زيد سقيا بالمـاء العـذب أفرطت مرارة ثمره وعزت نضارة خضرته .

فصل آخر : وأما حديث ملك النوبة فانه أقل من أن يسخى بحجـر لنباحه أو يشمر(١٣) عن ساق لخوض ضحضاحه ولو أن شرارة من زنـد العزم(١٤) أو ريشة من ريش السهم هتفت اليه لذاق وبال أمره وعرف بقدر وجهه الذى هو أشد سوادا من قدره .

ومنه اذا وصلت من المولى رفقة نجابين فكأنهما عسكر نجدة قد بشرت واذا فض منها كتب فكأنها الوية فتح قد نشرت ورسله وكتبه بالاضـافة الى شغله ، ومهماته كثيرة ولكنها بالاضافة الى تطلعنا وتشوقنا قليلة .

وما استكثرت فى اليوم منها ألوفها   وواحـدها فى الحـول منك كثير

وكتاب المولى الى المملوك مزينة سماؤه من حروف خطه بمصابيحها ، ومفتوحة له أبواب السعادة من اسطره بمفاتيحها .

فلا عدمت عينـاى كاتبه الذى   له الفضـل مكتوبا اليه وكاتبـا

صحبت به والله أعظم نعمـة   فلا زال مصحوبا ولازلت صاحبا

فصل آخر فى معنى ازالة المنكرات : وأما المأمور به فى معنى المنكرات الظاهرة وازالة أسبابها وغلق أبوابها وتحصين كل مهتوكة من عصـمة وتطهير كل موصومة فالله يثيب المولى ثواب من غضب ليرضيه بغضبه وحمل الخلق على منهاج شرعه وأدبه . وقد استدعى الملك العادل أحد الواليين وسلم اليه ما كوتب به من مولانا وأسمعه الانكار العنيف . وأشار المخاطب الى جهات تحمى بيوت المنكرات . فقال : لو استقام العود لما أعوج ظله ولو تنتهى أنت لانتهى غيرك ، ولكنك ملجـم عن أنكارها لانك شريك فيـه

---

(١٣) فى الاصل : ويثمر .
(١٤) فى الاصل : الغـرام .

وأجيب الى أن يرتب من الاصحاب العادلية من يغلق مواضع الخنا ويحجر على فواسد النسا . وما وقفت خواطر العصيان عند الزنا الا أن زادت مصحفة وهو الربا فلا حول ولا قوة الا بالله من محارم فيه منتهكة ، ومكاسب قد نزع الله منها البركة ، ومروات قد سقطت ووجوه قد توقحت وأموال قد تحرمت وشريعة منه قد خولفت نشكو الى الله دنيا لا نحن نتركها ولا نحن ندركها .

غدارة بالناس غرارة قريبة العرس من المأتم

(١٩٥ أ) وليس لحوادثها ونوايبها قرن الا التقوى والله المسئول أن يوفر منها حظ المولى وأما فلان فانه بطل كثير السر والحيلة والمال والرجال(١٥) فلا يحتقرنه وبعد أن أيقظه فلا ينم عنه والحيلة فى بعض الاوقات ترجح على القوة على أن الساعى مخذول ومن سل سيف بغى فهو عما قليل به مقتول وواجب أن يظهر العذر .

فما أحسن أن يعذر المرء نفسه وليس له من ساير الناس عاذر

واذا اقترن بكل ما يريده المولى حسن النية كانت العاقبة للتقوى على ان المولى ظاهر عذره والمشار اليه ظاهر ذنبه ومكره ، قال الله سبحانه وتعالى فى مثل المولى « ولمن انتصر بعد ظلم فاولئك ما عليهم من سبيل »(١٦) وقال حاله مثل حاله : « ولا يحيق المكر السيء الا بأهله »(١٧) ورب سبيل بدؤه مطير ونعم السبيل الى الخير نية الخير قال : وانما أوردت الفصول الفاضلية لأن فى كل فصل منها ذكر سيرة وفيها فوايدة كثيرة وبواعث للخواطر مشيرة ، وفيها أحاديث للحوادث وأعاجيب الاوهات والدمايث .

ذكر ما أسقطه السلطان من المكوس بمكة شرفها الله

قال : كان الرسم بمكة أن يؤخذ من حاج المغرب على عدد الرءوس ما ينسب الى الضرائب والمكوس فاذا وصل حاج حبس حتى يؤدى مكسه

---

(١٥) فى الاصل : الرجلة .
(١٦) سورى الشورى ، آية رقم ٤١ .
(١٧) سورة فاطر ، آية رقم ٤٣ .

ويفك بما يطلبونه نفسه وإذا كان فقيرا يحبس وتفوته الوقفة بعرفة . فقال السلطان نريد أن نعوض أمير مكة عن هذا المكس بمال ونغنيه عنه بنوال وإن أعطيناه ضياعا استوعبها ارتفاعا وانتفاعا ولا يكون لاهل مكة فيها نصيب فقرر أن يحمل اليه فى كل سنة مبلغ ثمانية آلاف أردب قمح يحمل فى جلابها الى ساحل جده ويهدى بها الى أهل الحجاز وجدة فان الامير بها يحتاج الى بيعها للانتفاع بأثمانها وأهل الحرمين يثقون من الدولة(١) بدوام احسانها(٢) وقرر أيضا حمل جلاب الغلات الى المجاورين والفقراء بها من الشرفاء فسقطت المكوس واغتبطت النفوس واستمرت النعمة ومر البؤس وذلك فى سنة اثنتين وسبعين .

فصل من كتاب فاضلى فى المعنى : ومن البشاير التى لا عهد لملك من ملوك الديار المصرية بالحصول على فخرها وأجرها انقطاع المكاسين عن جدة وعن بقية السواحل ويكفى أن تمام هذه المثوبة موجب للاستطاعة مقيما لحجة الله فى الحج فقد كانت الفتيا على سقوطه مع وجود الحامل ووصلت كتب من مكة تضمنت أن القمح ويبه وربع بدينار مصرى وأن الغنى فى شدة وأن الفقير هالك وأن هذه الجلاب بمشيئة الله قدرة من قدره « يحيى العظام وهى رميم »(٣) وفرج عظيم انتهى الى البلاد بعد أن تناهى الكرب العظيم والله تعالى يفرج عن أهل دينه ضايقات الكروب ويفك عن أهله(٤) حيرة حلقات الكروب قال : واستمر مقامنا بالمخيم بظاهر حمص والسلطان يصمم العزم للجهاد ويجد الحرص قال :

ذكر الحوادث فى هذه السنة ونحن بحمص

ومنها وفاة المهذب أبى الحسن على بن عيسى المعروف بابن النقاش البغدادى بدمشق فى المحرم . قال : وكان المهذب كنعته مهذبا ومن الملوك لتفرده بفضله مقربا وهو فى وقته مبرز وللملك الشام بمحاسنه مطرز ومنها وفاة نجم الدين بن مصال فى الثامن عشر من جمادى الاولى وقد جاءنا

---

(١) فى الأصل : الدواب والضبط من الروضتين ١ — ٢ — ٢٣ .
(٢) فى الأصل : اختانها والضبط من نفس المصدر نفس الصفحة .
(٣) سورة ياسين ، آية رقم ٧٨ .
(٤) فى الأصل : أهل .

نعيه ونحن بحمص فزاد اغتمام السلطان برزئه(١) حتى جاز(٢) حده وجلس فى بيت الخشب مستوحشا وحده وقال : لا يخلف الدهر لى مثله صديقا بعده واجرى ما كان له جميعه لولده وحفظ عهده وكان لجماعة من الاعيان والشعراء والادباء بعنايته من السلطان رزق فأبقاه(٣) عليهم كأنه عليه حق مستحق ومن جملتهم رجل من أولاد أبى حصينة فلما توفى المذكور قصدنى فقلت للسلطان لو أن نجم الدين بن مصال كان حيا وشفع اليك فى رزق مستحق أما كنت تقبله فقال بلى فقلت فاقبل شفاعته وهو فى دار البلى ثم ذكرت له ابن أبى حصينة وصداقته النجمية فضاعف ادراره واذهب عنه اقتاره .

ذكر الظفر بخيل ورجل للفرنج أغارت على بلد حماة فى العشر الاول من شهر ربيع الأول(٤)

(١٩٥ ب) قال : وكان متولى عسكر حماه الامير ناصر الدين منكورس ابن الامير خمارتكين صاحب حصن بوقبيس ، وكانت طايفة من الفرنج ومن انضم اليهم من ذوبان الكفر قد الهبوا الاعمال بنارهم والهبوها بغوارهم . ولكم أغاروا على غرة وامتاروا مرة بعد مرة .

وكانت لحماة مع ناصر الدين عدة معدودة لا تبلغ مائة فعرف القوم أن أعمال حماه شاغرة فنهضوا فى جمع جم فخرج اليهم ناصر الدين فى عدته وعدته وتوكل على الله فى نصرته ونجدته وصحنهم بثقاله ونطحهم بكباش رجاله وأخذ عليهم المضايق وصوب اليهم البوايق فوقعوا فى فخاخه وفنيت شفلهم جاء الى الخدمة السلطانية بمنقبته مستقلا وبنهضه مذلا وساق أولئك الاسارى والاغلال فى أعناقهم والآجال آخذة بأرماقهم فركب السلطان فى اليوم الحادى عشر من شهر ربيع الاخر ووقف راكبا ووقفنا راكبين وحضر الامير منكورس وترجل ولثم الأرض وتقدم وصافح السلطان وقبل يمينه بعد أن عفر بقدمه جبينه ثم أحضر الاسارى من الفرنج والنصارى « كأنهم سكارى

---

(١) فى الأصل : برزه والضبط من الروضتين١ ٢ — ٥ .
(٢) فى الأصل : جاء .
(٣) فى الأصل : فارقاه والضبط من الروضتين١ ٢ — ٥ .
(٤) قارن برق ٣ ورقة ٩٦ ب حيث أورد العماد هذا التاريخ كالتالى فى العشر الأول من شهر ربيع الآخر . وهذا هو المرجح .

وما هم بسكارى »(٥) فأمر بفتح أغلافهم وضرب أعناقهم وأن يتولى ذلك أهل التقى والدين من الحاضرين وأن يكون هلاك المشركين بايدى الموحدين «فأعنق أمامه الضياء الطبرى الى برى عنق وتلاه الشيخ سليمان الديرى»(٦) المغربى وتلاه آخرون وكان الأمير أقطفان بن ياروق حاضرا فتقرب الى الله بضرب رقبة أحد أعدائه . قال : وجاءنى فى تلك الحالة رسول من السلطان يدعونى فظننت أنه لهم لا يكفيه غيرى ولا ينهز به دونى ولما أجبته وهو يقول جرد سيفك لهذا الكافر وخذ به ما يشتمل على سمعه وبصره فقلت أنا للقلم ولا أزاحم السيوف ، وانشر الفتوح ولا انشىء الحتوف ولكن هب لى ذلك الصغير لاملك رقة وغيرى ينوب عنى فى ذلك الاسير فيضرب عنقه فتبسم فعاينت منه الضحوك القتال وأقالنى وأجاب فى النوال السؤال فقال : هذا الصغير نستفك به من المسلمين أسير ونهب لك من سبى الاسطول بمصر مملوكا كما تؤثر أثيرا فانتهزت الفرصة وأحضرت دواتى ودرجى واستعنت بالامير عضد الدين مرهف بن مؤيد الدولة أسامة بن منقذ فكتب لى توقيعا وأخذت فيه علامة السلطان . ولما نزلت حررت الى المولى الفاضل رسالة فى المعنى ووصفت المملوك المطلوب بأوصاف يتعذر وجودها فسير لى فى جوابه مائة دينار مصرية عن المملوك عوضا . وقال رأيت تحصيل غرضك مفترضا والرقيق الذى أحضره الاسطول ما فيه ما يوافقه وأجودهم يساوى ثلاثين دينارا وما رأيت ذلك مختارا وقد أخذت من الديوان عن المملوك خمسين وعن الخزانة العادلية ثلاثين ومن خاصتى عشرين فاثمر قلبى بما عف عنه السيف وما ضيعت اللبن لما جاء الصيف ولو أرقت الاحمر وانما أعرضت عن ذلك مخافة أن يضحك منى ذلك الجمع كما ضحكوا منى الباقين .

قال : وعاود السلطان ذكر بعلبك وأشفق عليها وأزمع أن يسير اليها ودخل فصل الخريف ومالت الطباع الى التحريف وأصفرت الاوراق وأغبرت الافاق وقد تشاجرت عواصى العواصف مع الاشجار وألقت حواملها أجنة الأثمار ونشا النشاص وربا الرباب وسحب ذيل نيله السحاب وارتجت

---

(٥) سورة الحج ، آية رقم ٢٢ .

(٦) قارن برق ٣ ورقة ٩٨ أ حيث وردت الربوى وما بين الحاصرتين ورد هكذا بالنص .

ويضيف البرق (فاعنق أمامه الضياء الطيرى الى برى عنق وزهقت ملاقته بازهاق علق) .

الأرض وارتجزت السماء ووصلت النار وهجر الماء وقال الأمر للسلطان هذ أوان الانصراف ووقت الانحراف فقال قد بقيت فى النفس حاجة ببعلبك نقضيها وعزيمتنا فى تسلها نمضيها فان المتحصن بها بحكم هواه متصرف وعن أمرنا متوقف فنحضره ونحصره ونعظه ونوقظه وان أهملنا أمره فربما أطمع فينا الفرنج وأفضى بسر الشر الى الجهر على أن حق ابن المقدم متقدم ولا شك أنه متندم ودينه قوى ويقينه روى ولعله لا يحوجنا الى(٧) المطاولة ولا يخرجنا الى المنازلة فسرنا على طريق الزراعة وجينا وراسلناه بالاستعطاف والاستعفاف وداريناه لشيخوخته كالاطفال بالالطاف . وكان نزولنا بظاهر بعلبك على رأس عينها وطالت الاقامة عليها أشهرا . وأدلج المذكور فى ليل لجاجة فلم يبد فى سفارة منه واليه صبحا مسفرا ونحن نشفق من نزاله ولا نصدق (١٩٦ أ) فى قتاله ونرفق(٨) به على عنفه فى أحواله فتارة نخوفه فيتجلد وتارة نرغبه فلا يجيب بل يتبلد .

ودخل الشتاء ووقع الثلج وامتلأ به ذلك المرج وأصبحنا وصباحنا أبيض ، وجناحنا لا ينهض والعروق لا تنبض والبروق لا تومض والنيران مقرورة وشباه الجليد مطرودة والزناد كابية والاجناد آبية ونحن كأننا من ضيمنا فى حبوس وقد جمدنا كأننا بلا نفوس فلبدنا على المرابض فى مضارب اللباد وكنا فى الاكنان حول الكوانين كأنا فى صوامع العباد نطرى أفلاذ الأكباد بشى افلاذ الأكباد فعلى المناقل الشيشنات شرايح ، وللاقتراحات على الطهارة قرايح وللسلطان فى كل بكور ركوب للصيد وله طرايد وطرايح فما ألذها شتوة وأهناها نوبة لم نر لها نبوة لكأنها كانت غفوة لم تذكر للدهر لولا انتضاؤها هنوة وهيهات أن نرى بعدها فى طيب عيشها عشية أو غدوة .

ذكر مكرمة السلطان

قال : كتب اليه النواب بدمشق أن الأموال ضايعة وان الأطماع فيها زايغة وقد أفنى الجود مجموع الموجود ، وانا عند الاحتياج الى كف ملم ودفع مهم لا نجد ما ننفقه وأن فى أرباب الصدقات أغنياء لا يستحقونها وما لهم رقبة من الله يتقونها وان المصلحة تقتضى افراد جهات لما تسنح من مهمات فأمر بهم فى كتابه يكتب مؤامرة فجاءت مطالعة مكملة بالاسماء مفصلة . فقال لى السلطان : اقرأها على فبدأت بذكر أرباب الصدقات ،

---

(٧) فى الأصل : ان

(٨) فى الأصل : ونردفق .

وقدمت ذكر جهتهم على الجهات ، وكان مبلغ أحد عشر ألف دينار للصدقات
وقدمت ذكر جهتهم على الجهات ، وكان مبلغ أحد عشر ألف دينار للصدقات
فى مثل دمشق قليل والعطاء بحمد الله جزيل والصنع جميل فقال أكتب عليها جميعها بالامضاء ولا يكدر على ذوى الآمال موالى العطاء . فقلت أما أتلو بقية الأسماء فقال بل نزهنى عن هذه الأشياء فبقيت تلك الرسوم دارة وللآمال سارة بل تضاعفت على السنين أضعافا واستضافت آلافها آلافا ولما طال المقام على حصن بعلبك لم ير السلطان مقابلة المسلمين فيه ولا كسر الناموس فرتب طغرل الجاندار وجماعة معه يكفون من الرجال ووصاهم بألا يتعرضوا للقتال بل يمنعون من الدخول والخروج ووصلنا الى دمشق فى العشر الأواخر من رجب ، وتمادى الأمر الى أن رضى ابن المقدم بحصن بعرين وأعماله وببلد كفر طاب وأعيان نواح وقرى من بلدة المعرة ، وكان الذى أخذ أكثر وانفع مما خلاه وما خطر بباله وما حصل له ولا ترجاه ولا تمناه . قال : وسألنى السلطان أن أعمل أبياتا يكتبها الى مصر فقلت :

يا ساكنى مصر لا والله مالكم ... شوقى الذى لذعت قلبى لواعجه
أصبحت أطلب طرق الصبر أسلكها ... هيهات قد خفيت عنى مناهجه

ذكر المقياس بمصر

هذا المقياس موضع مبنى فى عهد خلفاء بنى العباس ليعرف زيادة الماء ونقصانه بالقياس ، وهناك عمود فى الماء مقسوم بالأذرع ، والأذرع مقسومة بالأصابع فى مسجد ينوب فى الجزيرة عن الجامع تصلى فيه الجماعات والجمع ويتولاها من العهد القديم متولى من بنى أبى الرداد(١) من هو معروف بالنزاهة والعلم والسداد وله راتب دار ورسم وقرار وخلع وتشريفات فى المواسم وحرمة متوالية المغنى سامية المعالم .

ذكر حديث حصن بيت الأحزان

قال : كان السلطان على بعلبك(٢) نازلا ولتسلمها محاولا وطال مقامه عليها فانتهز الفرنج فرصة الخلو واستخلوا عصر العتو وجاءت الداوية

(١) قارن البرق ٣ — ورقم ١١٢ أ .
(٢) فى سنة ٥٦٤ هـ هكذا وردت بالبرق . انظر البرق ٣ — ورقة ١١٢ ب والصحيح فى ٥٧٣ هـ .

منهم وشرعوا فى بناء حصن على مخاضة بيت الأحزان وأحكموا بنـاء ذلك المكان وكان يقـول للسلطان متى أحكم هـذا الحصن تحـكم على الثغر الاسلامى الوهن وغلق الرهن فان بينه وبين دمشق مسافة يوم فيقول اذا أتموه رحلنا اليه وهدمناه الى الأسـاس وجعلناه من الرسـوم الادراس فندعهم الان حتى يستنفذوا بقية أحـوالهم وينفقوا عليه أموالهم ويتعبـوا (١٩٦ ب) رجالهم فاذا قصدناه عكست آمالهم وألحينا مالهم فنقول منعهم من الابتداء أسهل من الدفع فى الانتهاء . واذا فات الفارط لا يستدرك وهو الان هين فلا يترك وهو صابر بقوة دينه ، ساكن بنور يقينه فان العاقبـة الحميدة بعد سنة كانت كما جرت على لفظه من عدة حسنة . فلما انفصل أمر بعلبك لم يزل أمر الحصن من همه وقصد حصاره فى عزمه وكان العام مجدبا والجدب عاما والشام لروايح(٣) الحوايج شاما وللاسعار أسـعار وللاسرار استشمار وللضر استضراء وللشر استشراء ، وعلى العباد من ثقل المحل اعباء وللرجال من لطف الله تعالى رجاء على أن الأيادى السلطانية نابت عن الأنواء ونادت فى الأندية بالانداء فرتعنا من احسانه فى مرعى مريع وشرعنا فى سلطانه من منبع منيع .

ذكر وصول رسول دار الخلافة

قال : ووصل فى هذه السنة رسول دار الخلافة بالعارفة والعاطفة والرأفة ، وهو الأجل فاضل أفضل الخدم ، وهو خاص الجهة الشريفـة مخصوص بالمنزلة المنيفة ، وسر السلطان بوصوله وحل كل نجح بحلوله وببركات ذلك رخصت الأسعار ونقص الاعسار وتفرجت العيون وتفجرت العيون وسكن القرار ، وقر السـكون .

كان الرسول كريما كأنه فى سواده انسان عين كله نور وبالحسـن والحسنى مشهور وزرته فالفيته طلق الوجه بشرا واليد برا فلما خرجت من عنده سير لى من هداياه وتحفه والطافه وفرا ، ولم يدع أحدا من أكابر الدولة الا وحباه بحباته ، وحياه من حيا سحبه . وكانت الجهـة الامامية مالكة قد ملأت يده بمال وافر ليصل ويعود بوجه سافر فما رأيت رسـولا وجه فى وجاهته ونباهته وهمته ونزاهته وشغف السلطان به وكلف بقربه

---

(٣) فى الأصل : لروات والضبط من البرق ٣ ورقة رقم ١١٣ أ .

واستصحبه معه الى الغزاة وشن الغارة على بلاد العداة ووقف به على الحصن الذى استجده الفرنج على المشهد اليعقوبى وكان السلطان بهـــذا الرسول الامامى مغتبطا واليه فى كشف أسراره منبسطا ولما جهزه ليعـــود بالعطايا السنايا والخيل السبايا فرقها قبل قفوله ومن جملة ما حمل له بغلة شهباء موصوفة لا يوجد لها نظير كأنها تحت السرج هضبة من ثبير(١) .

وكان رسولنا ضياء الدين بن الشهرزورى عنده حاضرا . وقال كنت على عزم طلب هذه البغلة من السلطان وقد فرحت لك منه بهذا الاحسان فقال : أنت أولى بها وبما معها . فأخذتها(٢) منه بما تبعها وفيها حصـــان عربى منسوب وحجرة ما لها قيمة وكان اذا أهدى له باقة ريحان جزاها بخلع حسان ، وانفصل منتصف ذى القعدة بالاكرام موصـــولا وبالاعظام مشمولا .

ذكر نوبة هنفرى ومقتله فى أواخر هـــذه الســـنة

قال : وكانت الأخبار قد توالت على ألسنة جواسيس الفرنج أنهم على عزم الخروج فتقدم السلطان الى ابن أخيه عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه وقد قدمه على عساكر دمشق أن يخرج على الثغر فى عسكره ويرتب كلا فى مركزه محترزا فى مورده ومصدره . وأقام مدة واستكمل عدة وعدة فلما كان مستهل ذى القعدة من هذه السنة تواترت الأخبار بخروجهم على الألســـنة فجرى من النصر الذى لم يحتسب والنجح الذى الا بعـــون الله لم يكتسب ما وصفته فى كتاب أنشأته عن السلطان الى الأجل الفاضل ومنه :

قد سبقت المكاتبة بما سناه الله وأسناه من النصرة الحلوة وذلك يوم الاربعاء مستهل ذى القعدة فانه فضل بنصرة خميس الاسلام على كل خميس وضيق على الأسود السود من بنى الأصفر كل عريس وخيس ، وأثمر من ورق الحديد الأخضر فى مربع الموت الاحمر منهم برأس كل رئيس . وكان الارجاف قد شاع بخروجهم منذ أيام والظنون مرتابة والقـــلوب مرتاعة ، والفكر غير حاضر لأن السنة جدب ومجاعة وليس فى مقابلة الفرنج فى ذلك

---

(١) والثبير جبل بمكة . انظر لسان العرب ٤ — ١٠٠ .

(٢) في الأصل : فأخذها وكذا يستقيم المعني .

الثغر الا ولدنا عز الدين وهو فى عدة من عسكرنا المنصور لا تبلغ الفا وهو معرض بارسال الحمام عند علمه بخروجهم لنخرج الى لقائهم فأمرناه أن يجفل البلد وأن ينور الاكام وينذر وأنه لا يلقاهم بل يتوقاهم ولا يخاطر بالجماعة الذين معه بل يحمىبهم ويتحاماهم وفى كل يوم يرجف برجفتهم وهم متمادون متباطئون وعلى مجافلة البلد متواطئون فلم يشعر مقدموا الطلايع ذلك اليوم الا وقد خالطوا القوم فتحيزوا عنهم الى الفيئة وهم دون المائة فأخرج ولدنا الرماة (١٩٧ أ) الكماه ، وقدمهم الى العداة العتاة ليشغلوهم ساعة ويحولوا بينهم وبين طعان الحرب الجافلة ، ولم يكن فى زعم العزمانهم يستدرون أخلاف النصرة الحافلة واستمرت المراماة عند تل الجارة وطلب أصحابنا طلب الملك فما تركه مماليكنا الترك حتى طرحوا حصانه وجرحوا فرسانه فحمل طلب هنفرى ليحميه وأبى الله أنه كما رمى الملك الا أن يرميه وقتل دونهما برهان صاحب الناصرة ونجا الملك يجر معه الذقن وقد تجرع كأس الشجب والشجن ، وحمل هنفرى جريحا وأودع بعد يومين ضريحا وما زالت الرماة يرمونهم ويرامون ويدنون ويدانون حتى نقصت الكماين وانقضت الضغاين وكانت نصرة أثيلة ونوبة أثيرة ، وثورة من أعداء الله فى تلك الفورة مستثيرة وحالة صدقت قول الله تعالى : (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة)(١) وتم هذا الغزو ولم يتم مدد العسكر الغربى ورجع الفرنج من الخزى بذلك الزى وأذنتنا بطاقة الطير فى دمشق ذلك اليوم بكرة بكرتهم وبادرنا الخروج لدفع مضرتهم وكشف معرتهم فما وصلنا الى الكسوة الا ورءوس رءوسهم متوافية والبشاير دانية وألطاف الله كافية والشفف بحمل السعف الينا زايد والواحد لثلاثة وأربعة من الأسارى قايد .

ذكر مسير شمس الدولة الى مصر

قال : وكان الملك المعظم فخر الدين توارانشاه بن أيوب قد ملك اليمن فلما ملك السلطان دمشق بعد نور الدين رحمه الله كتب اليه فى اليمن بالتشوق والاستيحاش بالوحدة فجاء سنة احدى وسبعين فسر بقدومه . ولما عزم السلطان المسير الى مصر فى سنة اثنتين وسبعين لتجديد العهد بملكها عول على أخيه هذا فى السلطنة بالشام وفوض اليه الأمر وولاه تولية مطلقة وكان بحرا فى الجود مواجا يغنى بفواضله من الوفود

---

(١) سورة البقرة ، آية رقم ٢٤٩ .

بعد الأفواج أفواجا وراسله الملوك وتواصل اليه من الأطراف والأوساط السلوك . وكان الملك الصالح اسمعيل بن نور الدين رحمه الله مستقرا فى حلب فيمن بقى معه من مماليك أبيه فجرى معه شمس الدولة على الوفاء والوفاق وسبيل الاشفاق . وأقام السلطان بمصر الى يوم عيد الفطر من سنة ثلاث وسبعين ثم رحل عايدا الى الشام ولما عاد الى دمشق جرى على عادة سلطانه وأمره ونهيه وانقطع شمس الدولة الى مواصلة لذاته وانتهت أحكام سلطنته فاقترح على أخيه تسليم بعلبك اليه والانعام بها عليه فتسلمها له من شمس الدين بن المقدم على ما سبق فانتقل اليها يتصرف فيها ولما عن المحل رأى السلطان أن يستدعى من عسكر مصر مقدمين يتقدمون فى عدة منتخبة ورأى أن الشام لا تحمل أثقال العساكر الكثيفة فرغب أخاه شمس الدولة بما زاده من الديار المصرية فى قصدها وأنه يجدد بسعده سعدها وكان رحيله من دمشق بعد صلاة العصر فى قصدها وأنه يحدد يوم الجمعة لست بقين من ذى القعدة وصحبه كثير من التجار والرجال والنساء والأطفال .

قال : وكتبت عن السلطان كتابا منه قد بان أنه وجه الصواب فى استدعاء عدة متوسطة من أنجاد العسكر المصرى الانجاب بحيث يخف رطؤها وتثقل فى العدو نكاؤها فتكتب الى أخينا الملك العادل بمصر أن ينتخب لنا من الأقوياء بالخيل والعدة ألفا وخمسمائة فارس وأشرنا على الملك المعظم بالتوجه الى مصر مستصحبا معه من طال بالشام بيكاره وبان أنفاضه واقتاده ورأينا المصلحة فى مسيره لمنافع كثيرة وفوايد أثيره منها التخفيف عن الشام فى مثل هذا العام وذلك بعد ان رتب فى بعلبك نوابه وأقطعها أصحابه . ومنها أن فى وصوله الى مصر وقد خرج منها عسكر اسما كبيرا وصيتا عظيما فان الارجاف شايع بأسطول صقلية المخذول وخروجه ووصول أخينا يكسر من عزم العدو ويحطه من ذروة العتو . ومنها أنه اذا أقام بالقاهرة تصرف أخونا الملك العادل فى البلاد بعسكره وعذب صفو مقصده فى مورده ومصدره .

قال رحمه الله : وفى هذه السنة غدر ابرنس انطاكية وأغار على خشير شيزر(١) وغدر القومص بطرابلس بعد الامان بجماعة من التركمان

---

(١) فى الأصل : جشار شيزر والضبط من برق ٣ ورقة ١٢٢ أ .

فان الافرنجية اجتمعوا وقالوا : الصواب ان نفرق عسكر الاسلام فى ثغوره بالارغاب والارهاب فانا ان هادناهم من جانب توفر عسكرهم من الجانب المجانب وتجرد لاصابتنا بالمصايب فاقتضى الأمر أن رتب السلطان ولد أخيه تقى دين فى ثغر حماه ومعه شمس الدين بن المقدم وسيف دولة على المشطوب وصاحب شيزر بعسكره محتاط فى مورده ومصدره وأمرهم بالاستكثار(٢) من (١٩٧ ب) الرجال واستخدام نخب الابطال ورتب ناصر الدين محمد بن شيركوه فى حمص فى مقابلة القومص . وكلهم مأمور بالتنبيه بكل صوب والاصاخة الى كل صوت رابض فى مكانه واذا أحس بدناه وثب عليها ممسك بعنانه واذا سمع هيمه طار اليها . قال : وبعد توديع السلطان أخاه شمس الدولة أغار على بلاد الفرنج لمشاهدة الحصن الذى بنوه .

فصل فى معناه : قصدنا البرج ونازلناه وما زلنا نقاتل حتى أزلناه واحتموا بباطنه فما أخرج أحد رأسه وسنعود اليه بعون الله ونقلع أساسه
فصل آخر : وأما الاطراف فان ملوك ديار بكر الينا ملتجون ولنا مرتجون ومن سلطان الروم مستشعرون وبسلطاننا مستظهرون ووصل رسول سلطان الروم قلج ارسلان يعف لنا صفاه ويوفينا وفاه ويعرض وده ويعرض بما عنده وقد توافر اجتهادنا على أن نستميل كلا الى الجهاد ونجمع شملهم على الاتفاق والاتحاد والله تعالى يوثق لنا مواثق رضاه من أمر رحيل هذا المرام وامراغ مراد هذا المراد .

قال : وانتقل السلطان الى الشمراء وخيم فى مروجها وسام الخيل فى اكلاء خروفها وخروجها ولما تطوحت الاعشاب وصوحت الشعاب وانتقل الى بانياس وقد وفد من البوادى من جرى بسيله الوادى فرام أعتاب البرية وأعراب البرية وقال : هؤلاء اذا اكتالوا السنة من الشام بلى العام بالمحل العام وجمع عنده الجموع فبلغت الخيم الى حدود بلد الكفر وكان فى كل يوم يركب وفى خدمته الخواص ويظهر ان غرضه الاصطياد والاقتناص ثم ينزل على النهر ويجرد فرسان الجلاد والقهر ويسير قبائل العرب الى بلد صيدا وبيروت حتى يحصدوا غلات العدو ويجمعوا القوت وما يبرح مكانه حتى يعودون(٣) بجمالهم واحمالها موثقة بأثقالها حتى خف من زرع الكفار بالقرب

---

(٢) فى الأصل : بالاستكفار .
(٣) فى الأصل : يعود .

ولم يحصل من ذلك كفاية الغرب . واشفق على الناس وجمع الأمراء وشاورهم فى الأمر وقال : قد علمتم غلا الغلات واقلال الأقوات وظهور أعراب البادية وخفاء الأعشاب البادية وما كان بالقرب من غلات العدو وزروعه استجناه واجتحناه ولم يبق الا ان ننهض عساكرنا بالنوبة ونقيم بقوتها الى حين الأوبة فأجابوه بالسمع والطاعة وما زالت المقانب تنهض والطلايع على مراكزها تربض والمزارع تحصد والمواضع تقصد والثمار تصرم والضرام تضرم قال :

ودخلت سنة خمس وسبعين وخمسمائة

والسلطان صلاح الدنيا والدين نازل على تل القاضى ببانياس وقد عم بالايناس الناس وفى كل يوم يصابحون بلد العدو ويماسونه ، ويداوون جرح الجدب بما ينقلونه من الغلات وياسونه حتى لم يبق هناك الا اليسير واجمعنا على أنا نستبيحه فى يوم واحد ونسير . وكان المقدم على العسكر عز الدين فرخشاه بن أخى السلطان شاهنشاه وكان مخيمه على بعد من السرادق السلطانى وقدامه فلما استهل محرم هذه السنة حضر عند السلطان عمه وقال ان المقام ههنا يصعب لا سيما والحر قد تضرم ، والزرع قد تصرم وأهل الشرك هاجمون واجمون ولظنونهم فيما هم راجون راجمون فنتحول الى حيث نتبدل من الضيق بالسعة فقال السلطان ما أنجب الرأى الذى رأيتموه وانجح السعى الذى سعيتموه وقد بقى لكم أن تنهضوا الليلة اجمعين وعلى بلاد الكفر مجمعين فتجمعون منها ما بقى فى مواضعها المتفرقة واذا عدتم سالمين غانمين رحلنا صوب البقاع واستأنفنا ما يعود للاسلام بالارتفاع والانتفاع .

ذكر وقعة مرج عيون

قال : ولما نهض أصحابنا وادلجوا وخاضوا بحر الظلام ولججوا أصبح السلطان يوم الأحد راكبا ومعه صمصام الدين اجك(١) والى بانياس فى موكب خفيف وجمع غير كثيف ووقف على الطريق وسأل الله حسن التوفيق فرأى فى تلك العياض أبقارا جافلة ، وسروجا عن مراتعها زايلة . وجاءه بعض الرعاة وأخبر أنه شاهد عسكر العداة وانهم عبروا بالقرب على قصد

---

(١) وردت فى الأصل : أجكره والتصحيح من برق ٣ ورقة ١٣٨ أ .

المتعلقة فعجب السلطان من هذا الخبر واستبعده وقال : لو كان للفرنج قصد لجاءنا الجاسوس فما صدق الخبر حتى جـاء (١٩٨ أ) من أوائل العسكر من ارتاع وعجل فى العود الاسراع فجاء السلطان الى المخيم وقت الظهر ونادى فى متخلفى مماليكه بالحضور . وكان فى اصطبله خيل عراب شدت للتضمير وجياد عتاق أعـدت ليوم النفير فبدل مصـونها وأصـفى لخواصه صفونها وقال : أركبوا وادركوا العـدو وما زال ينهض مجـريا وينقب منقبا حتى انتظمت له كتيبة شهباء وساروا والخضراء من وقع الحوافر ونقع الحوافر غبراء وقلقت فى اشباح الغمود الأرواح وجرت بالجبال الرياح وطارت العقبـان مع أمثالها من الرايات ، وتنزلت الملائكة من نص النصر بالآيات وجرى سيل الخيل وجر القتام على النهار ذيل الليل والسـلطان فى موكب جلالته كالقمر المبدر فى هالته ، ورايد النصر يرشـده بدلالته فلم يزل يعتق ويعب حتى ترآى الجمعان ودنا الرعان من الرعان وصـافحت الصفاح أشاجع الشجعان ، وطلعت فى أبراج العجاج نجوم الخرصان .

واتفق أن الفرنج حملوا وبرز ابن بارزان مقدما من مقدميهم وحمـل لحملتهم وقادوا يكسفون الأنوار ويكشفون الاستار فثبت السـلطان أمامهم وردهم وراءهم وتضاعف المدد وترادف العدد فحملوا حملة كادت تتم ، وسر الشر متم ، وطعن فيها صمصام الدين اجلك وخشى أنها لا تتدارك فردهم خسوف الردى الى الجبل وضاقت عليهم واسعات الحيـل ثم احدقت بهم أسودنا أحداق النار بالجان وخاضت غمرة الهيجاء فأسر الفرنج بأسرهم وصح النصر من كسرهم ، ودخل الليل فأخفى(٢) بسواده سوادهم وقيـد بخواتم الذل قوادهم وما فرس فرسانهم ، ولا شجى وشجب الا شجعانهم فان الرجالة لما شاهدوا عسكر الاسلام تبدد شملهم فى الوهاد والآكام فمـا ضفم الا كل ضيغم ولا أقدم الا كل مقدم ولم يفلت من بينهم الا الملك المجذوم وقيل ان أحدهم حمله(٣) على قفاه ثم نجا به ونجاه . وعاد السلطان الى مخيمه بعد هدء من الليل ووافت البشاير الى المعسكر المنصور بالنصر من العصر فجلس فى سرادقه ونحن عنده جلوس وحول شمسه من الأفاضـل شموس وهو يحدثنا ويقول لولا التأييـد من الله سـبحانه لكان الخطب

(٢) برق ٣ ورقة ١٣٠ أ ، وردت كالتالى : فما أخفى .

(٣) فى الأصل : حمار .

خطيرا فانهم لو بدلوا بالمعسكر لأعجلوا عن الألجام والاسراج وسدوا على الكرب مناهج الأفراج ووجدوا الفرصة بادية والعرصة خالية لكن الله تعالى صد قصدهم وأعمى لخطاياهم عمــــدهم ثم أذن فى تقديم الاســــارى وهم يتهادون كأنهم سكارى فأول من قدم ابن بارزان بادوين وقد أسره من أمرائنا الأكراد محمد بن خوشترين . ثم قدم أود مقدم الداوية الكبير وأحضر هو ابن القومصية وقيد أخو صاحب الجبيل وجمــاعة من مقدميهم الأكابر وأنا جالس بجنب السلطان منفردا استعرضهم بقلمى فى الدستور فأجلسهم من حوله وآنسهم بقوله فأقروا بتطوله وطوله . ومن ألطاف الله أنا وخواصه الحاضرون لم نزد على عشرين والاسرا قد أنافوا على سبعين وقد أنزل الله علينا السكينة وخصهم بالذلة والمسكنة فطلع الصباح ورفع المصباح فقمنا وصلينا بالوضوء الذى صلينا به العتمة(٤) ثم جلسنا حتى تم عرض المأسورين فبلغوا مائتين ونيفا وسبعين من الفرسان المقدمين سوى من أسر أسروه فى خيمته وسوى من لا يذكر من الأتباع فانهم عدوا من سقط المتاع ثم نقــل الأسرى الى دمشق واعتقلوا وبالحديد أوثقوا فأما ابن بارزان فانه بذل بعد سنة فى نفسه مائة وخمسين ألف دينار واطلاق ألف أسير من المسلمين وكان الفقيه ضياء الدين عيسى من نوبة الرملة عندهم فالتزمه راكه وان يودى من قطيعته المذكورة القطيعة التى عرف بها فكافه وأما هو فانه استفكته أمــه بخمسة وخمسين ألف دينار صورية وأما أود فانه انتقل من عيشـــته الى سجين فطلبت جيفته باطلاق أسير من مقدمى المؤمنين وطال أسر الباقين فمنهم من هلك وهو عان ومنهم من خرج بأمان .

قال : ومن حسن الاتفاقات أن الأسطول المصرى المنصور غزا فى أول هذا العام وتوغل فى الجزاير على أهل الجزاير وظفر ببطشة كبيرة فلقيها بالبطشة الكبرى واستولى عليها وعلى أخرى وعـــاد الى الثغر المحروس مستصحبا ألف راس من السبى وكان تاريخ استطالة الأسطول على الفرنج بمصر فى البحر تاريخ بطشتنا بالشام من غير تأخير بحزب الكفر .

(١٩٨ ب) فما أقرب بين النصرين فى المصريين وما أعذب عــذاب الفئتين وتجريعهما الأمرين من الأمرين .

---

(٤) البرق ٣ ورقة ١٣١ أ العشاء .

ذكر منقبة لعز الدين فرخشاه

قال : ذكر عز الدين اننى فى تلك المعركة والجـولة الحالية اما عن المملكة وأما عن المهلكة تذكرت قول المتنبى :

فان تكن الدولات قسـمـا فانهـا لمن يرد المـوت الزؤام تـؤول

ومن هون الدنيا على النفس ساعة وللبيض فى هـام الكمـاة صـليل

فهان الموت فى عينى فما أفرق بين حياتى وحينى وحكى الأمير حسام الدين تميرك بن يونس وكان مع عز الدين فى الوقعة أناكنا فى أقل من ثلاثين فارسا فقد تقدمنا من أهل الفتك فشاهدنا خيل الفرنج فى ستمائة فارس واقفين على جبـل وبيننا وبينهم المـاء فقال نعبر النهر اليهم ونحمل عليهم فقلت له كيف تقول هذا وبمتى تحمل عليهم فقال اذا عبرنا النهر اليهم ذلوا وتبعنـا من رآنا من عسكرنا وان وقفنا لهم طمعوا فينـا وجاءوا وعملوا ما شاءوا فسار اليهم وعبر الماء فما وصل الى القوم الا فى عدتهم وقل من حد عدتهم ووافق ذلك رجف السلطان ونصر الايمان .

ذكر غيبة تقى الدين عن هذه النوبة

قال : كان سلطان الروم قلج أرسلان أرسل فى طلب قلعة رعبان(١) وادعى انه من بلاده وانما أخذه نور الدين رحمه الله على غير مراده وأن الملك الصالح ولده قد أنعم به عليه ورضى بعوده اليه وأبى ذلك سـلطاننا فمد قصده ومنعه ورده وكان مع شمس الدين بن المقدم وفيه نوابه فانهض قلج أرسلان عسكرا مجرا نزل على حصـاره وشرع فى تشعيث نواحيـه وأقطاره فنـدب السلطان ابن أخيـه تقى الدين ومعه سـيف الدين على المشطوب ليتوليا ازالة رعب رعبان ويرسلا الروع على روع(٢) عسكر قلج أرسلان فنهضا وهما فى ألف وكانت تلك الحشـود فى الوف مجمعـة فلما شاهدوا أصـحابنا قد جرى بسـيل خيلهم الوادى أجفلوا من عدوى تلك

---

(١) فى الاصل : سبيل . انظر ابن الاثير . الكامل جـ١١ ص ٣٠٢ .

(١) رعبان مدينة بالثغور بين حلب وسميساط قرب الفرات معدودة فى العواصم ، معجم البلدان ج ٢ ٧٩١ .

العداوى وزال عن رعبان رعبها وأمن سربها وعذب شربها وأرجت بأرجائها مهاب المهابة وطافت بها الطاف عصمة الله الذابة بالاصابة ، وكتب تقى الدين توبتها الدايلة وبنوتها الزايلة وأنه فتح لم يحتسب ومنح من الله الا بفضله لم يكتسب وغزو الا الى تأييده لم يعز ولم ينتسب ولم يزل تقى الدين بهذه النصرة المبتكر فانه هزم بآحاد الوفا وأرغم بأعداد من الأعداء أنوفا .

فصل من كتاب سلطانى الى مجاهد الدين قايماز(٣) بالموصل وكتب تقى الدين باذن الله ثلاثين ألفا من عسكر المذكور بألف وكانوا ضعف وقد علم الله تعالى انه شاء فأكسرنا من سهم المهيب ومؤاخذته على رأيه المخطى المصاب لا المصيب فان المذكور يمشى زمانه بناموسه ويؤسى نهاره من أشعة الافلات من شموسه .

ذكر النزول على حصن بيت الأحزان
وتيسير فتحه فى أقرب زمان

قال : لما ضعف الكفر بالنوب التى نابته بالبأس الاسلامى قوى العزم السلطانى فى قصد البرج وسير الى التركمان والى البلاد لجمع الراجل فأمر باعداد الدقيق وتكثيره للتركمان فخرجنا فى جيش فضل بالقضاء ختام قتامه وورد على الأصباح باظلامه ودارت بفوز القداح اقداحه ولاحت غرره وأوضاحه وحملت الآلات وكملت الحالات ووصلنا الى مخاضة بيت الأحزان يوم السبت والحصن مبنى دونها من الغرب فخيمنا منها بالقرب ورفعنا على تلك الاكام آكاما من الخيم ورمينا من الحمايم والعمايم مسامع الآفاق بالصمم وقلنا حصن ومكان مكين ولابد من نظم ستار لنصب المنجنيقات وجمع الأخشاب والآلات فركب السلطان بكرة الأحد الى ضياع صفد(٤) وكانت قلعة صفد يومئذ للداوية وهى عش (١٩٩ أ) / البلية وأمر بقطع كرومها وحمل زرجونها وأخشابها واستكملت المنجنيقات كل ما يتم به أسباب أسبابها وعاد الى المخيم بعد الظهر وخرج بعد العصر ، وجمع

---

(٣) فى الأصل : قايمان .

(٤) صفد ، مدينة فى جبال عاملة المطلة على حمص بالشام ، معجم البلدان .

أمراءه(٥) وعارض بآرائهم آراءه(٦) فقال له عز الدين جاولى الأسدى تأذن لنا فى الزحف قبل نصب المنجنيق حتى نذوق(٧) قتالهم ونجرب نزالهم . فقال : استخيروا(٨) الله حيث اخترتم فنودى فى البوادى بالاقدام والحضور فى مقام الانتقام فثاروا الى الثأر وطاروا الى الأقطار ودنوا من الباشورة وباشروها وشاقوا معاشرها كأس المنية وعاشروها .

وعهدى بشاب من العوام فى جرأة الضرغام عليه قميص خلق وفى يده قضيب(٩) ودرق وقد فرع الجدار وهو يدافع ويقارع ويجالد ويماصع فتبعه ضرب من اضرابه فى الضرب وشيعه آخر على حزب الحرب فتخاذل القوم ودخلوا الحصن وأغلقوا الأبواب ووقفوا وراءها على شرافاته وأشرفوا على شرفاته وملك أصحابنا الباشورة وملأوها وانتقلوا بكليتهم اليها وكلأوها . وباتوا طول الليل يحرسون والسلطان يمدهم بالامداد وينجدهم بالانجاد ويشفق من فتح الأبواب وكبسهم الناس فقيل لنا أنهم وقدوا خلف كل باب نارا ليأمنوا على أنفسهم اغترارا ولا يلقوا غوارا فقر قرار الأصحاب وعاد الجماح الى الأصحاب ثم جمع الأمراء والكبراء وفرق عليهم البناء فأخذ عز الدين فرخشاه الجانب القبلى وجمع عليه الصناع النقابين وأخذ السلطان النقب فى الجانب الشمالى وأخذ ناصر الدين محمد ابن شيركوه بقربه نقبا وأفرد تقى الدين قسما وكذلك كل كبير شرع فى طرف وأخذ العمل فيه بسرعة والفرنج من فوقهم على السور وراء الستاير يرمون القوارير(١٠) وكان الحصن شديد البناء فعسر على النقابين اخراج حجره واظهاره مضرة ثم تم النقب السلطانى وغلق وحشى بالحطب ليلة الاثنين وأحرق وظن انه يقع والنقب فى طول ثلاثين ذراعا وفى عرض ثلاثة أذرع فى المقدار وكان عرض السور سبعة أذرع فما تأثر بالتعليق والتحريق فأصبح يوم الاثنين والقلوب قد أشفقت والظنون قد أخفقت ولا سبيل الى تعميق النقب للنيران الملتهبة فيه فأخرج السلطان صره فيها ثلثمائة دينار مصرية وتركها على يد عز الدين وامره أن يعطى كل من جاء بقربة من الماء دينارا

---

(٥) فى الأصل : أمراؤه .
(٦) فى الأصل : اراه .
(٧) فى الأصل : ذوق .
(٨) فى الأصل : استخبر والتصحيح من برق ٣ ورقة ١٤٠ ب .
(٩) فى الأصل وايضا فى البرق غضب وكذا من المرجح .
(١٠) فى الاصل : الفواقر .

فرأيت الناس للقرب حاملين ولأوعية الماء ناقلين حتى أغرقوا النقب فعاد نقابوها فخرقوه وعمقوه ثم علقوه واستظهروا فيه يوم الثلاثاء ويوم الأربعاء ثم أحرقوه ووصل الخبر بأن الفرنج قد اجتمعا بطبرية وانهم ملئوا بخيلهم ورجلهم تلك البرية فحصن الصناع .

ولما كان الخميس الرابع والعشرين من شهر ربيع الأول أصبح الخميس قد حمى الوطيس وقد عض بالأسد الخيس والدنيا تضطرب والبلوى تضطرم ونحن ننظر الى السور وقد طال الانتظار ووقع من بطء وقوعه الاستشعار ولما تعالى النهار وعيل الاصطبار وزال القرار انقض الجدار وتباشر الأبرار وتسابق الناس الى الثلمة وكان الفرنج قد جمعوا وراء الواقع حطبا فلما وقع الجدار دخلت الرياح فيها فعادت عليهم النار وأحرقت البيوت الدانية منها فى الجوانب وبلوا من كل صوب بالمصايب فاجتمعوا الى الجانب البعيد من النار وقد لفحهم وهج الاستعار وصاحوا بالأمان وأظهروا الاذعان وجلس السلطان وقد حمد الله سبحانه وحده فمن أحضر من الاسارى عنده استنطقه فان كان مرتدا أو راميا يخرج ضرب عنقه .

وخلص من الأسر أكثر من مائة مسلم أحضروهم للعمارة وقطع الحجارة . وأكثر من أسر قتله الغزاة المطوعة والرعاع المجمعة فكان فتحا هنيا ومنحا سنيا وما ظن لتوثيق بنائه وتوغير سبله يتأتى افتتاحه أو يتصور اجتياحه وكان قد بذل فى هدنة لهم ليأمن الناس منهم مبلغ ستين ألف دينار فلم يذعنوا بالقرار وبلغ بالمبلغ مائة ألف فثبتوا على الاصرار .

وقال : ورأيت السلطان مستبشرا يتلألأ وجهه بنور السرور وعنده رسول القومص معاق وهو يشاهد بلية أهل ملته ، وكان الحر شديدا لا يطاق ودم الشرك مباحا يراق ، وقد وقد القيظ وآن وقد الغيظ وسير من أبقاه الأسار الى دمشق فأتام السلطان فى مخيم والأموات قد جافت والأحياء قد عافت وقال : لا أبرح حتى أهدم الموضع من أساسه وأعيد الرجاء فى اعادته الى بأسه فقسمناه أذرعا على البأس حتى / (١٩٩ ب) هدوه الى الأساس وعاد المشهد اليعقوبى مزورا وأرى الابتهاج بزيارته منشورا . ودخلت الحصن فشاهدت العجب ورأيت فارسا قد ألقى على النار حصانه وهو راكبه فانظر الى هذه الحمية والأنفس الأبية . وأقام

السلطان فى ذلك المنزل الكريه حتى فرغ من التخريب ورحلنا يوم الأربعاء وعند الوصول الى دمشق مرضنا من وبال ذلك الوباء ونتن ذلك الهواء وانتقل الى جوار الرحمة أكثر من عشرة من الأمراء ومن الله على بعد الأشقياء بالشفاء(١١) .

قال : وهنأ الشعراء السلطان بفتح هذا الحصن فمما بقى على ذكرى من ذلك ما أنشدنيه الفتى أحمد بن نفاذه :

هلاك الفرنج أتى عاجلا   وقد آن تكسير صلبانها
ولو لم يكن قد دنا حتفها   لما عمرت بيت أحزانها

ولأبى الحسن على بن محمد الساعاتى الخرسانى من أهل دمشق قصيدة أولها :

بجدك أعطاف القنا تتعطف   وطرف الأعادى دون مجدك يطرف
وقفت على حصن المخاص وانه   لموقف حق لا يوازيه موقف
أيسكن أوطان النبيين عصبة   تمين لدى ايمانها وهى تحلف
نصحتكم والنصح فى الدين واجب   ذروا بيت يعقوب فقد جاء يوسف

ولأبى الفتح سعادة الضرير الحمصى من قصيدة :

وقدت الى الأعداء جيشا عرمرما   اذا أبرقت فيه الصوارم أرعدا
خميسا كسوت الجو ثوبا ممسكا   به وكسوت الأرض ثوبا موردا
لها ما يريك الشمس ثاير نقعه   يقلب مطرفها من الطرف أرمدا
ترى الليث فيه بالحباب مؤبطا   نزا البدر فيه بالشهاب مقلدا
طما بالمحاصير الصواهل بحره   الخضم وبالبيض المباتير أزبدا
وأبدى من الخرصان لما مفضضا   يعود بوشاك الطعن لما معسجدا
فلم تبق للطغيان شملا مجمعا   ولم تبق للايمان شملا مبددا

---

(١١) يستمر عماد الدين فى البرق ٣ فى ذكر هذه الوقعة وينتهى بالعبارة التالية :

« والحمد لله الذى نصر الحق وأهله وأذل الباطل وأذله تم الجزء الثالث من كتاب البرق الشامى بحمد الله وحسن توفيقه ... ويتلوه الجزء الرابع وهنأ الشعراء السلطان بفتح هذا الحصن » ولكن ليس لدينا كما هو معروف الجزء الرابع . وانما يوجد فقط الجزء الخامس .

وللامير نجم الدين محمود بن الحسن بن نبهان(١٢) العراقى من أهل الحلة المزيدية فى السلطان(١٣) أيضا من كلمة :

وأوردت بيض الهند ماء رقابهم وأصدرتها تختال فى حلل حمر
جلوت بها صمصامة الدين بعد ما علا متنها من بغيهم صدء القسر
هى للفتكة الغراء لا زلت(١٤) قايما بأمثالها للدين فى السر والجهر
فأصبح فى أقصى خراسان ذكرها وفى كل قلب منه جيش من الذعر

قال : وفى هذه السنة كان طهر الملك العزيز أبىالفتح عثمان(١٥) ولد السلطان وسمعته يقول مولد عثمان بمصر ثامن جمادى الأولى من سنة سبع وستين وخمسمائة . وكان أحب أولاده اليه وأعزهم وأثناهم لاعطاف سروره به وأهزهم وهو ريحان شمه وفينان ضمه وراس ماله وأساس اقباله . وكانت فراسته فيه من علم الغيب الذى أطلعه الله عليه فهو الذى من بعده نظم سلكه وضم ملكه وجمع شمله وأبقى أفضاله وفضله ولزم احسانه وعدله . ولما وصل من مصر الى الشام فى سنى سبعين برح به اشتياقه وأزعجه فراقه فاستقدمه اليه فطلع قمره وينع ثمره وثاب أنسه وبلغت المنى نفسه وقال : وأنشدت السلطان تهنية بقدومه كلمة منها :

(٢٠٠ أ)/ يا أسدا تحمى عرينالعلى هنيت جمع الشمل بالشبل
يا طيب الثمر بلغت المنى تمليا بالطاهر النجل
يحكيك أقداما وبأسا فما أشبه هذا الفرع بالأصل
ملك قضى الله له أنه على ملوك الأرض يستعلى
شمله المجموع آمالنا بنجمها مجموعة الشمل

فلم يفارق الملك العزيز أباه واستصحبه الى مصر فى سنة اثنتين وسبعين ثم عاد به الى الشام فى سنة ثلاث وسبعين . قال وقال السلطان عند قرب رحيله من مصر : أطلب لولدى هذا معلما يصحبه ويتسنى به تأدبه وتهذبه وكان نجم الدين يوسف بن الحسين بن المجاور الى متوددا

(١٢) فى الأصل : سان .
(١٣) فى الأصل : السلطا .
(١٤) وزالت ، هكذا وردت فى الأصل .
(١٥) فى الأصل : عثمن .

ولشكوى الزمان معددا وبحب الفضل الى أهله مترددا فملت اليه ودللت عليه ورغبته فى الصحبة ، وأخذت له مركوبا ونفقة ، وجاءت اسبابه موافقة موفقة فتولى الصفى بن القابض وكان متولى الخزانة والديوان والأعمال بدمشق . **أسباب ختان الملك العزيز :** ولقد كان عالى الهمم من أهل التمييز موسع الانفاق وصاغ النحوت والأطواق وأطلق الأموال ونمق الأحوال وأول من وجد بركة هذا الطهر المبارك المؤدب فقد سعد نجمه وصح شيمه ووضح غيمه وتحلى فى اللباس الذهبى باللباس الأدبى والمركب النضارى والمركوب العربى وزين المزينون واعيدت عليهم الخلع السنية وبالسناء أعيدوا وخلع السلطان علينا فى المخيم تشريفا لأحوالنا مناسبا وأمسى كل منا لذيل الاعتزاز مصاحبا ومن جملة ما حبانى به حجرة عربية وعدة لها ذهبية وعز الملك العزيز فى ختام ختانه وعم الفضل والحسنى بأفضاله واحسانه .

قال : وفى هذه السنة خرجنا الى بعلبك لتسلمها الى عز الدين فرخشاه ابن أخى السلطان وكانت الشتوة صعبة ، وكان طريقنا على الرواديف وهى عقاب يتلوها عقاب وطرقها صعاب وفى ذى القعدة من هذه السنة جمع عز الدين فرخشاه من رجال بانياس وما حولها من الأعمال من جرب عادته واجترأت عدته فصبح صفد صباح الاربعاء ثامن عشر الشهر فسبى وسلب وغنم وغلب وأحرق ما شاء الله وأخرب ومر مر السحاب وعاد بالسبايا والنهاب وأبت عناية الله نصر النصارى واسلام الاسلام ، وشق بالاصباح سرائر الاظلام . قال وفى العشر الأخير من شوال من هذه السنة خرج الأجل الفاضل من دمشق الى الحج وعاد الى مصر وكان عام أول سنة أربع وسبعين حج من مصر على البحر وجاء الشام .

ذكر وفاة الامام المستضىء وخلافة الامام الناصر رضى الله عنهما

قال : وفى هذه السنة وهى سنة خمس وسبعين توفى الامام المستضىء بأمر الله فأظلمت الأضواء وبويع لولده الامام الناصر فأضاءت الظلماء ، وكانت البيعة صبيحة ليلة الوفاة وذلك مستهل ذى القعدة فاقرت القواعد وأمرت المعاقد وقد حضر الحجيج من المشرقين وامتلأ الملأ بالملوين ، وتولى

عقد البيعة المباركة ظهير الدين بن العطار ولاح بشره وفاح نشره وظن أنه قد تم أمره وعرته مرضة أقعدته وعادية عدوى فأعدته وانتقل الى جوار الرحمة التى أعمال الخير بها وعدته وتمكن من الأمر فى الخلافة الناصرية مجد الدين بن الصاحب وكان رسولنا ضياء الدين الشهرزورى حاضرا فحضر وبايع وأخبر بحلية الحال وطالع وبادر السلطان الى الخطبة فى جميع البلاد واهتزت بالسمة الشريفة أعطاف الأعواد ومضى صدر الدين شيخ الشيوخ عبد الرحيم بن اسمعيل من بغداد الى بهلوان رسولا والزمه حتى خطب بهمدان واصفهان وعمت الدعوة الهادية بلاد خراسان ثم لما رجع شيخ الشيوخ جاء الينا رسولا فى سنة ست وسبعين وأخذه السلطان معه الى مصر وحج منها وركب البحر وأنعم مولانا الناصر لدين الله أمير المؤمنين/ (٢٠٠ ب) باجراء رسمى وادرارى وهز أعطاف فخارى ، ومدايحى فى أمير المؤمنين قد سارت فى آفاق الاشراق انارات ومن جملتها كلمة سيرتها سنة فتح القدس ومنها :

ورثت من سلفى رقى لطاعته	وذلك الرق للاسلاف احساب
ما كان لولا الرضا والسخط منه	لنا خصب ومحل واحداء واحداب
قد قلت لولا التقى ما غير صارمه	للعمر والرزق مناع ووهاب
معمد بعمود الصبح بينهم	له من الشهب أوقاد وأطناب
أبشر بفتح أمير المؤمنين اننى	وصيته فى جميع الأرض جواب
ما كان يخطر فى بال تصوره	واستصعب الفتح لما أغلق الباب
وحام عنه الملوك الأقدمون وقد	مضت على الناس أحقاب وأحقاب
نصر أعاد صلاح الدين رونقه	ايجازه مبلغ فى القول اسهاب
نفى من القدس صلبانا كما نفيت	من بيت مكة ازلام وانصاب

قال ودخلت سنة ست وسبعين : وفى هذه السنة توجه السلطان الى بلد الروم وبلد الأرمن .

ذكر السبب فى ذلك

قال : كان نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن داود بن أرتق صاحب حصن كيف تزوج بابنة السلطان قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان وهوى بغيرها وقد تزوج بمغنية وهو عليها يستخيرها ، وهى فى سر سترها وفى ضمير خدرها زهراء فى أوجها صابرة على جور زوجها تخفى بلواها

ولا تبدى شكواها وما ذلك لوجود شين أو لعدم زين فانها تالية القمرين وثالثة النيرين سلجوقية النجار سلطانية الفخار . وكان زوجها للنساء المغنيات زيرا فغلبت عليه فمنهن نصف هو بحبها منصف ومن عيشه بملازمتها منتصف وبمنادمتها مع الندماء منتظم مرتصف فاختار العجوز على الشابة وحسب أن الخطأ عين الاصابة ولكن الهوى ما عليه قياس ولا يتحكم من رجائه بأس ولله فى التوفيق مواهب وللناس فيما يعشقون مذاهب .

فعرف أبوها ما هى فيه من الضرة وأبت له عزة الملك الرضا بذلة المعرة فسرح أهل الارغاب وأوضح سبل الارهاب وأبدل الأعصار بالاعصاب فبان قرار ابن أرسلان وعزب واضطرم بتوقى التوقع واضطرب .

وكاتب سلطاننا صلاح الدين يستدنى اصلاحه ويستجدى انجاده وانجاحه وأرسل وتوسل وأعتذر عما يقال عنه وتنصل فأرسلنا الى قلج أرسلان رسلا لاستكفافه وتحذيره عاقبة خلافه فكتب يهدد ويذكر الذنوب وينشر العيوب ويقول أبيت الحكم بينى وبينه ولابد أن يدين ويؤدى دينه ولما صاهرته جعلت له قطعة من مملكتى فاذا لم ينزل على حكمى فليعد الى ما كان بأسمى ولينزل عن تلك الحصون ليتحصن منى بالسكون فأجبناه بأنه لا سبيل له الى قصده وقد عاهدناه ولا يحسد عن الوفاء عن عهده فان تركته قبلنا المنة وان قصدته ثنينا لنصرة الأعنة وكان ابن قرا أرسلان لقربه من بلاد حمية يخشاه ولا يرى من يحميه ورسله وكتبه الينا متواصلة مترسلة وهم جيرانه وأقاربه الأرتقية وغيرهم عنه متفاصلة متناسلة فحميت حمية سلطاننا وتحركت همته وتصممت عزيمته وكان الفرنج قد جنحوا للسلم ودخلوا له فى الحكم فهادنهم وفدى ابن بارزان نفسه من الأسر(١) بمبلغ مائة وخمسين دينار صورية واطلاق ألف أسير من المسلمين واحضر ما تهيأ له من المال والأسارى وأحضر رهائن على الباقى والباقين وقرر على هو ابن التومصية قطيعة مبلغها خمسة وخمسون الف دينار وخلص الأسارى المقدمون كل واحد بقرار فلما فرغ سره من جانب الشام سار بصدق (٢٠١ أ) / الاعتزام وعبرنا على حلب والملك الصالح بن نور الدين رحمه الله مالكها فمنعتنا من طروقها مسالكها فجزنا على قرا حصار وعبرنا على

---

(١) فى الأصل : بالاسنة وكذا يستقيم المعنى .

تل باشر فأضافنا صاحبها بدر الدين دلدرم وهو سخى له الجـود والكرم ووصـلنا الى رعبـان وخيمنـا على نهــر يقـال له كـوك سـو(٢) وزخرت بحـار معسـكرنا بأمـواج القبـاب وانبـاح الغـراب وجاء نور الدين بن قرا أرسلان وأخوه وامتزجت النفوس وابتهجت الوجوه ودارت الأفلاك وتزاورت الأملاك واحتفل السلطان بضيافة القوم فى سرادقه وتوشيع نمـارقه فكون الاكوان ولون الالوان وجمـع من مكارمه البـكر والعوان، وبسط الخوان وسماهم الاخوان وشرفهم بنفايس الخلع وحمل لابنى قرا أرسلان من الحصن والحجور الفريبات والأطواق والشخون والصياغات وأحمال الثياب المستعملات المصريات ما قوم بمائة ألف دينار وأما ما أخرجه من الخيل فلم يحرز بمقدار ولم يبق فى معسـكرهم راجل الا ركب ولا عايل الا اترب وقد نقلنا اليهم كل ما أصبحنا من أثاث ومتاع ومركوب وكراع ثم عمل ناصر الدين محمد بن شيركوه بن عم السلطان دعوة واقتدى بسلطانه فى اظهار حسنه واحسانه ثم اختار عز الدين فرخشاه بن أخى السلطان يوما للقرى وأجزل جوده وبذل مجهوده بل موجوده . واعتمد ما دخل فى الامكان من الاحسان وقرت بما أبداه وابدعه عين عمه السلطان وما زلنا مدة المقام فى سماح ورباح وارتياد للمنى وارتياح الى أن وصلت رسل قلج أرسـلان ببذل الاذعان وجاء الأمير الكبير اختيار الدين الحسن بن غفراس وكان لملك الروم الركن والأساس واحضرنى السلطان وهو عنده وانشأت باتفاقهـا عهدا أكدت بالشرايط عقده وانصرف هو وأصحابه بخلع سـنايا وحسنت السجايا ، وامنت الاذايا بتحف وهدايا ووثقت الآلايا ووفقت القضايا .

---

(٢) فى الأصل : كول سو . انظر الرضتين١ ٢ — ١٦ . وقارن النوادر السلطانية ص ٥٤ يقول بهاء الدين : عرف ياقوت النهر الأزرق بانه نهر الثغر بين بهنسا وحصن منصور ببلاد الروم من جهة حلب ثم قال : نهـر الأسود قريب من الذى قبله طرف بلاد مصيصة وطرسوس .

ذكر دخول بلد الأرمن وفتح حصن المانوية

قال : وكان متملك الأرمن بن لاون(١) فاستمال(٢) قوما من التركمان حتى يرعوا فى مراعى بلاده بالأمان ثم صبحهم بغدره وحصلوا بأسرهم فى أسره ، وكثرت شكاية المسلمين من نكايته فرأى السلطان أن الأولى دخول ولايته فسرنا بعساكرنا المنصورة وخيمنا على النهر الأسود ودمرنا على دياره بالدواير وبالقرب دنا على الجبل قلعة شامخة الذرى على راس راس محفوفة من نبات الافلاك بأحراش ، وهى من عقايل المعاقل محصنات الحصون ، وكانت فى ضمير الجبل كالسر المصون فأضرمها الأرمن نارا ولم يحسب مع استفرادنا بداره قرارا فقصدناها وبادرنا الى اخراج غلاتها وابراز مودعاتها فأشفع العساكر منها بالزاد والعلف وارتفع عنهم مدة المقام أثقال المون والكلف وخاف الأرمنى ودخل الرعب قلبه فارسل باطلاق الأسارى مذعنا وبذل من مجهوده فى الاسترضاء والاستعطاف ما كان ممكنا وكان الوقت متعسرا والقوت متعذرا وكان من لطف الله اذعان الأرمنى حتى عجلنا رحيلنا بالنصر السنى والعز الهنى .

وعملنا على أعمال حلب ، ووصلنا الى حماه فى العشر الأوسط من جمادى الآخرة ، ووصلنا الى حمص وخيمنا على عاصيها ، ودانت لنا عواصى الأمور ودنت قواصيها ، والمطالب قد أشرقت مطالعها ، والمآرب قد ملكت نواصيها .

قال : وجاء الفقيه المهذب بن أسعد الموصلى بمديحه على الرسم وكان غزير الفضل وافر العلم ، ورسمه كلما عبر السلطان بحمص مائة دينار مصرية وخلعة مثمنة فمما مدح به السلطان قصيدة مطلعها :

أما وجفونك المرضى الصحاح ... وسكرة مقلتيك وانت صاح
وما فى فيك من برد وشهد ... وفى خديك من ورد وراح
لقد أصبحت فى العشاق فردا ... كما أصبحت فردا فى الملاح
يقرب جوده أقصى الأمانى ... ويضمن بشره اسنى النجاح

---

(١) فى الأصل : لازر .
(٢) فى الأصل : افستمال .

ومبســـوط بنـــايلة يــداه اذا انقبضـــت بـــه أيدى الســـماح
فمن هـــرم وكعب وابن ســـعدى رعـــا الشـــاء والنعـــم المـــراح
(٢٠١ ب)/جواد بالبلاد وما حوته اذا جـــادوا بالبـــان القـــداح(١)

ذكر وفـــاة شمس الدولة اخى الســـلطان
فى هـــذه السنة

قال : وتوفى الملك فخر الدين شمس الدولة تورانشاه أخو السلطان بثغر الاسكندرية فى المحرم سنة ست وسبعين ووصل الخبر والســـلطان بظاهر حمص فجاد مزن حزنه بالقطرات ، وفاضت عين عينـــه بالعبرات وتقلص ظل صبره وتنقص ورد عمره وخلا ذلك اليوم فى بيت خشبة يندب فضل اخيه فى كرمه وحسبه واستدعى كتبا فى المراثى متألما يتأملها ، وكان كتاب الحماسة على حفظه فدام ينشد أبيات مراثيها ، وينشد ضالة معانيها، وهو يتأسى ويتأسف ويتلهب ويتلهف .

وكان شمس الدولة أكبر أخوته قد فضلهم بجوده وفضله ومروته ، وهو لا يبقى مالا ولا يذر وكم اقتضت من غرايب رغايبه وابكار مواهبـــه العذر . ولما ملك صلاح الدين مصر راى أن تلك الممالك لا تفى بمكارم أخيه وان كل من يدخر لهم جوده لا يبقيه فجهزه الى اليمن فى سنة سبع وستين ففتح بلادها وحاز طرافها وتلادها ثم لما ملك الشام اســـتدعاه وجرى من الأمر ما ذكرناه ونوابه فى زبيد وعدن وساير بلاد اليمن جارون على السنن ويحمل اليه من أمواله ما يحمله عن خزانيه الجود على أنه يضيق عن همته السمحة الوجود .

وودعه فى آخر سنة أربع وسبعين وسار الى الديار(٢) المصرية وحكمه فى اعمال ثغر الاسكندرية واتفقت وفاته بها . قال : ولقـــد كان مقبلا على

---

(١) قصيدة طويلة وردت فى الروضتين١ ٢ — ١٧ والكلمة الأخيرة فى البيت الأخير وردت اللقاح .
(٢) فى الأصل : ديار .

ومايلا الى ولى فيه(١) مدايح ومنها مدحة خدمته بها عند وصوله من اليمن ولقائه للسلطان فى حماه يوم الثلاثاء ثانى صفر سنة اثنتين وسبعين وانشدت يوم السبت سادسه بالمخيم فى الميدان وهى التى أولها :

صب لتذكار أهل الجزع ذو جزع أطاعه دمعه والصبر لم يطع
وكان يطمع فى طيف يلم وقد بان الرقاد فما فى الطيف من طمع
يا لايما يدعى نصح المحب ولم يترك له وجده مسمعا ولم يدع
أتعبت نفسك تنهى غير متبع حكم الملام ويلحى غير مستمع
أن يجدى لومى فكم فى الجود عاشقه تورانشاه كلانا غير مرتدع
هو الجواد الذى عشق السماح به أفضى الى امد فى الجود مخترع
يارايدا للخصب أن تقصد ذراه تجد فى ظله خير مصطاف ومرتبع

قال : وكتب شمس الدولة الى السلطان قبل وصوله بخطه كتابا ضمنه هذين البيتين :

كتبت ولولا أن قلبى واثق بقرب التلاقى وما حوته الاصابع
ولو لم أعد انسان عينى فانه يراكم سريعا غرقته المدامع

فسألنى الملك الناصر أن أجيزهما ليكتب اليه فقلت :

بنفسى وما أحوى وروحى ومهجتى كتاب لأسباب الفضائل جامع
يخبر عن قلب حوته أضالع ويوم النوى قلبى نفته الاضالع
ومن عجب انسان عينى ظاميا وقد غرقته فى المياه المدامع

فلما وصل شمس الدولة الى تيما وقرب من الشام نظم شاعره المعروف بابن المنجم جواب الابيات وكتب :

ولبيته لما دعانى منازعا بنفسى ومالى والشوق منازع
وانى بيوم واحد من لقائه على عظم المزية بايع
(٢٠٢ أ)/وما الملك الا راحة أنت زندها يضم على الدنيا ونحن الأصابع
فيا برق طالعه بأنى واصل اليه وان طال التردد راجع

---

(١) فى الأصل . فيها .

فأحضرنى السلطان عند وقوفه على الكتاب وحثنى على نظم الجواب وذلك يوم أول(١) شوال واعتمدت لسرعة امره الارتجال فكتبت قصيدة طويلة كتبتها اليه ومنها :

تالق برق مى تهامة لامع ... يبشر ان الله للشمل جامع
يحاكى خفوق القلب منى خفوقه ... فهل راعه مثلى من البين رايع
لقد طال ليلى لانتظار صباحكم ... فهل لتباشير الصباح طلائع
صفت وضفت فى الجود منك وفى العلى ... مشارع بالحسنى لنا وبدايع
كأنك شمس الدولة البدر بيننا ... ونحن حواليك النجوم الطوالع

قال : ولما أقام بدمشق وفد الى جنابه الوفود وافنى موجوده الجود وشفه بالواردين بحر عطائه المورود ، وما زال يفكر فى اطلاق ما يليق الى من الجائزة ففرض لى من فرضه عيذاب مواهبه الغراب وأمر فى توقيعه بها النواب وحسب ما أعطانى العطاء الحساب ، ولم يكن قط فى توقيعه تعويق فقلت : قد أحالنى البحر على عيذاب ودونها مهامه اذا قطعها الحديد ولم يع ذاب ومن لى بها ومن لاستدنائها وتتريبها فقيل لى أدنى هباته من اقصى اليمن وعيذاب على كل حال اقرب من عدن فادرجت التوقيع فى كتاب الى المولى الفاضل واودعته الخريطة السلطانية وثوقا بالوصول فوصلت الى مصر وقد سار على عزم الحج على طريق البحر فسرت اليه تلك الخريطة فاتفق وصولها ساعة ركوبه بحر عيذاب فتسلم الكتاب وأحضر النواب وعرض التوقيع وفض الجميع فما رايت عطاء منه أهنأ ومن المن والأذى أبرأ وما عرفته الا من العوارف الفاضلية .

ذكر وصول الرسل من الديوان العزيز

قال : وفى رجب سنة ست وسبعين وصلت رسل الديوان العزيز الامامى الناصرى وهم صدر الدين شيخ الشيوخ ابو القاسم عبد الرحيم ومعه شهاب الدين بشير الخاص بالتفويض والتقليد والتشريف الجديد فتلقيناه بالتعظيم والتمجيد . وقد عرف السلطان ما بينى وبين شيخ الشيوخ من الاواصر الموشجة المتمازجة واللحمة المتمازجة فان أولاده من ابنة عمى العزيز فأمرنى بالوصول اليه والمبيت عنده ليلة وصوله الى

---

(١) فى الأصل . من وكذا يستقيم الكلام .

القصر فخرجت أوان العصر ودخلت اليه وسلمت عن السلطان عليه وبث طول ليلتى أسامره وركبت سحرا من عنده لأسبق بالدخول وأخبر بالوصول فجئت الى السلطان وقد ركب للاستقبال ولما ترآى الرسل الكرام ووجب لهم الاكرام والاعظام نزل وترجل وأبدى الخضوع وتوجل ، ونزل الرسل اليه وسلموا عن أمير المؤمنين عليه فتقبل الفرض وتبل الأرض ثم ركبوا ودخلوا المدينة وانزلوا بنزولهم السكينة وانشرحت الصدور واستبشرت الوجوه بصدر الدين وبشير وظفر السلطان من صدر الدين بصديق صدوق مشفق مشير ، وكان قد عزم على قصد الديار المصرية وسلوك طريق ايله والبرية فحسن لشيخ الشيوخ مصاحبته ، ورغبة فى زيارة الشافعى فقال قد عزمت على الحج فأقبلوا عذر المحتاج المحتج ثم قال : أصل معكم الى القاهرة بشرط اقامة يومين ولا أدخلها وانما أسكن التربة الشافعية فأنزلها وأسير منها الى بحر عيذاب وأركبه الى جده فلعلى أدرك صوم رمضان بمكة وأغتنم وأقيم وأقضى الحج اذا حل موسمه فأجيب الى المقترح وأعاد السلطان أصحابه الى بغداد ليأتوه من أبيتها الى الحجاز ، وسير السلطان شهاب الدين بشيرا فى جواب رسالته على رسم عظمة الديوان العزيز وجلالته وسار معه رسولنا ضياء الدين الشهرزورى لهدايته الى المراشد ودلالته واستصحبنا شيخ الشيوخ معنا الى مصر فأقام يومين كما ذكر وتوجه منها الى مكة على البحر فأدرك بها الصوم .

(٢٠٢ ب) / ذكر الرحيل الى مصر يوم الاثنين ثامن عشر رجب والوصول الى القاهرة ثالث عشر شعبان

قال : ولما عزم السلطان على التوجه خص ابن أخيه عز الدين فرخشاه بالنيابة عنه بالشام وقلده أمر أجناده وأعماله بسائر أحواله وشحذ عزمه وانفذ حكمه . ولقد كان عزيز المثل عزيز الفضل معقود الضريب محمود الضريبة مخصوصا من قبول القلوب بالمهابة المحبوبة والمهيبة المحبة .

ولقد جرت مدة ايالته أحوال دمشق على أحلى حالة وله عندى أياد وغايات فى المكارم ومباد ولى فيه مدايح طالت قصائدها وجالت فى الاعناق قلايدها واذكر فى هذا الكتاب ما هو شرطه ورسم شرحه وبسطه وكتب

اليه يوم توديعه كلمة شينية عظم شأنها وتمم بالاحسان احسانها وسير لى مع فروة واكديش عطاء لم يترك اسراعه للحمد ابطاء ومن أبياتها :

اسأل الله العلى أن نعيش ألف عام لنصرة مستجيشا
رعبكم يقلع القلاع ويضحى الرعب ههنا للحمد من بأسكم منقوشا
ما اكرى شيئا سوى فروة منك وأبقى لسفرتى أكديشا
كيف يخلو من ذى ظهر وظهر سالك طرق ايله والمريشا

قال : ولما نزلنا ببصرى الى مصر متوجهين جلست فى خيمتى وحولى أصدقائى المودعون مجتمعون فقال أحد الجمالين قد وقف لى جمل وما لنا فى صحبته أمل فأبغ جملا نبتاعه والا فقد حصل على الأرض متاعه . وعندى صديق قام وغاب وتركنى أخاطب فى شرى الجمل الأصحاب ثم عاد سريعا ومعه ثلاثة من حجاب ثلاثة من الامراء المودعين وقالوا سمعنا بابتياعك الجمال لحمل الأثقال ، وقد أتينا بخير ما عندنا من الجمال فعرفت أن ذلك الصديق قام وقصدهم وقال : ان كنتم تريدون أن تتقربوا الى فلان بما يقبله فسارعوا الى اهداء الجمال له فشكرته على هذه المكرمة ونسقتها فى عقود مكرماته المنتظمة وهذا الصديق المعروف بموفق الدين أبى يعلى حمزة العنزى من أعيان حماة وأماثلها . وكان ذا همة تروى المكارم من مناهلها وأراد فى تلك النوبة أن يصحبنا الى مصر فاحتاج السلطان الى من يعول فى الرسالة عليه الى الموصل فنصصت عليه وأحضرته للمشافهة بين يديه فكتب له وودعته وسرنا وسار وشب شوق الأحبة فى القلوب النار ووصلنا القاهرة على طريق ايله ثالث عشر شعبان واستقبلنا أهلها والملك العادل أخو السلطان حينئذ بمصر نايبه وتلقتنا مواكبه ومواهبه وخدمته بكلمة منها :

أحبة قلبى طال ليلى بعدكم أسى فمتى ألقى بوجهكم الفجرا
فقدت حياتى مذ فقدت لقاكم فهلا أخذتم فيه من ناره حذرا
لقد عاد أنسى وحشة بفراقكم فهل لحياتى منكم نشأة أخرا
سكنتم فؤادى وهو فى نارشوقكم كما عاد عرف الدهر بعدكم نكرا
وقد كنت مغترا بأيام وصلكم ولا يأمن الأيام من كان مغترا
قطعنا الى بحر الندا بحر قلزم ومن قصد بحر الندا يقطع البحرا
الى عزمة فى المجد غير قصيرة وكان قصارى امرنا ان نرى القصرا

قال رحمه الله : وفى أوايل سنة ست وسبعين توفى صاحب الموصل وهو سيف الدين غازى بن مودود بن زنكى ونحن مقيمون على كوك سو من حدود بلد الروم وجلس مكانه أخوه أحمد عز الدين مسعود بن مودود بن زنكى فجاءنا رسول مجاهد الدين قايماز وهو الشيخ الفقيه فخر الدين أبو شجاع ابن الدهان البغدادى يلزمنا بحكم اليمين مع سيف الدين وقد سير معه بنسخة اليمين التى حلف بها السلطان وفيها ابقاء سيف الدين على ولايته وأنه لا يغير على نوابه واخوته . وقال هـــذا أخوك(١) الذى حلفت أنك لا تغير عليه فبأى تأويل تقبض ما فى يده فقلنا اما تلك اليمين فانها منوطـة باتمام الحياة ولا يلزمنا الوفاء بها بعد الوفاة/ (٢٠٣ أ) ونحن نرى رأينـا فيما نعتمده ونحله فى الأمر ونعتقده ، ونطالع الديوان العزيز النبوى أعز الله نصره ونمتثل فى ذلك أمرنا واعدنا الرسول على عادة الاكرام بالتشريف والانعام ، وشرعنا فى العود الى دمشق واليقين من الله بتسـديد مرامى المرام .

قال : وأقام السلطان بمصر مشتغلا بمصالح الدين والدولة مشتملا من نعم الله على التفضيل وبالجملة محتفلا بمجالسة العلمـــاء ومذاكرة الفضلاء والجلوس فى دار العدل للمظالم وكسر المحامد بالمكارم ونحن فى لهية وعيشة رغدة بل هنية . قال : وفى هذه السنة عربت كتاب كيميـــاء السعادة(٢) تصنيف الامام أبى حامد الغزالى فى مجلدين وفزت من تعريبـه وعلم ما فيه بسعادتين وذلك بأمر فاضلى لزمنى امتثاله وشملنى فى اتمامه اقباله . قال : وفى سنة ست وسبعين مات صاحبى المعتمد ابراهيم (بدمشق وأنا بمصر) (٣) وفجعنى مصاب كمصابه وفل شـــبا صبرى لفل شـــبا شبابه وقد كان بمصالحى كافلا وجهده فى صون حوائجى باذلا خدمنى فى أول أيامى بالعراق وفراسة والدى رحمه الله دلت على ما وجدته فيه من الاشفاق ومما رثيته به قصيدة أولها :

أرى الحزن لا يجدى على من فقدته   ولو كان فى حـــزنى مزيدا لزدته

---

(١) فى الأصل : أخوه وكذا يتطلب السياق .

(٢) قارن الروضتين(١) جـ٢ ص ٢٠ . انظر أيضا دائرة المعـــارف الاسلامية(٢) مقال الغزالى .

(٣) فى الأصل ما بين الحاصرتين مطموس والضبط من الروضتين١ جـ ٢ ص ٢٠ .

تغيرت الأحوال بعدك كلها فلست | أرى الدنيا على ما عهدته
عقدت بك الامال بالنجح واثقا | فحلت يد الأقدار ما قد عقدته
أردت لك العمر الطويل فلم يكن | سوى ما أراد الله لا ما أردته
فيا وحشتا من مؤنس قد عدمته | ويا وحدتا من صاحب قد فقدته
فتدت أحب الناس عندى وخيرهم | فمن لايمى فيه اذا ما أنشدته

قال : ودخلت سنة سبع وسبعين

والسلطان مقيم بالقاهرة ، والايام ظاهرة الليالى زاهرة ، والدولة العالية ضاحكة المباسم مالكة المرايم مهتزة الاعطاف ، معتزة الأطراف ، سنية الألطاف ، والانعم مستمرة مستقرة ، والأعين قريرة والألسن مقرة ، وأنامل الأنام بالدعاء الى الله مرفوعة ، وأدعية الصالحين فى ذمام دولته مسموعة ، ولرواية الأحاديث النبوية رواء ، وللارواح من أورادها ارواء .

وكان البندهى المسعودى فصيح الحجة ، صبيح البهجة ، عالى الرواية ، حالى الدراية يؤدى بقراءته رواية الصحاح صحيحة ، وتسمع من الفاظه الفاظها الفصاح فصيحة وتسمع من الفاظ السلطان قد عين له للسماع ميقاتا وجمع به من العلم والعلماء أشتاتا فما أحسن شمايله وأشمل محاسنه وأزين محافله وأحفل مزاينه وأمكن فضايله وأفضل أماكنه .

قال : وفى هذه السنة ورد كتاب عز الدين فرخشاه من الشام يذكر ما من ألله تعالى به على الانام من الانعام ، وان ولادة التوم كثرت فى هذا العام فأنشأت رسالة توأمية أصدرتها الى الاجل الفاضل فانه يعرض فى سوقه بضاعات الفضايل ومنها :

لئن أتأم العام بالحنين وأتى بالحسنيين فمازال لكل قد توأمان فللعدل العمران وللدهر القمران وللسماء سوى توأميها الفرقدان وللارض « مرج البحرين يلتقيان »(١) لكن الزمان لم يزل بمثل مولانا الفاضل عقيما ولولا صحة فضله وحصة افضاله لكان الدهر سقيما فهو واحده وأوحده وماجده وسيده وبراعته أم البراعة(٢) قد أتأمت ملكى مصر والشام وعززت من القن

(١) سورة الرحمن آية رقم ٢٠ . (٢) فى الأصل : البراسة .

بثالث بيمن الاسلام ، والملك توأماه الناصران فبأس الباسل العباسى بالامانة كفيل وجود الماجد الايوبى فى نيابته وكيل ، والمال والنصر تواما نعت فخره وتميما نحت نجره ، وكوكبا سعد فخره ومركبا جاش حزمه وموكبا جيش عزمه وكذلك النظم والنثر(٢) توأما الفضل ومولانا الفاضل مربيهما ، وهما نجيبا بنانه وجنينا عنانه وانسانا عين بيانه فلا جوار لهمـــا من جور عنـــاد الدهر الا عنده ولا رواح لرجائهما بين كرام العصر الا فى سوقه ومجده .

(٢٠٣ ب) ذكر وفاة صاحب حلب الملك الصالح رحمه الله

قال : قد سبق ذكر الملك الصالح اسمعيل بن الملك العادل نور الدين رحمه الله ، وأنه أقام مقام أبيه وأقام عند وصول السلطان الى الشـــام على تأبيه . وكان قصد صلاح الدين اصلاحه وان يضمه اليه ويضمن نجاحه وفلاحه فصده عنه مماليك كفلوه فأخذت بلاده كلها بلجاجهم وفرضت دولته لسوء علاجهم فامتنع بحلب وبعد عليه من استعادة البلاد ما طلب ولم يزل بحكم المسئولين عليه مكفولا ولا يجد لحلف رأسه عقولا فأسرعت شـــمسه البازغة افولا وسعت سعادته عنه قفولا .

ووصل صاحب الموصل عز الدين مسعود الى حلب فجمع ظاهـــره وباطنه وأخذ خزانيه وأخرج دفاينه وأخلى كنائنه ثم عرف أنه لا يستقر له بها أمر فرغب أخاه عماد الدين زنكى صاحب سنجار فى تعويضها له بحلب فمال الى بذله ورغب وتسلم حلب وسلم سنجار وأقام فى رغد لو أمن الجار .

ولـــا سمع السلطان بوفاة الملك الصالح فى مصر تحرك عزمه واحتد أواره وندم على النزوح من الشام مع قرب هذا المرام وشرع فى جد الاهتمام وصدق الاعتزام وكتب الى ابن أخيه تقى الدين عمر بن شاهنشاه وهـــو يتولى له المعرة وحماه وأمره بالتأهب والربوض لفرصة التوثب وكان نايبه بدمشق عز الدين فرخشاه قد نهض فى مقابلة الفرنج فان الابرنس الكركى كان يحدث نفســه بقصد تيما فى البـــرية وأعد لذلك الازواد والروايا مـــع السرايا السرية فحركت عز الدين دواعى الحمية وبواعث النخوة الدينيـــة فعرف السلطان اشتغاله بذلك المهم وانه لا يتفرغ لدفع الملم فشحذ عزايم نوابه بالشام بتجديد المكاتبات لهم وبعثهم على الاستعداد وحملهم(١) وكان

---

(١) فى الأصل : وحمايم .

الأمير معين الدين عبد الرحمن بن صاحب راوندان(٢) فى حضنه وهو يشتد بركنه فكاتبه بما أرهف حسه واستسعف فى المساعدة جده .

فصل من كتاب اليه من مصر فى أواخر شعبان سنة سبع وسبعين وقد عرف ما تجدد من وفاة صاحب حلب وهى ولايتنا التى لا نثنى عنها عنان الطلب فانها فى تقليدنا بأمر أمير المؤمنين وما تركناها للملك الصالح بعد التصرف فيها وحصول حصونها ومعاقلها فى أيدينا الا رعاية لحقوق أبيه ورغبة فيه ، ولا مانع اليوم عنها الا من يمين معقودة ولا عدة معهودة ، وقد وفينا المتوفى بعهده والآن فقد سفر لنا وجه الحق وبان ودنا لنا مصعبه وأصحب ودان . وولدنا تقى الدين هناك بالقرب وعساكره جارية على حكمه وعزيمتنا معقودة بما هى عزمه فلتكن ايديكم متساعدة متعاقدة والقلوب واحدة .

ومنه ومعين الدين ينهض بنفسه وبعسكره ويؤثر فى هذا المقام حسن أثره ويعمل عمل المرء لنفسه وينتصف ليومه من أمسه .

وقال : وحررت فى المعنى مكاتبة الى الصاحب مجد الدين استاذ الدار العزيزة فى منتصف شهر رمضان سنة سبع وسبعين . ومنها أصدر مملوك الدار العزيزة ثبت الله قواعد مجدها وشد بعرى النصر معاقد سعدها مطالعاته التى أعرب فيها عن صاحب الموصل فانه طمع فى جانب وطمح اليها ومد يد التعدى بالاحتواء عليها ونكث الايمان المبرمة ونقضها وترك المراقبة التى فرضها الله ورفضها وأن حلب وأعمالها داخلة فى ولايتنا التى يشهد بها شريف المثال وينطق بحقه المنشور العالى الموقع له من به العظمة والجلال . ومنها ورسوله الى الفرنج يستجديهم فى شغلنا ويغريهم ويبذل لهم الرغايب ويضربهم وقد راسل الحشيشية والمراد من الرسالة غير خاف والعلم بالمعتاد منها غير كاف وما تهيأ للمذكور الوصول الى حلب الا بسبب غيبة ابن أخينا فى أقصى بلاد الفرنج فى أول برية

---

(٢) الراوندان . قلعة حصينة وكورة طيبة معشبة من نواحى حلب ، معجم البلدان ٢ — ٧٤١ .

ثيما(١) وهى دهليز المدينة على ساكنيها أفضل السلام واغتنم كون البرية معشبة فى هذا العام فقفنا ابن أخينا أثره ومنع الكافر المخذول وصد قصده ولم يعلم بوفاة ابن نور الدين رحمه الله الا بعد عودته ومن العجب أن نحامى عن قبر النبى صلوات الله عليه مشتغلين بمهمة والمذكور ينازع فى ولاية هى لنا ليأخذها بيد ظلمه وكم بين من يحارب الكفر ويحمل اليهم قواصم الآجال وبين من يتخذهم بطانة دون المؤمنين وتحمل اليهم كرايم الاموال وبين بعيد من دار الخلافة المعظمة يفترض الطاعة / (٢٠٤ أ) ويستفرغ فى مراضيها الاستطاعة ، وبين آخر يدعى انه أقرب جيرانها ولا يمت بل لا يموت الا بعصيانها وكل يعمل على شاكلة أصحابه فهو يمرى بيد المرير اخلاف أخلافه ونحن لا ندين الا بطاعة الامام ولا نرى ذلك الا من أركان الاسلام هذا مع ما نعد من سوابق فى الملة الحنيفية والدولة الهادية العباسية لا يعد مثلها أولا لابى مسلم لأنه أتدم ثم عام وأمال ثم آلام ولا أحرا لطغر لبك فانه نصر ونصب ثم حجر وحجب وقد عرف ما فضلنا الله به عليهما فى نصر الدولة وتطهير المنابر وحسن الادعياء واطلاع أنوار السمات الشريفة كاشفة لظلمة تلك الاسماء وانارة صباح الهدى بعد امتداد رواق الضلالة والمدلهمة الظلماء ولم يفعل ما فعل لأجل الدنيا فأجزا منه بالحسنى طولع فى الأخرى غير أن التحدث بنعم الله واجب والنجح بالخدمة الشريفة والافتخار بالتوفيق فيها على سجيته غالب ولا غنى عن بروز الأوامر الشريفة الى المذكور بأن يلزم حده ولا يتجاوز حقه فلا ولاء بذله من خليقة يقترن بها المضاد ولا وراثة له فى أرض الله فان الأرض لله يورثها من يشاء ، فان أطاع وأناب ورجع عن الخطأ وعاود الصواب والا فما قصدنا الا أن نقاتله وهو لأمر الخلافة المعظمة مخالف ونحن طايعون والمشار اليه متصامم(٢) ونحن سامعون .

ومنها فان جنى جان على الدولة العباسية بالنيابة عنه فى ذلك لا يقرب عن دخل معتقده وتنكب نهج الحق وجوده فالأولى تقليد المذكور جميع الولاية فان دخول الأيدى المختلفة من الاعداء شاغل ويحتاج الى مغرم ينفق فيه العمر بغير طايل وبقاؤنا فى هذه الدار القليل اللبث القصير

---

(١) بليد فى أطراف الشام بين الشام ووادى القرى على طريق حاج الشام معجم البلدان ١ — ٩٠٧ .

(٢) فى الاصل : متصايم .

الملك يؤثر أن نغتنمه‌فى الخدمة الشريفة النبوية والطاعة الامامية فى مجاهدة العدو الكافر الذى صار له البيت المقدس محلا للارجاس ومضت عليه دهور وملوك لم يحصلوا من رجائهم تطهيره الا على الياس . هذا وما بنا بحمد الله قصور عن أن نصده عن قصده ونرديه ثوب العجز برده ونكيل له بضاعة ونعثره فى عثير اسراعه وقد طالع الديوان العزيز بطيه مستشفعا ولشرح قصته مستوفيا ولعذره فى جميع الاحوال مبليا ولا غنى من نظره السامى ليكون للاحوال متوليا ولراية الحق معليا لازال لذخاير الحمد مقتنيا ولقواعد المجد مبينا ورأيه أسمى .

قال رحمه الله : وفى هذه السنة سنة سبع توجه الابرنس بالكرك الى تيما وتقرب من المدينة النبوية على ساكنها السلام فشد عز الدين فرخشاه واستعد ووجد التوفيق الالهى وجد وتوغل فى البرية وما زال على مقابلة الابرنس حتى نكص ذلك اللعين على أعقابه وأذله عز الدين بحق باسه فبطل ما كان فى رأسه(١) .

وقد جرى ذكر ذلك فى الكتاب الذى انشىء الى الديوان العزيز وأعرب عنه باللفظ الوجيز . قال وفى هذه السنة توجه السلطان الى ثغر الاسكندرية وخيمنا عند السوارى وشاهدنا بسنا قدومه أشعة زند الاقبال الدارى وشاهد الاسوار(٢) التى جددها وأمر بالاتمام والاهتمام بالاحكام .

وقال السلطان : نغتنم حياة الشيخ الامام أبى طاهر بن عوف وهو اسمعيل بن على بن عوف فحضرنا عنده وسمعنا عليه موطأ مالك بروايته عن الطرطوسى فى العشر الاخير من شوال . وتم له ولأولاده ولنا السماع والوالى بالثغر المحروس فخر الدين قراجه وقد ارتفعت بحسن سيرته عن تلك البلاد السماجة . وفرعنا منارة الاسكندرية وقضينا منها عجبا وخرجنا من البلاد ولم نقض على الكمال اربا وعدنا الى القاهرة فى ذى القعدة وشرع السلطان فى الاعداد لسفر الشام واستصحاب العسكر الهام وضربت على البركة بالبركة مضاربة وكتب بحركته الى الآفاق وتحركت كتايبه فكتبت مناشير البلاد وقسم عسكر مصر قسمين فقسم فى ثغورنا بحكم الملك العادل

---

(١) فى الأصل غير واضحة وكذا من المرجع .
(٢) فى الأصل : الأسواق .

وقسم فى الصحبة ووصى كلا من المقيمين بملازمة الثغر الذى هو فيه ، وأمر بهاء الدين قراقوش باتمام السور الداير على مصر والقاهرة ، وأمره بمواد العدد الوافرة وأقام الى آخر السنة للحل والعقد والابرام والنقض وسيأتى ذكر رحيله فى آخر السنة ان شاء الله تعالى .

ذكر آفة ضـيافة

قال رحمه الله : كان الامير مجد الدين سيف الدولة مبارك بن كامل بن منقذ لشمس الدولة نايبا بزبيد ثم استقاله وانفصل وناب بزبيـد أخـوه حطان وكان قد ابتاع من السلطان الناحية المعروفة بالعدوية وعدل أحوالها بالعمارة السوية وهو من أهل (٢٠٤ ب) المجد والأبوة والفضـــل والمروة وكانت بينى وبينه صداقة بصدق العقيدة معقودة ومقاربة بزمام النسب الأدبى والحسب العربى مقودة وربما أقام بالعدوية أياما وهى ذات جنان وعيون وأفنان وحدائق فاخرة ، وهى على الحقيقة جنة القاهرة فدخلنا اليه بها يوما وذلك فى أول السنة فمضينا فى جمع من الأفاضل منهم شمس الدين ابن الفراش قاضى العسكر ، وموفق الدين أبو يعلى حمزة بن الحسـن العنزى وجمال الدين الفقيه والشاعر أبو على الحسين بن رواحه حتى قربنا فقربنا القاضى واستقبلنا وتلقانا فوفى كلا حقه من السلام والترحيب والاكرام وترجلنا ودخلنا دارا دارت له الاقدار بالاقدار ووردنا عذبا عدا لم تطرقه يد الاكدار وأجلسنا فى الرواق كالملوك والمماليك فى الروق قيـــام واستيقظ لحظنا ناظر الدهر وصروفه عنا نيام ، وما زلنا فى جد ومراح حتى طما على نهر النهار من الليل السيل وجر على الآفاق من جلابيب غياهبـه الذيل فازهرت نجوم الشموع فى أبراج تلك الاروقة واشرقت شموســها للشموس المشرقة وما منا الا من زكت أثمار غرسه وذكت أنوار شـمسه ونثرت عقود نظمه وكثرت نقود فهمه حتى تبسم الصباح وسعت ينـابيع النور من ساحل لجة الديجور فأصبحنا على ما امسينا عليه من جوار وار وشعار من العار عار . وقال الامير الأديب : ما تقولون فى نزول النيـل فقلنا : لأمرك الاتباع وحكمك المطاع فركبنا عشـاريا مخضت بالمحاسـن عشاره واغرب من نجاره العربى نجارة فتوسطناه شموسا والبدور على الاطراف والمماليك محيطة بشرافاته المحيطة بالاملاك والاشراف ، وأنفاس الصبا تصبى النفوس وشموسه الحجال تحجل الشموس والمركب صـاعد ونازل والراكب جاد وهازل ، وعندنا كل طيب وطاهر وبهي وباهـر وزام

زاهر ثم استوت السفينة واحوتت عليها السكينة ومللنا للخروج وعدنا الى الجلوس وقلنا : قد أطلنا وأحجرنا وأمللنا واضجرنا فان اذنت فحلف أننا لا نقوم بل نقيم وأنه يتكلف بكل ما نروم ولا نريم ، فذبح من الغنم قطيعا ، وصنع قرى وسيما ، ثم رأينا أننا نستريح بالقيلولة لعزم البيتوتة فقمنا وقلنا ومال بنا الكرى ومِلنا ولم ندر أن النور غيور والأصل عثور فما شعرنا حتى ايقظنا الارتياع والارتياب وتقطعت بالمتواصلين الاسباب وأصحاب الامير تشاوروا وتشوروا فقلنا ما الخبر وهم غشا صفونا الكدر فقالوا هذا الامير قراقوش قد أحدق ببسيطة هذه الحديقة لقبض الامير وقد شغلته مسامرة الحادثة عن الحادثة السمير ففرقنا وتفرقنا وركبنا اذ انكبنا ونتفنا ولا عطف أحد على أحد ، ولا أخذت يد بيد حتى عدنا الى القاهرة متأسين متأسفين ملتهبين ملتحفين ، وكل من يلقانا من اصدقائنا يغطبنا بالمداعبة ويقول كنتم على الأمير مبارك مباركين فلم لما أخذ كنتم له تاركين وهلا كنتم فى المكروه له مشاركين فنقول : هذا قدر محتوم وسر للغيب مكتوم ، وشاع عند سلطاننا سره وأعجبه أمرنا وأمره ونقول ما أسفنا على تلك الحلاوة التى مرت ومرت والطلاوة التى سادت يوما بعدما سرت واحمدت العقبى ووجدت العتبى .

ذكر السبب فى القبض عليه

قال كان خواص السلطان اذا خلوا به ذكروا المذكور وان له الذخر الموفور وانه استوعب أموال زبيد واقتنى الاماء والعبيد ، وكنز كنوزا تأبى أن تبيد ولو حضرت ملأت البيد فيقول ما عليه سبيل ولا لما تذكرون دليل ، وقد اغناه الله فى دولتنا فلا نفقره ، وعظمه بعظمتنا فلا نحقره ، فكانوا يمتعضون من هذا الحديث ، ويتقولون عليه الأقاويل ، ويحققون فيه الأباطيل الى يوم الدعوة العدوية ، واشتغاله باشغالها وتحوله اليها لاحوالها ، واستدعاء آلات من البلد واحتفاله بجمع المطرف والمتلد . فقالوا للسلطان ان سيف الدولة اليوم فى همة عظيمة وحث عزيمة ونهز هزيمة ، فان لم تدركوا فات ، وهيهات هيهات ، فأمر بهاء الدين قراقوش بأن يعدى الى العدوية العدوى وان يركب(١) الجد فى احضاره وجدوى فجاءه فجأة على تلك الحالة ولما رآنا عنده عرف اختلال تلك المقالة فاركبه على عادته الجميلة

(١) في الأصل ركوب وكذا يتطلب السياق .

وعزته الجليلة ونحن معه/(٢٠٥ أ) وللامير قراقوش عاتبون وسرنا الى العصر حتى وصلنا الى القصر فأفرد الملك العادل له فيه دارا ورتب له ولأصحابه من وصايف الطعام والشراب ادرارا فسمح السلطان خاصته بثمانين ألف دينار ولم يظهر فيها بيع متاع ولا استدانة عقار وعزم لاخوى السلطان الملك العادل وتاج الملوك ما حافظ به على نهج كرمه المشكور(١) وخرج مشرفا مكرما وزاد السلطان فى تكرمته ورفع مرتبته ونفذ اليه خط يده بأن المبلغ دين فى ذمته ثم باعه أملاكا بمصر بثلاثين الف دينار وبذل له كل ما طلب عن ايثار واختيار.

وكان هذا الامير من رجاحة عقله وحصافة فضله ما سمعت منه قط شكوى ولا حكاية فى بلوى ٬ وقتل اخوه حطان بزبيد واخذ ماله فلم يظهر للسلطان منه كراهة وكل شيمه نزاهة ونباهة قال ومما انشدنيه لنفسه قوله فى حال أحضرت .

وهيفاء ما زالت عساكر حسنها	تغير على العشاق ثارة ثائر
لها فىاحمرار الخد خالمورد به	خضرة شقافة للنواظر
فقلت لها ماذا النجيع الذىأرى	وهل صيغ خال قبله من جواهر
فقالت وقد لاح الحياء بوجهها	حالت جيوش البحر بين المجاهر
سفكت دماء واشتققت مزايرا	فما ذاك الا من دم ومزاير

قال وفى هذه السنة تقرر مع سيف الاسلام ظهير الدين طغتكين بن أيوب أن يمضى الى بلاد اليمن وزبيد وعدن ويقطع(٢) بها الفتن(٣) ويتولاها ويولى ويعزل ويستثبت ويستبدل . فسار بعد مسيرنا الى الشام وجرت مملكته فيها على أحسن النظام وذلك فى سنة ثمان وسبعين . ووصل الى زبيد وحط حطان عن رمحته فاستشعر وآوى الى بعض الحصون فى ذروته وامنه وسكنه وزال مخافته واظهر له رأفته ومارجه ومازحه

---

(١) فى الأصل : المشكوك وكذا من المرجح .

(٢) فى الأصل : مطموسة وكذا من المرجح .

(٣) فى الأصل : القين .

(ونافقه وامنه)(١) وأثر له فى داره وادخله الجنة وهو فى ناره وهو يقول: امرى بتمشية مشيتك يتمشى وملكى بتوشية تدبيرك يتوشى وانا فى مراد مرادك اتغدى واتمشى فقال له حطان : أنت السلطان ومنك الاحسان وفى تخلية سبيلى لك الامتنان وقد تأكدت منك بالامان الايمان فقال له ما أردتك عندى الا ليرى رايك زندى ثم أذن له فى الانفصال الى الشام وهو يبدى الكراهية ويريه أن لعيشته بمقامه لديه الرفاهية فجمع حطان كل ماله من سبد ولبد ولجين وعسجد وياقوت وزبرجد وآلات وعدد وحصن وحجور غراب ومال أنفذه من اليمن بغير حساب ثم قدم أمامه أحماله وأثقاله وظن أنه نجا وفاز وركب الاوقات فورد اليه ليودعه ثم يشيعه ويركب معه فلما دخل اليه اعتقله وسير وراء ماله من أقفله والى خزانته نقله ثم أنفذه الى بعض معاقله فحبسه ثم قتله ومما ذكر السلطان عن خبر ذهبه أن نيفا وسبعين غلافا من غلف الزرد كانت مملوءة بالذهب الاحمر المنقدة وقوم المأخود بالف الف دينار ، وأما صاحب عدن الامير عثمان الزنجيلى(٢) فانه لما سمع بسيف الاسلام تجهز الى الشام قبل أن يحطم كتحطم حطان بالحطام .

ذكر عاطفة مستغربة

قال : أقام الملك عز الدين فرخشاه بعد أن صار السلطان الى مصر بالشام فهيب ورجى وأمل وخشى فعن للفقيه العلم خطيب مرة أن يزور على السلطان مثالا يتضمن له منالا شبه فيه بالخط السلطانى وخطى ووقع له أن يصيب بالتوقيع وهو المخطى فعرضه على عز الدين فما خفى عليه تزويره وذار فى الايقاع به مع انه من أهل العلم تدبيره ، وهابه العلم وارتاع وارتاب وأجاب غراب البين ونوى الاغتراب ووصل الى مصر وهو مرتعد ومرتعب وقد سير عز الدين بالتوقيع المزور الى مصر نجانا وترقب فى أمره بالعنف جوابا فما تحدث السلطان/(٢٠٥ ب) بحديثه بل اذن للعلم فى الدخول واجلسه الى جانبه وأكرمه وساله فيما وفد لأجله من مطالبه وانسه بالبشر والطلاقة وصان ماء وجهه من الاراقة فقال له : اية حاجة أوفدتك واية ضرورة من قرب الأهل بعدتك فهل كتبت الينا بالغرض فكنا نعد قضاءه من المفترض فقال له : اصدقك عن حالى وأخلى بالى المشغول عن بلبالى قد جرى منى

---

(١) كذا . ما بين الحاصرتين غير واضح .
(٢) في الأصل : الزنجاني .

كيت وكيت فضاق بى بعده البيت فقال : هذه القضية تعزى بك الى التغريب وأنت تثرى بمأمولك ولا تثريب ونحن نحقق ما عــدوه مزورا ونودع روح المعلى فيما أحضر مصورا وأمرنى بأن أكتب له توقيعا بضعف ذلك الادرار وكتب له بخطه الاشرف وشرفه بالكسى والمــال وأعاده الى الديار فتعجب الناس من هذه الرغبة الغريبة والصنيعة البديعة فعادة السلاطين الانتقام ممن يزور على توقيعهم بالايقاع الشنيع والعقاب الفظيع فخالف تلك الطباع وخرق ذلك الاجماع وأبدع مع عفوه الاصطناع .

وقال ومن كرمه وحلمه أنه كان له امام يصلى به وهو يكتب مثل خطه فأطلق به أموالا وأصلح وأنجح بتزويره لاصدقائه أحوالا وآمالا ولا يشك صاحب ديوان ولا متولى خزانة فى أنه صحيح وبالجود صريح فلما دام سنين انكشف وشارف عند السلطان التلف وجلس خواص السلطان وامراؤه عنده يغرونه به فمنهم من يقول تقطع يده ومنهم من يقول يقتل ويعلق جســده فلما فرغوا من حديث العقوبة جذبته المثوبة وقلت له بالعجمية سرا تهبــه للقرآن فقال وهبته مرضاة للرحمن فتنفس خناقه وعجل وكاد يحبس اطلاقه وأبقى عليه خيره حين استبدل به غيره وصار بعده للملك العادل اماما وبقى شغله معه مستداما وعزم ذلك الامام على الحج ذلك العام فودع السلطان وقال له اجعلنى فى حل فقال السلطان : بل أنت تدعوا لى فى حلك والاحرام وثق منى عند عودك بالبر والاكرام.

ذكر ســــهوة تطير

قال : كان السلطان عشية توديعه لأهل مصر جالسا فى سرادقه آنسا بفيالقه والمجلس غاص وعارض فضله بتلك العراض عراض وكل واحــد منا ينشد بيتا فى الوداع ، ويورد أحسن ما قيل فى برح النزاع وهو يقــول ما أعبق هذا الشميم وأطيب هذا النسيم ، وما أزهى هذه الأزهار وما أسحر هذه الاسحار فأخرج أحد مؤدبى أولاده رأسه وصوب للتنفيس كريه أنفاسه وأنشد مظهرا لفضله :

تمتع من شــميم عرار نجــد   فما بعد العشــية من عــــرار

---

(١) في الأصل الاصطفاء وكذا يستقيم السياق .

فلما سمعه خمد نشاطه وتبدل بالانقباض انبساطه ونحن ما بين مغضب ومغض ينظر بعضنا الى بعض وكأنه نطق بما هو كاين فى الغيب فانه ما عاد بعدها الى الديار المصرية حتى انتقل من دار الغفران الى غرفاتها العلية .

قال : ومن جملة نسج المعلمين فى القول ما حكاه لنا شيخنا أبو محمد ابن الخشاب بالعراق قال : وصلت الى تبريز وقد أحضرنى رئيسا فى داره وقد احتفل فى مرابعه بمباره وأجلس ولده بين يدى ليقرأ بعض ما تلقنه على فقابلت احسانه باحسانى وقرظت ذلاقة لسانه بلسانى وقلت فرخ البط سابح فقال معلمه وكان حاضرا نعم وجرو(١) الكلب نابح فخجلت من خطأ خطابه ومقصوده أن يذكر قرينه ولا يبالى بعينه قريرة أم سخية ودأب آداب أولاد الملوك والرؤساء لاجترائهم على أعزة أولادهم الاجتراء على الآباء وانما يصلح لمجالسة الملوك من يتحفظ فى كلامه ويتيقظ حتى فى منامه ويوافق محبة مرامه ويلازم مهابة مقامه ويجرى فى عقود النقود وخصوص الفصول على نظامه وختامه .

ذكر بطشه فرنجية وقعت الى البحر(٢)

فصل من كتاب الى الديوان العزيز بشرح ذلك : وجرى عند ذلك من الاتفاقات الحسنة فى هذه السنة أن بطشة كبيرة من مراكب الفرنج مقلعة من بلد لهم يقال له يوليه تحتوى على الفين وخمسمائة نفس من رجال القوم وأبطالهم وهم على قصد زيارة القدس فى الساحل فالقتهم الريح الى ثغر دمياط المحروس بجدهم المنكوس فغرق منهم الشطر/(٢٠٦ أ) وشمل الباقين بأسرهم الأسر وسقط الفرنج فى أيديهم وحصل منهم فى الأسر زهاء ألف وستماية وستة وسبعين نفسا ذل لها جانب الكفر وقامت بها على الكفرة الفجرة حجة النصر . قال : ودخلت سنة ثمان وسبعين وخمسمائة والسلطان لمضاربه(٣) مبرز والايمان لعساكره مجهز ومصر قد أبرزت أثقالها وحقت « والقت ما فيها وتخلت »(٤) وقد خفقت ذوايب الدوابل وانتظمت بحار

---

(١) فى الأصل : جره .

(٢) فى الأصل : بحر .

(٣) فى الاصل : مضاربة واللام لازمة الاضافة لاستقامة السياق .

(٤) سورة الانشقاق ، آية رقم ٤ .

السوابح وأطردت جداول الصفايح وخرجت المعارف للتوديع والاشـــياع للتشييع ونحن على العزم الصريح السريع وما منا الا من استكثر من الطهر والزاد واستظهر بوفور الامداد وعزمنا على الرحيل من بركة الجب خامس المحرم على طريق صدر وايلة ثم كانت منازلنا على الجسر ووادى موسى ووصلنا السير بالسرى حتى قطعنا بعد خمس ليال الى ايلة العقبة وسمعنا بأن الفرنج مجتمعون بالكرك لقصد الطريق فصممنا العزايم على جمعهم بالتفريق وشحذنا الجدود وأنفذنا الى أطرافنا الجنود ثم فرضنا عقبة شتار وذكـرنا الاوتار وشددنا بالقسى الأوتار فلما وصلنا الى القريتين أقمنا لتدمير العـدو واغرنا تلك الايام العشرة على طرف بلاد العدو ونواحيها وأزلنا نقوش عروشها بمواحيها وأنبتنا فى ثنايا تلك الثغور من بيضها بيض أفاعيها فمكثنا على أنهم بغارتنا يسمعون وفى غزوتنا يطمعون فما برحوا من وراء جوارهم ورأى جدواهم فقال السلطان ازوادنا ما تفى بالمقام ومعنا خلق كثير من الخواص والعوام فأقام فى كماته المجردة وقال لاخيه تاج الملوك بورى : خذ الناس معك واقصد بهم على طريق مأمونة يمنة فسارت الآيه منتظمة واتخذت الدجنة جنة وأدلجنا وسار(١) السلطان على سمت الكرك وبيننا وبينه وهو مقابلنا فى العرض مسافة يجمع ويقصر فيها الفرض فوردتنا البشاير بنصر عز الدين فرخشاه وظفره وأنه غنم وعاد بكرم مآثره وحسن أثره وسأذكر شرح هذا الظفر بعد انتهاء هذا السفر . ثم اجتمعنا بالسلطان بعد اسبوع على الاردن ثم جئنا الى بصرى وهنا استقبلتنا أنعم الشام وتلقتنا أيام من الايام وجاء الملك المنصور عز الدين فرخشاه وقال قد نال الاسلام باقباله ما كان يرجوه والكفر ما كان يخشاه وأقرت بجماله وجميله الأعين والألسن وشـهدت له شواهد فضله بأنه المحسن المفضل وجنت الينا دمشق ثميراتها ووجبت بحكم الشوق المسارعة الى دخول جناتها ووصلنا الى دمشق يوم الاثنين سابع عشر صفر ووجه الدولة قد سفر ودخلنا منها الى جنة النعيم وفزنا منهـا بالمقام الكريم .

ذكر ما تم بنهضـة عز الدين فرخشـاه

قال رحمه الله لما عرف الفرنج رحيلنا من مصر وجمع من النـاس ومن التجار وأهل الشام الذين تغربوا خوف الفلا من الشام اجتمعوا الى الكرك

---

(١) فى الأصل : وصار .

للقرب من الطريق لعلهم ينتهزون فرصة التعويق أو يقفون على بعض العقاب ويتطرفون للاطراف والاعقاب فعرف عز الدين فرخشاه بدمشق هذا الخبر فنفر وجمع جموع الشام واغتنم خلو بلادهم من حماتها وفراغها من كماتها وتسبيبها على رعاتها فنهض اليها نهضة شمرى مشمر وصحبها صباح مدبر على الكفر مدمر وأغار على دبورية(١) وجاز الى حبيس جلدك بالسواد وهو شقيف طالما شقى باشقيائه أهل البلاد فأسعد الله عز الدين فرخشاه بفتحة المبين وتم به ذل الكفر وعز الدين ، فجاءت خيبة الفرنج من ورائها وقدامها وتنوعت عليها فى صحة عزمه أقسام سقامها ولما استقر بنا المقام مدحت عز الدين فرخشاه بقصيدة طويلة اذكر فيها سعادته بهذه الغزوة ، ومطلعها :

حتى متى يجفى المحب اليه ... الى الاحباب ذنب
والام تنبوا فى محبتهم ... له جفن وجنب
(٢٠٦ ب)/سهل عليكم ما الاقى ... فيكم وعلى صعب
يا ظاعنين وهم نزول فى ... الحشا فالبعد قرب
من شوقكم أبدا بأهدابى ... لدر الدمع ثقب
لى بالعراق فديتهم أهل ... وجيران وصحب
بهم أرى الدنيا فهم ... أقمار داجية وشهب

ومنها :

كيف اللقاء ودارنا ... وديارهم شرق وغرب
من آل أيوب الذين هم ... لغيث الجود سحب
القوا صوارمهم كأن ... أكفهم للبيض عقب
فلك يدور من العلى ... وله معز الدين قطب
المدح صدق فى علاء ... وبعض مدح الناس كذب

ومنها :

وكان أرشية الرماح ... لها قلوب القوم قلب
وكان سيفك ناظر ... من حوله الارماح هدب

---

(١) دبورية بلد قرب طبرية من أعمال الأردن ، معجم البلدان ٢ — ٥٤٦ .

وعرفت أن وكيدهم ... الا لسيفك لا يرب
بأس وجود أن ذكرتهما ... فمن عمرو وكعب
عليك علمت الفصاحة ... كلنا فالعجم عرب

قال : ونعت عز الدين بمعز الدين تمييزا له وتفضيلا ، وقد حسنت البلاد بمحاسنه وزينت بمزاينه ، وأخصبت بوجود جوده وسعدت مطالعه بمطالع سعوده ، وله مهابة ومحبة فى قلوب القبول وتناسب وتناسق فى عقود العقول .

ذكر نهوض السلطان الى طبرية وبيسان

قال رحمه الله : ولما القينا بدمشق عصا النوى عاد لنا الى ذكر الغزاة الهوى وقال السلطان : لا راحة الا فى التعب ولا دأب لنا غير الدأب ، وكيف لا نغتنم طيب الزمان وفرصة الامكان ، والعساكر بحمد الله ماضية العزايم مضية الصرايم ، وبرز بجموع العساكر والبحور الزواخر واغار على طبرية وبيسان(١) وفتك وهتك وكسر وأسر وسل السيوف وقتل الالوف وأذل الانوف ، وكانت وقعة شديدة ونوبة للهداة مبدية وللعداة مبيدة . واستشهد من المؤمنين رجال الى حمى الحمام عجال وعاد السلطان ولحزبنا القاهر قبول واقبال ولحرب الكفر الباير أوجال وأوجاع(٢) وكانت عودته من غزوة طبرية رابع شهر ربيع الأول ، وكان مخيم السلطان فى هذا الفوار وعاد اليه فى الغزو والفواز ، وطال مقامنا به وبلينا بأحبتنا بمكروه ، ولم نقدر على اجتيابه فان ماءه ثقيل وهواءه وبى وبيل وجوه عاقد وجواه واقد وعيونه أجون(٣) وما لساكنه سكون فالحيات أترابه أترابه والضفادع جارات ضيائه والاساور اساور احجاره والافاعى مشاجرات أشجاره ، فخفت على مزاجى من انحرافه ، وأشفقت على نشاطى من انصرافه وأنشأت رسالة وعرضتها على الاجل الفاضل فى تلك المنازل وسميتها برسالة الحيات من الرسايل وهى التى من ألفاظها : الملوك فى منزلة عيونها سخينة وقطافها ثخينة وفوارها فوار وانجادها أغوار وساكنها غير ساكن،

---

(١) فى الأصل : بنيان .
(٢) مراعاة السجع تقتضى أوجاع وأوجال .
(٣) فى الأصل وشجونه .

وقاطنها غير آمن وجدا جداولها علاقم ، وخبا جنادلها أراقم ، وحيـــاتها موحيات ونافثاتها نافذات ، تسعى ملتويات وتلتوى ساعيات كانما تـــرك الترك سهامها والقسى ، وألقت السحرة حبالها والعصى أو نبـــذت السرايا بالعراء السراء وقيدت الغزاة بأذاهم/(٢٠٧ أ) أساورها الاسراء ، ساعيات بالشر كالاقلام السعايات ، تاليات بألسنتها آيات النكايات ، كانما صاغت من سنابلها الخلاخل أو أراغت من لوازعها الفوايل أو رمت للمساوى مساويكها للنساك ، ووضعت للعصيان غضبها الفتاك أو حذفت للقارع وراء الغيض الفرسان وناورت فى المأزق على ايمان الشجعان المران ، ثقال الرعوس فانها قصب الفروس ، وهى حطب الخطب وخشب الاشب وخراعات المحن وتذافات الاحن وحذافات السفن وجاريات القدر وحادثات العبر ، من طوال كحراب الزنج وقصار كبيادق الشطرنج ، واوساط كاسواط العذاب ، سراع كأنامل الحساب ، وخاطفات كبارقات السحاب ، ومارقات النشـــاب ، مشجرات فى الأشجار كأنها أغصانها مستكنات فى الاحجار ، كأنها خباتها نواظر بعيون كالجمر أو كالشرار ، كوامن تحت الصخور كأنها أسرار قلوب الاشرار ان صعدت فى الصعاد فالاسنة، وان أشفقت فىاجهاد الجياد فالاعنة وان تعلقت بقوايمها فأشباه الاشباح ، أو قيود القيود كالرياح ، وان التفت على أذيابها فكالامطار، وان نشبت فىسبورها فكالأسبار منخضر كضفابيس الخضر وهم كفرايس الحضرة ، تخفف كصوائح الاصداغ أو كنافخ الصواغأو كباشق الاتراك أو كألوية الأفلاك وبتر كأيدى السارقين ، وسود كأعمـــال المجرمين ، توابل كأطماع المغيرين ، فواتك كأسياف المغيرين مخـــذولات كالأزمة فى الهرين بهامات كالكرين وقامات كاتساع الوضين ، تنســـاب كجداول البساتين وتنثنى كأغداق العراجين وتعدم فى دار الديموم كانمـــا تسبح وتعوم كالاساطين كان البطاح بها أجم وأوهاد بها اكم والرمال منها غروق ، وكالنبال لها مروق ولذوى الأودية منها أقلام ولرعوس الجبال منهـــا أعلام ، وكأنها مكاحل كحالنا الشريف وانبساطه ، وصفارته أشباه العهود وأهب النهود أو حنك الشهود أو سكك اليهود أو نكل ذوات النهود أو أذناب النمور وأعصاب الخيول وأنياب الفيول ، أو طوامير الكتاب أو مســامير الأبواب من كل غليظة متعطفة على دقيقة منوقة ، رشيقة كالخوص وأسهم الوتر على الحقيقة ومن كل رقشاء اذا استلخت من جلدها ، ألفت كم درع وأبقت حديد ذرع وسوداء كصحيفة المجرم كصفحة المتلوم ، قصـــــيرة مقصرة الأعمار ، دقيقة جليلة الاخطار ، رشيقة كسهم الراشـــق ، نحيلة

كجسم العاشق خفيفة كخفافة الباشق ومن كل صل شجاع كلص شجاع ومن كل اسود سالح وابتر نافح واشم شامخ واصم باذخ وأرقط كالوشى المنمنم كأنه رشا المائح أو قصبة الماسح أو صعدة الرامح ، أو كأنه سجل الحاصد أو مبضع القاصد ، أو كأنه مزمار الزاط أو زنار القبط ان استدارت فدرقه التارس ، وان استقامت فخشبة الحارس ومن كل أقرن كان فى رأسه سنابق سنانين أو فى حجاجه سراجين ، أسود تفرق بين المرء وحياته فهو غراب البين ، حنش فى أنفه خنس فى خيشومه فطس فى عنقه قعس ، ناظره نار أو دينار انقرب فثوار ، وان تلوى قصم سوار هامته مستديرة كالرحى وأنيابه عضل كالمدى مدرع بنظر عيناه من وراه قيتر ، أو كأنما النسيم عض وجه الغدير ، لسانه كذبالة الشمعة عند النضنضة وشدقاه كفكى عجوز عند المضمضة تكش كشيش البكر ، وينش نشيش القدر ، أهابه لاذ ونابه فولاز ، وعطفه مايل ، ووشاحه حايل ومنه خايل سمه قاتل فهذه حالة هذه الحلة فى هماما وهمومها وسمومها ، وهواؤها وبى وبيل، كل صحيح غير النسيم عليل بها نفقت سوق الاطباء وخفقت سوق(١) الاحباء وضعفت جسام الأجسام وتضاعفت أقسام الاسقام .

ذكر مكرمة للملك عز الدين فرخشاه

قال : ولما رحل السلطان من الفوار الى رأس الماء(٢) والأرض طيبة الهواء ارجه الارجاء والخيم قد نزلت بوادرها وانتظرت أوايلها ليصل بها أواخرها وأنا ساير فى موكبى صاير الى مصرى ، وقد نزل الملك معز الدين فى مقدمة السرادق السلطانى على مرج بهيج ، وروض أريج وعين تعرف بأم الدنانير وقد بسط عليها قدام مضاربه من البسط الموشاه الموشمة التخيير فلما أبصرنى قال : هذا العماد ساير وهو علينا عابر فنادى بى الى ناديه ووردت حلول واديه فوثب لى مكرما ورحب بى منعما وأجلسنى الى (٢٠٧ ب)/ جانبه معظما ، وقد أحضر عنده بطيخ اعدت بدوره أهله ، وأقامت صدوره على طلاوة ظاهرة وحلاوة باطنه أدله ، ومكث ساعة وأنا مجالسه ومحاوره ومؤانسه فقلت له : هل عرف المولى أن هذه العين تعرف بأم الدنانير

---

(١) هكذا فى الاصل ويرجح أن تكون قلوب .

(٢) ميدان فسيح للحرب فى حوران على بعد نحو عشرين ميلا من دمشق انظر : Damascus Chronical, p. 306.

ولا نظير لنضرة رياض دولتك فى هذه الروض النضير فاعتقده منى بطلب الدنانير تعريضا واخفاه فى نفسه الكريمة ، ثم تعجل رحيلنا صوب الشرق، ولما خيمنا على بعلبك عابرين خرج الينا صارم الدين خطلخ واليها وأخرج الى مائة دينار مصرية فى صرة وواصل أيدى بره بميرة من حنطة ودقيـــق وشعير ومن الاغنام والطيور كل كثير ، وناولنى كتابا من مخدومه معز الدين مضمونه تبريح لوايح الاشواق والتصريح بلواذع الفراق أننى ما نســيت عين الدنانير فسيرتها وعينت المحمدة وتخيرتها فكتبت فى جوابه ما أكرم من أتيت فى يدى وأقر ما قر من عان أبى الطبيب ولله در الجود البكر المولدى ولا سيما وبكر حمدى واسطا فألبثت وأطلت الرسالة بذكره وخلدت ذكرها كتخليد ذكره ثم تعجبت من تيقظه للمكارم وتحفظه من المكاره وما بينه للكرم غير الكريم التائه وجمعت فى مدحه وحمده نظما ونثرا بين المحكم والمتشابه.

ذكر مكرمة مشـــتركة

قال رحمه الله : كان السلطان بمصر زوج احدى خطاياه أمهـــــات أولاده لامير كبير من أكبر أمرائه ، وكانت عند السلطان فى موهبة متسعة ومرتبة مرتفعة ، وكانت لها فى الخزانة رواتب ممضاة ، ووظايف مجراة ولها نفقات وميرات ورسوم وكسوات فلما وصلنا الى الشام قال لى السلطان: فى بعض الايام اكتب الى مصر بقطع ما لفلانة من صلة ورواتب(١) متصلة فقلت له ما يستحسن ما نكارى ووافق ايثاره ايثارى وشكرنى على التنبيه شكر النبيه للنبيه وبقيت تلك النعمة مدة عمره عليها داره وتلك المسيرة بها بارة هذا على أنه لم يكن لى بها ولا بزوجها معرفة الى حسن المناب عنها داعية ولم تعها منى فى القضية اذن واعية ، ولا ذكرت هذا الاحســـان ولا عقدت به الامتنان وانما ذكرته الآن من المكارم السلطانية ومنايحه السنية.

ذكر العزم على قصد حلب وعبور الفرات

قال : ولما وصل الى الشام أظهر الى قصد حلب صدق الاعتزام وأنه لا بد له من استضافتها للامن من آفتها ، ولما عاد من غزوة طبرية وبيســان توجه على سمت بعلبك وخيم بالبقاع . وكان قد وعد اسطول مصر أن يتجهز الى بعض بلاد الساحل ليوافقه عليه ، ويسير بعساكره اليه فجاءه الخبر بأنه

---

(١) فى الأصل : وراتب وكذا يستقيم السياق .

وصل الى ساحل بيروت(١) فبادره السلطان بعسكره جريدة فلما وصل رأى أن أمر بيروت يطول ، وكان قد سبى الاسطول منها وسلب ، وظفر من غنيمتها بما طلب ، فأغار السلطان فى تلك البلاد وأتى فى تخريبها واحراقها بالمراد ورجع وأعاد الملك معز الدين(٢) الى دمشق ليقوم فى سد الثغور وتسديد الأمور بالنيابة .

وسرنا لقصد الشرق وجينا الى بعلبك وخيمنا بمرج عدوسة اياما ، وأحكمنا أسبابا ، وسببنا أحكاما ، ورحلنا على حمص على طريق الزراعة ونزلنا على العاصى مذعنين لله بالطاعة ورحل السلطان ووصل الى حماة وكانت حماةللملك المظفر تقيالدين عمر وهو معه فأمرهأنيرتبأمور ذلكالثغر ويتبعه فامتثل الأمر وما فارقه ونقل الامراء ورافقه وسار فلما قرب من حلب تردد عزمه فى المسير اليها والعبور عليها فما شعرنا الا برسول مظفرالدين كوكبورى بن على كوجك يشير بعبور الفرات وحضور تلك الولايات . ووصل مظفر الدين واجتمع بالسلطان وخلا به لخلابه واغرائه بالممالك وارغابهوقال له : أنا مواليك والمعالى فيك وصديق صديقك ومعادى معاديك ، وهذه البلاد لك وليس من النصح أن لا أدلك وأنا لديك وبين يديك ، فاذا ملكت تلك الممالك ، وسلكت تلك المسالك فحلب تبقى من ورائك وأنت بعد ذلك على ايثار عزمك ورأيك والا فحلب تشغلك عن الامور ومهماتها والجزيرة وولاياتها، ولك المحبة العامة والمهابة التامة فاذا عبرت الفرات سلم لك الأقاليمأقاليدها، وجمعت لك طاعات العباد صناديدها(٣) ، وما زلت شوقا اليك فى حران حران والى الرق من ورد خدمتك ظمآن ، وهى لك مبذولة وبأوليائك مأهولة. والرها لا تعتبر أمرها والرقة لرقك والخابور فى انتظار خبرك ، ودارا دارك ونصيبين/(٢٠٨ أ) نصيبك اذا ظهر استظهارك وملك الموصل يوصلك الى الملك وما هذا أوان الونا وهل يقدم أحد على عصيانك وأنا انا ثم عبر مظفر الدين الى بلدته عايدا وبنصرته واعدا وحليت صورة اجتهاده ، وتليت سورة(٤) أحماده ، ووصل البحر الى الفرات وتبدل بالغنى فقر المقفرات

---

(١) فى الأصل : غير منقوطة البـاء واليـاء .
(٢) عز الدين فرخشاه . وقد أطلق عليه لقب معز الدين بعد حربه مع الفرنج فى بيسان وانتصاره عليهم .
(٣) فى الأصل : عناديدها .
(٤) فى الأصل : صورة .

خيمنا على الفرات من غربى البيرة ، وارتاعت العدى من عدوى سطوتنا المبيرة ، ومد الجسر كما امتد على الطريق السطر . وكانت البيرة قد طمع فيها صاحب ماردين واستولى على مواضع من أعمالها فلما سمع بنا تخلى ابن الياس الارتقى وشرعنا فى تهيئة أسباب العبور وبدأنا بنقل الاثقال على السفن ليحصل من مخاطرة الزحام على الأمن ، وضرب كل منا خيمته بالجانب الشرقى يحول اليها رحله وامددنا من معاقل الأرض بعـــدة من الســـفن . والخلق كثير والجمع جم غفير فلما جزنا الفرات وجمعنا من الرجال والرحال الشتات وتسلمنا البيرة والعمق كاتبنا أصحاب الاطراف بالوفـــود للوفاق والتنحى عن مذهب الخلاف فانه من جاء مسلما وللامر مستسلما سلمت بلاده وصينت طرافه وتلاده على أنه يكون من أجناده لغزو(٥) الكفر وجهاده .

وعاد رسولنا من نور الدين محمد بن قرا ارسلان صاحب حصن كيفا يذكر أنه مذعن بالطاعة مؤذن بالتباعة واصل برجاله ورحاله وأشـــــياعه وأشياعه وطلب عند وفائه بالعهد وقيامه بحسن البلاء أن يعان على صاحب آمد فانه تجرد فى عداوته وكان العائد العامد فشكره السلطان وأجاب سؤاله وأصاب سؤله ورد اليه مع رسوله رسوله .

ثم رحلنا من البيرة والميرة مبرة ، وألطاف الله مستدرة وفى كل يوم قوم لهم فى بحرنا عوم وفى كل فجر فجر ولكل جمع جمر وعسكر وافـــد وعثير عاقد وبيارق تبرق وبوارق تخفق . ونزلنا بالرها واســـــتمر أياما حصرها . وفيها الأمير فخر الدين مسعود بن الزعفرانى فتنمر وتذمر وتربض وتصبر ثم رأى أنه لا طاقة فاستبدل(٦) من عبوسه الطلاقة وارسل الينـــا بتسليمها لسلامته ووفيناه حق كرامته ، وتسلمها مظفر الدين والى حران مضافة ووجد بهما فى رتبة العلاء أنا قد جئنا(٧) الى حران ظافرين ظاهرين قادرين قاهرين وسحب البأس بارقة راعدة، ومثارات القتام من تحت الصلاد فوق الصعاد صاعدة وأقمنا حتى أتممنا الشعار وأتممنا الاستشعار فرحلنا الى الرقة وتم الحصر والنزال وفيها الامير ابن حسان قطب الدين ينال فدارت

---

(٥) اضافة اللام هنا يقتضيها السياق .
(٦) فى الأصل : فاستدل .
(٧) فى الأصل : رجينا .

على قطبه الرحى ورأى من النازلين عليه جنح الدجى فى زاد الضحى ثم عرف أنه لا يطيق ومن مكر خطبه لا يفيق فبذل اذعانا وسأل أمانا وسلم وسلم وعصم المال والدم وخرج بنفايس أمواله بعد ترك ذخاير عدده وغلاله وفارق وما رافق ووفا لصاحبه وما وافق ورفقنا ريثما أصلحنا الفاسد ، ووفقنا الكاسد ولينا فى البلد من أهل الجلد من يفى بحفظ المطرف وصون المتلد. ولما أتممنا المصالح وأجملنا المناجح هززنا معاطف الزمان الى مشهد الرمان وأثنينا أعنة العراب الى عرابان(٨) وحين قربنا منها تلقانا قضاتها ورؤساؤها ورجالها ونساؤها وخيمنا على ظاهرها فرفعنا منهم الرءوس ووضعنا عنهم المكوس وضربنا على الضرايب وقللنا بنوب النوايب وتواصلت أخبار وصولنا الى الخابور وهبت فيه قبول اقبالنا أدبار الدبور وشاع العدل وذاع ورتبنا على قانون المعدلة الاوضاع وفتحت من عين رأسها عينها وأصلحت بالطاعة والتباعة بيننا وبينها . وقطعنا نهر الخابور على قنطرة التنين وأخذنا الطريق الى نصيبين يسرة ونصبنا بنصيبين خيامنا بعد ثلاث وسلكنا مسالك سهول وأوعاث ودخلنا المدينة وأنزلنا بها السكينة ، وجئنا الى القلعة وقد تحصنت وبمنعتها تحسنت وأشفقنا فى حصرها من سفك الدم وهتك الحرم ووكلنا من يمنع من الدخول والخروج وسلطنا الى اللجاج على واليها اللجوج فأرسل بعد برهة من الأيام فى الاسلام والاستسلام ، وتسلمناها بما فيها من أخاير الذخاير وعولنا فى تولى نصيبين على حسام الدين أبى الهيجاء السمين وكنا قد ولينا الخابور جمال الدين خوشترين . ولما توفر نصيبنا بنصيبين واختلينا من مشرق الظفر النصر المبين وكانت الحشود مجتمعة والوفود مزدحمة والعقود منتظمة والسعود ملتيمة وقطعنا أعمال بين النهرين وأزرنا الرعية زور الرعاية وأمرنا بالعدل والاحسان فى تلك الولاية ثم حزناها الى أعمال البقعة ووصلنا الى بلد وأشرفنا على دجلة وكنا أوردنا خيلنا فى أشهر من تلك السنة فى أسفارنا الحسنة / (٢٠٨ ب) نيل مصر والفرات ودجلة فأصغت الينا المسامع ومالت نحونا المطالع ، وتواصل الينا مقطعوا البلاد وترادفوا أمدادا بعد الامداد ومن ثم صممنا عزم الوصول الى الموصل وبشرنا الصوارى بقرب المنهل وأطرنا الاطراد برياحها الأربع وسرنا اليها بقصد المصيف والمربع وقربنا منها فى مراحل متقاربة وقد دمدمت

---

(٨) أوردها ياقوت عربان وهى بليدة بالخابور من أرض الجزيرة . معجم البلدان ٣ — ٦٣٢ .

بما اثارت الاسد عين القراة(٩) وبطشت من ليل العجاج بصفو النهار يـد الازالة وعادت تلك البرارى(١٠) من مراكز رماحنا بســـاتين ومن مراكض جيادنا ميادين والليوث معتقلات ثعابين ممتطيــات سراجين وكأنها رياض تخلوا بأيديها من القواضب رياحين قال : ولما قربنا من الوصول كبرنا تكبير من ظفر بالسؤال وتقدم السلطان فى الامراء ذوى الآراء ودار حول السور وعين لكل مقدم مقاما ولكل مقدم أقداما فنزل هـــو وراء البلد وتقى الدين من شرقيه بأهل الجلد وأخوه تاج الدين بورى عند باب العمادية ، وضايقنا الأسوار أشد المضايقة وصاحب الموصل حينئذ اتابك عز الدين مسعود بن مودود بن زنكى وتولى نايبه مجاهد الدين قايماز حفظ البلد بأحسن تدبير وتلقى كل ما قابله من العسر بوجه يسير . وكان قد كاتب الديوان العزيز للايعاز باعزازه واعانته على أعوازه وله موعد انجاح وانجاد عند الصاحب مجد الدين فتقاضى بانجازه .

ذكر وصول رسل دار الخلافة(١)

قال : ووصل الينا الخبر بأن رسل دار الخلافة المعظمة واصـــلون ، وفى أمر الموصل شافعون وهم شيخ الشيوخ وشهاب الدين بشير ومعهما من خواص الديوان العزيز جمع كثير فتلقاهم السلطان بالصــــدر الرحب والبشر العذبوالخطاب المتوجــه لصرف وجه(٢) الخطب وكنت الى جنب السلطان له مسايرا وفى المهام ناظرا ومناظرا والموكب مشهود والطـــــالع مسعود وشاع أن شيخ الشيوخ قد وصل فى الصلح واغلاق باب الفتـــح واطفاء الوقود واخفاء الحقود . ووصل مظفر الدين قزل أرســـلان حسن الجاندار واجتمعت رسل الآفاق داعين الى الوفاق فقال الذين لاذوا بنـــا من أهل البلاد من الأجناد الاتراك(٣) والاكراد هؤلاء غدا يصطلحون ونحن

---

(٩) فى الأصل : القراءة .
(١٠) فى الأصل : الرارى .

(١) برق ٥ ورقة ١١ أ ، ١١ ب يضيف : للشفاعة ورد المواصلة بالمصلحة فى المصالحة الى الطاعة .
(٢) فى الأصل : وجد والضبط من البرق ٥ ورقة ١١ ب .
(٣) فى الأصل : النزال والتصحيح من البرق ٥ ورقة ١١ ب .

نحظى بالاخفاق وحرمان الأرزاق ونبوء (بالشقاق والشقاء) (٤) وأخذوا امان البلد ودخلوا واعتذروا بأننا نشبنا ووافقهم جماعة من أصحابنا طمعوا فى الخلع وهذه من أيسر جنايات الطمع ونحن نصرع باب(٥) المصلحة والاستواء على المكافحة وترك قبول الشفاعة وافراغ المجهود فى شغل الحصر وبذل الاستطاعة وفى كل يوم تناوب القتال ونعاقب النزال ، والملك المظفر تقى الدين يحمل من جانبيه ويبلى ويجرى فى مضمار النضال وهو السابق المجلى وتاج الملوك أخو السلطان يبارز ويحاجز وجمرات اللظى(٦) تضطرم وغمرات الوغى تتتحم وشيخ الشيوخ ينهى وينكر ويقول أنا جئت فى التوسط والمانع من التورط وهذا الفعل الممقوت اذا غبت لا يفوت فان كان لى قبول فاصبروا حتى ارسل من اليوم الى القوم واتكفل فى متاع هذى المناعبة برفع السوم فقلنا له :

السمع والطاعة والحب والكرامة وما احسن مرادك اذا اردت التسلم والسلامة . وتحولنا الى جانب لا يبعد على الرسل طريقه وارسل شيخ الشيوخ اليهم صاحبه وذكر مطالبه فشرحوا يذهبون فى كل يوم رسلهم ويملأون بالمراسلات الخادعة سبلهم فخرج أول يوم جمال الدين محاسن مع اخ الشريف النتيب واستفتحا فيما عداهم بالتقريع والتأنيب وكان حضورهم فى خيمة شيخ الشيوخ فأنفذ الى السلطان من عرفه وصولهم واستدعى من ثقاته الذين يسمعون فصولهم فتقدم الى الأجل الفاضل والى والى الفقيه ضياء الدين عيسى الهكارى(٧) بأن نحضره ما يقولون ونحصى فأذهبوا ذلك اليوم بالشكاية ولم يواصلوا مبدأها الى الغاية ثم قالوا ندخل ونخرج غدا بالحديث المبين والاثر المعين وجاءوا ضحوة الغد وذكروا مطالب متكثرة ومآرب متعذرة واقترحوا اعادة البلاد المأخوذة وقصدوا بها تقليل الجدود الشحوذة وانا نعود الى الفرات ثم نتكلم بما يعود بجمع الشتات ومكثنا(٨) على هذا السنن قريبا من شهر ولا ننتهى الى أمر مستقر وشيخ الشيوخ ينسبنا الى أنا لا نؤثر الفضل فدخلنا فى كل ما أراده وانفصل

---

(٤) هذه العبارة وردت فى البرق ٥ ورقة ١٢ اب الشقا والشقاق ووردت الشقاوة والشقاق فى :

H.A R. Gibb, al-Barq al-Shami W.Z K.M. 1952, pp. 55 : 111.

(٥) فى الأصل : بابا .

(٦) فى الأصل : الظبى وكذا يستقيم السياق .

(٧) فى الأصل : الهلكارى . (٨) فى الأصل : ومكننا .

الأمر على أنهم يردون الينا حلب ونرد على صاحب الموصل كل ما طلب وكان قد عرف الأجل الفاضل فحوى مقالهم ودعوى /(٢٠٩ أ) مجالهم فانقطع بعد أيام عن الحضور وكنت أحضر والفقيه عيسى للسماع والانهاء والتحمل والاداء ثم انقطع الفقيه عنهم وتأنف منهم واستمر ترددي ولم أجذب عن المهم يدى فوجدوا بذلك مهلة وهم يستهدون الأملاك وينصبون الحبايل ويطلبون المقاتل والمخاتل ويظهرون الوفاق ويذهبون فى الشر الى الخلاف حتى استقر أن يدخل اليهم شيخ الشيوخ فى ابرام العقد المنسوخ فظن أن وردهم صفو وأن وعدهم من الخلاف خلو فمضى اليهم ورآهم(٩) متفرقين في طرف التلون والتلوم غير مجتمعين على سلوك النهج الأقوم وانكروا كل ما ذكره رسولهم وان سوى ما شاء سؤلهم وأن صلاح الدين ان أراد وفاقنا رد بلادنا ورحل عنا ونحن نخلى بينه وبين حلب ولا يطلب أيضا اسعادنا عليها فان لعماد الدين زنكى أخينا معنا يمينا فكيف يجد منا عليه معينا فان رضيتم بما سألنا والا فما سمع الناس وما قلنا .

وكان المقرر مع الرسل أنهم يسلمون الينا حلب ويستعيدون منا البلاد ويحضرون معنا الجهاد ثم ندموا على ما قدموا من التقرير وأخذوا فى غيره من التدبير فانصرف مغضبا وخرج الى بغداد متوجها وعلى نكر(١٠) مكرهم متنبها(١١) فجلوا اليه وتضرعوا وتشفعوا وقالوا : تعود وتعيد ما سمعته وتحلى من المعنى ما استملحته فلعلك ترد بلطفك ما صعب الى المنهج الأسهل ويأتى بالعل بعد النهل فرجع بغير مارجا واستكشف عندهم حجاب الحجى فلما اجتمع بالسلطان استعفى من الكلام واستوفى حديث ما سمعه وأبصره من الاقتسام فقال له : هذه أشهر شراف وقد عزمنا أن نرحل وتهب لوصولك الموصل وكان نزولنا عليها فى رجب ودخل شعبان وامتد الزمان .

---

(٩) فى الأصل : وراءهم .
(١٠) فى الأصل : مكر .
(١١) في الاصل : منتها والضبط من برق ٥ ورقة ١٦ ب .

ذكر الرحيل الى سنجار وفتحها(١)

قال : كان من بسنجار(٢) من عسكر الموصل مدة مقامنا عليها يقطع دوننا الطريق ويمنع السير فأمر السلطان ابن أخيه الملك المظفر تقى الدين عمر أن يمضى لحصر سنجار وقسر من جار فسار فى الأسد والغاب والجيش الغضاب فنهض فى بحوره وأمواجه وجموعه وأفواجه ، وخفقت كواسره ورعدت قساوره وترتبت ميمنة وميسرة ، وقلبا وجناحا عساكره وصبح بمنزلة بارنجان(٣) قريبا من سنجار عسكرا من الموصل اليها مجردا فأخذ خيلهم وعددهم وشتت عدوهم ووكل بهم من ردهم الى الموصل رجالة ونالوا من عثرتهم منه اقالة واحتبس عنده مقدمين محترمين مكرمين وكتب بخبرهم الينا وقال : قد وفينا بما علينا فاغتنموا استضافة سنجار فانها غنيمة وخير ما تصمم له عزيمة فرحلنا ومعنا رسل دار الخلافة ومطالع المطالب مؤذنة بالانابة والانافة ولاح سنا سنجار بعد ليال ونزلنا على عيونها ، وطرقتها الخيل طروق خيال واقتسمنا المنازل حواليها وولينا الوجوه اليها . وفيها شرف الدين أخو صاحب الموصل فاحتمى منها بالمعقل ، وكان معنا نور الدين بن قرا رسلان صاحب حصن كيفا فأنزلناه فى أنزه الرياض وأنضرها وأفرج البساتين وأعمرها فأذن نزولهم بنوازلها والحاق معالمها بمجاهلها فقطعوا أشجارا ووصلوا أشجانا ورموا جدرانا وخربوا عمرانا .

وأنهى الى السلطان اجتراء القوم واجتراحهم ومرامى فسادهم وكان المرام اصلاحهم فيغتم ويمتعض ويرتقى الى ذروة الاباء ويرتمض ويبعد ويمتنع ويوبخ ويقرع .

فصل من كتاب انشأته الى الديوان العزيز عن السلطان : وقد ترك الموصل فى العاجل اكراما للشفاعة والتزاما للتباعة واشتغل بسنجار لينظمها فى السلك ويضمها الى بلاده الداخلة فى منشور الولاية .

ومنه : ومن جملة نعم الله التى نحمده على اتمامها وصول المبشر من اليمن بفتح زبيد وان حطان ابق اباق العبيد وان الكلمة فيها قد اتحدت

---

(١) برق ٥ ورقة ١٦ يضيف : وحصارها وفتحها وسبب قصدها .
(٢) فى الأصل : سنجار . الاضافة من برق ٥ ورقة ١٦ ب .
(٣) قرية وبها خان وعين قريبة من سنجار . معجم البلدان ١ — ٤٦٥ .

والقلوب قد اتفقت . وكان الخادم قد جهز اليها جيشا من مصر لتمهيد أمرها واخراج من خرج بها منها فجرى الأمر على وفق المراد وانتظم فى سلك السداد .

ومن جملة البشاير الواصلة من مصر عود الاسطول المنصور نوبة ثانية اليها كاسرا كاسبا غانما غالبا بعد نكايته فى أهل الجزاير بالخساير(٤) وبعد اخراب ما وجده فيها من الاعمار والعماير ومن جملة ما ظفر به فى طريقه بطشة(٥) كبيرة من مراكب الفرنج تحمل أخشابا منجورة الى عكا ومعها نجارون ليبتنوا منها سوارى(٦) فأسر النجارون ومن معهم وهم نيف وسبعون وأما / (٢٠٩ ا) الاخشاب فقد انتفع بها المجاهدون وكفى شرها المؤمنون وللخادم عسكر فى المغرب قد بلغ اقصى افريقية فتوجه وعاود به بهاء الدين(٧) فى تلك البلاد روجه .

قال : ولما أنخنا على سنجار واستفتحنا الاستفتاح بالرسايل وقربنا من السور من يكلمهم فكلموه وأفهمناهم الرشد فما فهموه وناظروا بألسنة النصال ونظروا بأعين المصال فقدم المنجنيق وهدم النيق الوثيق وأغرينا النقابين برفع نقاب السور وهتك حجابه المستور . ودخل رمضان فقلنا شهر مبارك وبر متدارك ففترنا ونحن فى زى الارهاب وسكنا مظهرين التحرك للارعاب فطال عليهم الأمد وضاق بهم الجلد ، وتمادت المدد فسكنوا الى السكون وركنوا الى الركون فجاءنا ليلة من أخبرنا بأن الحراس نيام فندب اليهم منا انداب نجازهم ونجادهم وضبطوهم وربطوهم وانقضوا عليهم انقضاض البزاة(٩) على القنص(١٠) ، واغتنموا فى قبضتهم انتهاز الفرص ، وهم من المقدمين واعلام المعلمين فأصبح الذى بسنجار بادى الانكسار قد عرف العقبى واعترف بالعتبى واحسن فى التقاضى واقتضى الحسنى واجيبت دعوته ورعيت أذمته وسيرت اليه هدايا وتحف وعطايا

(٤) فى الأصل : الخزاير .
(٥) فى الأصل : بطنه .
(٦) كذا وقد وردت فى الأصل سذاء .
(٧) فى الأصل : شمس .
(٨) فى الأصل : كما الضبط من برق ٥ ورقة ٢٧ ا .
(٩) فى الأصل البراءة .
(١٠) فى الأصل : القبض .

وزلف لكونه من الأولاد الاتابكيه ، وشرف أصحابه وخرج عن العطاء الحساب حسابه وخرج من سنجار بكوسه وعلمه وحشره وحشمه وعبيده وخدمه وأخلى لنا المدينة فأسكناها السكينة ، وخرج الينا أعيانها وحسن بنا ظهورها وظهر احسانها أفراح رعاياها فرحين برعايتنا منتصفين من الليالى بأيامنا مستسعفين الاء انعامنا . وما أسرع ما أعدنا عمارتها واستجلينا بالمباهى مباهجها وأخلينا من المناهى مناهجها والفينا رياستها لصدورها بنى يعقوب فأتيناهم من كرامتهم سؤلهم المحبوب المخطوب . وعول السلطان فى تضائها على نظام الدين نصر بن المظفر فانه كان أعرفهم بحكم الشرع المطهر .

وكان(١١) الأمير سعد الدين أنر(١٢) مسعود أنار سعده وسار بالذكر الحسن مجده والسلطان يعتمد عليه فى اعلانه وأسراره وايراده واصداره واخته ابنة معين الدين أنر فى حيالته فلم يعتمد الا عليه ولم يسلم مدينة سنجار وقلعتها الا اليه وولاه وقدمه وحكم سيفه وقلمه وابقى عنده من خواصه من استحمد شيمه واسترفد فى النجح ديمه(١٣) . ولما قضينا بسنجار الآراب شاورنا الامراء فقالوا قد توسطنا الشتاء والصواب الاقامة بمكان حتى ينقضى فصله وحينئذ نستأنف الفتوح ونستزيد من الله بزيادة الشكر بره الممنوح فرحلنا الى نصيبين فأقمنا حتى ودعنا شيخ الشيوخ صدر الدين وشهاب الدين بشيرا وركبنا معه حتى توجه سايرا الى العراق وشكى أهل نصيبين ما هاج من نصبهم بأبى الهيجاء فاستملنا اليه بصرفه رحال الرجاء واستصحبنا المذكور معنا ورحلنا الى دارا وتلقانا أميرها صمصام الدين بهرام الارتقى فأكرمناه واحترمناه وارفدناه وأفدناه ووصلنا الى حران(١٤) فى أوايل ذى القعدة والقينا بها الحران . وسار الملك تقى الدين بعسكره وعبر الفرات الى حماه وعاد كل متغرب من بلده الى مثواه

---

(١١) البرق ٥ ورقة ٣٠ ب يضيف العنوان التالى : ذكر تولية الأمير سعد الدين مسعود بن أنرقى سنجار .

(١٢) فى الأصل : أبر .

(١٣) برق ٥ ورقة ٣١ أ يضيف : ذكر الرحيل صوب نصيبين وانفصال شيخ الشيوخ صدر الدين وكان ذلك فى شهر رمضان سنة ثمان وسبعين .

(١٤) يضيف البرق ٥ ورقة ٣٢ ب : فصل من الكتاب الذى انشأته اليه بتاريخ خامس عشر ذى القعدة سنة ثمان وسبعين من حران .

وأقمنا بالمخيم بظاهر حران فى الخواص من ذوى الاستخلاص فى أحلى حالة وأجلى جلالة وقلنا أن الدهر قد أطمأن والأمر قد أرجحن ، وأهل الموصل مع من وازرهم فى حشد وحشر وطى ونشر واظها أيد واضمار(١٥) كيد وقد اغتنموا لتفرق جموعنا الجموع واعتزموا الينا لرجوعنا الرجوع ونحن مع قلتنا ثابتون وفى حلتنا نابتون وهم يعتقدون انا اذا سمعنا بجمعهم نتفرق واننا نتأخر ولا نتقدم وعلى ما فرطنا فى حقهم نتندم فاستحال تخيلهم واختل تحيلهم على ما سيأتى ان شاء(١٦) الله تعالى .

ذكر وفاة الملك المنصور معز الدين فرخشاه بدمشق فى جمادى الاولى سنة ثمان وسبعين

قال : وبعد انفصالنا عنه بالشام لازم الجهاد بجد الاجتهاد وصدق الاعتزام فوعك فى نهضة من نهضاته وأعضلت خلاف ما اعتاد من أعضائه، ونهك بمرضة(١٧) اشتدت عليه فعاد الى دمشق منيبا الى الله فى طلب مرضاته وانتقل من حومة الشهادة الى حمى السعادة ومن غار الاغترار الى مقر الاستقرار ومن الرتبة الى التربة ومن الوطن الى الغربة فتبا للدهر ما تبقى بناته على بنيه ولا يلى بكبواته بالسوء سوى مواليه . لقد فجعت الدين والدولة به ملكا هماما ماجدا ماجد فى الامر الا بلغ وغلب ولا سعى لنجح الا ظفر بما طلب ولم يزل المستشار المؤتمن والمستجار المتمكن وكان السلطان/ (٢١٠ أ) يقطع برأيه ويصل ويكلأ الثغور اليه ويكل . قال : رآنى يوما بين يدى السلطان وهو يأمرنى بفصول أكتبها ومقاصد فى مجاوبات مكاتبات أرتبها وأنا ساكت مصغ وساكن غير لاغ ولا ملغ فعجب منى فى السكوت والسكون واطراقى(١٨) وترك استفهامى عن طرق تلك الفنون فلعبت به مرجمات الظنون فقمت وكتبت الكتاب ونظمت تلك الآراب وكسوت كل معنى لفظ الفضل وختمت كل قضية بنص الفصل وزدت وزنت وعبرت بحصا الحصافة ما وزنت وجئت بالكتاب مسطورا وبالأدب منثورا فاقرأه معز الدين فرخشاه فقال لله درك من فضلاء الكتاب وتلا « وترى الجبال

---

(١٥) فى الأصل : اظمار . (١٦) فى الأصل : انشاء .

(١٧) فى الاصل : بمرض . قارن برق ٥ ورقة ٣٧ أ .

(١٨) فى الاصل : واطرانى .

تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب »(١٩) ولقد كان له فى عقودى اعتقاد ولأمورى افتقاد وهو من أهل الفضل ويفضل على أهله ويغنى الكرام عن الابتذال بكرم بذله وكان من أخص خواصه وذوى استصفائه واستخلاصه الصدر الكبير العالم تاج الدين أبو اليمن الكندى أوحد عصره ونسيج وحده وقريع دهره ، وهو علامة زمانه وحسان احسانه ووزير دسته ومشير وقته ورفيق درسه وشعاع شمسه يروى بصوب رواثه صواب آرائه . قال : وكانت منايح عز الدين بواعث القرايح ودواعى المدايح ولى فيه قصايد منها كلمة هائية موسومة مدحته بها فى أول سنة صحبت فيها السلطان الى مصر وهى سنة اثنتين وسبعين وعارضها تاج الدين أبواليمن بكلمة بديعة فى وزنها ورويها فأما كلمتى فهى :

بين أمر حلاوة العيش الشهى	وهوى أحال طلاوة الزمن البهى(٢٠)
وصبابة لا أستقل بشرحها عن	حصرها حصر البليغ المدره
أما عقود مدامعى فلقد وهت	وأبت عقود الود منى أن تهى

ومنها فى المدح :

أنتم بنى أيوب أكرم عصبة	هذا الزمان بفضل سؤددكم زهى
ان الملوك تخلفوا وسبقتم ابن	السوام من العتاق الفره (٢١)
أن يجحد الشانى علاك فهل	ترى اشراق عين الشمس عين الاكمه
بك أصبحت راياته منصورة	ياسيدا عنت الوجوه لوجهه

---

(١٩) سورة النمل ، آية رقم ٨٨ .

(٢٠) قصيدة طويلة تقع فى الاوراق ٣٨ ب : ٤٠ ب اختار منها البندارى هذه الأبيات . وهى واردة فى الخريدة كما يقول العماد فى ورقة ٤٠ ب .

(٢١) هذا البيت ورد فى البرق ٥ كالتالى :
ان يحجد السابى علاك فما ترى اشراق عين الشمس عين الاكمة
قارن برق ٥ ورقة ٣٩ ب .

وأما الكلمة التاجيه(١) فهى التى اولهـــا

هل انت راحم عبـــرة وتوله ومجير صب عنـــد مأمنه دهى
من بل من داء الغـــرام فاننى مذ حل من مرض الهوى لم انقه
يامفـــردا بالحسن انك منتـــه فيه كما أنا فى الصبابة منتـــه
قـــد لام فيك معـــــاشرا فانتهى باللوم عن حب الحيوه وأنت هى
كم آهة لى فى هواه وانه لو كان ينفعنى عليـــــــــه تأوهى
ومآرب فى وصـــله لو انها تقضى لكانت عنـــد مبسمه الشـــهى(٢)

ومنهافى المدح :

فليحجج العليـــــاء منه مجـــرب يوم الجلاد وفى الجدال بمـــدره
متنبـــه للمـــكرمات ولـــم يكن يوما ينـــــام فيبتدى يتنبـــه
انى على شرف القريض لهـــاجر للنظم هجـــرة آنف متنـــزه
اضحى وأهلوه كمهـــــد وحيهم فى جهل قيمة ذى الحجى والاوره
كل المميز سامعا ومنشـــــدا فى النـــاس بين مفهـــه ومفـــوه

(٢١٠ ب)/ ذكر نصرة الاسطول المتوجه الى بحر قلـــزم وكانت فى شوال سنة ثمان وسبعين والمقدم فيه الحاجب حسام الدين لؤلؤ(٣)

قال : لما صعب على الابرنس (٤) صاحب الكرك ما توالى(٥) عليه من نكاية أصحابنا المقيمين بقلعة ايله وهى فى وسط البحر لا سبيل اليهـــا(٦) لأهل الكفر افكر فى أسباب احتياله ، وفتح أبواب اغتياله فبنى له ســـفنا ونقل أجسامها على الجمال الى الساحل ثم ركب منها مراكب وشحنهـــا بالرجال والآلات ووقف منهـــا مركبين على جزيرة القلعة يمنع أهلهـــا من استسقاء الماء ومضى الباقون فى مراكب نحو عيذاب فقطعوا طريق التجار

---

(١) نسبة الى تاج الدين أبى اليمن .
(٢) قصيدة طويلة تقع فى الأوراق من ٤٠ ب الى ٤٢ ب .

(٣) قارن برق ٥ رقة رقم ٤٢ ب . حيث يضيف لطلب الفرنج السالكين بحر الحجـــاز .
(٤) فى الأصل : الارض .
(٥) كذا وفى الأصل : تولى .
(٦) فى الأصل : عليها .

وشرعوا فى الفتك والنهب والاسار ثم توجهوا الى أرض الحجاز فتعذر على الناس وجه الاحتراز فانه لم يعهد فى ذلك البحر طروق الكفار فعظم البلاء وأعضل الداء وأشرف أهل المدينة النبوية على خطر ، ووصل الخبر الى مصر والملك العادل متوليها ورافع أعلام الاسلام ومعليها فأفكر فيمن يسلك الى القوم فى البحر ويفتك بأهل الكفر ووقع على السهم المختـــار والليث المغوار(٦) الحاجب حسام الدين لؤلؤ ، فعمر فى بحر القلزم مراكب وملأهـا بالرجال البحرية ذوى التجربة والتحرية من أهل النخوة للدين والحمية وسار الى ايله فظفر بالمركب الفرنجى عندها فحرق السفينة وأسر جندها ثم عدى بأهلها الى عيذاب وشاهد بأهلها العذاب ، ودل على مراكب العدو فتبعها وظفر بها بعد أيام فأوقع بها وأوقعها فخرجت الى بعض ســواحل البرية بشعابها مجتمعة فى تلالها مرتقيه ولم يزل الحاجب لؤلؤ ناكب مراكبهـا وراكب مناكبها حتى أزالها وهجم على كثرتها فاســتقلها ، فما اســتقرت وفرت وتفرقت وما بدا بالسفن فأطلق المأسورين من التجــار ورد عليهم كل ما أخذ منهم من المتاع والدرهم والدينار .. ثم صعد الى البر فوجـد أعرابا قد نزلوا منه شعابا فركب خيلهم وراء الهاربين فحصرهم فى شـعب لا ماء فيه والجاهم بالاظماء حتى استكانوا واستهانوا واستأمنوا واستسلموا فأسرهم بأسرهم وكان ذلك فى أشهر الحج فساق منهم أسرى الى منى كما يساق الهدى ، وعاد الى القاهرة ومعه الأسر والسبى ، وقد بذل وسـع النجح ونجح السعى وجاءت البشرى بما من الله تعالى به من النصر فكتب السلطان اليه بضرب رقابهم وقطع أسبابهم بحيث لا يبقى منهم عين تطرف ولا أحد يعلم طريق ذلك أو يعرف .

ذكر تولية الأمير شمس الدين بن المقدم بعد الملك معز الدين فرخشــاه

قال : لمـا وصل الينا بوفاة معز الدين النعى فتر منا الى البـلاد الشرقية السعى وكنا عبرنا الفرات على قصـد الرها وقد دنا منا دارها ودرها . فتقدم السلطان الى شمس الدين بن المقدم بالعود الى دمشق أخذا بالأحوط الأحزم وهو أكبر الأمراء المقدمين ، وأكرم الأكابر المكرمين ، وهو

---

(٦) فى الاصل : الغوار والضبط من البرق ٥ ورقة رقم ٤٣ ب .

القرم الدى لا يوجد قريعة . والقرن الذى الذى لا يستقل فى الوغى صريعه وأمرنى بانشاء منشوره وتحكيمه(١) فى أحكام أوامره وأموره .

ذكر مكرمة لمظفر الدين كوكبورى(٢)

قال : لما وصل السلطان حران عند عبوره الفرات وبعد تسلم الرها أبلغ فى اكرام مظفر الدين المنتهى المشتهى وقام المذكور بما وجب عليه من حق الخدمة وشكر النعمة واحتفل بنزولنا على بلده وسخا لنا بسبده ولبده ومن غرايب رغايبه أنه نفذ الى صاحبه بألطافه وانه يعتذر عن المقدر المنقود بوعد أضعافه ويقول(٣) ههنا بحران قرية من قراها وقد جعلت برسم وفادتك قراها ولم تزل هذه الضيعة المسماة ضرعا(٤) باسم كاتب الموصل وأنت أولى بها فأنت يمين الدولة وأجل كتابها ، واستأذن السلطان فى كتبها الى ملكية شرعية معقودة مرعية فأشهدت عليه وعلى السلطان باجازتها وتفردت بحيازتها عشر سنين الى آخر العهد السلطانى سقاه الله العهاد .

قال : وفى هذه السنة انعم السلطان على نور الدين بن قرار ارسلان بأعمال الهيثم ثم سلمها اليه دون أعمالها تحلة ليمينه ووفاء بوعده لكرمه ودينه ، ولما جاء لمساعدتنا فى هذا العام خصه عاجلا بهذا الانعام ثم وهب له قلعة الجديدة وهى من نصيبين (٢١١ أ) / قريبة ولاستصراخ من يدعو أمنها مجيبه ووعده بفتح آمد له وأن ينجح بتسليمها اليه أمله فقد كان أبوه فخر الدين قرار ارسلان درج على حسره آمد وكان الرئيس على بن نيسان مرتبا لحصافتها ومزينا لحصانتها ، ولم يزل منها الابلق(٥) الفرد(٦) راكبا ولكل من يقاربه فيها مجانبا ، وكان يضرب بأحكامها المثل ، وفى تيسير فتحها يحقق

---

(١) فى الأصل : تحكيمهم والضبط من البرق ٥ ورقة رقم ٤٦ ب .

(٢) ورد فى الأصل بعد هذا العنوان العبارة التالية :
(ذكر تولية الأمير شمس الدين بن المقدم بعد الملك معز الدين فرخشاه صاحب حران) وهذه العبارة زائدة وليس لها علاقة بما جاء بعدها . ولا توجد أيضا فى البرق ٥ .

(٣) فى الأصل : وهو والضبط من البرق ٥ ورقة ٤٨ أ .

(٤) انظر معجم البلدان ٣ — ٤٦٩ .

(٥) فى الأصل : للابلق .

(٦) فى الأصل : للفرد .

الأمل ، وابن نيسان متغور فى كهفه(٧) متكهف فى غاره ، آمن من النوازل والدواير بمنزله وداره ، وكان لآمد أمير قديم يقال له ايكلدى(٨) من أيام السلاطين القدماء ، وولده محمود شيخ كبير عنده يطعمه ويسقيه ويدعى أنه من غلمانه ومصطنعيه وانه يحفظ البلد له ولا يغدر به ولا يؤثر بدله واذا جاء رسول يحضره عند أميره ، ويسند ما يديره الى تدبيره ، ويقول : انه غلام وما معه كلام ولا عليه فيما يجرى ملام .

وكنت عبرت فى سنة خمس وستين بآمد ، وقد سيرنى الملك العادل نور الدين رحمه الله(٩) فى مهم ، ودفع ملم ، واتفق نزولى بظاهر آمد بكرة جمعة وحسبت صلاتها على غير ممتنعه فقيل لى تحتاج الى استيذان الرئيس وذلك محتاج الى مقدمات ونتائج ومواصلات ووشايج فقلت : هذا عذر وقد ضاق الوقت ثم تقدمت الى غلمانى بابتياع ما لابد منه للطريق من الطعام والعليق فقيل هذا أيضا مشروط باذن الرئيس فأسرعت الرحيل ازالة للكربة بالتنفيس فقدر الله بعد سنين فى الدولة الصلاحية اننى دخلتها بالسيف وحللتها حلول المالك لا الضيف ، وانما شرحت هذه الحال استدلالا بها على حزم ابن نيسان . قال : وتوفى وتولى مكانه ابنه مسعود على رسم أبيه وجرى على عادة ثابتة ولم يخطر ببال أحد من الملوك الطمع فيه حتى جاءت الأيام الصلاحية ، وصار ابن قرار أرسلان من أشياعها وتدين باتباعها ، وأطعمته فى اقتناص ابكار الفتوح وافتراعها وعرفته أن أمد آمد لا يبعد وأنه عن القيام بمساعدته فيها لا يقعد ، وحلف السلطان له على هذا الوعد ، وانه يحقق فى حقه صدق القصد .

قال : وكان جمال الدين عيسى صاحب السويداء(١٠) مسايرا لى فى طريق ومذاكرا فى جليل ودقيق ، وفى جملة ما قاله هذا سلطانكم يحلف على المستحيل فان فتح آمد ممتنع الدليل فقلت له : سعادته من الله تذلل المصاعب ، وتسهل المطالب . ولما خيمنا بحران بعد العود من الموصل تقاضى ابن قرار أرسلان بانجاز عدته فأذن فى تفرق العسكر للاستراحة

---

(٧) فى الأصل : كهف الضبط من البرق — ورقة ٤٩ أ .
(٨) فى الأصل : ايلدده .
(٩) برق ٥ ورقة ٤٩ ب يضيف الى خلاط .
(١٠) فى الأصل : التعويدا الضبط من برق ٥ ورقة ٥٠ أ .

ووعده بتحقيق الوعد عند العود استمر على هذا العهد الى أن وصل الخبر باجتماع شاه أرمن صاحب خلاط ، وأنه اتصل به صاحب الموصـــل عند ماردين(١١) وانهم خرجوا على نية أن يكونوا لنا طاردين ماردين .

ذكر السبب فى ذلك

قال : كان عند نزولنا على الموصـــل وصلت رسل شاه أرمن فيهـــا شافعين ولأسباب الحرب رافعين ثم استتب الرحيل عنها اظهارا لقبـــول الشفاعة الامامية واعلانا بسر(١٢) الطاعة الناصرية . ونزلنا على ســـنجار ووصل سيف الدين بكتمر وهو أعز أصحاب شاه أرمن وبذل للســـلطان فى الشفاعة فى سنجار كل ما أمكن فاشترطنا شرايط ما قبلها فنفر سيف الدين وسار مغيظا وأبدى خلقا خشنا ، وقال قولا غليظا ، ولم يقبل خلعه ولا نفقه ومضى الى صاحبه ونحاه ونقله عما توقاه الى ما توخاه ، وشاه أرمن ظهير الدين سكمان هو خال صاحب ماردين قطب الدين ايلغـــازى بن ألبى بن تمرتاش وهذا ابن(١٣) خال صاحب الموصل عز الدين مسعود بن مودود بن زنكى وكتب اليه واستدعاه وخرج واجتمع به وأتاه الياروقية وغيرهم من عسكر حلب ونزلوا من ماردين الى ضيعة يقال لها حرزم(١٤) وموج قصدهم يرزم . وجاءنا خبرهم فلم يندبه أكتراثا ولم يظهر لصحته التياثا ، وكتبنا الى أمرائنا الغائبين فبادر الملك المظفر تقى الدين من حماه الى حران فى خمسة أيام ووافانا بجد اهتمام وصدق اعتزام وقال : قوموا بنا الى القوم فلا قعود بعد اليوم فقلنا أنهم فى كثرة ولا بأس بالاحتراز من عثرة وهو العشر المبارك من ذى الحجة والنصر مع الصبر واضح المحجة (٢١١ ب)/ فأبى الا الرحيل موافقة لرأى السلطان ومتابعة لأمره ومشايعة لسرور سره . وأقمنا حتى صلينا العيد ، واستقبلنا الطالع السعيد ، وقدمنا الازماع وأجلنا الاتساع وسرنا بالأسود فى غابها ، والبروق فى سحابها ، وقدمنا من الرعب جيشا ، وأبدينا من الحلم طيشا وعلونا الجدد بعزايم صحيحة غيرعليلة ، وتلونا كم

---

(١١) فى الأصل : مادين .

(١٢) ساقطة فى الأصل الضبط من برق ٥ ورقة ٥٠ ب .

(١٣) فى الاصل : ساقطة الضبط من البرق ٥ ورقة رقم ٥٠ ب .

(١٤) حرزم اسم بليدة فى واد ذات نهر جار وبســـاتين بين مادرين ودنيسر من أعمال الجديدة وأكثر أهلهـــا أرمن نصـــــارى ، معجم البلدان ٢ — ٢٣٩ .

من فئة قليلة(١٥) ، ونزلنا برأس عين فطار الخبر الى القوم فطاروا شعاعا وتفرقوا ولم تدر لما در من شموسهم شعاعا وذلك يوم عرفة فتركوا الوقوف ، وعزموا المزوف ونفروا قبل يوم النفر ، ونحروا أضاحى جلدهم قبل النحر ، وعاد الخلاطى الى خلاط باختلاطه ، ورجع الموصلى الى الموصل بمواصلة احتياطه ، واعتصم الماردينى بحصنه المارد(١٦) ، وهتكوا حرز حرزم للصادر والوارد ، وهاب عسكر حلب العود اليها ، ونحن على طريقه فأذن جمعه بتفريقه ، ومضى معظمهم الى الموصل فعبر الفرات عند عانة(١٧) ولم يجدها اعانة الاعانة ونسفتهم ريحنا وهم جبال وذهبوا بقلوب النساء وجاءوا وهم رجال ووصل الينا خبرهم ونحن للقصد سايرون ولجناح(١٨) النجاح مطايرون ، وأكملنا المسير ، وقلنا هذا أخلى المشاه وقعته ببيارقه وأفراسه ورخاخه وخاف وقوعه فى الشرك قبل نصب فخاخه ، واستصرخ صاحب الموصل به فلم يظفر باصراخه ، ولم يصغ الى نصايح أشياخه فان مجاهد الدين قايماز ما يزال يشير بالثبات ويحذره مخاوف الزلات ومواقف العثرات ، وعرف بنور فراسته عاقبه الحال ومغبة الاستعجال . ولما نزلنا فى منزلة القوم لم نسمع لهم خبرا ، ولم نعاين لهم أثرا وهناك بحرزم لصاحب ماردين قصر مشيد على حسنه مزيد وقد زوقه(١٩) وصوره وحاله جنة (تجرى من تحتها الأنهار)(٢٠) ويترنم من فوقها الأطيار ، وتترنح من حولها الأشجار فأبقينا بأسه الأثير الأثيل وأشفقنا بنيته الكثيف الاثيب ، وعصمنا عمارته من التشميث ، وأقام فيه تاج الملوك أخو السلطان برسم التنزه ووكل بحفظه عين(٢١) التنبه .

---

(١٥) سورة البقرة ، آية رقم ٢٤٩ .

(١٦) فى الأصل : الماردين .

(١٧) بلد مشهور بين الرقة وهيت يعد من أعمال الجزيرة ، معجم البلدان ٣ — ٥٩٤ .

(١٨) فى الأصل : يحتاج .

(١٩) فى الأصل : زوره .

(٢٠) سورة النساء آيات ١٣ ، ٥٧ ، ١٢٢ . وسورة المائدة ١٢ ، ٨٥ ، ١١٩ (جنات تجرى من تحتها الأنهار) .

(٢١) فى الأصل : عن والتصحيح من البرق ٥ ورقة ٥٣ أ .

ذكر المسير الى آمد وفتحها وكان النزول عليها يوم الاربعاء سابع عشر ذى الحجة وفتحها يوم الأحد

قال : ولما أحمدنا المقاصد وقصدنا المحامد واغتنمنا أمد القرب من آمد وقلنا ننجز(١) لنور الدين المواعد ، وكنا لما رجعنا من الموصل كتبنا نطلب الاذن فى قصد آمد بتقليد أمامى نجعله أمامنا ونتخذه أمامنا فوصل التقليد بملكها والاذن بفتحها فقوى العزم وتحقق بالصدق القصد الجزم وما زالت قلوب أهلها صادرة(٢) الى وردنا ، وألسنتهم صادحة بحمدنا متصدينا لها لنعتقها من الرق النيسانى ، ونوثقها بالحق السلطانى . وأعدنا الى الشام من أكابر أمرائنا من يسد الثغور ويسدد الأمور ، وتوجهنا فى أيام التشريق وتأييد الله معنا فى الطريق وجزنا على قلعة البارعية فتلقانا بالبر البار الرعية وما اعترضنا بلدا ، و لاعارضنا أحدا ونزلنا على آمد فنصبت المنجنيقات ، وكان معنا منجنيق يقال له المفتش لان حجره يدور فى الزوايا بدواير المنايا ويشوش وشرعنا فى أدوات الحصر وحصر أدواته واشتغل الجمع واشتعل الجمر ، ووقع الحجر على البلد الحجر .

قال : ودخلت سنة تسع وسبعين وخمسمائة

والعسكر السلطانى للنصر فى حصر آمد آمل والشمل جامع والجمع شامل فصبحناهم بالسلاليم وطمعنا منهم فى التسلى من البلد بالتسليم ، وصعد فيها الرجال وحالت فى قلوب الخصوم الأوجال ، وملك أصحابنا بين السورين قطعه من الفصيل وتعمدوا عقد بنائها بالتحليل ، وتطرقوا فيهما فاذا هى مسدودة السبيل فشرعوا فى النقب وابن نيسان فى البلد قد جمع الرجال وفرق الأحوال ، وحرض الكماه وحض الكماه وانهض الحماه وظن أننا نكل ونمل وكلما(٣) شددنا العقد ينحل فألفوا كل يوم جدنا حديدا ووجدوا من بأسنا عليهم مزيدا ، وكتب فى اعداد من النشاب فصولا للارغاب والارهاب نعدهم تارة ونتوعدهم ونهديهم مرة ونهددهم ففترت عنه مساعدة الاستطالة وشرعوا معه فى الاستقالة فبدا له وجد الخذلان وخيانة الاخوان

---

(١) فى الأصل : ننجزها والهاء زائدة . وهذا وفقا للبرق ٥ ورقة ٥٣ ب .
(٢) فى الأصل : صادية .
(٣) فى الأصل : ساقطة وكذا يستقيم السياق .

أهل المدينة وحصلوا منا على الوثوق والسكينة (٢١٢ ا) / وقد كانوا تضجروا بولاية ابن نيسان ، وعدموا العدل وألفوا العدوان فتقاعدوا عن الاستطالة وشرعوا معه فى الاستقالة فبدا له وجد الخذلان وخيانة الاخوان وخطاب الخطوب وحدث الحدثان . فعرف أن سلامته فى السلم فأرسل فى الاستعطاف والاستبسعاف قبل طلب الأمان وأصبحنا بعض الأيام ومواضع النقب نخشى عليها من الانهدام ، والعمل منته الى التمام اذ خرج نسوة من المدينة ذوات جاه وقدر قد أخرجن فأخرجن من أعز خدر لا عهد لاقمارهن بالتبرج من البروج ولم يحوجهن الا صرف الزمان الجافى الى الخروج فارتدين على الاضراب برداء الأضرار وطلعن سحرة طلوع كواكب الأسحار معتمرات الى حرم الكرم الفاضلى معتفيات نصرة العفو الناصرى مستشفعات بشفيع كريم لا ترد شفاعته بل تراد لطاعة الله طاعته فآواهن الى فناء خيمته وعرف السلطان أن القصد لحرم حرمته وان المعتصمات بعزة عزه وعصمته وانهن نسوة الأمير والرئيس يسألن(٤) ما خربهن بالتنفيس فأكرمن واحترمن وشفعن وشفعن فيما له شفعن وأعطين الأمان على أنهم ان قاموا توفرت عليهم الأملاك والأموال وان تحولوا سهل عليهم الانتقال ولم يسألن فى البلد لعلمهن أنه لا يخلى وانما سألن الا تسلم المدينة الى أن يفرغ من نفايس اعلاقهم وتخلى فاعطين الأمان على أنهم يخرجون بكل ما يقدرون عليه مدة ثلاثة أيام بلياليهن وأنا نعينهم بدوابنا وأصحابنا على اخراج جميع ما لهم فيها وعدن بما وعدن وما سعدن كيف ما أسعدن وأن قربن ابعدن وان شفعن فى استتبات أمورهن فقد رجعن بخراب معمورهن وهذه عادة الليالى العادية ، وقضية الأقدار القاضية فى ارخاء الطول وانقضاء الدول وايقاظ النواظر بشوك اقذايها وايقاذ النوظر بشوك أذوائها .

قال : ولما استقر تسليم المدينة بعد ثلاثة أيام تقدم السلطان برد النساء باكرام واحترام فنفذ ابن نيسان يخبر بأن غلمانه خرجوا عن طاعته وأنه لا يقدر على نقل ما له ان وكل الى مجرد استطاعته فندب له من خواصه من يراعى باعانته أحواله ودواب من اسطبلاته تنقل أمواله ونزل فى غير منزل وضربت له خيمة بمعزل فشرع بنقل درهمه وديناره ويحول اليها من كلا الجنسين أوقاره ويعجل منها ما خف حمله وخيف عليه اذا لم يعجل نقله ، ونقل المصوغات النضارية والفضية والمنسوجات الذهبية والجواهر والفرايد

---

(٤) فى الأصل : يساكن .

والعقود والقلايد ولم يقدر فى المدة المضروبة الا على تحويل الأمتعة الكريمة المحبوبة ، وكم نشبت الطوارق فى طرقه بنشبه وكم ذهبت أعوانه فى مذاهبه بذهبه ، وكان من أصحابنا جماعة ندبوا لاعانته فاستغنوا بما أصابوه وذكر أنه كان يحمل من داره عشرة أحمال بأثقال الأموال فربما وصلت اليه من تلك العشرة ثمانية فيسأل عن الباقى فيقال دوابها وافية وهى فى الوصول متدانية ، وما تزال تدخل جملة فى جملة وقد عبثت بها أيد جانية وهو لما به من روع وكره بغير طوع يحصر لدى التكلم ويقصر عن التظلم فلما انقضى الأجل خامره الوجلواعترف بأنه عن نقل ذخايره عاجز وان غدر الزمان بينه وبين ما غادره حاجز فتركها من غير أن فركها وفاته دركها وما أدركها ولو استزداد مهلة لاستفاد نيله لكنه هاب وارتاع وارتاب وفى مظنة الرجاء خاب وعلى مطية التجاء نجا وغاب ولو رشد لنشد ضالته فى ظل السلطان وأوى احسابه الى مأوى الاحسان لكنه بعد فبعد ولو أسعده لسعد .

ذكر تسليم مدينة آمد الى نور الدين محمد بن قرار ارسلان

قال : ولما انقضت مدة الأمان فتحت لأولياء الله أبواب الجنان ، وذكرنا ان النزول على آمد فى سابع عشر ذى الحجة وكان الاشتغال بالقتال باقى السنة فما استهلت السنة الا وقد سفرت الحسنة ونطقت بالبشاير الألسنة، وقيل للسلطان هذه آمد فيها ذخاير تربى على ألف ألف دينار ، وما دخلت عند الوعد بآمد فى شرط ولا قرار فاقض بها المهام وخص وعم بها الخواص والعوام ، وابن قرار ارسلان يقنع بآمد فارغة ويعدها حجة بالغة ونعمة سابغة فقال : نور الدين صار من أشياعنا فلا نضن عليه بهذه الأشياء ولا يظن بجحود هذه النعماء وهبنا وهبنا له الأصل مع الضفة بالفرع فما يليق بما سننته مكرماتنا من الشرع . فأما ما كان فى الاهراء من أجناس الغلات وانواع الحبوب فما يحويه علم المظنون وعلم المحسوب(١) وأما الأمتعة والأسلحة (٢١٢ ب) / والعدد فما يحصره العدد ومنها ان برجا من سور المدينة يحتوى على ثمانين الف شمعة ، وأما المستعملات الآمدية من البسط والفرش والخيام فلا يدخل حصرها تحت الأوهام وكان من جملة المستودعات القطن فقد امتلأ به البلد ولا أقول الخزن وذكر أنه بيع منه سبع سنين فما فنى مع أن متولى البلد ببيعه غنى قال : وانما ذكرت ذلك ليعلم

---

(١) فى الأصل : المحبوب ، وكذا يتطلب السياق .

أن الدنيا ما كان لها عندالسلطان قدر وأنه لم ينطو منه على قلبها صدر فأول يوم فتحها نصبت على سورها أعلامه ونفذت فيها أحكامه ثم سلمها الى نور الدين بن قرا أرسلان وكتبت له بها وبأعمالها التقليد وتسلم منى لمفاليق المعاقل الأقليد واستعبد السلطان منه حرا وفاة ثمنه ووفى له ومكنه .

قال : ودخل السلطان الى المدينة وجلس فى دار الامارة فهى على أحسن ما يمكن من العمارة ، عالية الأبواب حالية البنيان رايقة الرواق شايقة الاشراق يحدث ربيع ربوعها بنيسان وتحدث ذكر نباهتها بناء نسيانها وهذه شيمة الدنيا لا يمق وامقا ولا يرمق رامقا من جنى منها جنت عليه ، ومن علت يده فيها علت عليه وقد ظهرت آثار غدرها بابن نيسان حيث غادرته وقد رجا نصرها مخذولا ، وتركته وقد اعتصم بها مبتذلا لليالى مبذولا ، وهكذا نور الدين امتد زمانه وامتد الى داره بعد سنين مكانه وسيأتى ذلك فى موضعه ويشرح شأنه . ولما استقر السلطان فى الدار استحضر نورالدين وأخذ يده واستوثق معه بحلف أكده وعقد ميثاق عقده وعاهده من طاعته على ما عهده وأقامه لملكه وفى دسته اقعده وشرط عليه طاعته وفى كل غزاة متابعته ومبادرته عند الاستدعاء ومسارعته وانه يعمر البلد وأعماله ويعمها باحسانه ويعيد ما تشعث منها الى عمرانه ويسقط المكوس ويغبط النفوس ويبقى السعود ويمحى النحوس ثم استودعه وودعه بعد أن نور العيون مطلعه وأوضح وأعذب منهجه ومنهله وأتاه بجميله تفصيله جمله .

ذكر القوام أحمد بن سماقة وزير نور الدين محمد بن قرا أرسلان

قال : كان صدرا رحيب الصدر جليل القدر متحببا الى القلوب بكرمه متقربا الى الملوك بخدمته ناصحا فى خدمة مخدومه مدبرا بقلمه لاقليمه ، وهو الذى عطف قلب السلطان على صاحبه باستعطافه ونال مراده منه باستسعافه . ولما سأله السلطان فى مبتدأ سفارته ومفتتح زيارته عن مشتهى مخدومه ومنتهى مرومه وما العمل الذى يقترحه وما الذى يستنجحه فقال : ان أباه فخر الدين قرا أرسلان درج على جبره آمد فان فتحتها له استعبدته للابد وأرشدته فى الجد لخدمتك الى أوضح الجدد وأخذ اليد الناصرية لاتخاذ يد نصرته وحسر لثام الحرص على تحصيل ما هو فى حسرته فسبق الوعد وصدق واتفق من الفتح ما اتفق وكان الوزير المنعوت بقوام الدين قوام دولته ونظام مملكته . ودخل الي سلطاني من باب عرفاني وانتظم

مع اخوانى ولم يزل نحوى مترددا والى متوددا حتى أخجلنى بمننه وأثقلنى بمنحه ، وشغلنى بفروضه وسننه ، وجعلنى فى مقاصده مقصدا واتخذ عندى بصدق صداقته يدا ، ونجحت له عند السلطان وسهلت حجابه وصوبت لديه آراءه وآلايه وقرر لى على مخدومه وظائف عطايا ورواتب هدايا استمرت من احسانه واستقرت الى آخر زمانه وسيأتى ذكر ذلك فى مكانه :

ذكر الرحيل عن آمد والتوجه الى الفرات لقصد حلب والولايات

قال : ولما تسنى الغرض وتؤدى المفترض وحصل المقصود رميت النوبقية وقد دنت العشية فعرفنا دليل الرحيل ، ونهجنا سبيل التحويل وشرعنا فى ضم نشر الأحمال وجمع شتات الأثقال ، وتفويض ذات العماد وحمل الأطناب وقلع الأوتاد فاستقلت الجمال نصف الليل آخذة فى الاعناق كأعناق السيل ، وأصبحنا على الركوب وملأنا الشعاب بالشعوب والصواهل فى الأعنة تمرج والذوابل بالأسنة(١) تلمح وبحر البر بالجيش جايش وقلب الجو من جوى(٢) النقع طايش(٣) والأرض قد تنقبت من وقع الحوافر فما تحرك الخميس حتى صار بالأسد العريس ، وتعينت المنازل وتبينت المراحل. وكان عندنا رسل ملوك الأطراف قد وصلوا على اختلاف المقاصد باتفاق الاستعطاف وكل يسأل فى سؤل بكتاب منه ورسول . وأحضرنى السلطان تلك الليلة عنده (٢١٣ ا) / وأفردنى بخطابه وحده حتى أنجزت الكتب وجهزت الرسل فمنهم من أحلت على رسوله بسؤله ومنهم من بشرته باقباله وقبوله ومنهم قطب الدين ايلغازى بن ألبى بن تمرتاش الأرتقى رتق فتقه ورعى فى اعتذاره حقه وكان أمره كما ذكر فى فصل من كتاب وهو لما رأى صاحب ميافارقين أن اخت صاحبته قد ابتنى بها ابن عمه خاف أن يجمع له بين الأختين فراسل يبذل الخدمة ليكون فيها لنور الدين ثانى اثنين وقرر أن ينهض عسكره فى أوقات الملاقات وينتقل عن حكم النفاق الى حكم الثقات .

فصل من كتاب آخر : كان الملك نور الدين بن قرا ارسلان فى الخدمة منذ عبرنا الفرات بنفسه وعسكره ملازما لنا لحرصه على المناصحة وتوفره فأنجزنا له فى آمد موعده لدينا وحملته انشاء بالأعمال والبناء . ورأى صاحب

---

(١) فى الأصل : ساقطة والضبط من البرق ٥ ورقة ٧٥ أ .
(٢) فى الأصل : جرى وكذا يتطلب السياق .
(٣) فى الأصل : الثائر ، والضبط من برق ٥ ورقة ٧٥ أ .

ماردين أن ابن عمه قد فاز بالسبق وقد حاز الفضيلة فدعانا بالاذعان وابتغى الينا الوسيلة وقد كنا فتحنا من بلاده طرفا وحركنا من قلبه شغفا فحين عاد الى الحمد شملته عاطفتنا بالاصطناع والاختصاص وملكناه ما ملكناه عليه وأعدنا كل ما أخذناه من ولايته اليه واستمسك منا بحبل العصمة واستقر أيضا أن يكون عسكره معنا فى الخدمة .

ذكر القفول وعبــور الفرات وفتح تل خالد

قال : ووصلنا الى الفرات فى مراحل وعبرنا(١) ببحر الجيش اللجى وغزونا النهار بليل العجاج الدجوجى وأسدلنا على الخضراء ســتر الغبراء وسلونا عن السوداء بحب الشهباء ونزلنا على تل خالد يوم الثلاثاء ثانى عشر المحرم وكان قد تقدمنا تاج الملوك أخو السلطان اليها وأناخ عليها . ولمــا أطلت عليه راياتنا ألقى من فيها بيده وأنجز النصر صادق وعده .

فصل من الانشاء الفاضلى فى المعنى

فان راياتنا المنصوبة المنصورة قد صارت مغناطيس البلاد تجذبهــا بطبعها ، وسيوفنا مفاتيح الامصار نفتحها بنصر الله لأخذها ولا يقطعها ولما قطعنا الفرات بعثنــا سرعات العســكر المنصور الى تل خــالد فنــزلوا بعقوبتها (٢) ورفع المنجنيق يده الى ذروتها فلما نزلنا بها نزل من فيها على حكمنا وأجزيناه من الاحسان على رسمنا واستجار من حربنا بذمة سلمنا وطوينا الى أخرى بمشيئة الله قريبا كتاب فتحها ويقر الله بها العيون أسرع من لمحهــا .

قال : ثم نزلنا على عين تاب حائزين فنزل صاحبها الينا وهو ناصح الدين محمد بن خمارتكين وتبرع بطاعته وشرع فى بذل استطاعته فمكناه فى مكانه وأحسنا اليه لاحسانه فهنأناه له النحلة وعجلنا عنه الرحلة ووصلنا الى حلب وعماد الدين زنكى بن مودود بن زنكى ثاقب سمائها وراكب شــهابها وآمرها وناهيها وزاهرها وزاهيها وهو مع ذلك على ما فى يده متخوف والى سنجار بلده متشوف ومن استئناف الحرب مع امكان السلم آنف لكنه بأمر

(١) فى الأصل : الخضر .

(٢) فى الاصل : بعقو ، وبتها فى الهامش .

الأمراء النورية مستنير ولرأيهم مستشير وهم أوقدوا للحرب نارا وخرجوا لاسلافهم وأخلافهم على الاسلام الحقوق والسلطان لا يؤثر جراحهم وخرجوا مدججين ودفعوا عن مقاربة السور وهم على كل حال أجناد الجهاد واجلاد الجلاد ومنهم النورية الأذكاء القارية الرماء ومنهم الياروقية الروق وقد سلفت اجتياحهم ، وقد راقه بأسهم وبسالتهم وترجحت فى نظره استمالتهم ، وكان هو مع عقلاء العسكر يتقى(٣) واليزكية مع جهلاء المعشر تلتقى(٤) . وكان تاج الملوك فارس ومعفر الأقران بحكم شبابه الطرى وشباه الطرير ولما سبق حكم الله فى التقدير يسرع الى الحملات ويشرع الاسلات وما زال به الاقدام حتى توقظ وسنذكر شرح ذلك مع النزول بظاهر حلب فى منزلتين :

المنزلة الأولى :

قال : نزلنا بالميدان الأخضر فى الزمان الأنضر والربيع فى ريعانه والزهر فى زهوه والروض فى ضوعه وضوئه فضربت سرادقات السلطان فى صدر الميدان وضربت خيمتى عن يمينها على العادة فى البستان ، ولقد اسفت على تلك المستنزهات كيف تشعثت(٥) وأيدى التعدى بها قد تشبثت . ثم للعساكر على كثرتها من بعيد بالبلد أحاطت واشتطت فى حب الكريهة واستشاطت ، وفى كل غدوة وعشية وكرب الى كروب وهبوب الى وثوب وتاج الملوك موقد نارها وخايض تيارها والسلطان لاشفاقه على رجال الاسلام وأبطال الشام (٢١٣ ب) / يأمرهم بالكف وينهاهم عن الزحف ، والشباب يشبون الضرام ويحبون الاقدام فأصابت تاج الدين طعنة لم يكترث بها وفكت ركبته وقلت ركبته وقضت بفلول شبا شبابه ودبول جنى جنانه ومؤول رتبته الى ترابه .

المنزلة الثانيـــة :

ثم رأى السلطان ان مقامه بالميـــدان الأخضر لا يقضى بتضـــييق حصر ولا يفضى الى تحقيق نصر فصـــبحنا بعد أيام على عزم الرحيـــل وازماع التحويل وعبرنا بمن معنا من العساكر على بيوت الحاضر ولمـــا وصلنا الى جبلجوشن ضربنا عليه الخيام وأطلنا به المقـــام واحضر الســـلطان بنائين

---

(٣) فى الأصل : شقى .
(٤) فى الأصل : يتقى .
(٥) فى الأصل : لا تشعثت ولا زائدة وكذا يقتضي حذفها .

وصناعا وأمر بحفر أساس لقصر يبنيه ونصر يجنيه وقال : نحن نتصرف فى البلاد والاعمال ونقطعها للرجال ونترك حلب على ما بها من الحال وأمر بترك القتال والاعفاء عن النزال وسكنا ماكثين وركنا لابثين ولرســل الترهيب باعثين وفى عقد الترغيب نافثين ونذكر أنا من عباد الله الصــالحين الذين جعلهم الله للارض وارثين ولقد صفت(١) حلب بحلبهـــا وضنت ببيضـــها ويلبها(٢) وسمع شفاه شفاعها وقطع فحسن أفواهها والســلطان يحمــل ويحلم ويتغابى وهو يعلم ويعاود الاستمالة ويواعد بالاقالة وكان عماد الدين صاحب حلب للسوء عايفا وبعواقب الأمر عارفا راغبا فى التحدى بالاتحاد والاعتداد بالاعتضاد اماطة للبلاء عن البلاد فأفكر ووجد عليه فى كل شـــهر ما ينفقه ثلاثين ألف دينار على الأجناد وكان يعتمد على رأى الأمير حســام الدين طمان وهو قديما يوالى السلطان ويؤثر المرافقة والموافقة ويحب فى مضمار الولاء المسابقة فأشار على عماد الدين بما كشفه من ضميره ووعده اذا سفر فيه باذكاء الغرس وتثميره وتسهيل الصعب وتيسيره فخرج ليلا من باب السر سرا وبر بالحضور وأحضر برا وقد قر بقربه السلطان وخلا لخلابه وشفى عتابه بأعتابه وسامه أصحاب الأسد الحادر من غابه وأعطاه يمينه مع سطر يمينه فى كتابه فعاد الأمير طمان مطمئن الجنان مرجحن الميزان وأفضى الى مخدومه بسر مكتومه فأصبحنا بكرة ببكر الفتح وقد جليت وراية النصر قد اعليت وعروس القلعـــة قد حليت والأبواب قد فتحت والاراب قد نجحت وعرف الأمراء فمنهم من خجل ومنهم من وجل فأرسل اليهم السلطان واستزال روعهم وخوفهم واستزاد طوعهم وشوقهم ومدح لجاجهم وحمــد ارتياحهم وشفع انكسارهم بجبرهم وقرضهم على صبرهم وحدثهم بما طيب النفوس بعد الحادث الذى شيب الرءوس وأزال ببشره العبوس وأوجــد النعمى وأعدم البوس .

---

(١) فى الاصل : ضنت .

(٢) واليلب الدروع ، وقيل هى البيض تصنع من جلــود الابل وهى نسوج كانت تتخذ وتنسج وتجعل على الرءوس مكان البيض . وقيـــــل جلود تصنع منها دروع وقيل اليلب خالص الحديد ، قال عمرو بن كلثوم :

عليناا البيض واليـلب اليمانى   وأســياف يقمن وينحنيـــا

قال ابن السكيت سمعه بعض الأعراب فظن أن اليلب أجود أنواع الحديد . قال الجوهرى : واليلب كل ما كان من جنن الجلود ولم يكن من الحديد .لسان العرب ١ — ٨٠٦ .

ذكر نكتة : قال ومدح القاضى محى الدين بن الزكى السلطان بأبيات منهـــا :

وفتحكم حلبــا بالسيف فى صفر　　مبشر بفتــوح القــدس فى رجب

فوافق فتح القدس كما ذكره فكأنه من الغيب ابتكره ففى صفر سنة تسع وسبعين كان فتح حلب وكان فتح القدس سنة ثلاث وثمانين فى رجب . قال : ويشبه هذا أننى فى سنة اثنتين وسبعين طلبت من السلطان جارية من سبى الأسطول المنصور بأبيات وهى :

يومـــل الملـــوك ممـــلوكة　　تبـــدل الوحشـــة بالأنس
تخرجه من ليل وتواســـــيه(٣)　　بطلعـــة تشـــرق كالشـــمس
فوجـــدة الغـــربة قد حركت　　ســـواكن البلبـــال والمس
فلا تـــدع يهـــدم شيطانه ما　　أحـــكم التقـــوى من الاس
فوقع اليـــوم بمطـــلوبه ممـــا　　ســـبى الأســـطول بالأمس
واننى آمـــل بعـــدها كـــرايم　　الســـبى مـــن القـــدس

قال : فجـــاء الأمر على وفق الأمل كما قلت ووهب لى تلك الســـنة ما سألت وأعطانى عام فتح القدس ما أملت . عاد الحديث قال : وخرج عماد الدين الى خيامه التى ضربها وشرع فى استنجاز الموعد فى البلاد التى طلبها ولم يزل وزيره شمس الدين بن الـــكافى مترددا فى الطلب وأمر الســـلطان بانشاء عهده وايجاب عقـــد يتأكد به الميثاق ويتمهـــد به الوفـــاق فلازمنى (٢١٤ أ) / أياما حتى حررت نسخة حكمها المحكم لا ينسخ وعقدها المبرم لا يفسخ وأنعم عليه ببلدة سنجار وزيد الخابور ونصيبين والرقة وسروج .

قال : ولما فتحنا حلب ودانت لنا معاقلها بقى حارم مع أحد(٤) المماليك الصغار النورية وقد طمع أن يحميها ثم أن أجناد حارم اتهمـــوه بمراســـلة الفرنج ومداخلتهم فأخرجوه وأكرهوه على النزول ونزل به المكروه وأعلنوا بشعارنا فسرنا اليها وتسلمناها ودبرنا أمرها وأحكمناها ووفرنا من الاحسان قسط أولئك المسلمين وتلونا فى حقهم « ان الله لا يضيع أجر المحسنين »(٥)

---

(٣) فى الأصل : وسواسه .
(٤) فى الأصل : حـــد .
(٥) سورة التوبة ، آية رقم ١٢٠ .

فراسل صاحب انطاكية ضارعا وللعجز عارضا والى الانقياد الينا مسارعا وسير الينا من أسارى المسلمين جماعة وافية وأظهر اسكانه فيه لأسباب الإيقاع نافية .

ذكر عبرة

قال : وعين السلطان يوما للضيافة العمادية وكان ذلك بالمخيم(١) قبل انتقاله الى البلد فكملت له أسباب وشروط ونظمت للسماط سموط وترنم الشادى وترنح النادى وكأنما اجتمع القمران بجلوس عماد الدين بجنب السلطان وبنياهم فى أحظى حضور واحبى حبور وأتم نشاط وأتم اغتباط اذ جاء بعض الحجاب وأسر اليه بنعى أخيه تاج الملوك فما تنكب عن منهج ثباته المسلوك ولم تتغير طلاقة وجهه وأمر سرا بتجيزه ودفنه ، وأعطى تلك الضيافة حقها وبسط بسنا انبساطه أفقها ثم انتقل السلطان الى حلب وأقام بالقلعة ووظف المكارم وكشف المظالم وأسقط المكوس وكتب الى أصحاب الأطراف والأوساط باجتماع عساكر جميع الجهات عنده للرباط ويتم له ملك الشام وسر سره بالتمام ، وحالفه عماد الدين فى الموافقة فى ساير المرام . وأمرنى بكتب المناشير لأكابره وأماثله بعد ما خص أرباب الفضايل بفواضله واعتصمت العواصم بعصمته ووثقت القلوب فى القبول بين مهابته ومحبته وأحس رعاية محسنى الرعية وأعاد القضاء والخطبة الى أهل مذهب(٢) الشافعية .

ذكر القلاع وما ترتب من وجوه الاصطناع

قال : وأبقى عين تاب(٣) على صاحبها وخصه بأيادى يده ومواهبها ، وأما تل خالد فانه أنعم بها على بدر الدين دلدرم بن بهاء الدولة بن ياروق مضافة(٤) الى تل باشر فهدم قلعتها وتصرف(٥) فى أعمالها واستبد بارتفاعها وعلالها .

---

(١) فى الأصل : للمخيم .

(٢) قارن برق ٥ ورقة ٩٩ أ .

(٣) فى الأصل : عن بات .

(٤) فى الأصل : مصافه .

(٥) فى الأصل : وانصرف .

وأما قلعة عزاز فان عماد الدين زنكى كان قد هدمها لتوفر قوته على حفظ حلب فأقطعها وأعمالها علم الدين سليمان بن جندر فأعاد عمارتها كما كانت وظهرت آثار كفايته وبانت ، وسلم حارم الى أحد الخواص من أهل الولاء والاخلاص ، وولى القضاء بحلب محى الدين أبا المعالى محمد بن زكى الدين على القرشى فاستناب فيها القاضى زين الدين نبأ بن الفضل ابن سليمان المعروف بابن البانياسى ، وأقام فى قلعة حلب سيف الدين يازكوج واليا وولى الديوان العميد ناصح الدين اسمعيل بن العميد ، وجعل حلب باسم ولده الملك الظاهر غازى وكان قد اصطحبه من مصر عند وصوله الى الشام وعادت الأمور بسيرته(٤) السارة الى النظام وما برح(٥) السلطان من حلب حتى استقامت أحوالها على جدد الصلاح واستتامت آمالها الى مدد النجاح وضرب باسمه درهمها وديناره وأنارت معالمها وعلا منارها وصدحت بالأدعية منابرها وصدق لارعاء الرعية منابرها قلت : وأورد ههنا مناشير من انشائه لأماثل منها منشور للشيخ الامام علاء الدين الكاسانى(٦) مدرس المدارس الحنفية بحلب(٨) ومنشور للمحتسب(٧) بها ولم يسمه وآخر باسم طبيب ثم قال :

ذكر بشاير بوقعات نصر فيها الاسلام(١٠)

وصلت ونحن بحلب منها وقعة برية بالفرنج على ما يعرف بالعسيلة ووقعة بحرية فى ظفر الاسطول وذلك فى محرم سنة تسع وسبعين وشرح ذلك فى كتاب من الانشاء الفاضلى الى الديوان العزيز يتضمن الوقعتين : أدام الله أيام الديوان ولا زالت منازل ملكه منازل التقديس والتطهير وموالاته وسيلة التمحيص والتكثير ، ومواقف الأولياء ببابه مواطن السجود والتعفير ، والولاية من قبله علامة التمليك والتأمير ، والوقوف بأقصى المطارح من مراثه موجب التقديم والتصدير ، وآيات نعمة الله فى وجوده واضحة تغنى فيها الألباب عن التبيين والتفسير ، والأمة مجموعة بأمامته جمع السلامة لا جمع

---

(٦) فى الأصل : بسرعة .
(٧) فى الأصل : غير منقوطة .
(٨) وهو علاء الدين أبو بكر مسعود الكاسانى ، قارن برق ٥ ورقة ١٠٠ ب .
(٩) قارن برق ٥ ورقة ١٠٣ أ .

(١٠) قارن الروضتين ١ ج ٢ — ٤٧—٤٨ .

التكسير . الخادم ينهى الذى يحمله على ما يحمله الى الديوان العزيز من كتبه ويبديه من رسله ويجيب به دواعى طبعـــه فى الولاء المسترسل على سجيته أو يحركه المنبعث فيه على رسله أمران أحدهما أن الذى يفتتحه من البلاد ويتسلمه أما بسكون التغمد(٢١٤ ب) / أو بحركة ما فى الأغماد(١١) انما يعده طريقا الى الاستنفار الى بلاد الكفار وانما يحسبه جناحا يمكنه به المطار الى مالامسه الكفر من الأقطار .

والثانى اعلام أمير المؤمنين ان تقليداته وتقليدات آبائه الطاهرين اذا صدرت عنه وعنهم قريت وما عصيت ، ونفذت وما نبذت فيعلم ان له عبدا يمتثل أمره ويلزم الناس بامتثاله ، وخادما يطيع الحكم الجليل ويحـــكم على غيره بطاعته واجلاله . وعلى هذه التقدمة فهو يستفتح هذه الخدمة بذكر ظفرين للاسلام برى وبحرى احدهما وهو البحرى عود أحـــد الأسطولين اللذين أغزاهما أخوه أبو بكر بمصر وكانت مدة غيبته من وقت خروجه الى وقت عوده الى دمياط تسعة أيام لأنه غادرها(١٢) فى خامس عشر المحـــرم وقفله رابع عشرينه فظفر ببطشه مقلعة من الشام فيها ثلثمائة وخمســـة وسبعون منهم خياله ذووا شوكة وازعة وتجار ذووا ثروة واسعة فأخـــذ الله بأيدى الأولياء برقابهم ومكن الحطم والقصم من صلبهم وأصلابهم ومسخ عزة أقدامهم بذلة أحجامهم وسيوفهم اللاتى(١٣) فى أيديهم سلاسل ومليت آمال المجاهدين اموالا وأثقالا وانقلبوا بالقلوب خفافا وبالأيدى ثقالا وبرد مغنمهم بعد ما تقدمه من حر الحرب وعادوا عن البحر الملح شاكرين لمـــا أوردهم من المشرب العذب .

والظفر الثانى وهو البرى ما طولع به من مصر من نهوض فرنج الداروم الى أطراف بعيدة وهذه العصبة ملعونة لا ترع الأعنة ولا تنزع الأســـنة تسرى فتسبق الصباح وتدلج فتستصيح الرماح فنزل بهم والى الشرقيـــة فركب الليل فرسا اركبوه حملا وسروا ثقيلا وسرى رملا فتوافى الفريقـــان الى ماء يعرف بالعسيلة سبق الفرنج الى موردته والسابق الى الماء محاصر

---

(١١) فى الأصل : غزاها .
(١٢) فى الاصل : الذى وكذا يتطلب السياق .
(١٣) غـــير منقوطة .

المسبوق ووردوا أزرقة فتعصب لارزقتهم فظن المؤمن أن الكافر مرزوق وأشتد بالمسلمين العطش وفل أيديهم الدهش فأنشأ الله فى ناجز الهواجز سحابة ماء صيفى شفاهم بها « من فوقهم ومن تحت أرجلهم »(٦) وأمسك به أيديهم فاستمسكت على أنصلهم فثابوا الى الفرنج بقوة أنجاد السماء بالماء وثاروا الى الملاعين الاعداء بالعزم الجرى ذاكرين معجزة اليوم البورى يوم من الله على أهله بالتطهير والرى فلم ينج من الفرنج الا رجلان أحدهما الدليل والآخر الذليل وانجلت الجلى بعد أن صاروا معصفين ، وتساقوا كئوس الموت تحت ليل العجاج مغتبقين فقطعت شوكة شديدة وفلت شكة كفر جديدة وعاد المسلمون برءوس عدوهم فى رءوس القنا وقد اجتنوا ثمراتها وبأرواحهم فى صدور الظبى وقد اطفأوا بمائها جمراتها .

قال : ولما تم الفراغ من شغل حلب وأعمالها وتسديد اختلالها فاستصحبنا عساكر حلب والجزيرة واجتمعنا فى جموع كثيفة كبيرة وتلونا السلطان بتل السلطان مخيمين على عزم الغزاة مصممين فما وصلنا الى حباب التركمان حتى وصلت قبائل التركمان فتفرقت العساكر فى الطرق وأجدت فى الجيب والعنق حتى ناطحتنا قرون حماه ، وصافحاتنا سعود قرانها ، وقرت بنا عيون أعيانها فأول من تلقانا ببره القاضى أبو القاسم حاتم الاكارم وقاسم المكارم وكان هذا القاضى أمين الدين بن حبيش لم يزل ذا سجية وعيشة رخية فاذا وصل الى حماه سلطان أو أمير أو معروف أو كبير دعاه الى ربعه وأجراه على كريم طبعه فان لم يزره زارته تحاياه وقرته فى مخيمه تحفه وهداياه وله من القلوب أتم قبول ولكل نازل به أهنأ نزل وأكرم نزول . ولهذه الشوافع لم ترد له عند السلاطين والاكابر شفاعة ولم يعر شيئا من حقوقه المصونة اضاعة . ولم يكن هذا القاضى متوليا لعمل ولا قضاء ولا حكم له فى انفاذ ولا امضاء وكان قانعا بحدى ملكه ويستثمره بفضل جاهه ويفوق المعروفين بتيقظه وانتباهه .

قال : وكان الملك المظفر تقى الدين بن أخى السلطان صاحب حماه ومالكها ، وقد تولى بالامن والعدل مسالكها وممالكها فوشع ذراه ووسع

---

(٦) سورة المائدة ، آية رقم ٦٦ .

« ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل اليهم من ربهم لاكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم منهم أمة مقتصده وكثير منهم ساء ما يعملون » .

قراه وحبر يديه رحب نداه وحصن الحصن الذى لحماه وحماه ، وقصر نظرنا على قصره الناظر الذى اعتنى به وابتناه وما أبهج وأبهى بهوه وبهاه وأعظم ايوانه واكرم ايواه فتفرقنا بعد الاجتماع وجذبنا زمام الازماع واستن العسكر سنن الرستن وعبرنا العاصى فى طاعة الله بقصد الغزاه والجـرد تحت المرد والكمت تحت الكماه ، ومالت بنا أعناق الاعناق ، وقصدنا الى حمـص أشواط الاشواق ، وخيمنا على عاصيها وضاقت بجموعنا ادانيها واقاصيها وجئنا الى الزراعة ثم اللبوة ووصلنا الى بعلبك ثم قربنا من دمشـــق ودخلنا اليها وهى ببشرنا مستبشرة وعن صباح سفورنا مسفرة ولم يطـل بها المقام وعجلنا الرحلة عنها ، واغتنمنا حضور العساكر المتضاعفة العدد المتظاهرة العدد فخرجنا نحو العدو متوجهين/(٢١٥ أ) وفى رياض مراسى الله متنزهين فأول ما وقع البأس ببيسان(٧) وجاء الفرنج فرابطهم السلطان على عين الجالوت(٨) وواقع باعداء الله أولياء الطاغوت وقد صفت غزوة بيســان .

وفى كتاب أنشأته عن السلطان وهو : وأقرب غزواتنا عهدا بالفرنج غزوة بيسان فى كتاب انشأته كان من حديثها المبهج أنا سرنا بعســاكرنا الموفورة وقطعنا الاردن وعبرنا مخاضة الحسينية(٩) بخلوص الضمير فى سبيل الله وحسن النية وذلك يوم الخميس تاسع جمادى الآخرة فلما وصلنا الى بيسان وجدنا بأسنا قد سبق اليها وقد أخلاها أهلها فعاجلها الاصحاب بما احل لأهلها الكفار من النيران وعقدوا تحت سماء العجاج منها ســماء الدخان فما برحنا حتى عفونا آثارها ونهب العسكر فيها من زاد وقوت ما زاد به قوة وكانت هذه المقدمة نصرة مرجوة ألحقنا بها مدنا معمورة وقلاعا حصينة وأضرمناها نارا ولم نذر بها من الكافرين ديارا ووقعت مقـــدمة العساكر

---

(٧) بالفتح ثم السكون مدينة بالاردن بالغور الشامى ويقال هى لسان الارض وهى بين حوران وفلسطين واليها ينسب القاضى الفاضل أبو على عبد الله عبد الرحمن بن على البيسانى وزير الملك الناصر يوسف بن أيوب والمتحكم فى دولته وصاحب البلاغة والانشاء التى أعجزت كل بليـغ وفاق بفصاحته وبراعته المتقدمين والمتأخرين ، مات بمصر سنة ٥٩٦ معجم البلدان ١ــ٧٨٨ــ٧٨٩ .

(٨) بلدة بين بيســان ونابلس من أعمال فلســطين ، معجم البلدان ٣ — ٧٦٠ .

(٩) من أعمال طبرية فى شرقيها ، معجم البلدان ٣ــ٥١٠ .

المنصورة فى أول يوم على خيل ورجل للفـــرنج عابرين من نابلس فأوقعت بهم وسدت عليهم طريق مهربهم وقتلت راجلهم وأسرت جماعة من الفرسان قيدوا فى الاقيـــاد وتوغل الباقون فى الجبــال بحزازات القلوب وحرارات الاكباد ، وكان مقدمهم ابن هنفرى فنفر ووصل الخبر بأن الفرنج وأتوا بجمعهم المحشود وحشدهم المجموع وكانوا فى ألف وخمسمائة رمح ومثله تركبلى وخمسة عشر ألف راجل وزحفوا كأنهم أسود الشرى فى آجامها وهضاب شرورى بأعلامها فبعثنا اليهم الجاليشية فجالت أمامها وجاشت تدامهـــا وعينا(١٠) الاطلاب للموت طلابا وللنصر بلسان الفصل خطـــابا وكثر الله المؤمنين فى أعين الكافرين فعادوا بعد الانس نافرين ولمـــا رأوا بأســـنا أخلدوا الى الأرض مهطعيين وخندقوا حولهم وأسندوا الىالجبل بالذل لابدين واركزوا قنطارياتهم فى مركز دايرة الخـــذلان وطلبوا ربح ســـلامتهم من الخسران وأقاموا كذلك خمسة أيام آخرها الاربعاء خامس عشر جمادىالاخرة ونحن فى كل يوم نتوقع منهم الحملة التى هى عادتهم والمبادرة فى اللقاء التى هى فى الصدمة الأولى سورتهم فنكبوا عن اللقاء وما هاجوا الى الهيجاء وعساكرنا المنصورة حولهم حايمة فى بحار السوابع فى بلاد الساحل دونهم عايمة ويعادونهم مساء وصباحا والفرنج قد يبست أيديهم على الاعنة وغلت فى صدورهم وحراب الرعب على صدور الاســـــنة والمغيرون فى بلادهم يشنون الغوار ويكثرون القتل والأسار فلما رأيناهم لا يبرحون رحلنا عنهم يوم الخميس لخناقهم منفسين فما صدقوا حتى جفلوا أجفال النعـــام وتوغلوا فى الجبال وهم أضل من الانعام ، وتصاعدوا فى العقاب ونكصـــوا على الاعقاب ، ونحن قد بلغنا النكاية(١١) فيهم غايتها والغنايم ، والاسارى قد ملأت الأيدى وثقلت الظهور ، وعجل الله للاسلام وعسكره النصر والظهور، وعـــدنا سالمين سالبين غانمين غالبين « والحمد لله رب العـــالمين » وقد شرعنا الآن فى غزوة ثانية لعزب الكفر ثانية والمسير بالعسكر الذى عدنا به الى الكرك والالتقاء بالعســـكر الواصل من مصر عليها فان الفرنج قد بان لنا هوانها وهذا وقت منيتها وأوانها فما نزال بتأييد الله نوالى الغزوات حتى يأذن الله فى فتح الأرض المقدسة والسلام .

---

(١٠) فى الاصل ساقطة والضبط من البرق ٥ ورقة ١١٣ ب .
(١١) فى الاصل : النكاب الضبط من برق ٥ ورقة ١١٣ ب .

ذكر العودة الى الكرك واستدعاء الملك العادل من مصر لتسولى حلب واستنابة الملك المظفر تقى (الدين فى مصر وشرح السبب فى ذلك)(١)

قال : وكان الملك العادل سيف الدين أبو بكر أخو السلطان على عادته فى تولى الديار المصرية مستمرا ، ولامورها بفضل سياسته وحسن رعايتـــه ممرا ، وهو مستقل بالامر والنهى يولى ويعزل ويملى وينزل ، وهو سلطان الديار المصرية على الحقيقة ومرتب أمورها الجليلة والدقيقة . والسلطان بالشام فى مهام الاسلام وهو بأخيه كثير وبحسن أثره أثير ، وهو يمده بالمال والرجال ويجرى الارزاق والآجال فلمـــا ملك حلب كتب الملك العادل لهـــا طالبا وفيها وفيما يجرى معها من البلاد والمعاقل راغبا فكتب اليه لســـؤاله مصيبا ، ولسؤاله مجيبا وواعده الى الاجتماع به على الكرك ليفوز من بغيته بالدرك واستصحب معه الملك المظفر تقى الدين ابن أخيه ليوليه فى مصر ويستنيبه وكل ذلك بمشورة الأجل الفاضل وعنايته بالساير والواصل فان السلطان لم يزل يأخذ باشارته ويعطى ويصيب ببركات آرائه ولا يخـــطىء ولما آب السلطان من الغزوة جعل مآب الجهاد الى جهة مآب(٢) من اقليم الشراوة ونزلنا بادرادر واستأمن اليها أهلها المسلمون فأذقناهم بحلية الدين حلاوة الامان وساكنوا تلك الأعمال مسلمون من قديم الزمان وتربى أولادهم فى حكم الفرنج فألفوا ما ألفوه وخافوا منهم على ظهور حبهم لنا فأخفوه ثم خيمنا على الرية ثم حصرنا الكرك وحصرناها وكانت المناجيق/(٢١٥ ب) تراوحها وتغاديها وتعاودها وتباديها ، وتحول السلطان الى الربض ملازما للغرض وأقام بدار الرئيس ليقرب من المناجيق المنصوبة ويشاهد مواقـــع النكاية فى القلعة المحصورة وكانت سبعة قد فتحت لأهل جهنم سبعة أبوابها وفغرت أفواهها وكشرت عن أنيابها ، وفصلت أوصال السور بســـــوء خطبها وخطابها وقد رتب السلطان نوب الرملة على رجال الامراء فى الصباح والمساء ولم يزل يرجم الحصن ويهدم والسلطان فى أثناء ذلك مشتغل من جانب بتعمير البلاد وترتيب الممالك ومن جانب بتدمير الكفر والتدبير له فى المهالك . ثم انقضى شهر رجب وعلم باجتماع الفرنج فى الموضع المعروف

---

(١) ما بين الحاصرتين من العنوان يوجد بالهامش .

(٢) مآب من قرى البلقاء ويقال لها موته ، معجم البلدان ٤ـــ٦٧٧ .

بالوالة فقالوا هذا حصر يطول ومسألة تعول وقد أضعفنا الحصن ومكنا منه الوهن ، وهذه نصرة قد أحكمنا أسبابها ولا خوف من فواتها وما نزال نعاود بالاضعاف حتى نوفز بالفتوح ونحوز ذخر الظفر الممنوح ، وهذا جمع الفرنج ملتئم وجمرهم مضطرم وقد اجتمعوا فنحن نقصدهم ونلقاهم ونقــدم عليهم ولا نتوقاهم وسيأتى ذكر عودنا فى موضعه .

ولما وصل الملك العادل أظهر عن حب مصر سلوه ، وطلب من حلب واقطاعها مرجوه فعول السلطان على تقى الدين فى تولى الديار وزاد منه اقطاعه بالشام اقطاعا فى مصر وانعم عليه بالاعمال الفيومية وساير نواحيها بجميع جهاتها وجواليها وزاده القبيبات وبوش وأبقى عليه بالبلاد الشامية مدينه حماه وقلعتها وجميع أعمالها وجمله بصحبة سيدنا الفاضل حتى اذا وصل تقى الدين الى مصر اقتدى بالتــدبير الفاضلى واهتدى بســنا رأيه الجليل الجــلى .

وكان السلطان لا يؤثر مفارقته ولا يحضره أنس اذا فارق حضرته ولما لم يجد من توجه تقى الدين الى مصر بدا وأنه سيكون بالأعمال مستبدا ، وكانت فى تقى الدين الى مصر جدة لم تكن فى الملك العادل احتاج الى تقويمه الى تدبير الاجل الفاضل فأذن له فى السفرة بشرط الاسراع فى المــودة والمبادرة الى الاجابة عند تحقق الدعوة . فسارا يمن فى صحبتهما وعاد السلطان بالملك العادل وكتبت لهما منشورين فى شعبان سنة تسع وسبعين، قال : وكتبت الى سيدنا الاجل الفاضل عند الرجوع من وداعه وكان رحيله من الكرك فى منتصف شعبان : رجع المملوك من الوداع وداعى الاسى يحفزه وعادى الاسف يزعجه ويعجزه فعدم الشمس التى تفيض عليه والظــل الذى يفىء اليه . لا مجيب لاستدعائه ولا مجير لاستعدائه ولا قابل له ولا قايل به ولا منفق لنقده ولا موثق لعقده ولا مروج لرجائه وظل كضالة لا ينشد وكالضال لا يرشد وكالفقيد لا يفتقد وكالزيف لا ينتقد وكيف حال من حالت كيفيته إياسه بأسوة أم نيته أمنيته ياليت المولى قبله صاحبا لركابه وراكبا فى صحبه متلاشيا فى أشعة آلائه متماشيا فى سابغ الآلايه وضــيعا مع الشرفاء ثقيلا مع الظرفاء ، سقيما مع الاصحاء هجينا مع الصرحاء والعقــد الثمين ربما انتظمت فيه لصرف العين الخرزة وسدت بالخرزة ثلمتها المعوزة على أنه اذا أقامه فى كنف الرعاية مرعى الكنف غبطه السايرون وتحاماه

الضايرون ولم يثر اليه الثايرون ولا غنى بالملوك فى كل وقت لاستزادة محقه واستزالة مقته عن تجديد جاهه وتوجيه جده واسعاد رجائه واجراء سعده فالفارس يستثمر بالتربية غرسه ولا يضيع الملوك الذى ملك رقه باحسان عشر سنين « ان الله لا يضيع أجر المحسنين »(٣) .

ذكر الرحيل الى الشام

ولما رأينا(٤) أمر الكرك يطول ، ودافعنا عن حقه القدر المطول جهز السلطان العسكر المصرى فى الخدمة التقوية التى بالصحبة الفاضلية يقويها ومن ارائها فى كل ما ينادى له تلبيتها وتربيتها وانصرف بعسكر الشام عايدا الى دمشق عود الحيا الهاطل الى الثرى الماحل ، والقينا بها العصا واجرينا ذكر من اطاع وعصى ، وعدنا من فرض الجهاد الى فرض الصيام ، ووقع الشروع فى اراحة العساكر عند استقبال العام واستيناف الجمع لنصرة الاسلام وتولى الملك العادل سيف الدين أخو السلطان حلب وقلعتها وجميع أعمالها وجميع قلاعها ، ومدينة منبج ومعاقلها وصار اليها وتسلط بها سلطانه وتمكن منها مكانه ، وتحكمت ولايته وتولتها احكامه ، ونفذنا أوامره فى أمورها نقضه وابرامه ودرت على مراده أخلاقها بوضوح مذهبه فى الوفاق خلافها وانصرف نواب السلطان الى دمشق فى خدمة الملك الظاهر ظاهرين بصفو الموارد والمصادر .

(٢١٦ أ)/ذكر وصول شيخ الشيوخ وشهاب الدين بشير فى الرسالة الشريفة الامامية ووصول محى(٥) الدين الشهرزورى معهما رسولا من الموصل

قال : ولما استقر بنا فى دمشق المقام وتم الصيام جاء من رافد نعم الله التمام . ووصلت رسل امير المؤمنين عليه السلام فوفيناهم فى الاستقبال كل حق وذكرنا من الاسراع الى الاستسعاد بهم كل سبق .

---

(٣) سورة هود آية ١١٥ « واصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين ».
(٤) فى الاصل : رآنا وكذا يتطلب السياق .
(٥) فى الاصل : يحيى — قارن الروضتين(١) ج ٢ — ٥٤ .

ولقى السلطان الرسل فنزل ونزلوا ، وأقبل عليهم واقبلوا ثم قدملهم المراكب التى أعدت لهم فركبوا وسايرهم السلطان واصطحبوا ، ونزل شيخ الشيوخ بالرباط على المنبع ، ونزل القاضى محيى الدين بن كمال الدين الشهرزورى فى جوسق بستان الخلخال ونزل شهاب الدين بشير جوسق صاحب بصرى على الميدان .

قال : وكان بينى وبين شيخ الشيوخ قرابة قريبة فانه اتصل الى ابنة عمى عز الدين أبى نصر أحمد بن حامد ، وقد كانت عقيلة بيت السؤدد ، وكان وزراء الزمان وعظماء دولة السلطان يخطبونها رغبة فى طيب النجار ونزاهة العنصر ، واتفق حضورهما بالكعبة المعظمة فى سنة خمس وأربعين . وتكررت منه الخطبة وصحت الرغبة فأجيب لدينه وأصله وتقواه وفضله وبارك الله منها فى ذريته ونسله . وكان له منها أولاد نجباء أستأثر الله بهم فى ريعان شبابهم وبقى الذى اصطحبه فى هذه الرسالة وكان منعوتا مكنى مسمى بما كان لجده العزيز أبى نصر أحمد فمرض فى الطريق واصطحبه معه فى محفه فوصل ونفسه رهينة بنفس وقد جاء الأجل وذهب الأمل وانقضى العمر وقضى الأمر .

وجلس ثانى يوم وصوله للعزاء وحضر السلطان وجماعة الامراء وصلى عليه ودفن بالمقبرة بمحاذية الرباط وبردت حرارة الرسالة وشغلت حادثته عن محادثته حتى انقضت ثلاثة أيام موسم التعزية ولم يقدر على التسليم والتسلية .

ذكر السبب المقتضى لهذه الرسالة فى هذه السنة

قال : لما عرف صاحب الموصل ما تسنى لنا من فتح آمد وحلب وتيسر كل ما اراده السلطان وطلب خطر بباله خطر البلوى وعود العدوى فمال الى الاستعطاء والاستعطاف وشرع فى استسعاء رسله للاستسعاف واستدعى من الديوان العزيز ارسال شيخ الشيوخ للاستشفاع لعلمهم انا لا نرى الا الائتمار بالطاعة للامر المطاع وندب قاضى القضاة محى الدين أبا حامد محمد ابن محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزورى للرسالة من جانبه وأناط بسعيه نجح مطالبه فجاء فى جاه أنيق ولسان دليق وترفع وتعزف وتقنع وتقشف وترق فى ذروة الخطاب بحلو آيه على سريرة نبرة الخطابة ولو تخلق بخلق

مرسله فى الدفع بالتواضع لكفى الغرض وشفى المرض فانه لما وصل لزمه ناموسه وأطال فى محل بستانه جلوسه واظهر كانه الأمين نزل بالوحى من السماء وجاز بالعطارد فى بيته بالجوزاء ولم يأخذ فى طريق الاستحذاء وظن أن ذلك لمخدومه نصيحة وخدمة صريحة وبغية صحيحة على أن السلطان قابل شدته باللين واعطا يمينه على أخذ اليمين فاشتط واشترط وكلما قاربناه شحط ، وكلما ارضيناه سخط وكلما توخينا جامعا للمصالح أبى الا مراده المارد ولم يوافق مصادره الموارد ولو أنه تلطف واستعطف حصل المخطوب(١) ووصل المطلوب وتأكدت العقود وتمهدت العهود لكنه التزم ما لا يلزم وجزم ما لا يجزم وعين شرطا له مانع وفيه منازع .

ذكر كشف الحال

قال : كانت قد وصلت رسل صاحب الجزيرة وكان صاحب(٢) اربل وصاحب تكريت والحديثة(٣) يشكون من صاحب الموصل وتكليفاته وأثقاله الكثيرة الكبيرة فأما صاحب الجزيرة فهو معز الدين سنجر شاه بن غازى بن مودود بن زنكى وهو خايف من صاحب الموصل عمه وانه يلزمه أن يدخل تحت حكمه ويخشى ان يكشف ضياء حاله ظلمة ظلمه . وأما صاحب اربل فهو زين الدين يوسف (بن بكتكين)(٤) بن على بن كوجك وهو أيضا شفق من أمره محترق بجمره ، وكذلك صاحبا(٥) الحديثة وتكريت يرهبان وفى الاعتزاز بنا يرغبان وكل أخذ من السلطان عهدا على أنه يحميه ويقيه ويسعده ولا يشقيه ، وانصرف رسلهم على هذا القرار . ثم كان وصول شيخ الشيوخ صدر الدين ومحى الدين الشهرزورى ووقع الشروع فى حديثهم وحادثهم واجازة دواعيهم واجابة بواعثهم . وكان القاضى محيى الدين الشهرزورى سالفا فى المدرسة النظامية ببغداد رفيقى وآنفا فى الايام النورية صديقى فصدفوه فى هذه المرة عن مشاورتى وصرفوه/(٢١٦ ب) عن محاورتى ولو استشارنى لعرفته النهج وسلكت به طريقا للمصالح جامعة وللعوايق رافعة

---

(١) فى الاصل : الخطوب ، الضبط من برق ٥ ورقة ١٣٠ أ .

(٢) فى الاصل : ساقطة . كذا .

(٣) وتسمى حديثه الموصل وهى بليده على دجلة بالجانب الشرقى قرب الزاب الاعلى ، معجم البلدان ٢-٢٢٢ .

(٤) غير موجودة فى البرق ٥ ورقة ١٣٠ ب .

(٥) فى الاصل : صاحب .

فصرت عن سره بمعزل حتى استقرت قاعدته(٦) ولم يبق الا عقدة للتأليف تقرر ونسخة التحليف تحرر فاستدعاني السلطان ذات يوم غدوة وقال : اكتب لنا شرطا ليكون لنا فى الوفاق قدوة فقلت له : كيف تستثنى أولئك الذين وثقوا بعهدك ، وسكنوا الى وعدك وهؤلاء لا يرضون(٧) بالاستثناء وكيف تنسب الى ترك الوفاء فقال : اكتب ما ينزهنى عن الخلف وينبهنى على صدق الحلف فقلت تحلف لصاحب الموصل على موصله ونجح مؤمله وتجعل أمر أصحاب تلك البلاد الى اختيارهم فمن اختارنا تم منا له مناله ومن اختاره فله عنده سؤله وسؤاله ، وهو يشرع فى استدعائهم واسترضائهم على وفق آرائهم فان صح لنا فى عودهم(٨) اليه أمرهم بسط عذرنا(٩) وقبض عذرهم .

فقال : امض الآن الى شيخ الشيوخ وعرفه بالقضية وارضه بهذه الحالة الرضية والم ايضا بمحى الدين وانا قد أجبناه على هذه الشريطة الى اليمين . فأما شيخ الشيوخ فانه عرف واعترف واسعد بالمراد واسعف ، وأما محى الدين فانه ابى الا الاباء وانكر الاستثناء وقال : هذا مستحيل ولا ينقطع به القال والقيل وأولئك فى بلادنا ونوابنا وفى ولايتنا ولاتنا واصحابنا وفى خروجهم علينا ما لا خفاء به من تفريق الكلم وتشتيت الشمل المنتظم ، واذا علموا أنكم لهم توثقتم وعليهم اشفقتم خرق اجماعهم ، وزاغت عنا أسماعهم وابصارهم فاتركونا واياهم واعتذروا اليهم بأنا انما قبلناكم ايام السخط والآن فقد كمل الصلح فاجروا على العادة ولا تخالفوا فى الارادة فقلنا تأخذ الآن عهدا كما شرحنا وشرطنا وحفظنا به الجوانب واحتطنا ، وانتم اشرعوا فى الاستمالة وتنكبوا طرق الاستحالة فما قبل الرسول ولا تم بقبوله السؤل . ثم استاذنوا فى الانصراف والاستيمار على ما تقرر فى الاستحلاف فاكرم الرسل الكرام وقضيت حقوقهم بكل تشريف وعطية وتحفة وهدية وكان شيخ الشيوخ كبير الهمة أثيرا(١٠) لا يقبل قليلا ولا كثيرا فاذا

---

(٦) ساقطة فى الأصل والضبط من برق ٥ ورقة ١٣٠ ب .
(٧) في الاصل : ولا يرضون .
(٨) فى الاصل : وسودهم .
(٩) فى الاصل : عدنا والضبط من البرق ٥ ورقة ١٣١ أ .
(١٠) في الاصل : اسيرا .

حمل له الطعام فرقه على الأجناد الذين معه من الديوان العزيز الامامى ، وعصم أحواله بالخلق العصامى فما زلت به حتى أجاب كل يوم الى رغيف وباجة متخذة من دجاجة .

فلما خرجوا من دمشق عازمين على المسير وعرف السلطان انهم خيموا بالقصير قال السلطان: قد استحييت من صدر الدين شيخ الشيوخ، وقد عولت على ان اركب لوداعه واقابل مقاله بامتثاله واقبل مقاله لاجله ولاجلاله ، ويكتب نسخة اليمين كما يمليه بعبارته . فسبقت اليهم بأمر السلطان ، وعرفتهم بسرعة وصوله ، فلما وصل نزل فى خيمة الصدر منشرح الصدر متضح البشر ثم كشف له فى القناعة ما ساله القناع وساله بالرسول فى عقد الاجماع الأجتماع(١١) . فأرسل اليه من يعلم بالأمر ويقفه على السر وضيق عليه سعة العذر فلما راى تواضع السلطان ترفع وقال : أنا بعد ما جرى من الحال لا رغبة لى فى الاسترسال حتى أنهى الى من خصنى بالارسال . ولعلكم اعتقدتم انه ليس لنا مظاهر ولا مظافر ولا موازر بل لنا من يشتمل علينا ويعصمنا ويميل الينا ونحن نكاتبه . ونستشير به ولا نتوخى خلاف مذهبه واشار الى سلطان العجم والبهلوان فأذن هذا القول منه بنفار السلطان وترك ما عزم عليه وودع وركب ، وبعد الأمر الذى كان قد قرب وكان قد ارسل للاطفاء فاسعر وللاستحذاء فتكبر .

وقال السلطان فاتر العزم فى العود الى الموصل فهاجه وحرف اليها مزاجه ولو تمسك منه بظاهر يمين لفاز لمرسله فى مكانه بتمكين وكأنه ذكر بما نسى واستعجل فيما أتسى ، فخطب خطابه خطوبا وغير تغير قلبه قلوبا وجر ذنبه(١٢) تجريه ذنوبا ، وحدثت كوارث ، وكرثت حوادث كلها الى هذه الحالة منسوب ومن هذه المقالة محسوب وسيأتى ذكر ذلك فى مكانه بشرحه وبيانه .

قال : ووصل رسول عماد الدين زنكى صاحب سنجار فاتخذ توخى المصلحة فى المصالحة وعاد فعرف ما افضى اليه الأمر وما جرى عليه رسل

---

(١١) فى الاصل : الاجماع والضبط من البرق ٥ ورقة ١٣٢ أ .

(١٢) فى الاصل : ساقطة الضبط من برق ٥ ورقة ١٣٢ ب .

الموصل من الاباء والعود الى عادة الاعتداء . وانا فى هذه السنة المقبلة قد عزمنا على الكر الى الكرك وانا راغبون فى جهاد اهل الشرك فى الثواب المشترك وقوبلت تحاياه وهداياه بأضعافها وبذل له من الابتهاج لمودته كل ما يؤذن ببهجة الدولة وهز أعطافها وكتب فى جوابه مع رسوله وهو وزيره شمس الدين بن الكافى كتاب من انشائى بتاريخ ثلاث خلون من ذى الحجة(١٣) قال : (٢١٧ أ) وكثرت الأمطار فى شتوة هذه السنة والثلوج وتعذرت(١٤) الحركة والخروج .

ودخلت سنة ثمانين

والبرد قد تقوض أساسه وانقرض باسه وسقطت جمراته وسخطت غمراته فتقاضى السلطان عزم الجهاد وحزم الاجتهاد فاستدعى الاجناد واستعد وخرج الى مرج الدلهمية من عمل البقاع وقد أذن مرعها بالامراع وغضت الشماب ورضت الاعشاب وأمكن الرعى وتمكن السعى وشرع الجند فى الاجتماع والجد فى الارتفاع وتواصلت الرسل وتراسلت الوصل ، وجاء رسول نور الدين بن قرا ارسلان يظهر لما يومىء به الانقياد والاذعان وهو وزيره قوام الدين أحمد بن سماقه وهو حاكم ملكه وناظم لسلكه وأخص خواصه وأخلص ذوى استخلاصه ودخل الى السلطان من بابى واستفتح خطابه بمفاتحة خطابى وفرق على الخواص والعوام تحفا وهدايا خصت وعمت ، وطرفا وسنايا مقاصده بها استتمت . ورده السلطان سريعا واتحفه احسانا وسيعا وشيعا وسامه بالوصول بمخدومه فى خصوص عسكره وعمومه واقمنا حتى وصلت البشرى بقدومه . وركبنا وتقليناه على فراسخ وشاهدنا منه الطود الراسى الراسخ وأنزله السلطان فى سرادقه وعام فيالقه فى فيالقه واستصحبه الى دمشق فأبدى بمنتزهاتها العشق واضافه وأزاره الطاقة وأدنى من فضله قطافه ولاعبه بالكره فى ميادينها وداعبه بالطرف فى بساتينها . ولما تم عبير الربيع فى عبوره ونمنم حبى الحبير فى حبوره تقاضى غريم الغرام بقضاياه وأعلن العزم السلطانى بخفاياه

---

(١٣) نص الخطاب فى برق ٥ ورقة ١٣٣ أ وبقية الاوراق من ١٣٣ ب ــ ١٤٠ أ غير مذكورة فى المختصر . وبهذه الاوراق ينتهى جـ ٥ من البرق وتبدأ سنة ثمانين وخمسمائة ويقول العماد : ويتلوه الجزء السادس ودخلت سنة ثمانين .

(١٤) فى الاصل : وتعذر .

وأخـرج خباياه وأيقن الاسلام بأمانيـه والكفر بمنـاياه . واجتمعـت العساكر برأس الماء على الملوك والامراء والأكابر والعظماء ، وأشـفق السلطان من تكليف ابن قرا ارسلان تجشم المشاق فأنزله فى مقام الارفاد والافاق وتقدم الى أخيه الملك العادل سيف الدين بالاقامة معه لايناسه . وكان قد قدم كتبا الى الأجل الفاضل بالوصول العـاجل ، والى تقى الدين نايبه بالديار المصرية باقباله منها بالجحـافل ، وسار على سمت الـكرك واستصحب عدد الحصر وعدد الابصار والعسكر اللجب والمنظر العجب .

فصل فى كتاب الى صدر الدين شيخ الشيوخ ببغداد فى شهر ربيع الأول سنة ثمانين : قد توافدت العساكر الشامية والجزرية والديار بكرية ووصل نور الدين بن قرا ارسلان(١٥) فى عسكره المجر وجنده المصـحوب بالنصر ، وعسكر صاحب ماردين فى جمع كثيف ومطلع فى السعد منير منيف وصاحب دارا وشهاب الدين اخو صاحب سنجار ، وكل منهم ماضى العزم شديد السهم لـمـا مهدنا له من المهم . ونحن متوجهون الى الكرك يسر الله فتحه وقرن بمتجرنا فى سبيله ربحه ، وقد استدعينا العسـاكر المصرية وتواعدنا بالوصول اليه والحصول عليه فأنا كنا أضعفناه وخربناه وخبرنا القتال عليه وجربناه وان فتحه يستدعى تكرير العود اليه بالحصر وتكدير صفو العيش على أهل الكفر ولعل بهمة سيدنا يتخذنا فى الملتقى ويسـعدنا على نيل الفتح المبتغى . قال وسرنا بالنصر واثقين وفى العـزم صـادقين ووصلنا الأسناد بالتأويب والخبب بالتقريب حتى أنخنا فى خامس ربيع الآخر بأعمال الكرك على ادر وما منا الا من شرح الله له الصدر . ووصل الخبر بقرب العسكر المصرى بالنصر الناصرى والبأس العمرى فتشوقنا الى اللقاء وجينا الى الكرك ونزلنا قبالة الحصن على واديها وعادتها منا عواديها . ووصلت العساكر المصرية ووصل الأجل الفاضل ثم وقع التظافر وكمـل التظاهر على مضايقة الحصن(١٦) باعادة قوتها الى الوهن فعبر السلطان الى الربض ليقرب سهمه من الغرض وسكن فى دار الرئيس . ونصب تسعة من المنجنيقات الكبار ورتب عليها نوب الليل والنهار وكان نصبها صفا قدام الحصار مبنية والأستار موثقة بأسباب الاستظهار فزارت الأسوار بالاسوار ورامتها بالداهية الدهياء حتى هدت أركانها وهدمت بنيانها وجردت من العمارة

---

(١٥) توجد فى الاصل بالهامش .

(١٦) قارن الروضتين(١) جـ ٢ — ٥٦ .

جدرانها وعمرانها ، ولم يبق بيننا وبين الحصن مانع الا الخندق الواسع العميق وقد تعذر فيه الطريق وكان من الأدوية الهايلة والمهاوى والمهالك الغايلة ولم يكن فى الراى الا طمسه وملوه بكل ممكن وردمه فعد ذلك من الامور/(٢١٧ ب) الصعاب وتعذر لحزونة الأرض وتمخرها اليه حفر الاسراب فامر السلطان يوم الخميس سابع جمادى الأول بضرب اللبن وجمع الاخشاب وبناء الحيطان المتقابلة من الربض الى الخندق وتسقيفها ، وتسفيف ستايرها وتاليفها ولما تمت دروبها ومنافذها وكانت شعاب واسعة لا يزحم فيها الجاى الذاهب ولا يصدم فيها الماضى الايب توافدت رجال العسكر على ذلك واتباعه واشياعه على نقل ما يرمى فى الخندق ويحشى به عرض ذلك المخرم وعمق ذلك المخرق فتمادى على ذلك تتابع الأيام والليالى وكاد أن يتساوى بالهدم والطم مخارم الأسافل والأعالى وكاد الفتح يقرب والنجح يكتب حتى عرض الونا وعنا ما عنا ودنا القدر بما دنا.

فصل من كتاب الى ابن قرا ارسلان وهان طم الخندق بالدبابات التى قدمت والاسراب التى بنيت واحكمت فوجد الناس اليه طريقا مهيعا فهم يزدحمون آمنين من الخراج عاملين على الافراج ، وقد امتلأ الخندق حتى أن أسيرا مقيدا رمى بنفسه من السور اليه ونجا بعدما توالى من الفرنج رمى الحجارة عليه .

قال : ووصل كتاب الملك العزيز وكان مقيما بدمشق بوصول رسل الديوان العزيز صدر الدين شيخ الشيوخ وشهاب الدين بشير ومن معهما فكتبت من السلطان جوابا منه : وما أسعده حين فاز بخدمة سيدنا صدر الدين ولقد وفق فى حضور حضرة جلاله كل يوم والتيمن بأنوار عزته والتبرك بايثار ادعيته وقد ظهر أثر قدومه المبارك وبشرت ببشر وجهه وجوه الممالك فلنا كل يوم نصرة ومبرة من الله مبرة ومسرة معلنة بالمنايح مسرة .

من كتاب فاضلى الى الديوان العزيز : أصدر الخادم هذه الخدمة من الكرك يسر الله فتحه وعجل فدحه وتوجه اليه عقب منصرفه من بلاد الساحل وبعد قضاء مفترضه وأعرض عنه أولا وهو قصده اعراض الرامى عن مراده وغرضه فانه لجى فى الحناجر وقذى ، ورصد الطرقات المسلوكة وصير فى السبل المشكوكة وقد أخذ من الامال محققها وقعد بارصاد العزايم وطرقها وصار ذنبا للدهر فى ذلك الفج وعذر التارك فريضة الله من الحج وجلس من هام الاسلام بمكان عمامته وختم على انفاس الحجاز

فما يدع نفسا يصعد من تهامته وخف بهذه القطيعة مدينة قد عقل الجبل حبوتها وأزلق الغراب أن يطأ ذروتها وعصم سوار الوادى القوى بعصمها وحمت عزة الجبل المطل ادهمها والخيل تصعد منه أنجما فى فلك بين طالع طالعها وغارب فى واديه لغاربها وجنا المنجنيق بحاكمها وقامت كف كفنه تزاحمها ولسان حبله للنضض يخاصمها . قال : واستمر مقامنا واستحر غرامنا وقد آن أن يفتح الفتح المرتجى بابه المريج ويحد الحد المبتغى المنهج البهيج(١٧) وما فى الفرنج من أهل الحصن من رأى له مخرجا وفرجا وتطايرت كتبهم الى من ورائهم بالاستصراخ واستأبس روع الكفر من الافراخ .

ذكر القفول من الشام واجتماع الفرنج فى الموضع المعروف بالواله

قال : وصل الخبر ونحن على حصار الكرك وقد ضايقناها أشد مضايقة وعالقناها أحد معالقه بأن الفرنج قد أقدموا مجتمعين ولنداء المحصورين مستمعين وقد جاءوا مدججين وفى بحر الموت ملججين فلما سمعنا بجمعهم طمعنا فى وقعهم وقلنا متى رقمنا القوم وعاودنا السوم فى مجمعهم وربضنا على مطلعهم وخيمنا قرب مخيمهم وهم فى منزلة الواله نازلون والهون للكريهة كارهون ، وكانت مسالك الدخول اليهم صعبة وعرة وطرق التطرف نحوهم متعمقة متقعرة فقلنا نحصرهم ونصبر عليهم ونصابرهم حتى يخرجوا فيخرجوا الى مفازة البلقاء فيفوزونا للقاء وأطاف العسكر بهم أياما فلم يطق اقداما فرحل عنهم لخناقهم منفسا فبقى الأمير عز الدين جاولى هناك مقيما للاطلاع على أحوالهم مستديما حتى اذا عرف بحركتهم للخروج أعلمنا بحالهم وأقدمنا على تتالهم فأصبح وربعهم خال ورسمهم بال وأنهم لم ينالوا بركوب الخطر فى طريق لم يخطر ببال فاتخذوا الليل حملا ورجعوا القهقرى وسلكوا فى المضايق سبلا وفروا من الشرك وكروا الى الكرك فأسفنا على فوت الفرص وافلات الطاير من القفص ، واجتمعت العساكر فى عماق بالاثقال وركزنا زرق الاسنة الزرقاء وقربنا بلقيا الخير قرى البلقاء وعدنا بالسلامة نذكر سلامة الاعداء .

ولما رأى السلطان أن الفرصة/(٢١٨ أ) فاتت استدرك الفارط بغزوة

---

(١٧) فى الاصل : المنهج وكذا يتطلب السياق .

قدمها وخطوة اغتنمها وجاب نابلس واجرى اليها الخيل وجر عليها الذيل وسبى وسلب وغنم وغلب واقام بها بياض يومه بسواد قومه حتى استخرج العسكر المغانم من المغانى وتفرقوا فى اقاصى شعابها والادانى . وفى طريق عوده نزل على سبيطه وفيها مشهد زكريا عليه السلام وقد اتخذه الفرنج كنيسة واودعوها اقمشة نفيسة وبها من الفرنج سكان واقساء ورهبان ففدوها باسارى مسلمين ولاذوا بالامان معتصمين . ثم اناخ على جنين فاهبط اوجها وهدم برجها وآب بالنهاب والسبايا والمراع والصفايا فاجتمعنا على الفوار وبادرنا بالوصول الى دمشق للاستسعاد برسل الديوان العزيز وبرؤية شيخ الشيوخ وكان البحر متوهجا وضرام الجو متأججا وفشت الامراض ووثبت بالجواهر الاعراض ومرض شيخ الشيوخ فتعفف عن مواصفة الاطباء واستمر فى ذلك على شيمة المتوكلين الاتقياء وقال : ان المبلى بالمرض هو المنعم بالشفاء . ومرض ايضا شهاب الدين بشير واصحابه وخواصه وحجابه فضجوا ومجوا وابوا الاقامة وابدوا السآمة وظنوا فى الرحلة السلامة وقضى كثير من اصحابهم فتشاءموا بمصابه واسفوا على شبابه والسلطان يستمهلهم خوفا على مزاجهم ورجاء نجح علاجهم فاشفق اصحاب بشير لشدة مرضه من وفاته واساءوا الظن بعده بعطايا السلطان وصلاته فارادوا ان يستعجلوا نقودهم ويستعملوا نفوذهم ويجتابوا خلعهم ويرحلوا ويأخذوه معهم فما عليهم بعد ذلك ما يقضى به القدر ويقضى به بعد قضاء وطر الورد الصدر فحملوا لاجله المطمع فى نفعهم مخدومهم على القدر وساء حظه الخطر وحسنوا له ان الهواء وبى وبيل وان رسم الصحة فى هذا المحل محيل فطلب بشير الاذن فى الرجوع بعد استماع جواب قوله المسموع فقضى السلطان حق اكرامه وادى فرض اجلاله واعظامه ومد له حصنا عرابا وحجورا عتاقا واطلق لاصحابه اعنة جوده على حسب اقتراحهم اطلاقا فلما كمل لهم العطاء وكشف لهم عن ستر الراحل الغطاء رغبهم فى المقام رفقا بذوى السقام فلم يكن للاصحاء بعد استيفاء حظوظهم فى اللبث حظ ولا لزمهم لاجل مرضاة مرضاهم حفظ واصبحوا وقالوا لمريضهم الثقيل انت اليوم فى خفة وحملوه راحلين به فى محفة واجاؤا شيخ الشيوخ وهو فى بحرانه للعوم فى بحرهم ولفح حر وجهه فى وجههم لحرهم فلم يران يقعد عنهم وان كان مرضه مقعدا وقال : ان القضاء المحتوم ان لم ادركه اليوم ادركه غدا وعاده السلطان بل تردد اليه كل يوم وليلة فى الرباط بالمنبع

ثم استقل مودعا وداع الابد ولم يعلم أن الأمل فيه(١) منقطع الأمد وكان من سنجار حسام الدين طمان مقدم عسكرها معنا فى الجهاد فاذن له السلطان فى عوده الى مقره بعسكره وأمره بمرافقة صدر الدين والرسل معه والرفق به وبهم فى مسيرهم ومذهبهم فساروا على سمت الرحبـة واغتنم الامير طمان بركة تلك الصحبة فواجهوا مهاب السموم ودبت الامراض فيهم مدب السموم ولما بلغ بشير الى السخنة شفت أعين مجيئه بيومه وسلبه الاجل المقدر من بين قومه ووصلوا بشيخ الشيوخ الى الرحبة وهناك لـقى ربه وورد من الكوثر شربه فهو ممن رفع سريره الملايك ووضعت له فى عليين الارايك . ولمـا جاء السلطان نعيه ساء وعيه ولم يزل يجرى على قلبـه ولسانه ذكره وشكره ولم يصف لاحد كما صفا له بشره وكانت وفاته فى شعبان بوأه الله الجنـان .

ذكر الملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه ووصوله مع عمه الى دمشق وعوده الى مصر منتصف شـعبان

قال : كان تقى الدين نايب عمه السلطان بمصر ولما استدعاه مـع عسكرها للغزاة رتب بالديار المصرية نوابه ووصل لعمه موازرا مظـاهرا وبمضاء مضاربه له مظافرا فلما وصلنا الى دمشق حضر بها معنـا وأبدى مكارمه وأبدعها بما وسعنا وبث الزند وبث الحمد وكانت بينى وبينه صداقة لصدق الاعتقاد معقودة واثمان صنايعى فى سوق صنايعه منقودة وأنا أثبت فى هذا الكتاب قصيدة ثائية مدحته بها فى سادس رجب سنة ثمانين بدمشق حرصا منى على تخليد ذكره وتعمير مجده قلت ومنها :

اذا شئتما عن غير قلبى تحـدثا ... فما حـل فيه الهم الا ليلبثـا
خذا شاهدى صدق على صـحة الهوى ... ضناساكنا منى ودمعى محدثا
(٢١٨ب)/رثى لى عدوى من جفا عينى ونا ... هيك من حال عـذرى لها مملثـا
غدت دمعتى فى هدب عينى كأنها ... وقد علقت فيـه غريق تشـبثا
واهيف حزنى فيه ارث فى الحشا ... من النار ما فى خده الحسن وارثا(٢)
يقول خليلاى الشـقيقان لو مشى ... على غـير متن الهوى ما توعثـا
رأيتم طـريق الحب وعثا واننى ... أرى طرقات الصبر عنـدى أوعثا

(١) فى الاصل : فى .
(٢) فى الاصل : ارثا . قارن الروضتين(١) ٢ ص ٥٧ .

قال : وخرجنا من دمشق فى شعبان وخيمنا على الفقيع(٣) ودعا السلطان تقى الدين فأمره أن يرجع بالعسكر الى مصر بعد ما ودع فى منتصف شعبان وعاد الى القاهرة ثم رجعنا من فرض الجهاد الى فرض الصيام واجدنا شهر رمضان فى دمشق راحة المقام ورجع كل عسكر الى مركز ملكه وكل تبر الى أربع فلكه .

ذكر الشيخ العالم زين الدين أبى الحسن على بن نجا الواعظ المقيم بمصر

قال زين الدين هذا من أهل دمشق ومن ساكنى مصر ذو لهجة فى الوعظ صحيحة وبهجة فى الفضل صبيحة وقبول من القلوب وفصول فى فصل الخطاب الخطوب ، وكان السلطان يستشيره ويروقه تدبيره ويتيمن بندبه واستحبابه ويمده بميراته ويوده بمكرماته . ووصل فى هذه السنة منه كتاب الى السلطان يتضمن برح لوافح الاشواق وشرح فوادح الفراق ويشوق الى مصر ونيلها ونعيمها وسلسبيلها ودار ملكها ومدار فلكها وملتقى البحرين ومرتقى الهرمين وريفها الريف وصيفها الخريف وان شتاءها ربيع وشتاتها فى الفضل جميع وذكر فى كتابه ما دل به على فضيلة تلك الديار من الآيات والاخبار فكتبت اليه فى جوابه عن السلطان بتفضيل دمشق على مصر : وردت مكاتبة الشيخ الامام زين الدين اطال الله بقاه وسعدنا منها بعد عهد بعيد من مراسم سرورها بعيد وشكرنا الله تعالى على ما تضمنته من النعم المستمرة والمواهب المستقرة المستدرة وعرفنا طيب الديار المصرية ورقة هوائها وترفرف آلايها وضحك أرضها من بكاء سمائها وبعد شهادة زين الدين بزينة مشهدها واجتلاء العيون برسمها مقام أثمدها قد حكمنا بفضلها وفضيلتها وحفظ وسيلتها وصدق محلتها ونحن نسلم له المثلة فى طيبها وتوفر نصيبها ورقة نسيمها ورايق تسببها لكن لا ريب أن الشام أفضل وأن أجر ساكنه أجزل وأن الزلال البارد به أعل وانهل فان الهواء فى صيفه وشتائه وان الجمال فيه أكمل وأن الجمال فيه أجمل ودمشق حديقته الناضرة وحدقته الناظرة ومنه : لا سيما وقد تمسكنا بالاية والسنة والاجماع

---

(٣) يرجح أن تكون فى شرق الاردن. انظر الخريدة شعراء مصر ١ــ٧.

وغنينا بهذه الأدلة عن الاختراع والابتداع أما قسم الله بدمشق فى قوله « والتين والزيتون »(١) والقسم من الله بها أدل دليل على فضلها المصون . أما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خيرة الله من أرضه يسوق اليها خيرة من عباده وهذا أوضح برهان على أنه خير بلاده . أما الصحابة رضى الله عنهم أجمعوا على اختيار السكن بالشام . أما فتح دمشق بيكر الاسلام وما ينكر أن الله ذكر مصر وسماها أرضا فما الذكر والتسمية فى فضيلة القسم ولا الاخبار عنها دليلا على الكرم وانما اكتسب الفضيلة من الشام بنقل يوسف الصديق اليها عليه أفضل السلام ثم المقام بالشام أقرب للرباط واوجب للنشاط وأين قطوب القطب من سنا ينير وأين ذرى منف المشرف من ذروة الشرف المنيف المنير وأين الهرم الهرم من الحرم المحترم وبينهما فرق مابين الفرق والقدم وهل للنيل مع طول نيله وطول ذيله واستطالة سيله برد بردا فى نقع الغليل وما لذلك الكثير طلاوة هذا القليل وسبيل هذا السلسبيل ونحن ما نجفوا الوطن كما جفاه ولا نأبى فضله كما أباه وحب الاوطان من الايمان ومع هذا ما ننكر أن مصر اقليم عظيم الشأن وأن مغلهسا كثير وان ماءها نمير وان ساكنها ملك وأمير ولكن نقسول كما قال المجلس السامى الاجلى الفاضلى اسماه الله ان دمشق يصلح أن يكون بستان لمصر ولا شك أن أحسن ما فى البلاد البستان وزين الدين وفقه الله قد تعرض للشام فلم يرض أن يكون المساوى حتى شرع وعد المساوى ولعله يرجع الى الحق ان شاء الله تعالى . قال : وذكرت بما انشأته فى تفضيل دمشق كتابا كريما أصدره مولانا الفاضل الى السلطان يشوقه الى مصر وأولاده بهسا ويصف طيبها وذلك فى سنة أربع وسبعين وهو/(٢١٩ أ) أدام الله سلطان مولانا الملك الناصر وأعلى ولاءه فى صدور الاولياء ومكن أسنته من ظهور الاعداء ولاعدمت السنة منه أمداد النعماء ولازالت بادية لعين صوابه وجوه الآراء باسمة الى قلوب رجال رجائه أسارير السراء المملوك يقبل الارض وينبىء انه وردت المكاتبات الكريمة والتشريفات البارة والشروح الشارحة المسار السارة وتسلم منها حصته التى لا تتبع حظه فيه بملء الأرض ذهبا ولا تأخرت عنه اسار خلقها بنفسه طلبا وجمع بين خطاب المولى وسسمعه وخطه وقلبه طامعا أن يجمع الله بين عينيه ووجهه وذلك يوم يكون فيسه كما قيل :

---

(١) سورة التين آية رقم ١ .

رفعت عن الدنيا المنى غير حبهـا　　فما أسـأل الدنيا ولا اسـتزيدها

أو مما قال قيس :

متى بات هذا الموت لا يلف حاجة　　وقيـل الاجابة عند الفضـول

فبشر بما جرت العادة به لا قطع الله تلك العادة من سلامة وصحة وعافية شملت الاولاد السادة أطاب الله الخير اليهم عن المولى والى المولى عنهم وعجل لقائه بهم ولقائهم له فانه من يلق منهم فلك دستة برجه وفارس مهده سرجه فمن الذى لا يصلح له منهم السرح :

فهل لدى منهم ما محالة الميـدان　　والدرج تبين فيهم ميسـم المجـد

＊＊＊

تبين فيهم ميسـم المجد والعـلى　　وليدا يفـدى بين أيدى القـوابل

＊＊＊

لم يسـتهل بلى ولكن وحشـه　　لم لا تعد له الدروع لفايفـا

فهم والله بحمد الله بهجة الدنيا وزينتها وريحان الحيـاة وزهرتها ، وان فؤادا وسع فراقهم لواسع ، وان قلبا قنع باخبـارهم لقانع وان طرفا ما نام على البعـد عنهم لهـاجع ، وان ملكا ملك تصبره عليهم لحـازم ، وأن دهرا جاد بهم لسخى ثم اذا أبعد عنهم لظالم ، وان نعمة الله فيهم لنعمة بها العيش ناعم انك ان ابصرتها مرة أكبرتها أن يتمناها فدعونا من تعليل البلد الاعسر وملعبها الملعب الاصغر وشتائها العذاب الاكبر ، ومن رأس عينها الضيقة المحجر ، ومن ثلجها الذى مقس الجبال بعينه ومن بردها الذى لا يشفع الخمر عنه الا باذنه . وعود الى ما اترفتم فيه من مساكنكم فانهـا قد علتها وحشة لعطينها وسالت مطالع رسومها عن أقمار سـلاطينها ، واذكروا النيل الذى وفى لكم هذه السنة بنقصه والى أن يكون ماؤه ذخيرة لغير جودكم الذى أحصاه الله ولم يحصه ، واذكروا فرطها فقد بلغ شطاطه الى الجناد وعلت افراطه الى أن يكاد يصافح افراط اللحم متمكنا ، واذكروا ما طوبتها فقد كاد يقيم الحجة على ملك الشام ووجمه ويتغلغل برده فيسرى الى قلب العليل وكأنه جار على غير طريق فمه واذكروا صحة هوائها وتقضيته لآمالكم حتى انعم الله عليكم قبل صحة أجسامها بصحة أجسامكم ولولا انكم أهنتم الذهب الاحمر والبستموه للروع من جودكم الشعار الاصفر لقلنـا واذكروا ذهب مصر لكن قد أهنتموه واذهبتموه مجانا حتى غلب همم العافين فاستقلوا منه بما اتخذه الاملاك تحايا واذكروا رياحين القلوب من زهرات

أولادها ، وقطعات أكبادها أما يشتاق جيد المولى بدررهم أما تظمأ عينيه الى أن يتروى بنظرهم .

كم ذا التجلد والاحشاء راجفة أعيذ قلبك أن تسطو على كبدى

وللمولى ابقاه الله أن يقول :

وما مثل هذا الشوق تحمل مضغة ولكن قلبى فى الهوى بقلوب

فلو أطيع المملوك وقبل رأيه المسئول لكانت كنية المولى الى الاملاك فانها كنية حققها القدر وما يحليها ووسمه بها أولاده لا كتابه وساق بها كتاب الله ومن المملوك وما كتابه وقد كان الرشيد رحمه الله يسمى أبو الامناء لمكان أولاده الامين والمأمون ، واذا كانت الكنية لثلاثة فلا يكن أبا ثلاثة عشرة أنا بيت القناة وعثمانهم كسنانها وكليالى البدر ولانها ليلة سرار نقصانها . والمملوك فى هذا الفصل رسول مصر وما هو عنها فى البلاغ بلاغ لا صاغ عنها من القول الا ما ساغ ، وهو ينتظر جواب الرسالة وقد خالطها بانشاد وما هجروا أوطانهم عن ملالة وللآراء العالية فضل الشمول .

ذكر صاحب أربل الامير زين الدين أبى سعيد يوسف نيالتكين بن زين الدين على بن بكتكين وانتمائه الى الخدمة

قال : كانت اربل من ولايات الموصل معدودة وايالتها بايالته مشدودة فأراد صاحب أربل أن ينفرد بالاستبداد/(٢١٩ب) ويستقل بالبلاد فكاتب السلطان بالاعتزاز به والاعتزاء والانحياز الى حوزته والاشتداد بقوته فترددت كتبه ورسله ووضحت فى الموالاة والمشايعة سبله وأخذ اليمين على حفظه وصيانة حقه ورعاية حظه ولزم عقده وحزم عهده .

وكاشف المواصلة بالمقاطعة وأظهر المناب عن المتابعة وترادفت رسايله فى حظه بالحض واقامة جداره المنقض فان المواصلة قامت قيامتهم بقيامه فما أقعدتهم غير المهابة والخواطر المرتاعة من الاخطار المرتادة فداروا أعراضهم بالاستعطاف وداووا أمراضهم بالاستلطاف فعز عليهم وعزف وركب الانف وغنى عن السواقى بالبحر الخضم وأعاد نشر أمره بالانضمام الينا

الى الضم ونفذ يطلب المنشور ببلاده وتحكيمه باستبداده وانفراده فاجيب الى مراده ، وكتبت له منشورا وفق أربه وفوق طلبه فى مستهل المحرم سنة ثمانين وتفصيل ما كتب فى منشوره : اربل وقلعتها وأعمالها وجميع ما قطعه الزاب الكبير شهرزور وأعمالها ، معايش بيت القرايلى الدشت(١) والزرارية .

قال : وممن لجأ الى السلطان واحتمى بحمايته معز الدين سنجر شاه ابن سيف الدين غازى بن مودود بن زنكى صاحب الجزيرة فنفذ فقيه الجزيرة مع حاجبه فى استحلاف السلطان فأكرم الرسول وأبرم السول وكان يحث على قصد الموصل وكان هو ولى عهده والموصى له من بعده فلما فــل شبا شبابه ونقل من بين أترابه الى ترابه خلفه أخوه عز الدين مسعود وقنــع ابن أخيه هذا سنجر شاه بالجزيرة وكان بعد ذلك على عمه من الجزيرة فرجا من السلطان له فرجا وأمل ان يحدد له من العز منهجا مبهجا(٢) .

ذكر صاحب ماردين قطب الدين ايلغازى بن تمرتاش ابن ايلغــازى بن ارتق وفاته فى هذه الســـــنة

قال : هو من جملة الامراء الارتقية ممن رتق أولوهم فتــوق الاسلام ووقفوا فى نصرة الدين مواقف الكرام ولهم فى مبادىء خروج الفرنج غايات فى الجهاد لا تدرك وملكوا من قياد المصاعب وعاد المطالب ما لا يكاد يملك وحفظوا حلب وأبطلوا من الفرنج عنها الطلب ، ونزلوا البيت المقـــدس قبل استيلاء المصريين عليه وحموا ببأسهم ما حواليه فما أخذه الفرنج الا من المصريين فى سنة اثنتين وتسعين واربعمائة وبقيت تلك الخطة وبلاد الساحل مع أهل الشرك وعجز عنهم ذووا الملك الى أن يسر الله سبحانه فتحها للملك الناصر صلاح الدنيا والدين يوسف بن أيوب فى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة وسيأتى ذكر ذلك فى مقامه عند ورود عامه . فبقيت ديار بكر وبلادها فى أيديهم وتفردوا فيها بتوليهم وذبوا عن محصنات معاقلها ومحصنات عقايلها فبهم بقاء بقاعها وبها يهم ضياء ضياعها وبأمرهم أمور ولاة قلاعها يتوارثها كابر عن كابر وماجد عن ماجد . وقد تقدم فى عصرنا هذا ملكان أحدهما هذا قطب الدين ايلغازى صاحب ماردين ومعه ميافارقين وتلك الولايات والبلاد

---

(١) الدشت بليدة بين اربل وتبريز . معجم البلدان ٢ــ٥٧٥ .
(٢) فى الاصل : منهجا .

التى تجاورها والاعمال والمعاقل التى تقاربها والآخر نور الدين محمد بن قرا ارسلان بن داود بن سكمان بن أرتق وهو صاحب حصن كيفا وخرتبرت(١) والبلاد التى تناسبها فلما ملك سلطاننا الشام ولزم أمره النظام فأول من لاذ ببابه وعاد بخبايه نور الدين بن قرا ارسلان فانه خاف من حمية قلج أرسلان كما سبق فقصده السلطان ودخل حدود بلاد قلج ارسلان وخيم على كوك سو حتى زال الخوف وأمن السوء وذلك فى سنة ست وسبعين وقد مضى ذكره وشاع فى ذلك أمره فلما خرج من مصر سنة ثمان وسبعين راسل هذا نور الدين وابن عمه قطب الدين صاحب ماردين فى مساعدته على قصد الموصل فأجاب نور الدين دعاه ولبى نداه وسار اليه وقدم عليه ونبا قطب الدين وأبى فان صاحب الموصل ابن عمته وما لاق خذلانه بكرم سيمته ولكون شاه أرمن صاحب خلاط خال صاحب ماردين ثبت على مؤازرتهبمضاء عزيمته فلا جرم سعى السلطان فى نصرة نور الدين وفتح آمد ووهبها له وأناله من المال والجاه ما أناله . ثم راسله صاحب ماردين بالوفاق وتنكب نهج الشقاق فاثبت عذره ونفى ذعره ولم يزل عيشه رغيدا والظل مديدا الى أن قلصه القضاء المحتوم والقدر المعلوم ونعى شبابه ونعب غرابه وخلف عيالا وأولادا أطفالا وله ابنان صغيران أكبرهما ينيف على العشر(٢) سنوه فسفرت بولايته/(٢٢٠ أ) بعد قطوبهما الوجوه وكفل به فى ماردين أحد الاعيان من مماليك أبيه نظام الدين البقشى(٣) وتولاه تولية المشفق النبيه واستقامت الاحوال واستنابت الآمال وافتقروا الى اشفاق السلطان واشباله وابدال اعراضه باقباله وايوائهم الى وافر أفضاله ووارف ظلاله .

---

(١) خرتبرت : بالفتح ثم السكون وفتح التاء المثناه وباء موحدة مكسورة وراء ساكنة وتاء مثناه من فوقها وهذا سم آرامى وهو الحصن المعروف بحصن زياد فى أقصى ديار بكر من بلاد الروم بينه وبين ملطية مسيرة يومين وبينهما الفرات . معجم البلدان ٢—٤١٧ .

(٢) فى الاصل : عشرين وكذا هو الصحيح فمن المعلوم أن أولاد قطب الدين كانوا أطفالا . وقد ذكر البندارى بعد ذلك عمر الطفل انه كان ابن عشر سنوات .

(٣) قارن الروضتين(١) جـ ٢ — ٦٣ .

ذكر ما اعتمده السلطان فى باقى هذه السنة

قال : أقام السلطان فى دمشق حتى دخل الشتاء وعارضت عارض نداه الانداء وجادت كجوده السماء ومنح فى خصب السنة كما منـــح فى احسانه الرجاء وتفرقت بايدى أوليائه كامواله الاعـــداء وأقام حتى أنقضى رمضان ولم يرض بالمقام فى كن كانون وآثر الدنو من اعدائه الذين لا يدينون ولا يدنون فهمت همته وحميت حميته وأخذ بالحزم ونفذ بالعزم وأســـتحض واستحث وحظر اللبث وأصبح فى يوم أصحت سماه وصحت فى الحسن والطيب اسماره فأخرج مضاربه على سمت بعلبك وضربت خيامه من دمشق على فرسخين وهو يركب كل يوم لصيده وقنصه واهتبال فرصة . وأقـــام أياما حتى اجتمعت اليه الشداد واتصلت بتوامها الاقداد وشد زمام الزماع للاسراء والاسراع وسار على طريق البقاع وفزعت تلك الجبال بفـــوارع الجبال واصحرت الاساد الخوادر من الفيافي الاغيال وسالت أوديةالشعاب ببحر الجيش ذى العباب وسرنا حتى خيمنا على بعلبك بظاهرها ودخلت البلد هناك فى العشرين من ذى القعدة مفارقا للمخيم بسبب المرض الملم وشـــق على السلطان انقطاعى وتوجع لما راعه من أوجاعى فانقطع أملى واتصـــل ألمى . ورحل السلطان الى حمص فسير الى طبيبها ابن الصورى وســـمع المخدوم الاجل الفاضل بخبرى وكان بدمشق فجمع الاطباء وخاطبهم فىتدارك حالى فندب من وقته الموفق بن المطلوب(١) وسار فى يوم وليلة الى بعلبـــك من دمشق فرأيت منه عمل من طب لمن حب فشفيت بعدما اشقيت وعجلت أوبتى الى دمشق وكان وصولى اليها فى ثامن ذى الحجة واخرست بحضورى شقاشق المرجفين وأقمعت بأوبتى مناشق المتشـــوقين واقمت الى أن عاد النشاط وتيقن على المزاح الاحتياط والسلطان لحماه يرقب قربى ويطلب أوبى وجاءه عند استشعار اليأس منى من بذل له فى منصبى بذولا فما استحسن عنى اليهم عدولا وخلع على البشير بسلامتى . وحين استقام مزاجى استقمت على منهاجى ووافيته وما برح من حلب حتى جئته وما لقيـــت الســـعادة حتى لقيته وما أمر بالرحيل حتى وضعت بمخيمه رجلى وأبدى لى أن مقـــامه من أجـــلى .

---

(١) ارسل له أيضا الفاضل من دمشق الحكيم ابن المطران واســـمه أسعد بن الياس وطب العماد على يديه ، الروضتين(١) ٢ — ٦٠ .

قال : ودخلت سنة احدى وثمانين

والسلطان بظاهر حماه مخيم وللعزم على قصد الموصل مصمم والثناء قد انكسر والنور قد انحسر ووصلت الى السلطان يوم عزمه على الرحيل واذن وصولى بأحياء رسم منصبى المحيل ورحلنا للارب منتبهين والى حلب متوجهين ولما قربنا من تل السلطان تلا السلطان سورة الحمد وتلاه سلطان السعد وجاء أخوه الملك العادل سيف الدين صاحب حلب لتلقيه وقد أقبل بالاقبال وجلا وجه الجلال ومعه عسكر حلب فى هيئة رايقه وهيبة رايعة فاستبشر السلطان بلقائه ودعا له بلقائه . ولما وصلنا الى حلب در حلبها وتلقانا عجمها وعربها وخرجوا وتبرجوا وتنزهوا وتفرجوا وخيم السلطان بظاهرها ظاهر المخيم طاهر الاديم مستقيما من أمر الله على المنهج القويم وأقام أمامها(٢) الى أن سأل عن الأحوال ومال نحوه بالنوال وأطلع بدور البدور فى آفاق الانفاق وأطلق قيود النقود بالارفاد والارفاق وتوجه للمسير ماطر السماء سامى المطار سامى الاقتداء قوى الاقتدار . وكنت فى ستة من مماليكى وخدمى واشياع أملى واتباع عملى والمحتدين احسان السلطان والمعتفين سلطان احسانى . ولما تكاملت جموع الجنود وتواصلت وفود الحشود رمى قبل العشية دهليز النوبتية فى صفر وفض الختام وقوض الخيام . وأصبح السلطان راكبا فى عسكره ساحبا ذيل عشيره وهو قمر هالته وشمس جلالته ووصلنا الى مضيق جبلان ثم سرنا فى سهول وأوعاث فى مراحل ثلاث حتى خيمنا على الفرات ببحر المبرات ونزلنا بمكان تحت البيرة على فرسخين نعرف ترتيبا . والفرات قد تحاجزت مدوده وتجاوزت حدوده ومحت من جسوره سطوره وأعجزت ورده وصدره اعجازه وصدوره/ (٢٢٠ب) وهو متلاطم الامواج متزاحم الاثباج وكان السلطان قد سير الى معاقل الفرات وقلاعه ونواحيه وضياعه وأمر عليها بعمارة كل سفينة ومركب وزورق فحالت جواريها كالجبال الرواسى فعلونا آكامها ورفعنا اعلامها « بسم الله مجريها ومرساها »(٣) واقمنا ثلاثة أيام للعبور وأحمدنا مصبحها وممساها واخضنا الخيل الماء فغامرت الداء فسبحت السوابح فى تياره وتسابقت السوابق فى مضماره ولما وقع العبر توقفنا حتى ضم النشر فأخذنا

---

(٢) فى الاصل : أيامها .

(٣) سورة هود آية رقم ٤١ « وقال اركبوا فيها باسم الله مجريها ومرساها » .

على سمت حران فى طريق برج علوة والبيضاء وقد ضاق بالعسكر واسع الفضاء ووصلنا الى حران فى عدة مراحل وخيمنا بظاهرها ظاهرين وبامداد نعم الله مظاهرين .

ذكر الامير مظفر الدين كوكبورى صاحب حران

قال : قد مضى ذكر الامير مظفر الدين كوكبورى زين الدين على كوجك فى سنة ثمان وسبعين عند توجه السلطان الى الموصل ووصوله الى الخدمة وحلوله محل المشاركة فى الدولة والنعمة ولم يفارق الخدمة على الموصل وسنجار وكان معنا على آمد عند افتتاحها واختتم كل خدمة نجاحها وحلب على حلب أفاويق الوفاق وظاهر فى الغزوات وظافر على العزمات ولم يزل بأخيه زين الدين يوسف بن على صاحب اربل يستعطفه ويستجديه ويحسن له الالتجاء الى الخدمة السلطانية ويرغبه . وصار مظفر الدين لكل من يرغب فى الخدمة قدوة ونال بذلك من القرب والزلفى حظوة وعاد من يهتدى به يقتدى وبوسيلته يحتدى وبخطابه يبتدى ولما عدنا من غزوة الكرك فى سنة ثمانين وأقام السلطان بدمشق لاداء فرض الصوم وظن أنه يريح ويستريح . وتواصلت كتب مظفر الدين بالحض والحث وتتابعت رسله على هوى الهواده عادلين وللمعونة بالمئونة باذلين وبذل رسوله الخاص ابن ماهان[1] عن صاحبه ما عز وما هان وقال : ان مظفر الدين اذا عبرتم الفرات يستدرك كل ما فات ويقول بكل ما يحتاج اليه فى تلك البلاد ويقدم يوم الوصول الى حران خمسين الف دينار وكتب خطه بما أفصح به من قول وأوضحه من قرار وأرغب الامراء والحجاب والخواص فى البذول فسرنا على ما سبق ذكره على البلاد والاقامة بها بارزة الاستعداد حتى خيمنا على حران بالشرح الذى تقدم وسكت السلطان عن طلب ما كان من البذول وما تكلم فان شيمته الحياء وسجيته السخاء لكنه لما وجد مظفر الدين غير منبعث لحركة ولا متحرك فى مملكته وهو غير مبد لاهتمام ولا مجد بالتزام ارتاب بسكوته وسكونه وتواجهت مختلفات ظنونه ووشى الوشاة وسعى السعاة وقيل لولا عمارة الحال بينه وبين المواصلة لبقى على حميته وتحقق بفعله ما تبرع بقوله وسيرنى السلطان ومعى شمس الدين بن الفراش قاضى العسكر وقال : احضرا لديه واكشفا

---

(١) في الاصل : هامان وكذا صحته .

عن حالتيه واخبراه بما أخبر عنه رسوله وبما سبق به بذوله(٢) وبما استأنفه من الأعفاء والاغفال دون الاحتفاء والاحتفال فلما بصر بنا مظفر الدين انبأته الفراسة بما جئنا فيه وشرع فى اثبات ما ينافيه وقام قبل أن يقعد وجاء بمصحف كريم وأقسم به قسم بر على الولاء مقيم . ولما فتح المصحف ووضع عليه يده ليحلف قرأت منه « يا أيها الذين آمنوا اوفوا بالعقود »(٣) فقلت له: يا أمير هذا يأمرك بالوفاء وقد أتى القرآن لكل مرض بالشفاء فما رفع يمينه حتى استوفى يمينه واستحسان أمينه وكذب رسله وجحد ما اعترفوا به من قوله وبذله كله ثم صرف وزيره وادعى عليه تزويره ولولا ذلك ما هان ابن ما هان ولم يصدق على أن ما كان . فجئنا وأخبرنا السلطان بحلية الحال وأن ما سبق من القول كان محالا على محال فتذمر وتذمم وتلون وتلوم وتعجب من القضية وأنها ليست على الحالة المرضية ثم سكت عن شأنه مطرقا حتى أصبح وركب الميدان وفرغ من اللعب بالصولجان استصحب معه مظفر الدين الى سرادقه على العادة واطاع فيه حكم الارادة ونقله الى خيمته ووكل فيها به ومنعه من أصحابه فوقع الخبر بخفضه وشاع سر قبضه وهاج العسكر وماج المعشر وقام المحشر واجتمع الامراء عند السلطان وأشاروا عليه بخلات العفو والاحسان واجمعوا على أن ينقلوه الى قلعة حلب وخافوا انه اذا خلى سبيله هرب وفات الطلب فلما انصرف الامراء وتصرفت بهم الاراء وخلا وجه السلطان وانا عنده والفقيه ضياء الدين عيسى وقاضى العسكر وعرفنا منه سجية/(٢٢١ أ) الاحسان فقلنا له انتهز فرصة الامكان وقلد المذكور طوق الامتنان وما بلغ الامر الى الايحاش وما فقد العثار مهلة الانتعاش والذى أشاروا به ليس من الصواب ولا يحكم فيه بظن الارتياب وكان هذا رأيه فوافقته وعلم أنه قد ما خصه ومازحه وناصحه وما نافقه وأنه بالغبن مصاب وبالمنن مغتاب ، وقال : امضوا اليه فاكتنفوا ضمايره واستوضحوا سرايره وسكنوا من روعه وأعيدوا الى أفقه حلقة عادتى ضوءه وضوعه فوافينا وهو مرتاع مستشعر فاجتلى منا وجوه المعارف وهش بهشاشتنا وسر ببشر أسرتنا وقلنا له لا تغتم لما بك فان السلطان يطلب بعتبك اعتابك وانما أجلسك ليقرب عليه المراسلة والمخاطبة. فقال : هو مالك رقى وعارف حقى وأنا أسمح بما معى من البلاد واخرج اليه

---

(٢) فى الاصل : بذل وكذا يتطلب السياق .

(٣) سورة المائدة ، آية رقم ١ .

من الطراف والتلاد وأصحبه وأخدمه ويبين له صدقى الذى أعزمه فقلنا له بل تسلم اليه قلعتى الرها وحران وتظهر بذلك له الاذعان . فقال : كل ما تشيرون به فهو مقبول وعلى الرأس والعين محمول ، وعدنا الى السلطان ولم يبرح من المكان وأمر من الخزانة بتشريف يليق فقد شفعه التأييد والتوفيق ، واستدعى به فقبل الارض وتقبل الفرض وعاد الى بيته بالحمد جديد السعد سعيد الجد وتسلمت منه القلعتان ثم اعيدتا اليه فى آخر السنة ومحيت سبة توهموها بكل ما استماحه من الحسنة .

ذكر الرحيل من حران وما جرى بعده

قال : وأقمنا بحران فى صفر ووجه المنى قد صفر ودخل شهر ربيع الأول فى أوائل الربيع واغتنمنا مرعى المراد فى المراد المريع . وقال السلطان : لا مكث بعد اليوم ولا لبث فى قصد القوم فصممنا على الرحيل وجينا الى رأس عين فملأنا سهولها وحزونها وكدنا نشفه عيونها وعبرنا على بلاد رمت الينا باكبادها وملكنا طوعا وكرها أزمة قيادها ونزلنا بدارا لنا أميرها ووصل الى الخدمة وامتزج بنا وانشج بالود وانتسج وكان قد وفد بعساكر ديار بكر عماد الدين أبو بكر بن قرا ارسلان بسبب مرض نور الدين أخيه فشكرنا على تهديه فى توخيه . وأقمنا بنصيبين ريثما قضينا الاشغال ونضونا الاسمال ثم سرنا وخبب الفلق على نسيج الفيلق مزرور وطرف الشمس الارمد بكحل العجاج مذرور وأقبل صاحب الجزيرة معز الدين سنجر شاه بن غازى بن مودود بن زنكى وكان قران النيرين والتقاء البحرين بين النهرين فأصبحنا لاقباله حامدين ولاستقباله عامدين والتفيناه بدرا طالعا فى هالات اعلامه واسدا خادرا فى سلات آجامه واختليناه قمرا فى نجومه وسررنا بقدومه فانتظم فى السلك واحتكم فى الملك وفاض الجود له ولاصحابه حتى دنت كل شاحط ورضيت كل ساخط ، واستدركنا بالاحسان كل فارطة لاجل تراكم الجحافل والتزاحم على المناهل قصدنا دجلة من أقرب الطرق وتركنا طريق الدولعية(١) والمرق ونزلنا على بلاد دجله على بلد وكان وصولنا الى هذه المدينة فى آخر شهر ربيع الأول ثم حدنا على الشاطىء للتنقل والتحول حتى تصل الى الموصل ثم خيمنا على الاسماعيليات وهناك القينا العصا

---

(١) الدولعية قرية كبيرة من قرى الموصل — معجم البلدان ٣—٦٢٤ .

واستقرت بنا الهوا وتلونا سورة « والنجم اذا هوى ❊ ما ضل صاحبكم وما غوى »(٢) وضربت الخيام الى المرقة مغربة ومشرقة ومجتمعة ومتفرقة ، وقد هزتنا الى النصر الاشواق واستفزتنا الى ممالكها الآفاق وطارت الاخبار الى الاطراف ورجفت الأدانى والأقاصى بالأرجاف . وأول ما بدأ به السلطان يوم نزوله ببلد قبل الاسماعيليات تقديم ما هو أثم الواجبات والزم المفترضات وندب القاضى ضياء الدين أبا الفضايل القسم بن يحيى بن عبد الله الشهرزورى فى الرسالة الى المواقف الشريفة النبوية وسدة المنيفة الامامية الناصرية وأنهاء الاحوال وذكر الاسباب المقتضية للنهوض وأن أهل الموصل مواصلون الأعاجم وخاطبون لسلطانهم القايم وناقشوا اسمه فى الدنانير والدراهم وأنهم يتعززون بالبهلوان وأنهم يرسلون الى الفرنج ويقوون أنفسهم على قصد الثغر وتفريق الجمهور وانه ما جاء طمعا فى استضافة ملك ولا قالع بيت قديم/(٢٢١ب) ولا قطع أصل كريم وانما مقصوده الاصلى ومطلوبه الكلى ردهم الى طاعة الامام ونصرة الاسلام وقطعهم عن مواصلة الاعجام والزامهم بما يجب عليهم من حفظ الجار وصلة الارحام . فهذا صاحب الجزيرة وهو ابن أخى صاحب الموصل ولى عهد أبيه ولم يرع فيه ذمة أخيه وأبعده عما استحقه بالارث والتولية وأجاز حريه وقطع رحمه ولو تمكن منه لأطاح دمه ولولا خوفه من جانبه لما التجأ الى هذا الجانب وما أختار الأجانب على الأقارب . وهذا صاحب اربل جار الموصل أبوه زين الدين على هو الذى حفظ بيتهم وخلف فى احيائهم ميتهم وهذا ولده فى جوارهم يشكو جورهم ولا يعرف فى المكيدة عليه غورهم وقد استجار وهو جارهم الادنى حديث صاحب الحديثة(٣) فى حديثه لا يخفى وقد أشرف على الضرار وأشفى وعين من تكريت من مخافتهن لا تكره وهلم جرا من نوايب وصروف لا تحصى وضرايب ومكوس عنها لا يستقصى أهل الشرك فى تفريق الكلمة وتبديد السلك وعود فى ذكر هذا كله مشافهة الرسول وعلى ما يراه من علاقات الود والقبول . وكتبت الى الديوان العزيز والى الصاحب كتبا برسالته والحوالة على مشافهته وكان ضياء الدين الشهرزورى الوزير يشير بمدحة أسيرها الى الصاحب

---

(٢) سورة النجم آيات رقم ١ ، ٢ .

(٣) بلدة من أعمال الموصل . يقول ياقوت هي بليدة علي دجلة كانت بالجانب الشرقى قرب الزاب .
معجم البلدان ٢ـ٢٢٢ـ٢٢٣ .

واستدرار ما فى الديوان باسمى من رسوم المواهب فاصحبته كلمة مطلعها :

قضى الوجد لى أن لا افيق من الوجد ... فياضله اللاجىء اذا ظن أن يهدى
أياحادى الاظعان خل زمامها ودعها ... على خدى بظعنهم تحدى
وما كنت أدرى قبل صارم حتفه ... وقبلى أن السيف يقتل فى الغمد
ولاصبح الا وجهه الواضح السنا ... ولا شمس الا زايد الثاقب الزند
ما رءوس الاعداء الا سنابل ... وما نبتت الا لسيفك والحصد
كان لثام الزعف، من فوق وجهه ... غام لبدر التم وفراقه مبدى
بدرع كان البحر فى البحر زاخر ... وطرف كان البرق يومض فى لبد
تساور أفواه الجراح رماحه ... مساورة الاميال للاعين الرمد
وما لامير المؤمنين كيوسف ... فتى فى مراضيه بمهجته يفدى(٤)

قال : وشرع السلطان فى اقطاع البلاد والتوسع بها على الاجناد وسير الامير سيف الدين على بن أحمد بن المشطوب الهكارى ومعه الامراء من قبيلته والاكراد من شيعته الى بلد الهكارية وجماعة من الامراء الحميدية الى المعقر(٥) وأعماله لاستفتاح قلاعها واستغلال ضياعها ونصبنا الجسر وعبر مظفر الدين صاحب حران وخيم بالجانب الشرقى ووافقه جماعة من الامراء فى العزم الماضى المضى وجاء أخوه زين الدين من اربل بجنوده وبنوده وجموعه وحشوده وتصرفت فى الاقاليم اقلامى ونفذت فى تلك الممالك أحكامى وكان السلطان قد خصنى بما كان للوزير الجواد جمال الدين بالموصل من الخواص فاغتنمت فيه نهزة الافتراص وشحنت على صنيعه بأحد يدا وغيرها ورد على مدة مقامنا حلب خيرها وناقشنى نواب الديوان فيها وكتبوا الى السلطان ان يأخذ ما بذل فيها خمسة عشر الف دينار وأنتم تحتاجون فى اجرائها الى استيمار فرمى الرقعة الى وقال : تأمل هذا الهذيان فقمت له وشكرت الاحسان وتسلطت على أدوات الديوان بالسلطان .

---

(٤) ذكر أبو شامة ابياتا من هذه القصيدة ، قارن الروضتين(١) ج ٢—٦٣ .
(٥) قرية بين تكريت والموصل وهى أول حدود أعمال الموصل من جهة العراق . معجم البلدان . ٣—٦٩٦ .

ذكر ما رآه السلطان من ترك القتال

قال : ولما نزلنا بالبلاد وجدنا الحر قد وقدت ناره ولفح أواره وقد شهرا ناجر والهجير غير هاجر وجاشت الجيوش وشاقت الخيوش فأشفق السلطان على رجاله من لبس الحديد ومن أوار الحر الشديد وقال : نستمهل ولا نستعجل ونقيم ولا نرحل ونسكن الى أن تحل الحركة وتحل البركة وكفى بأهل الموصل انهم فيه مسجونون وبما هم فيه محزونون/(٢٢٢ أ) ، والغرض من التصرف فى الممالك حاصل والمدد من الطا فالله متواصل فسلكنا وهدانا واشتغلنا بما به بدانا وكان حينئذ ماء دجلة فى نقصانه ونضوب بحرها فى بحرانه ، فجاء من زعم انه يمكن سد دجله وسكرها وفق فرصة أخرى وكسرها ونقلها أو تحويلها الى دجلة نينوى ويعطش الموصل اذا الماء عنه انزوى فضحكنا من هذا القايل وقلنا له ومالك ولهذا الرأى القايل فأصر على القول وطول فى ادعاء حقيقة الطول . وكان الفقيه العالم فخر الدين أبو شجاع بن الدهان البغدادى حاضرا فجعلناه فى الأمر ناظرا ، وكان وحيد عصره وفيلسوف دهره ومهندس زمانه وموسوس احسانه وانسان عين الفضل وعين انسانه وله الحظ الوافر من جميع العلوم ولا سيما فى المنثور والمنظوم والحكمة والهندسة والنجوم . وكان من عهد قديم سكن بالموصل ولما سمع بكرم السلطان تفيأ بظله وتعرف الى فضله فركب فى خدمةالسلطان ووقف على المكان وشاهد ما توهموه من سدد دجلة وماخذه وفتحها للتحويل ومنافده . وقال هذا يمكن ولا يتعذر وصدق القائل على رأيه وآمن بآيه ولم ير خلاف مذهبه فى در خلفمطلبه ثم وصل الخبر بوفاة شاه ارمن صاحب خلاط فتحول اليها العزم وترجح بها الحزم .

ذكر شرح ذلك

قال : ولما كان يوم السبت العشرين من شهر ربيع الآخر ورد الخبر بوفاة شاه أرمن صاحب خلاط وانه توفى يوم الخميس تاسعه(١) وحينئذ ترددت الاراء وتنوعت الاوايب واختلفت فى المشورة الامراء والاصحاب فمنهم من أشار بسلام(٢) الى حصول المرام ومنهم من رأى المصلحة فى البدار

---

(١) هكذا فى الاصل .

(٢) في الاصل غير واضحة .

الى تلك الديار ومنهم من قال نجمع بين الامرين فنترك ههنا من العسكر بقدر ما يحصل به مضايقه القوم من الجانبين ويعجل بالمسير بالعسكر الباقى الى تلك البلاد والله كفيل بالمراد . وبيتنا فى هذه الاقسام الثلاثة منزوين وبارشاد الله فى استخارته متقدين فلما أصبحنا وردت كتب الاولياء بالولايات بخلاط وبدليس واظهروا المماحضة والموافقة والتأنيس ثم رأينا من امراء خلاط وقد وصل عماد الدين بابل وقال للسلطان : أدرك أولياءك وأحباءك وهذه خلاط خلا طريقها وفارق الى قبولك بالقلوب فريقها وان أهلها بالاعاجم لم يخلصوا من المظالم فعجل بدارك وأحسن الينا بآثار ايثارك فما زال بالسلطان يحرك همته ويحرض عزمته ويذكر حلو العرضة ويخوف من فوت الفرصة ، وهذه الموصل مأمونة الفوات مأمولة فى ساير الاوقات وهى اليك واصلة وفى اليد حاصلة فأصبح السلطان ورأيه فى الرحيل راجح وغدا الرسول وسعيه فى التأميل ناجح وامر الامراء بالتأهب للرحيل وعرفهم ما تصمم فى عزم التدبير ثم أرسل الى زين الدين صاحب اربل بالعود اليها وقواه بالامير سيف الدين على بن أحمد وأمره بنصرته والمقام عليها .

فصل من كتاب أنشأته الى الديوان العزيز : ومما ينهيه الخادم وفاة شاه أرمن أورث الله المواقف المقدسة أعماق الخلايق ونصر الويه أوليائها فى المغارب والمشارق ، ولم يخلف أحدا ، وبلاده سايبة شاغرة وأفواه المطامع من الاعاجم نحوها فاغرة ، وكذلك ديار بكر جميعها قد خلت واختلت ومعاقد الاستقامة بها قد حلت . فصاحب ماردين توفى وخلف ابنين صغيرين أحدهما فى عمر عشر سنين والاخر فى عمر سنتين ، وكذلك صاحب حصن كيفا توفى وله ولد فى عمر عشر سنين ودولتشاه صاحب أرزن(٣) وبدليس موجود فى حكم العدم ومن علة الصرع كلحم على وضم وخلاط الآن قد صار طعمة الأعاجم وابنة بهلوان فما زوجها أبوها من صاحب خلاط الا طمعا فى مملكته وأن يحتوى بعده على ولايته . والخادم منذ نزل على الموصل لم يشتغل بالحصر لما اشتغل من وقد الحر ورأى المصابرة الى أن يطيب الزمان وشرع فى تحويل دجلة الموصل عنها وأحضر المهندسين فوجدوه هينا والنفع لسهولة الفتح بينا وأحضرت الآلات وشرع فى حفر المحولات

---

(٣) مدينة مشهورة قرب خلاط .
معجم البلدان ٢ـ ٢٠٥ ,

فلما وصل خبر وفاة صاحب خلاط/(٢٣٢ ب) تردد عزمه فى الاقامة والرحيل ثم وردت كتب المقدمين هناك فى مسـيره راغبين وللاعاجم كارهين فتعين حينئذ أن يجيب المستدعى ويجير المستعدى . أما الموصل فما يفـوت أمـر هؤلاء يعيد بعد العود اليها بمشيئة الله حصرها . ومنه وقد عرف أنه لم يبق لتلك الممالك خصم سوى البهلوان وما مقابلته الا الخادم وعلى قدر أهـل العزم تأتى العزايم وهو يسأل من العوارف الجزيلة ويرغب الى العوايد الجميلة فى مثال شريف يجمع ديار بكر وخلاط والموصل حتى يفتتح بأقاليده الاقاليم ويسلك بهدايته فى النصر على الاعداء المنهج القويم .

ذكر رحيلنا الى ديار بكر

قال : رحل السلطان بعسكره عن الموصل فى أواخر شهر ربيـع الآخر سايرا ببحر جحفله الزاخر جامعا بالبأس والفأل وشمل المفاخر ، وتقـدم الى ابن عمه ناصر الدين بن شيركوه أن يسير فى المقدمة الى خلاط ثم قواه بمظفر الدين صاحب حران فلما وصلوا هناك وجدوا من المتغلبين بهـا الحران . وكان سيف الدين بكتمر من مماليك شاه أرمن قد دخلهـا وحمى معقلها فوقف ناصر الدين دونها وحبس على طيور سكانها وكونها ، وكان قد جاور بدليس الى الطيطوانة(١) ولو سبق الى المكان لم يسبق الى المكانة لكن وزير خلاط مجد الدين بن رشيق كان يظهر للسطان مناصحته ويسر مشايعته ويبدى الاشفاق ويذكر الوفاق وهو فى ذلك صاحب عثـار وطالب ايثـار فكتب الى ناصر الدين بالاقامة على القرب لتحقيق الهيبة به والرعب وجاء بهلوان فى عساكر الشرق وهو شمس الدين أبو جعفر محمد بن ايلدكز متولى البلاد بقضه وقضيضه وسمره وبيضه ونزل بقرب خلاط من الجانب الآخر وقيل أن الوزير أيضا كاتبه وأطعمه وأفضى اليه بسر خلوصه واستـودعه وهو فى أثناء ذلك يثقل الموازين حتى آل الأمر الى ما آل وتولى بكتمر وأنصرف الحاج والمعتمر وسيأتى ذكر ذلك .

عاد الحديث : واستشعر ملوك ديار بكر حركتنا وقالوا صلاح الدين مـذ حين رغبته الى مملكتنا وكانا صاحبا آمد وماردين صغيرين يقـوم بأمرهما أمراؤها المقدمون فخافوا من الانتهاء اليهم والاستيلاء عليهم .

---

(١) الطيطوانة . بلد من أعمال أرمينية . معجم البلدان ٣ـ٥٧٠ .

فأما متولى ماردين وهو نظام الدين البقشى فانه احترز وكشف وجد الحزم فى التحصين وأما من بآمد فانه خاف أن يستدرك السلطان الفارط ويستعيد آمد التى فتحها ووهبها اذا لم يجد كما قرر الشرايط فقد كان عند وفاة نور الدين قرا ارسلان يوم الاثنين رابع عشر شهر ربيع الأول أشير عليه باسترجاعها وقيل له انما سلمتها الى نور الدين محافظة على مرات خدمته ووثوقا بمعدلته وحفظا لمنزلته وقد انتقل الآن منها وخلاها خالية وابنه يتيم وهؤلاء الكافلون بأمره قد عرفت سيرتهم وعلمت سريرتهم فكيف يحل لك أن تقلدهم وتجراهم على الرعية وتجردهم فقال : هذا أمر لا يفوت استدراكه وقدمنا ما يجب تقديمه ويلزم بعد الشروع فيه تتميمه ونحن نقدم انفاذ من نثق به على وجه الرسالة لشامل ما هم فيه من الحلية والحالة وكانت بينى وبين وزيرهم القوام بن سماقة معرفة صدقت به الصداقة فكتبت له أن يبادر بالوصول مع مخدومه جاريا من استصحاب المحمول والمبذول على رسومه . وندب للرسالة الى آمد القاضى شمس الدين محمد بن محمد ابن الفراش فمضى اليهم فوجدهم على جادة العزم جادين فحثهم على الحضور وجاء قدامهم بخبر وصول ولد نور الدين محمد وهو قطب الدين سكمان وشيمته الطاعة والاذعان ولما وصلنا فى أول جمادى الاول الى ميافارقين وكان دخلها من أمراء ماردين أسد الله يرتقش فتنمر وتشمر وشغل البال وأشعل القتال ونصب المنجنيقات وجود العرادات وملأ الابراج بالاعلاج والأسماع بالضجاج متعليا بأمره واستشعلنا بجمره وابصرنا ما لم نكن نظنه واستصعبنا ما كنا نستسهله ودام قتالها صباح مساء وسام نزالها من الجرح والقتل كل ما سر وساء وخرجوا مرارا واحرقوا المنجنيق فكم دم هريق وأصر حمل وما أطيق وشجانا ذاك الشجب وجاء الامر كما لا يجب واستشهد يوسف المنجنيقى وكان برجال ولم يزل له فى مواقف الجهاد كل مجال وندمنا على ما قدمنا(٢) من حصر البلد وقصر الجلاد على ما ليس فى الجلد وكانت الخاتون ابنة قرا ارسلان زوجة قطب الدين صاحب ماردين المتوفى فى المدينة مقيمة وعلى سنن حفظها مستقيمة وهى ذات يتامى والى لطف الله بهم مستقيمة وللصوم والصلاة برفع يدها فى الدعاء مستديمة وانها أيم مالها قيم متقنعة بكفافها متمتعة بعفافها حاضنة من بناتها لعدد/ (٢٢٣ أ) الثريا

---

(٢) فى الاصل : ندمنا .

سالية بدينها عن الدنيا يحميهن اميرهن فى المدينة حماية الغيران وتضرم دون حماهن جواحم النيران ظلماء لج الحصار .

وراسلنا الامير المذكور بمن يستلينه ويستكشف نهج الصواب من جانبه ويستبينه فذكر أنه يقضى حق من وجب عليه حقه وكان له ملكه ورقه ، وان قطب الدين مذ أدرج فى كفنه درج أفراخه الى كنفه ولا يزال فى عونهن ويبذل روحه فى صونهن ، والخاتون مالكة الأمر ونحن لامرها نطيع ولخلافها لا نستطيع فراسلنا الخاتون وتردد الذاهبون اليها والاتون وقلنا نحن أولى بحفظ بيتك وأحق برعاية حق ميتك ، وهذه المدينة اذا دخلناها فلا خروج عن رضاك ولا دخول اليها الا وفق هواك ، ونصاهرك فى أحدى عقايلك ويبقى على الابرام لك معاقد معاقلك ، وقلنا للامير الاسد سرا : قد مالت الخاتون الى المقاربة فلا تصر أنت على المجانبة واتخذ عندنا قبل أصحاب جماحها يدا ، وكن فى الانقياد لنا مقتدى . وقيل للخاتون : ان أسد الدين قد لانت عريكته ودانت أريكته وأحمد أمره وأخمد جمره ، واستقر بعد ذلك الامير أسد الدين ، وان ينقطع الى الخدمة ويتصل بالنعمة ووفور الحرية ويخص بولاية جليجور وأعماله ويقطع عدة نصيبهم من خواص رجاله وتقرر مع الخاتون أن يبقى عليها كل ما باسمها وباسم خدامها وجواريها وأيتامها وسألت أن يفرض لها حصن الهتاخ(٣) ليكون لها عشا للافراخ . وخطبنا اليها احدى كرايمها لابن السلطان الملك المعز فتح الدين اسحق ، والتمست اليمين المؤكدة بالحج والعتاق وأخذت اليد السلطانية أبرم العقود وأحرز نسخ المواثيق ، والسلطان يسارع الى بذل كل ما يقترحونه عليه مخافة التمويق ، وأعيان البلد حاضرون وفى الأحوال ناظرون . ولما أصبحنا يوم الاربعاء آخر جمادى الاولى تقدم السلطان الى موالى القاضى نجم الدين بركات بن عبد الله بن أبى عصرون ومعنا جماعة مقدمون أن ندخل البلد لعقد النكاح على ابنه قطب الدين لاسحق ابنه وأن نبتدىء الامر بنجح ذلك المقصد ويمنه ، فدخلنا المدينة وأنا وكيل السلطان لابنه فى قبول العقد ، وإذنت الخاتون أم اليتيمة لابن عصرون لها فى تعيين المهر وتسلم النقد فتم النكاح وعم الصلاح وكمل بالفتح الاستفتاح . وجلس السلطان فى

---

(٣) الهتاخ ، بالفتح والتشديد قلعة حصينة فى ديار بكر قرب ميافارقين معجم البلدان ٤—٩٥٢ .

سرادقه وخرج اليه اعيان البلد من المقدمين والامراء والاماثل والـكبراء ، وسير السلطان الى الخاتون برسم المخطوبة حمولا وهدايا وبذولا وعطـايا ومصوغات ذهبية ومستعملات عراقية مغربية وحصنا وجحـــورا عربية وسلم اليها الهتاخ بصياغة وأجرى خدمها وخواصها على اقطاعاتهم ومكنهم من تسلم ارتفاعاتهم وأخذ الأســد المنشور بجليجور وألف الله القلوب ونظم الامور . وسألت الخاتون أن يخلى القاضى أبو الفرج يوسف بن هبة بن بسام الجبلى على قضائه فكتب له منشورا فى مسـتهل جمادى الآخـرة وأجريناه على تولية الحكم والقضاء والاحتساب بميافارقين ونواحيها وما يجرى معها من الحصون والبلاد ، والهتاخ وجبلجور ، وذى القرنين استجابة الى أمانته ووثوقه بعلمه وأمانته .

ذكر وصول صاحب آمد ونحن على ميافارقين فى جمادى الأولى

قال : قد سبق ذكره وذكر صغر سنه ومخافته وأمنه وذلك أن وزيره القوام كان عارفا بالمصلحة فانتقل بالامر ووصل بمخدومه قطب الدين سكمان ابن محمد بن قرا ارسلان قادما بالسادة الرابعة والبشارة الرايعة وارثا خلاص الولاء من ابيه ، متقربا باستصحاب صحبه ومقربيه . ولما ورد خبر اقباله أمر السلطان باستقباله فتلقيناه على مرحلة فتلقاه السلطان بعد امرائه بالقرب واقبل عليه وحباه بالقبول والحب وأكرمه وبجله ووقره وعجله وأفاض عليه جوده حتى أخجله وعجل اعادته الى آمد بعد أن شرفه وأجباه ثمـار عواطفه واقطفه وخلع على امراء دولته ومقدمى مملكته وأسهم باحســانه أكابر ديوانه وأصاغر غلمانه فعاد الى آمد وقد تزينت له وتعلقت وتألفت بتالف شمل ابن نورها وتألقت ، وتمكن الوزير وأمر ونهى وأدرك من منصبه المشتهى .

ذكر النزول على شاطىء قرامان ومراسلة بهلـوان

قال : ولما استتب الفتح وخلصنا ميافارقين تجدد لنا ذكر خلاط وكيف كسر انشغالنا بسواها النشاط ولما تمادى الزمان وقرب/(٢٢٣ ب) منهـا البهلوان راسله بكتمر وحمل اليه مع ابنته زوجة شاه أرمن الاموال التى أودعت المخزون وندب السلطان اليها الفقيه ضياء الدين عيسى فدخلها وتكلم مع الوزير وشاوره ظنا بصدق مناصحته فى التدبير فظهر له من فحـوى خطابه ما مخضت به الزبدة ونتجت به لواقح الاراء المستجدة وأحال الحال

على البهلوان وأنه جاء ليملك المكان ولو استعجلتم لسهل ما صعب وهان ، وكان الفقيه عيسى قد صير صاحبا له الى المعسكر البهلوانى للتجسس ومعرفة الاحوال بالتفرس فلما حضر هناك ادعى أنه رسول وان قوله فيما يورده ويصدره مقبول فقالوا له ان صاحبك ان جاءنا تحقق فى المصلحة والمصالحة رجاؤنا فكتب اليه الفقيه عيسى يعلمه بما ذكروه وأن بحضوره تسكن الدهماء ويؤمن المكروه فكتب الى السلطان بأن القوم قد طلبوه وله مع ما سنح من الخطوب خطبوه فكتبت الى أتابك شمس الدين بهلوان كتابا بارسال الفقيه اليه عن السلطان ، فتوجه الفقيه رسولا وصادف اقبالا وقبولا ووجد كل ما يقترحه مبذولا وكانوا منا مستوحشين فأنسوا ومن قصدنا اياهم مستشعرين فأمنوا ، ومن حركتنا حذرين فسكنوا ، وبجلوا ضياء الدين وعظموه وكفلوه بالأمر وأطلعوه على السر وصيروه بالاحوال محيطا وجعلوه بيننا وبينهم وسيطا . فعاد الينا نشيطا يدرس من شرح حشرهم وجيزا وبسيطا ، وأتانا من عند اتابك بهلوان رسل مكرمون وخواص مقربون ، وفتحت أبواب الرسالة وسنحت أسباب الاستعطاف والاستمالة ، وعرفنا أن خلاط قد حمى عسلها نحلها ، وأن غابة عقرها قد ذب عنها فحلها وأنها اعرضت بعدما تعرضت وأبلست بعدما تمرضت(١) ففارقنا قصدها بعدما فات انتهاز فرصة الامكان وخلو عرصة المكان من عسكر البهلوان ولا رغبة فى ايذاء الاحن واذكاء الفتن ، فتركنا الدست تايما والخصم خايفا خايما ، ولبثنا أياما لترتيب ذلك الاقليم ومباشرة ضعفها وأمنها بالتقوية والتقويم وفوض السلطان ولاية تلك البلاد الى مملوكه حسام الدين سنقر الخلاطى فحسم بايالته داء الشر ومحا سنا محاسنه بالعرف سنة النكر وأقام السياسة وأدام الحراسة . ولما دخل رجب أصحت السماء التى أضحت تحتجب وجاء نذير البرد مسمعا صوت الرعد وسعا من البرق الودق بالودق فرأى السلطان أن يعجل الى الموصل أمامه ويحكم هناك أحكام العزم وأسبابه وقال : نقضى بها هذه الشتوة وتستتم بالاقامة الخطوة فقوضنا المضارب وفوضنا الى الله المآرب وجبنا السباسب وعبرنا السور(٢) ونكبنا مزورين عن ماردين الزور وألممنا بدارا وأقمنا مستريحين ثم نصبنا الاعلام على اعلام نصيبين وورد كتاب من آمد مضمونه أن سيف الدين ما يفارق قصد ميافارقين

---

(١) فى الاصل : تعرضت وكذا يتطلب السياق .
(٢) فى الاصل : الصور .

وأنه على قصد أن ينهض اليها فما رفعنا بهذا الخبر رأسا ولا رأينا بأسا وعرفنا انه مع سكوننا لا يتحرك ولحجرنا لا يتحكم ثم انفصلنا عن نصيبين للوصول الى الموصل وفكرنا فيما نقيم به من المنزلة بحيث يسهل على من بالجزيرة امدادنا بالامداد فوقع الاختيار على كفر زمار(٣) فقطعنا اليها نواحى البقعة حتى وصلنا وقررنا منازلنا بها ونزلنا فى شعبان وأغلقت الموصل أبوابها وكثرت النكاية أبوابها وارتجت وارتجفت(٤) مغالقها وكان السلطان يركب فى بعض الأيام ويشرف عليها ، وهى ترفع أيدى الضراعة رجاء عاطفته اليها وهو مقيم فى منزلته لا يريم ومقدم على غريمته لا يخيم ، ودجلة تمد بفلكها وأفلاكها واكلاء عينا واكلالها ، والعزم مصمم على الهدو والمكث والسكون واللبث الى أن ينقضى البرد ويقتضى بالرى والورد .

وأصبحنا ذات يوم وكانت يأتينا فى الرسالة قوم بعد قوم فقيل قد أقبلت محفات فيها مخدرات خواتين أتابكيات لا عهد لشموسهن بشروق ولا لنفوسهن بخفوق ، ولا لطالعهن بهبوط ولا لطالبهن بقنوط فخرجن يستشفعن ويستنفعن فانزلن خير منزل وأوردن من الاكرام أعذب مورد وأصفى منهل . وقال السلطان : انما جينا لتأليف كلمة الاسلام واعادة الامور بازالة الخلف الى النظام ، وقد قبلت شفاعتكن ورأيت فى عصيان العزم طاعتكن ولكن لا بد من مصلحة تتم ومصالحة نفعها يعم فاستقر الامر على أن يكون عماد الدين صاحب سنجار أخو صاحب الموصل وسيطا فى البين وحكما فيما يعود بمصلة الجانبين فانه كانت شفاعته سابقة ، ومسألته فى ذلك صادعة صادقة فرأى بهذا الرأى قضاء الحقين ووقف السداد (٢٢٤ أ) / فيه على الطريقين وتعطف وتلطف لأجلهن ولاجلالهن وأتى من الكرامة والمبرة بما يليق بأمثالهن وكن ظنن أنه لا يقيم بحرمة قصدهن ولا يشتغل بأمر يؤذن بمرادهن فدخلن المدينة متلومات متذممات وبلطف الله لايذات معتصمات .

---

(٣) فى الاصل : كفر زما . وردتفى ياقوت كفر زمار والراء ناقصة فى الاصل : وهى من قرى الموصل ، معجم البلدان ٤ـ٢٨٨ .

(٤) فى الاصل : وارتجت .

ذكر وصول عماد الدين فى الوساطة وما عرض من مرض السلطان

قال : وكان السلطان لما دخل شهر رمضان داوم قراءة القرآن وحفظه والاتقان واشتغل بالصيام والتقليل من الطعام ، وظهر انزعاجه وتغير مزاجه وطال مرضه وامتد وحال مضضه واشتد ومبدأ ذلك أنه أصبح يوم الاربعاء ثامن رمضان محموما وبقى أياما سقامه مكتوما رجاء أن يزول ولا يطول ثم سار خبره وطار شره وقدم على رد الشوافع وردع الشوازع، وسير الى عماد الدين صاحب سنجار فى انفاذ رسوله ليوعز بكل ما يعود بسؤله فوصل وزيره الكافى شمس الدين بن الكافى وكان من قبل قد سبق القول فى تسليم بلاد شهرزور وقلاعها وحصنها وكذلك ما وراء الرأس من البوازيج(١) والرستاق وتلك بلد القرابلية وبنىقفجاق فدخل ابن الكافى وابن الفراش قاضى العسكر من جانبنا الى الموصل لاجراء العهد على هذا الملتزم المستقبل ، ورحل السلطان قبل عيد الفطر بيوم وهو من بحر بحرانه فى عوم وخيمنا على نصيبين فى شوال ولم نترقب عود الرسل بنجاز الاشغال ثم استمر الصلح وصلح الامر وخلص ما بينهم وبينه السر والخبر وخطب فى جميع بلاد الموصل للسلطان بعد قطع خطبه السلجوقية وفىديار بكر أيضا والديار الارتقية وضرب باسمه الدينار والدرهم وانحل الاشكال وانكشف المبهم . ولما تسلمنا البلاد منهم نفذ السلطان الى شهرزور مملوكه مجاهد الدين اياز شريك فتملى بها وتملك وكان التركمان الايوانية متولية فشتت شملها وفتك وندب للنظر فى تلك الاعمال القاضى شمس الدين بن الفراش فمضى وحل وعقد واصدر وأورد ، وأقطع لبعض خواصه المماليك البوازيج وسير الى البلاد نوابه ورتب فيها أصحابه ، ورتب ضيعة بالبوازيج تعرف بباقلا على ورثة شيخ الشيوخ ببغداد ، وأقام السلطان على نصيبين أياما قلايل ثم رحل مستقلا فى منازل ومراحل حتى القينا بظاهر حران عصا النوى والقلوب لمرض السلطان متخاذلة القوى واجتمع عندنا من البلاد الاطباء وللمرض ضرم يلفح وللسقم قسم لا يبرح والامل مرتعب والجدل محتجب والسماح يقول هذا أوان كسوف سمائى ونضوب مائى والدين يندب والملك يصخب والايدى الى الله مرفوعة والنيات بالاخلاص مشفوعة

---

(١) بلد قرب تكريت على فم الزاب الاسفل حيث يصب دجلة ويقال لها بوازيج الملك وهى من أعمال الموصل . معجم البلدان ١ـ ٧٥٠ .

والأنفس متوجعة متوجلة والانفس بالدعاء مبتهلة والرجاء تحت الخوف والبلاء فوق الوصف وفى الغيب أسرار وللقمر أبدار تارة وسرار الدموع منا غزار والضلوع حرار وما كنا نعلم أن النعمة فى سر تلك البلية وأن الصحة ظاهرة فى تلك السريرة الخفية وأن لهذه الترحة فرحة وان لهذه الغمة فرجة ولهذه الليلة دلجة وان العافية عافية وأن كفاية الله كافية وسيأتى مامن الله تعالى به من الرجاء فى الشفاء بعد الاشتفاء .

ذكر شيمة السلطان فى مرضه

قال : وكلما زاد ألمه زاد فى لطف الله أمله ، وكلما بان ضعفه قوى على الله توكله وأنا ملازمه ليلا ونهارا وهو يملى على وصاياه ويفرق بقلمى على عفاته عطاياه ، واشتدت به الحال ليلة أيس منه فيها الأطباء فلما أصبح المعتقون والوافدون الى بابه وضجوا ضجة ارتجت منها الدهماء ولانت لسماعها الصخرة الصماء فسأل عن تلك الرجة وما موجب هذه الضجة فقيل له هؤلاء وفدك ورجاؤهم رفدك ، وقد اشرفوا على الخيمة وخرقوا لاجلها حجاب الهيبة فدعانى وأمر بكتب أسمائهم وتفريق ما اجتمع فى خزانته من المال على أقدارهم وتحقيق رجايهم وأعطى كل سايل وأغنى كل آمل فوجد بتلك السماحة راحة ترجى لعلته بها ازاحة واستمر مدة استمرار مرضه على بذل جوهر ماله وعرضه ، وكان خلقه أحسن ما كان فى حال الصحة يخاطبنا بسجاياه السهلة السمحة ولا يخلو مجلسه من ذوى فضل وأولى نباهة وهم يتجاذبون بحضرته أطراف الفوايد ويهزون لمكارمه أعطاف المحامد فتارة فى أحكام شرعية وآونه فى صناعات شرعية ومرة فى أحاديث الاجواد وشيم الامجاد ودفعة فى ذكر فضايل (٢٢٤ ب)/ الجهاد وينذر أنه ان خلصه الله تعالى من نبوة هذه النوبة اشتغل بفتح بيت المقدس ولو يبذل نفايس الاموال والانفس وأنه لا يصرف بقية عمره الا فى قتال أعداء الله والجهاد فى سبيله وانجاد أهل الاسلام والاقبال على قبيله وانه لا يترك شيمة الجود والسماحة بالموجود وربما استراح فى بعض ساعات الليل والنهار الى السماع لاشارة الاطباء لاجل التفريح والانتفاع فان ظفرنا بمفرد مقرب ومطر ومطرب وصانع صوت ومحسن لحن احضرناه عنده فربما راقه وشاقه ووجد به أفراحه .

ذكر الملك العادل سيف الدين ووصوله الى حران

قال : ولما سمع الملك العادل فى حلب بمرض أخيه ووصوله الى حران بادر بالوصول وقام بضبط الامور وسياسة الجمهور والجلوس كل يوم فى النوبة السلطانية لتولى مصالح الرعية واقامة وظيفة السماط والعمل فى كل مهم بالاحتياط والتعدى لكشف المظالم وبث المكارم وسماع مشافهات رسل الجوانب وابلاء كل عذر واجلاء كل ذعر وتيسير كل عسير ورفع كل خرق ورتق كل فتق ، ولقد عصمنا اذ كنا على خوف من ارجاف يقوى وانتشار خبر سوء لا يخفى ولا سيما اذا خرج الاطباء وقالوا ما فيه أمل ولكل عمر أجل فهناك ترى الناس يستشعرون وبابعاد ما يعز عليهم من أعلاقهم ودوابهم يستظهرون ما أراك من المهملين لا من الموقنين فقلت له : أنا لا أخاف الا على سلطانى فاذا ذهب فلا شداد لشانى والذى يفوت أعز من المال والدواب ولا أخاف على ذلك مع ذهاب الاصل من الذهاب فزال بالحضور العادل كل مخافة وسلم الله برأفته من كل آفـة ، وكان الملك العزيز عثمان ولد السلطان مع أبيه مقتد بمعاليه مقتف بمراضيه ، وكان من جملة وصاياه عند اشفائه ان ادركنى المحتوم ودنا اليوم المعلوم فقد خلفت أبا بكر وعمر وعثمان وعليا وكلهم أراه بمرادى فى اقامة الجهاد مليا يعنى بأبى بكر الملك العادل أخاه وبعمر تقى الدين بن أخيه وبعثمان وعلى ولديه الملك العزيز والملك الافضل ورأى عليهما بكفالة سيف الدين وتقى الدين فى مصر والشام العول وأقام الملك العادل الى أن وضح المنهاج وصح المزاج وطابت القلوب وغابت الكروب ثم وصل مع أخيه الى حلب وتم معه الى حمص ودمشق وهب له نسيم مصر فاستجد لنشره النشق .

وبدا له من بعد ما اندمل الهوى   برقٌ تألـقَ موهنا لمعـانه

وسيأتى ذكر مضيه مع الملك العزيز الى مصر فى سنة اثنتين وثمانين ووصول الملك الافضل من مصر وبعده الملك المظفر تقى الدين .

قال : وكان الاجل الفاضل فى هذه السنة بدمشق مقيما والى احسان منابى عنه فى الحضرة السلطانية مستنيما فلما وصلنا فى هذه النوبة الى حران أول ما فتحت عينى على الملوك الفاضلى سافرا مسافرا وقد أصحبه لى تشريفا شريفا ووفرا أوفـرا واحضرنى رزمة ثياب أرزمت لى ركابها بنجح كل منى ومنيح كل غنى وناولنى كتابا واوقفني علي البحر بجواهره والفلك بزواهره .

ذكر نوع من المكارم السلطانية

قال : لما نزلنا على الموصل فى النوبتين اجتمع شعراء البلاد وحضر الحاضر والبادى وما بقي من ينظم وهو قعيد بيته بيتا ويجرى فى مضمار فروسيته كمينا الا وقد أتى بمدحه ليعود بمنحة فتناولها الفقيه ضياء الدين عيسي وكان معينا فى كل نعمى وبؤس وجرح الكرام بكرمه يؤسى وحملها الى السلطان ولعلها مائة قطعة أو قصيدة لمواهبه مستريدة ولعـــوارفه مستزيدة فقال سلمها الى العماد ليتأملها ويعرف أصـــيلها ومنتحلها فمن استحسن شعره حسن بالتشريف شعاره وأكثرها درهمه وديـــاره فانا نجود لمن يجيد ومن أفاد يستفيد فسلم الفقيه تلك الأوراق وعرض ما فيها على فما استملحت أكثر ما استلمحت وفيها منتحل ومنتحل ومقول ومنقول وصحيح وسقيم ولاقح وعقيم ومعوج ومستقيم وسمين وغث وجديد ورث فلو حملنا أمرهم على مقتضى الأمر لقل من استقل بالنفع وباء الباقون بالضر فضممت نشرها وطويت خبرها وسترت عيــوبها وزررت جيــوبها ودرجتهـــا فى دروجها وأبقيت نجومها فى بروجها وجئت الى السلطان وقربت تلك المقربات بسروجها وقلت ما هذا أوان الانتقاء (٢٢٢٥ أ)/والانتقاد وتعرض الرجاء فيك للكساد وما من هؤلاء الا من استفرغ وسعه وقطع فى الطريق شعثه وأحال على نضو أمله نسوه وأتى بجهد المقل وهم وفدتك وقد هدتهم نارك وحدتهم أخبارك فجد لهم على أقدارهم ولاتشعرهم بشعار أشعارهم فقال : نعم ما به أشرت ولنشره بعرفنا عرفت ونشرت ثم أحضر الاكياس وأجرى فى تفــريق جمعها القياس وأوجد الرجاء واعدم اليأس وأغنى الوفد وذخر الحمد .

ذكر حكاية أخرى

قال : كان من معارفى فقيه قد تأدب وأعجمى قد تعرب وعن له أن ينظم فى السلطان قصيدة كانت ألفاظها مضحكة وكلماتها بين العربيــــة والعجمية مستدركة فأوصلها الى لأوصلها الى السلطان وأهز بها منه عطف الاحسان فارتقبت لعرضها ليلة موافقه لاداء فرضها وجئت الى السلطان بها وقد سر بشفائه وقر بما أقر الله عينه من اماطة أدوائه فانشـــدها من جلسائه من صوته أندى ونشاده أجدى والسلطان يضحك من ســـماعها وتعجب من أعاجيب ابداعها وجلساؤه يوافقونه على ضحكه وينظمون النظم المسموع في مسلك الاستغراب وسلكه وأنا ساكن لا أبدي حركة فتعجب

السلطان من سكوتي وسكوني واستغرابهم الضحك دوني فقلت انه استعان بي في أحسان المناب فلا أقل أن لا اسهمه بالارتياب والاغتياب فلما كان موسم ارضاء الوافدين واغناء القاصدين وحررت ورقة باسمائهم وتجردت لتفرقة عطائهم عين لصاحب ذلك النظم ثلاثون دينارا وجعلها له ادرارا فقلت له بل تضعفها وتجعلها ستين فأنكم ضحكتم بثلاثين وجائزة قصيدته ثلاثين فقال : انصفت واحسنت النيابة ولو كانت الجائزة بمقدار القيمة لم يبلغ خمسة صداق تلك اليتيمة فاستغنى ذلك المعلم وحصل له في مظنه المغرم المغنم .

ذكر الصدقة فى المرض

قال : لما مرض قال لى اكتب الى الولاة والنواب بالديار المصرية والشامية أن يتصدقوا على الفقراء والمساكين من المال المعد للحمل على قدره فى التعيين ولم يبق فى الممالك الا من وصل اليه نصيب ودعا بالصالحات لمن الله لدعائه مجيب ومن جملة تلك الصدقات انه أمرنى أن اكتب الى الصفى القابض أن يتصدق بخمسة آلاف دينار من الثواب بأضعافه.
قال : ولما امتد زمان مرضه أمر ببناء دار عند سرادقه وحمام فى أربعة أو خمسة أيام وكان قد استحضر من دمشق ولديه الصغيرين تورانشاه وملكشاه وأمهما فأسكنهم فيها مدة مقامه فسماها دار العافية للبرء فيها من سقامه ثم خلاها لمن يترك بها ضيفا وجعلها للآويين اليها وقفا فلله وطن وطر عمرت بعمارته الاوطان وبيت سرور خرجت بدخوله اليه من بيوت الكرام الاخوان وبنيان سلطان شاد مبانى السلطنة ومكان عز تفاضل بفضله عز الامكنة ومريض أسد تقشعر من بأسه الأسود ومجثم سداد يترافد الى رفده الوفود وكان مثل السلطان فى تلك المنزلة وهو مقيم كما قال الله تعالى فى حق يونس « فنبذناه بالعراء وهو سقيم »(١) فبها القَ حبل الحياة وازجا النجاة وخص الله السلطان بفضيلة فتح القدس وقضى حاجاته التى كانت فى النفس وسيأتى ان شاء الله تعالى شرح كل فتح فى موضعه وكيف أشرق سنا النصر من مطلعه .

---

(١) سورة الصافات ، آية رقم ١٤٥ .

ذكر من توفي في هذه السنة من أكابر الدولة

قال : توفيت الخاتون العصمية بدمشق فى ذى القعدة وهى عصمة الدين ابنة معين الدين أنر ، وكانت فى عصمة الملك العادل نور الدين رحمه الله فلما توفى وخلفه السلطان بالشام فى حفظ بلاد الاسلام تزوج بها فى سنة اثنتين وسبعين وهى من أعف النساء ولها أمر نافذ ومعروف بأيدى المعروفين آخذ وجناب ما يزال يلوذ ويعوذ به لائذ وهى فى الدولة حاكمة ولها صدق وصدقات ورواتب للفقراء وادرارات ، وقد بنت للفقهاء والصوفية بدمشق مدرسة ورباطا وذلك سوى وقوفها على معتقيها وعوارفها وأياديها وكان السلطان حينئذ بحران فى بحر المرض وبحرانه فما اخبرناه بوفاتها خوفا على زايد علته ووقد غلته وهو يسدعى كل يوم درجا ويكتب اليها كتابا طويلا حتى سمع نعى (٢٢٥ ب)/ ناصر الدين محمد ابن شيركوه بن عمه فنعيت اليه الخاتون وقد تعدى عنه اليهما المنون(١) وكانت وفاة ناصر الدين بحمص فى تاسع ذى الحجة من هذه السنة من غير مرض أشعر بها ولا علة أضيف حكم الحمام الى سببها فجأته المنية فجأة فوجدنا من القدر ببقاء السلطان احسانا وبوفاة ناصر الدين اساءة وكادت مطالع الانس تظلم لولا أننا استأنفنا لها بالشفاء السلطانى لها اضاءة وكان ناصر الدين هذا الى محسنا وبفضيلى معلنا ولى فيه مدايح وله عندى منايح وان أوردتها طال الكتاب وأول ما مدحته به فى الايام النورية سقاها الله كلمة منها .

قد أذل الكفر قاهره	وأعز الدين ناصره
كم مساع فى الزمان	له كرمت منها عشايره
وعلى دون الملوك له	عقدت فيها محاصره

وفى هذه السنة فى جمادى الآخرة توفى الامير سعد الدين مسعود ابن انر ونحن قد فتحنا ميافارقين ولقد كان من الاكارم الاكابر ولم أر أحسن منه خلقا وازكى عرقا ولم يزل فى الدولتين النورية والصلاحية أميرا مقدما وعظيما مكرما ولسفور فضايله ووفور فواضله رغب السلطان وهو زوج

---

(١) ساقطة في الاصل ، والضبط من الروضتين (١)٢—٦٧ .

أختــــه أن يكون هـــو زوج أختـــه وواصـــــله الســــــعد تحقيقـــا لنعتــــه بالتى تزوج بهـــا مظفـــــر الدين كوكبـرى بعـــــــده وجدد بها اسعاده وسعده . قال الفتح بن على بن محمد الاصبهانى منتخب الكتاب وهذه الجهة(٢) المعصومة بقية شعب الدوحة الايوبيـــة وهى الآن ساكنة بدمشق وقدمتها فى سنة عشرين وستماية والملك المعظم أبو الفتح عيسى بن السلطان الملك العادل هو القايم بشرايط تعظيم قدرها وتفخيم أمرها وهى التى توسطت بين السلطان وبين زوجها مظفر الدين فى اتصـــــال الملك الناصر أبى سليمان داود بن السلطان الملك المعظم حتى يميره من دمشق الى اربل فى رمضان سنة احدى وعشرين وستماية وهو الآن متملك تلك البلاد والمتكفل فيها بأموال العباد والله تعالى يبلغه تحت ظل أبيه غاية الطلب ونهية المراد . قال : ولم يزل سعد الدين لى متعصبا متصعبا ولسعـــودى متقربا ولقربه من السلطان يتحجب عنـــده فى مطالبى وينوب عنى فى تقرير مراتبى .

قال : وفى هذه السنة رد السلطان قلعتى الرها وحران الى مظفـــر الدين كوكبرى لتوفره فى الخدمة على حفظ القوانين وظهر منه كل ما حقق الاستظهار وأوجب لامره الامرار ورغب فى مصاهرة السلطان وقلده وطوق الامتنـــان .

وفى هذه السنة توفى عز الدين جاولى وهو أكبر الامراء الاسدية ولم يزل فى الجهاد يحسن بلاؤه ويصدق غناؤه . ولما عدنا بعد فتح ميافارقين الى الموصل طرقه البلاء وأوقعه القضاء وقفز لحصانه بعض السواقى فعثر(٣) به وانكسرت رجله ثم اشتد المه وطال سقمه وانتقل الى دمشق وتوفى بها فى أواخر هذه السنة أو فى أول سنة اثنتين وثمانين .

وفى هذه السنة يوم الاربعاء ثامن رمضان قتل بآمد وزير قرا ارسلان وهو قوام الدين أبو محمد عبد الله بن سماقه(٤) قتله مماليك مخدومه غيلة ومحلوا فى مباغتته فى الفنا حيلة . والسبب فى ذلك انه كان قد تمكن من

(٢) ربيعة خاتون بنت ايوب عمرت الى أن توفيت بدمشق بدار أبيها وهى دار العقيقى فى شهر رمضان سنة ٦٤٣ هـ وهى آخـــر أولاد ايوب لصلبه موتا وكان يحترمها الملوك من أولاد اخوتها واولادهم ويزورونها فى دارها انظر الروضتين(١) ٢ـــ٦٧ .

(٣) فى الاصل : تعد والتصحيح من الروضتين(١) جـ٢ ص ٦٧ .

(٤) قارن نفس المصدر . نفس الصفحة .

الامر وسكن الى قوة نفسه وركن وكان أحد الامراء الكبار المعروف بالصلاح فبلغ أنه قد تولى الاعراض وأنف من الوزير ولم يرض أن يتبعه وكلاهما مستشعر من صاحبه فتسبق الوزير الى قبضه وحبسه واشتغل فى التدبير بنفسه فلما سمع السلطان بخبره قال انه تعرض للوقوع فى خطره وكأنى به وقد ذهبت نفسه وتدانى أمسه وسيثق بقوم به يفتكون ولدمه يسفكون وكأنه تعلق بما فى الغيب مكتوم وفى اللوح المحفوظ مكتوب محتوم فانه وصل الخبر بقتله على ما تم من ختره وختله فان جماعة من المماليك المفردين تآمروا بينهم على الفتك بالوزير فجاء واحد اليه وهو جالس فى ديوانه وايوانه فى الدست الاثير وعنده الاكابر والاماثل وهم ينتظرون الاذن على العادة فقال : الملك يدعوك وحدك يسألك عن حديث عندك فقام يسحب ذيل اختياله ولم يدر بما يستصحب من ويل اغتياله فدخل الدهليز وقد أغلقوا (٢٢٦ أ)/ الباب الذى يصل فيه الى الامير وأغلقوا وراءه الباب الآخر لما تصوروه من التدبير فاغتالوا وفتكوا به وقتلوه ثم أخرجوا الصلاح من حبسه وردوه الى مجلس أنسه فلما تمكن قبض وبسط وشرك أصحاب الوزير وقتل منهم من أدركه واستولى على كل ما ملكه ثم قتل أولئك القاتلين وكانوا به واثقين وعن مكره غافلين وبقى متوليا للدولة الى أن أدرك الامير رشده والى ان يبلغ أشده فاستبد بملكه وأخرجه من سلكه .

وفى هذه السنة توفى الفقيه المهذب عبد الله بن أسعد الموصلى بحمص وكان المدرس وكان علامة زمانه فى علمه ونسيج وحده فى نظمه وقد أوردت فى صدر الكتاب ما يستدل به على فضله .

ذكر العزم على الرحيل من حران

... السلطان قد كل علاجه واشتد مزاجه وأراد أن يكون ... السكون واستيفاء الحظ من السهول قبل الحزون ولأنه فى وسط الممالك وعلى جواز المسالك فتواترت فى البلاد أخبار ابلاله وأنباء استبداده واستقلاله وكان عنده ولده الاعز الملك العزيز وأولاده الصغار الاعزة ، والملك الظاهر بدمشق مقيم والامر هناك مستقيم فلما ورد نعى الخاتون وناصر الدين وخلا شبله أسد الدين بعده فى العرين وخيف على بلاده لصغر أولاده واحتيج أيضا الى الاحتياط على ما فى خزاينه واستخرج

ما خلفه من ورثته من دفاينه . وكذلك الخاتون عصمة (١) الدين خلفت أملاكا وتراثا وأوقافا واسعة واثاثا ولم يكن من الحركة بد ولم يكن الا بحضور السلطان لتلك الخلات والاختلالات تسديد وسد .

قال : وفى هذه السنة لما كنا على ميافارقين وقد فتحناها ورد للسلطان مثال شريف أمامى ناصرى بتفويض ولاية ماردين وحصن كيفا اليه تاريخه غرة جمادى الاول . قال : ودخلت سنة اثنتين وثمانين والسلطان ساير بعساكر مفاخر عساكره وخيم على شاطىء الفرات وقد مشط البؤس وصفا من الصحة العبوس ، وودعنا مظفر الدين صاحب حران من الفرات مصحوبا بالقوة والثبات مشحونا وفلك آماله بالمكرمات ، ورحلنا صوب حلب والملك العادل سيف الدين سلطانها على المقدمة وقد هيأ لقدومنا أسباب التكرمة ونزلناها فى العشر الاوسط من المحرم فألفيناها كما ألفناها بالعدل آهلة ومن الفضل ناهلة والخطوب(٢) عنها ذاهلة والقلوب بحب الدولة عامرة والنفوس بنعمة ربها متحدثة ذاكرة .

واحتفل الملك العادل بأخيه السلطان وحمل عنه وله وأظهر(٣) مجمل جميله ومفصله وقام بكل فرض وسنة فى الخدمة وتقبله وما خلى أحدا من خواصه الا خوله وموله .

وأضافنى الصنيعة ابن النحال كاتب الملك العادل واستضاف معى قوما وفيهم نجم الدين بن المجاور الوزير العزيزى وقد بعثتنى على مصاحبتى اليه وده العزيزى . وكان سكن الضيعة من قلعة حلب فى برج من أبراجها وكان فى ذلك مذعورا معذورا فانه كان بالاحتراز من المخالطة مأمورا وكان قد نفق على مخدومه واختص بسره واطلع على مكنونه ومكتومه . وكان نصرانيا من القبط ثم اضطر الى الاسلام بسبب امرأة هوى بها وعشقها وحظى بها ورضيها وما سلمت له الا بالاسلام فاذن سعده فى اسعادها بتمامه واستقر أمره على نظامه وأفضى به التوفيق الى التمكين ولم يزل معه حتى انتهى عمره فى سنة تسعين .

---

(١) فى الاصل : عضد .
(٢) فى الاصل : خطوب .
(٣) فى الاصل : وأظهرا .

قال : ولما قضينا بجلب الارب رتب الملك العادل فيها نوابه وأحكم أحكام الملك العادل وأسبابه ، وصحب أخاه السلطان منفذا لاوامره ومدبرا لعساكره اشفاقا من تعب يلحقه وارفاقا به فى نصب يرهقه فانه كان فى غب وعكته ولا يؤمن من مضرة حركته ، ووصلنا الى حماه فى مراحل طاب مراحها وأسفر بحمد مسراها صباحها وتلقانا النايب عن الملك المظفر تقى الدين بكل جمال وجميل وحسن واحسان جلى جليل وتقى الدين حينئذ نايب السلطان فى الديار المصرية وقد عول فى حماه على نظر ناصر الدين منكورس بن ناصح الدين خمارتكين وفيه السماحة والحماسة والحجى والحصافة (٢٢٦ ب)/ وكان تقى الدين منذ تولى حماه حصن قلعتها وعمق خندقها وأدام بعمارتها اشتهاره وبارادة ادارتها استظهاره فلما ندبه السلطان للنيابة عنه فى مصر سأله أن ينزل عن حمص(٤) فأبى فوافقه على مراده وأبقاها لما عرف من اجتهاده فسلمها الى ناصر الدين منكورس وشكرته الرعية . وكانت بينى وبينه صداقة بصدق الاعتقاد معقودة . واتفق أن سرقت لى فى طريقها الى حمص ثلاثة جمال بما لها من عدة ورجال وكنت قد سلوتها وتمكن عندى فوتها ، فجاءنا هذا الامير بعد يومين بقطارين من الجمال المسروقة وقال : لما سرتم عرفت أن وراءكم لصوصا فرتبت أصحابى فى المواضع البعيدة من العمارة ليترصدوا أهل الذعارة فوجدوا هذه الجمال التى احضروها فتأملتها فاذا هى جمالى نفسها(٥) فشكرت همته الكريمة على احسانها ولم تزل الثغور لسداده مسدودة والرعايا بسياسته محروسة ورايات الكفر بنكاياته منكوسة .

فصل قال : وهؤلاء الذين قرضتهم ووصفتهم تنكرت معرفتهم بعد الايام السلطانية فهمصدقونى لصدق الحاجة فلما استغنوا عنى حملوا معرفتى وانكروا عارفتى وهذه شيمة اخلاء الدنيا فى دين الاخلال وملة الملال واستحالة الحال .

---

(٤) فى الاصل : مصر .
(٥) في الاصل : نفسه .

ذكر الوصول الى حمص وتقرير أمر أسد الدين أبى الحرث شيركوه بن محمد بن شيركوه مكان أبيه

قال : كان قد وصل صاحب أسد الدين الى الفرات لتقرير ما يجرى له من الولايات فأمر السلطان بنظم منثوره وضم نشره وكتاب منشوره فأجرى عليه(١) جميع ما كان لابيه وجئنا بعد ذلك الى حمص وأتمنا واستعرضنا خزاينه واستخرجنا دفاينه وقسمنا ميراثه . وكانت أخت السلطان الحسامية زوجة ناصر الدين وهى مستحقة للثمن والباقى بين البنت والابن وخلفت عينا وورقا ومجتمعا ومفترقا ومبلغ التراث فى الملك والعين والاثاث أناف على ألف ألف دينار فما اعاره السلطان طرفه ولا امترى خلفه بل تركه على أهل التركة وأبقاه برمته لهم وأسد الدين مع صغره(٢) وأن كان شهما(٣) لبيبا وسهما مصيبا احتاج الى أمير أمين يتقدم على أصحابه ويتولى مصالح بابه فرتب أميرا من الاسدية يعرف بارسلان بوغا فولاه وأولاده ولم يزل مستقلا بالولاية الى أن تفرد الامير بالامر لسدادهوبلغ فى السن مدى رشاده ونعت بالملك المجاهد وفى نسخة منشوره : وأنعمنا عليه بكل ما كان لوالده رحمه الله من البلاد والضياع والمعاقل والاقطاعات والولايات وقررناه عليه مستمرا على الدوام مصونا من الاحداث معصومة سرايره المحصنة من الانكاثوذلك حمص، سلميه، تدمر، وادىبنى حصين، الرحبة، زلبيا . واعتمد على الامير الحاجب بدر الدين ابراهيم بن شروة(٤) الهكارى فى ولاية قلعة حمص وما رأيت من الاكراد مثله دينا ومروة وكرما وقوة فأقام بها مدة حسنت فيها آثاره وشاعت بالخير أخباره الى أن نقله السلطان الى قلعة حلب فكان كما رغب ثم طلبه الملك العزيز فى آخر عهد السلطان ورتبه فى قوص . ولما فرغنا بحمص من أشغالها ورتبنا ولاة ولاياتها ونواب أعمالها عادنا هوى جلق وطيب هوائها وموافاة أندية أندائها ومعاودة جنا جناتها ومواعدة لذات لذاتها فلما ترتبنا واستطبنا لها النشر والنشق قال لى السلطان : جرد القلم فابد مشق دمشق واكتب الى الاولياء وبشرهم بوصولنا فقد هبت لهم

---

(١) فى الاصل : عـلى .
(٢) كان عمره ١٣ عاما . انظر الروضتين(١) ٢ـ٦٩ .
(٣) فى الاصل : غير منقوطة .
(٤) فى الاصل : غير منقوطة .

قبول اقبالنا باقبال قبولنا والحمد لله الذى أعادنا ورد الينا برد البــلاء بلادنا ولما شاع بدمشق خبر دنونا احتفل أهلها واجتمع بالمسار شملها وطلعت أعيانها ونبعت عيونها ووافت أبكارها وعونها وتطبقت على سـنة الامن بقدومنا جفونها وراقنا تلقى أود الامل وملق اخلاء العمل واتفقت المتعشقة وسمعت الطليقة ودخلنا المدينة وزينة الدنيا خارجة وسكينة النعمى فارجة وكان الناس قد ساءهم خبر المرض فسرهم عيان السلامة وما الذ الرجـاء بعد الابلاس والثراء بعد الافلاس وانهم ظفروا فى الايحاش بالايناس وأمنوا بمشاهدة الانوار السلطانية حنادس الوسواس واجتمع السلطان فى القلعة بأهله واقلع الزمان عن جهله وشاهدنا الفضل والكرم(٢٢٧ أ)/ بالمشـاهدة الفاضلية وعدنا الى السعادة القديمة واجتمع السلطان به فبثه(٥) أسراره وزاره مرة واستزاره ودخل جنته وجنى ثماره وراجعه فى مصالح دولتــه واستشاره وعمل بما أشار به بعد أن شاء الله واستخاره وعاد الهــوى وعدنا وزاد الحجى وزدنا ووفينا بما نذرنا وانجزنا ما وعدنا واحيى السلطان سنتى الاسعاف والانصاف وأجنى قطاف الالطاف وجلس فى دار العــدل لكشف المظالم وبث المكارم واحياء المعــالم .

ذكر ما استأنفه السلطان من نقل الولايات

قال : وكان السلطان لملازمة أخيه العادل له قد مال الى رأيه وغنى بغنائه ووثق بنفاذه فى الامور ومضائه وهو يشير عليه بما يتمكن فى نفسه ويقترن بأنسه ويتصور فى حدسه . وكان الملك الأفضل نور الدين على بمصر وهو ولده الاكبر قد بدأ يظهر وقد مالت اليه بمصر جمـاعة وله منهم طاعة وربما نقم تقى الدين النائب هناك من واحد أمرا فوقعت فيه منه شــفاعة فكتب يشكو من اختلال أمره وانه لا يسعه خلاف من استبد بحكمه ولا يمكنه أيضا ما يقع من المصلحة برغمه فى عزمه . وكان فى نفس السلطان أن ينقل ولده الملك العزيز عثمان الى مصر ليكون عزيزها وليحرز ملكها ويحوزها وهو مفكر فى وجه تقريره وطريق تدبيره حتى بدا له نقل الافضل بخطه بكل ما يستميله الى بلاد الشام فاذا وصل نظر حينئذ فى اتمام ما يؤثره من المرام (فكتب الى الافضل بخطه يستميله)(٦) ويضمر بالنجح تأميله ويذكر له فرط

---

(٥) فى الاصل : فابقه والضبط من الروضتين(١) ٢ ـ ٦٩ .
(٦) هكذا فى الأصل .

أشتياقه وأنه لا افراق من ألم فراقه فليصل بجميع أهله وجماعته ووالدته وحشمه وأصحابه وسحره بمعانى الترغيب كتابه فلما قرأ(١) كتاب والده وثق بنجاح مقاصده وايقن بنجاز مواعده فودع مصر وداع القالى وأزمع عنها أزماع السالى واعتمد فى الرحيل على أمر الله تعالى وسار بالهمم العوالى والأحوال الحوالى وجاء البشير بوصوله يوم الاثنين الثالث والعشرين من جمادى الأولى فأمرنا السلطان بتلقيه فى خواصه وحشمه وحواشيه فركبنا سحرة هذا اليوم المبارك وخرج معنا الامراء والولاة والقضاة وكان يوما مشهودا محمودا مشكورا واستصحبنا الحرس الخاص واستتبعنا العوام والخواص ، ودخل فى زى موكب السلطان وجاء به وأنزله بالقلعة فى دار رضوانه ومكن مكانه وكتب الى تقى الدين أنه قد ازلجت علته وشفيت فى الاستبداد بمصر غلته فابتهج تقى الدين بتفرده وانتهج سر توحده ولم يدر أن الوهن يطرق الى وثوقه وأن الكساد يسوقه الى سوقه وأن كان فى ذمة ولد السلطان وعصمته وان تمامحرمته بحرمته فلو استمسك به واعتصم بسببه وقال : لا ولاية لى فى بلدك الا بولاء ولدك واننى فى التربية كفيله وفى التولية وكيله لصعب تحويله وما أمكن تبديله لكن قضاء الله ماض وقدره قاض .

ذكر تسليم حلب الى الظاهر

قال : ولما دخلنا دمشق كان بها من أولاد السلطان غياث الدين غازى فزار(٢) عمه الملك العادل وهو صهره وقد اشتد بمظاهرته ظهره فقال له قد نزلت عن حلب لكوحليت بها عطلك وأنا أقنع من أخى باقطاع أين كان والزم الخدمة ولا أفارق السلطان وأطلبها من أبيك ان كانت ترضيك وجاء الى السلطان فقال : هذه حلب مع رغبتى فيها أرى أن أحد أولادك بها أحق وملكها به أليق وولدنا الملك الظاهر أحب اننىبها أوثره وملك الدنيا فملك(٣) حلب له لا استكثره وأنا مع ملازمتى لخدمتك ومساهمتى فى نعمتك لا يعوزنى بلد وقال السلطان : مالنا الآن لها عوض ولا لنا فيما ذكرته غرض المهم الآن

---

(١) كذا . وفى الاصل مطموسة .
(٢) فى الاصل : غير منقوطة .
(٣) فى الاصل . فكيف .

تدبير أمر ولدى الملك العزيز فان مصر لا بد أن يكون لى بهـا ولد اعتمد عليه واسند ملكها اليه والصواب خروجنا الى البلقاء ونخيم على الزرقاء ونرتب معه من يمضى الى مصر من الامراء . فرحلنا ومعنا الملك العـادل والعزيز والظاهر والامراء والخواص وسرنا حتى خيمنا على الزرقاء وارعبنا بقربنا من الثغور قلوب الأعداء (٢٢٧ ب)/وكان قد مضى أن الملك العـادل قد زهد فى حلب وطلبها الملك الظاهر والتمس عوضها بلادا عينها ونواحى بمصر بينها وكان قد مال الملك العزيز اليه لاشفاقه عليه فسأل اياه أن يسير معه الملك العادل فانه نعم الكافى الكافل وحلف انه عن عمـه غير عادل ومازالت الرسالات تتردد والاقتراحات تتحدد حتى أعطاه السلطان بمصر البلاد المعروفة بالشرقية واعتمد عليه فى ساير الممالك المصرية وسمع تقى الدين فى مصر هذا الخبر فنبا ونفر واذا تولى أبو بكر فلا عمر فعبر الى الجيزة مظهرا أنه يمضى الى بلاد المغرب ليملكها وكتب الى السلطان أن لا يمنعه من سلوك مسلكها وسمت همته الى مملكة جديدة وأقاليم ذات ظلال مديدة وقد كان أحد مماليكه المعروف بقراقوش قد جمع من قبل الجيوش وسار الى بلاد برقه وهدته الامنية الى النفايس فى بلاد نفوسة فادركها وتجاوز الى افريقية وهو يكتب الى تقى الدين مالكه برغبته فى تلك المملكة ويقول أن البلاد سايبه وعرايسها لكفوها منها خاطبة فلما تجدد ما تجدد عبر تقى الدين بعسكره وجنده ومالت اليه عساكر مصر لبذوله ومخالفة عدوله وقدم مملوكه يوزبه ليكون فى المقدمة .

ولما انتهى الى السلطان خبر عزمه قلق بتغربه وعلق بتقربه وقـال لعمرى ان فتح المغرب مهم لكن فتح البيت المقدس اهم والفايدة به أتم واذا توجه تقى الدين واستصحب رجالنا المعروفة وأبطالنا الموصوفة ذهب العمر فى اقتناء الرجال واذا فتحنا القدس والساحل طوينا الى تلك الممالك المراحل وعلم لجاج تقى الدين فى ركوب اللجة واحتجاجه فى سلوك تلك المحجة .

قال : ولكننا نكتب اليه بالوصول ليشافهه بوصايا ويطلعه على خفايا وحينئذ يعزم ويصمم فاذا وصل الينا شغلناه واذا استقالنا عثره أقلنـاه فكتب اليه يأمره بالقدوم عليه . ولما استقر أمر الملك العادل فى المعيشـة التى بها توحد الولاية المصرية التى بها تفرد استدعى نجاز أمر العـزيز للسير معه فقرر السلطان لولده قوص وأعمالها ومرافقها وأموالها واضاف

أليه أجنادها ورجالها ورتب له رواتب ووظف له وظايف مواهب وعين له من خواصه حجابا ومن ذوى استخلاصه أصحابا ودون له ديوانا وكتابا ، وودعه فى العشر الأول من شعبان، وسار الملك العادل وودعناهما وعدنا مع السلطان والفاضل ، وكان دخولهما الى القاهرة فى خامس رمضـــان . وأما الملك الظاهر فان السلطان سيره الى حلب وانعم عليه بها وببلادها وساير قلاعها وأقاليمها وضياعها وأمر أمرائها بطاعته ومتبوعيها بتباعته ، وندب معــه شجاع الدين عيسى بن بلاشوا ، ولم يزل الملك الظاهر من أيام صــــغره كبير القدر نسيج الدهر شديد التيقظ ، سديد التحفظ بعيد المنـــال قريب النوال .

وأما الملك المظفر تقى الدين فانه لما وصل كتاب عمه بالاستدعاء سارع الى تلبية النداء ، فجاء مغذا يغذ السايرين نداء وخلى بمصر أصــــحابه وأسبابه فوصل الخبر بوصوله فى العشر الاخير من شعبان وخرجنا لتلقيه، وخيم السلطان على كنف المصرى فوق قصر أم حــكيم فلما قرب ركبنا الى موكبه وقرت عينه بلقيا عمه وظفر من السعادة وما فى قسمه ونسى ذكــر المغرب لانارة مشرق سعده فلم يرجع الى ذلك الحديث من بعــده ، وخاطبه السلطان بكل ما عاد بانسه النافر والسلو عن أمسه القابل ودخــل الى دمشق فى آخر شعبان فابصرنا على وجهه هلال رمضان وعاد الى ما كان له من البلاد ومنبج والمعرة ثم أضاف اليه ميافارقين وجميع ما فى ذلك الاقليم من المعاقل وخصه من ممالكه بالكرايم والغنايم وكتب الى مصر باســتدعاء رجاله واعلامهم بتأخر عزم المغرب بل ابطاله فامتثلوا الامــر وفارقوا الى الشام مصر سوى ملوكه زين الدين يوزبه(٣) فانه رتب له عسكرا الى المغرب ومضى واستصحبه وغلب على بلاد أفريقية ثم قصد صاحب المغرب فأخذه مأسورا ثم اغزاه مع الغز فى ثغرة من الثغور فألفاه مشهورا مشكورا فقدمه على الغزية الغزاة ولهم بــلاء حسن فى تجمع الكفر ولا قــدر للبغاث مع البـــزاة .

---

(٣) فى الاصل : يعـــذبه .

ذكـــر مكرمة لتقى الدين

قال : أجلسنى عنده يوم قدومه بالمخيم على المصرى يبثنى(١) أسراره ويذكر لى فى الحسن والاحسان آثاره وأطال معى حديثه عتيقة (٢٢٨ أ)/ وحديثه فجاءنى من سارنى بخبر أزعج خاطرى وذلك أنه أخبرنى احتراق دكان فى جوارى غلبت عليه النار حتى أشرقت بها الدار فسألنى تقى الدين عن الحال وما سبب شغل البال فأخبرته هو وقلت هو قربان هذا القدوم المبارك فقد كان العصر القديم وقوع النار فى القربان امارة قبوله وعنوان حصوله فأثر هذا القول فى اريحيته ونفذ الى يوم وصول الى دمشق مائتى دينـــار وقال رم بهذا ما تشعث من هدم أو نار ولم يكن العهد بعيد بانفاذ رسمى من مصر ودنانير مصرية مائتين ولم يستكثر فيكون الضنين وكم له عنــدى من اياد مبتكرة وكان لا يسمع لى قصيدة الا استأنف لها جايزة جديدة وممـــا مدحته به فى هذه الدفعة قصيدة سينية تشتمل على مائة وأربعين بيتـــا انشدتها اياه فى ثالث رمضان من هذه السنة ومطلعها :

عفا الله عنكم من ذوى الشوق نفسوا ... فقد تلفــت منا قــلوب وأنفــس

أما لكم الا بـــلواى ســـلوة ... ولا لــكم الا بهـــمى تأنـــس

جرحتم فؤادى بل هدمتم تجلـدى ... فهـــلا بعثتم طيفــكم يتحســس

لم أنس أنسى بالحمى سقى الحمى ... عيشـــة لى مجنى ومجلى ومجلس

ولى فيه من ثغــر الحبيب وخده ... ومقلتــــه راح وورد ونرجـــس

ظننتم بعينى انها تألــف الــكرى ... فهـــلا بعثتـــم فؤادكم يتحســس

ومنهـــا فى المـــدح :

بتوقيعه تجرى المواهب أبحـــرا ... فهـــل قلم فى كفـــه أم قلمـــس

وهل بظما الراجى مـــكارم ماجـــد ... عيون النـــدى من كفـــه يتحبس

تشكى اليه الغرب جـــور ملوكه ... فاشكيته والجور بالعـــدل يعـــكس

يستر بالنقع السمـــاء كأنها بخـــو ... ف فتـــاكم بالعجــــــاج يترمس

شموس ظبى تغدوا لها الهـــام ... ســـجدا فلله نصرانيـــه تتمجس

وكم كفى الاســـلام سوءا بملككم ... كفيتم على رغم المعـــاذير كل سو

اذا ما تقى الدين صـــال تســـاقطت ... لاقدامه من عصبة الشرك أرؤس

بانمار شكرى غرس نعماك مثمـــر ... وتزكوا ثمار الغرس ان طاب مغرس(٢)

---

(١) فى الاصل : غير منقوطة .

(٢) وردت هذه القصيدة فى الروضتين مع اختلاف فى بعض الابيات أنظر الروضتين(١) جـ ٢ ص ٧١ ، ٧٢ .

ذكر ظهور كذب المنجمين فى شعبان هذه السنة

قال : كان المنجمون فى جميع البلاد يحكمون بخراب العالم فى هذه السنة فى شعبان عند اجتماع الكواكب الستة فى الميزان بطوفان الريح فى ساير البلدان وخوفوا بذلك من لا وثوق له باليقين ولا أحكام له فى الدين من ملوك الاعاجم والروم وأشعروهم من تأثير النجوم فشرعوا فى حفر مغارات وتعميق بيوت فى الاسراب وتوثيقها وسد منافسها على الريح وقطع طريقها ونقلوا اليها الماء والازواد وانتقلوا اليها وودعوا الطراف والتلاد وانتظروا الميعاد وكلما سمعنا بأخبارهم ضحكنا من عقولهم الواهية العقود وسلطاننا يسخف آراء أولئك الملوك وكيف خص الله بصايرهم بالاظلام والحكوك فلما كانت الليلة التى عينها المنجمون لمثل ريح عاد ونحن جلوس عند السلطان فى فضاء واسع وناد للشموع الزهرات جامع وما يتحرك لنا نسيم ولا يسرح للهوا فى رعى مناقب الأنوار مسيم فذاكرنا ما ذكره المنجمون وشرعنا فى رواية أحاديث الرسول وذكر ما يدل على بطلان أقاويلهم من المنقول والمعقول فما رأينا ليلة مثلها فى ركودها وركونها وهدوها وهدوئها .

ذكر الحوادث فى هذه السنة

قد سبق ذكر أتابك شمس الدين محمد بن أتابك ايلدكز المعروف ببهلوان وعساكرهم وأنهم وصلوا الى قرب خلاط عام أول فى جمادى الآخرة/(٢٢٨ ب) ونحن على ميافارقين فلما انصرفنا انصرفوا وتصرف بهلوان وجرى بما قدره الله الحدثان ومرض مرضا أعيى الاطباء دواؤه وأعضله داؤه وأيسه عن الصحة أطباؤه وانقطع رجاؤه من الثرا الى الثرا ومن البراءة الى السرا وجاءنا نعيه فى أول سنة أثنتين وثمانين فما ندرى أكانت وفاته فى هذه السنة أم قبلها وكانت حياته متصلة للجد والجدى الى أن جذ القدر حبلها واضطربت من بعده تلك الممالك وتطرقت الى البلاد من بلائها المهالك وأحربت أصفهان والى اليوم من سنة أربع وتسعين ما وضعت أوزارها وما يبالى أزور عنها من استولى بها أوزارها . قال الفتح على بن محمد الاصفهانى مختصر الكتاب والى اليوم من سنة اثنتين وعشرين وستماية الحروب فى اصفهان قايمة على ساقها والفتن مميحة فيها على سكانها بأوراقها والله تعالى يفرج عن أهلها ويبدل حزن أحوالها بسهلها . قال : وتولى بعد بهلوان أخوه قزل أرسلان فازال مهابة الملك السلجوقى وسلك

بالسعيد الشقى الى أن اتضع الملك وانقطع السلك وطمعت خراسان فى العراق وعدمت الافاقة من الأفاق .

عاد الحديث : قال : واتصلت المواصلة بيننا وبين المواصلة واستمرت المراسلات بالصلات وفقدت الحقود فى الحقوق وجاء البر من العقوق وأعد السلطان لاتابك الموصل هدايا وتحفا ومستعملات مصرية وثيابا وحصونا وجحورا عرابا وطيبا أهداه أخوه سيف الاسلام من اليمن وكذلك لوالدة الاتابك وصاحبته ولابنة نورالدين رحمة الله عليه ولأترابهن ما يليق بهن من البدلات الثمينات والمفاخر الذهبيات وقلايد العنبر الاشهب ونفايس الملبس المذهب . وأعد لمجاهد الدين قايماز مدبر ملكهم ما يعز نظيره من الخلع النضارية والهدايا الكثيرة والمركوب العربى وقوم ما سيره اليهم بما يربى على عشرة آلاف دينار سوى الخيل والطيب والشىء البديع الغريب ورخص وضر ما نزع(١) به الشيطان ورفع الشنان وارتفع الشأن واستظهر بمظاهرتهم السلطان .

ذكر جمال الدين محاسن بن محمد المعروف بابن العجمى ووصوله الى الخدمة السلطانية

قال : قد أجريت حديثه لما نزلنا على الموصل فى النوبة الأولى وانه المتردد فى الرسالة وأنه ذو رأى وبصيرة وفضل وفطنة وهو أمين الأمير مجاهد الدين قايماز(٢) وحاجبه ومهديه التى تتضح بسنا رأيه مذاهبه . وفى تلك الدفعة عند حضور شيخ الشيوخ على الموصل فى الشفاعة يخرج كل يوم هذا محاسن بحديث حديث ويحضر وهو عاد فى زى مستعد مستفيث حتى بردت تلك الحرارة بطبه وفلت عن الموصل حدود بأسنا بحده وعزمه ، ولما رحلنا عنهم تلك الكره وفتحنا بلادهم بالخابور وسنجار واشتغلنا بحصار آمد فى أوايل سنة تسع وسبعين وجئنا الى حلب وحلبنا درها ونظمنا فى سلك الفتوح أمرها جاءنا الخبر بدمشق أن أتابك الموصل قبض على مجاهد الدين وحبسه وأخفى موضعه الذى فيه أجلسه وكان من قبل اعتقاله له قد توجه الحاجب محاسن الينا بارساله فعلم بحاله وكان قد قرب

---

(١) فى الاصل : نفع والتصحيح بالهامش نزع .
(٢) فى الأصل : قايماز .

من حلب فأبعد عنه ممن وراءه الطلب وكتب الى السلطان وأمره بالوصول وأعطاه حتى أغناه وحقق له من الاقطاع والاصطناع كل ما اقترحه وتمناه ثم استخلصه لنفسه واستخصه لأنسه وانساه بجوده الموصل والأتابك وقال الحمدلله الذي أتى بك وهو من جميل دابه وحسن آدابه كل يوم في زيادة وحسن وسعادة دين ودنيا . وكان يعتمد عليه فى المهام العظايم وأرسله مرات الى قزل ارسلان والى السلطان السلجقى(٣) بهمدان وأما مجاهد الدين فانه طال اعتقاله اشهرا وايس صديقه لما لم ير له مظهرا ثم راى صاحب الموصل بعد حين أنه من أمر مملكته فى تهويم وتهوين واستيقظ واذا أموره بسواه مختلة وعقوده منحلة فعرف وانف واستدرك ما فرط وكان مجاهد الدين عنده مكرما ولم يزل له مستشيرا معظما فأخرجه يوما بعد اليأس منه الى مرتبته وسر السلطان بما سمعه من خلاصه فانه لم يزل من مريدى الخير وخواصه ولما نزلنا فى المرة الثانية فى سنة احدى وثمانين على الموصل صحبنا جمال الدين محاسن من جملة خواصه الامراء ومن المعدودين فى المشاورات والآراء واقطعه من اعمالها باوشنايا(٤) وانفصلت بتوصله وتوسله هناك القضايا ولما صالحناهم اعتمدوا على محاسن فى حفظ مصالح الجانبين فاستقرت الالفة بوساطته وجرى أمر المواصلة بمقامه عندنا على السداد وامنوا بامانته وكفايته (٢٢٩ أ)/طوارق الفساد وتخيروا فى النصرة الناصرية على ما سيأتى شرحه الى الجهاد ونقل جمال الدين محاسن اهله وولده الى الشام ووفرت حظوظه من الاكرام والانعام .

قال : وكان مجاهد الدين قايماز فى أيام الملك العادل نور الدين محمود ابن زنكى رحمه الله وهو يتولى اربل يتوفر على مصالحى ويؤثر مناجحى ولما جاءت الدولة الصلاحية وانتقل هو الى الموصل جرى معى على احياء تلك المعرفة فلما تنفس صبح الصلح حررت عهدا عمرت به معاهد الاحرار

---

(٣) هكذا فى الاصل .

(٤) باوشنايا : قرية كبيرة من قرى الموصل قرب بلد من أعمال البقعاء. معجم البلدان ١ — ٤٨٦ .

واسوت بابراء اساءة كلمى كلم الابرار وقصدت التحقيق وأحكمت المواثيق وقضيت حق الكلم فقضوا حق الكرم وانفذوا الى بغلة مسرجة ومائتى دينار وثلاثين ثوبا من مقدمات أنواع الوشى . ولما أقمنا بدمشق سنة أثنتين وثمانين أنفذوا على يد جمال الدين محاسن ذلك الرسم بل أضعفوا فان مجاهد الدين تقرب من خاصه بما أحرزته قصب السبق وأبقى الى انقضاء بقاء السلطان صداقه الصدق ، قال : واشتغل السلطان فى بقية سنة اثنتين وثمانين فى استقراره بدمشق ومقامه اشفاقا لنكس سقامه فى بعض أيامه بالصيد والقنص فكان يركب الى تل راهط بالبزاة والشواهين مع مماليكه الخواص الميامين وله شاهين يجرى كأنه بحر ، واذا حلق فشرار ، واذا أحرق فجمر فكلى المدار ملكى المطار شهاب ثاقب فى الديجور عذاب واصب على الطيور وكم صاد ليوسف يعقوبا وعقر فى انجاز وعد صيده عرقوبا ولما رأيت للسلطان هـذا الجارح غبطته عليه وطلبته اليه وقلتله هب لى هذا الشاهين فتعجب من سؤالى المستبعد وسؤلى المستغرب فقال أنت للقلم والدواوين والحجـج والبراهين فمالك وللبزاة والشواهين فقلت : يكون فى ملكى وكل ما يقتنصه يأمر لى به المولى وهذا أربح لى وأنفع وأولى . فقال : نعم وهبته لك ولما اصبح وعاد من القنص سيرلىسبعة عشر قطعة من طير ماء حجل وقال : هذا صيد شاهنيك فى طلق واحد وعلى عجل فملكت ذلك الشاهين خمس سنين والسلطان يصطاد به ولى قنصه فمازال لى على هـذا الحق محافظا ولهذه النكتة ملاحظا الى أن أودى الجارح فيالله دره من سـلطان خاطره بهم الممالك مشغول وعلى قلبه عبء الدنيا والآخرة محمول ولا ينس ذكر هذه القضية التى أعاد مزاحها جدا والشدة لى حقا معيدا فدون حقه على مثله أنه يوسف ومن حقنا بعده أن نتلوا : « يا اسفى على يوسف »(٥) .

ذكر ما أنعم به فى شهر رمضان من هذه السنة

قال : لما دخل شهر الصيام نوع أقسام الانعام وأصل وفرع وأعـرب وأبدع واتفق ان بعض التجار كانت بضاعته بياقير رفيعة مالها نفاق ولا له فى اخراجها ارتفاقفحملها الى الخزانة السلطانية وهى أكثر من مائة قطعـة فقال خذوها واكتبوا أثمانها الى مصر . فاشتريت منه وكتبت له بذلك توقيع

---

(٥) سورة يوسف آية رقم ٨٤ .

على ما فى مصر من المال الحاضر وكان من كرم شيم السلطان اذا عرف فى خزانته موجودا انه لا يستطيب تلك الليلة حتى يفرقه جودا فقال لى قد اجتمعت لنا بياقير وعمايم فقد تقاضتنى نفسى بجعلها على أهل الفضل والمكارم فنبدأ بأهل الدين والتقوى ونجعل لهم أوفر خط من الجدوى وكان فى الوافدين ومن أهل البلد وعاظ وعلماء وحفاظ فيكون كل يوم بكرة نوبة(١) لمن يتكلم على المنبر ثم يخلع عليهم وعلى القراء ويفضل بعدهم على الشعراء فاشتغل مدة اسبوعين بالمواعظ وسماعها ووضع المنبر فى ايوان القلعة للناس واجتماعها ولما فرغ الوعاظ من شغلهم وأتوا بظلهم ووريفهم قلت : قد قضينا حق الوعاظ وبقى حق الفقهاء وهم العارفون بأداة الشرع ناقلون حكم الأصل والفرع ولابد من احضارهم فى الايام الباقية من هذا الشهر وسماع مناظرة ائمة العصر فقال : انهم يقضى بهم الخلاف الى التشاحن والتضاغن فقلت : أنا أضمنهم ولا أحضر الا أوقرهم وأوزنهم فقال : أنت تتعصب لهم لا بل منهم لأجل اجلالهم لا يمهلهم ولا تغفل عنهم فحضر أول يوم فى ذلك المحفل جماعة أكابر من مشايخ أهل الفضل فجرت مناظرة مفيدة ومباحثة مبدية للفضل معيدة فأول من أشار اليه السلطان بالاستدلال من هو منظور بعين الاستقلال وهو مدرس الحنيفية فى المدرسة النورية برهان الدين مسعود فتأبى وتنكب وخاف أن يعرض عليه من لايباريه فى نظاره ولا يجاريه فى مضماره فقلت له أبدر الى الميدان منطلق العنان فما يقوم برهان الا بالبرهان فقال : ان كنت تعترض فأنا بحكمك افترض فأجبته الى مراده وامنته(٢) أن يجاريه سواى فى ميدانه (٢٢٩ ب)/ وبجلته بأن أكون فى اقرانه فشرع فى الدليل وقضى حق السايل فى السؤل والجواب ثم نص السلطان على فى الاعتراض فباشرت ابكار أفكارى بالاقتضاض ونفيت العلة وشفيت الغلة وحللت الاشكال واعدلت ما مال وبينت فيه الاختلال . وكان تمسكه بحديث ثم شرع فى اثبات الحكم بالقياس فألزمته الانتقال فشرع فى الجواب واحسن وأتى بما أمكن وتعوض النادى وسال بالفوايد الوادى .

---

(١) فى الاصل ساقطة ، الضبط من الروضتين(١) ٢—٧٤ .

(٢) أبو شامة يقول : فاستدل أول يوم برهان الدين مسعود مدرس الحنفية فى المدرسة المعمورة النورية واعترض عليه العماد الكاتب الروضتين(١) ٢—٧٤ .

وكان فى اليوم الثانى محفل أحفل واستدل فيه أكبر مشايخ الحنفية بدر الدين عسكر واعترض عليه من أصحابنا القاضى محى الدين بن الزكى ففاض الفضل ودر الحفل ، وكان السلطان يجلس كل يوم لطايفه ويجدد ذكر كل تالدة بطارفه فلما دنا العيد وقرب من الأمل البعيد أمر باثبات ما يخص بالخلع فكانوا اكثر من مائتين وخرجوا عن عدة المعينين فأمر بابتياع العمايم واحياء سنة المكارم ونقل جميع ما فى الاسواق الى الخزانة للانفاق وكنت قد أخذت رسم التشريف فى أول شهر رمضان فسحبت فى العيد بالدخول فى زمرة العلماء بالخلع المستجدة الاردان وكان قد اجتمع الوفود والرسل من الاطراف فدخلوا فى عموم الاسعاف بخصوص الألطاف . قال : وفى هذه السنة بنيت دارى بدمشق مقابل القلعة وكان السلطان لا يكاد يقيم فى بلدة ولا يستقيم على أحد ينتقل فى البلاد اما للجهاد واما للاستكبار من الممالك واخراج الملوك الى الانقياد فلما أقام فى هذه السنة سنة اثنتين وثمانين بدمشق للاستراحة كان يستدعينى ليلا ونهارا ويستكفينى فى المهمات والملمات سرا وجهارا فبنيت دارى للقلعة مجاورة ليقرب طريق قصده وادخل دارى اذا خرجت من عنده فهى الان مربعى ومناخى وبه عش افراخى وهى حقه درى وحقه درى وبيت عطاردى ونظم(٣) أوانسى وشواردى .

ذكر ما تجدد من الخلف بين الفرنج

قال : كان قومص طرابلس ريمند بن بيمند الصنجيلى تزوج بالقومصية صاحبة طبرية وجعل بها لأجلها سكناه وقصر على تملك الفرنج مناه فان الملك المجذوم لما هلك اوصى لابن أخته وهو الذى بعده ملك ولأجل صغره كفله القومص وهو على تربيته يحرص وبثوب الاستبداد يقمص وهو بالقوة والراى مسلسل ويزعم أنه بالأمر مستقل فهلك الصغير وبطل عليه التدبير فان الملك انتقل الى امه وبطل ما كان فى زعم القومص وزعمه فوقعت عينها على أحد المقدمين العرب فاستخلصته للقرب وانكحته نفسها وبردت لسهمه قوسها ومكنته من مزرعتها لسقيها وحرثها وادنته من خلوتها لادناء خلخالها من رعاتها وقالت : ان الفرنج ذكورها أقوم بالملك من اناثها ثم جمعت المقدمين والبارونية والاسبتار والداوية وقالت : هذا زوجى قد نقلت اليه ملكى وعقدت به مسلكى فوضعوا على رأسه التاج فزخر بحره

---

(٣) كذا وفى الاصل ونضم .

وعب وماج فسقط القومص فى يده وخرج من جلد جلده وعمى عليه واضح جدده وطولب بحساب ما تولاه فنفر منه وأباه وناداه الملك وما اباه وادعى أن ذلك انفقه فى الملك الصغير والذى رباه ثم حل حباه وسل ظباه واختزل واعتزل ومن ذورة العتو ما نزل ولاذ بسلطاننا وانفذ رسله ببذل الاستطاعة فى الطاعة والجرى على حكم التباعة وانه وان دعى أجاب وان رعى أهاب فأعجب السلطان قوله وقالوا ربما كان هذا ختلا وخترا وخداعا ومكرا فقال : اليس قد وقع بين الكفر اليأس وحصل لهم من اصلاحه اليأس فيجرى به مجرى المؤلفة القلوب وكان الأمر على ما تفرسه والعقبى الحميدة على ما جد منه فان ذلك كان من أسباب وهن الكفر ومنزل نص النصر . وكان فى الاسر خيالة من أصحاب القومص قد قررت عليهم قطايع ثقيلة فأجاب سؤاله فى المن والاطلاق واخرجهم الى عز السراح من ذل الاسترقاق حتى كاد القومص لولا خوف أهل ملته يسلم وصار بدولة السلطان وملكه يقيم ومال اليه من الفرنج جماعة وظهرت له منهم للطاغية طاعة وأمن الثغر وسكن الدهر ودخلت من جانبهم الى بلادهم السبايا وخرجت الغنايم والسنايا وللقومص قوم صدق يساعدونه فى كل باطل وحق ففل بهم أهل الساحل وبلوا منه بالشغل الشاغل.

(٢٣٠ أ) / ذكر غدر ابرنس الكرك

قال : كان هذا الابرنس ارناط اغدر الفرنجية وأخبثها وافحصها عن الردى وأبحثها وانقضها للمواثيق المحكمة وانكثها وهو على طريق الحجاز ومن نهج الحاج على المجاز . وكنا فى كل سنة نغزوه وبالبوايق نعزوه وقد ألجأنا الى مضايق المضايقة والاضاقة فأظهر أنه الى الهدنة والهدوء شديد الفاقة فتعرض للتضرع وجنح للسلم وأخذ الأمان لبلده وأهله وبقى الأمن شاملا والقفل من مصر فى طريق بلده متواصلا وهو يمكس الجاى والذاهب ويحيى من الضروب والضرايب وينكب النواكب حتى لاحت له فرصة فى الغدر فانتهزها وقطع الطريق وأخاف السبيل ووقع على قافلة ثقيلة ونعمة جليلة فاجتاحها واستباحها وكان معها من الاجناد فأوقعهم فى الشرك وحملهم الى الكرك فأرسلنا اليه وذممنا فعاله وقبحنا احتياله فأبى الا الاضرار والاصرار وأضرم الشرار واضرى الشرار فنذر السلطان دمه فأظفره الله به يوم حطين فقدمه ووفى فى اراقة دمه بما التزمه . وأقام

السلطان بقية سنه اثنتين وثمانين بدمشق وقد شغل الفرنج بعضهم ببعض وعسكر الجهاد فى العرض ونحن من عداد الاعداد واستمداد الامداد فى اقامة سنة وأداء فرض .

قال الفتح بن على الاصفهانى مختصر الكتاب : قد أورد الصـــدر السعيد عماد الدين رحمه الله ههنا رسايل لفضلاء العصر مبينة على حروف معينة أكثرها وان اشتملت على الالفاظ البارعة والمعانى البديعة لا تخلوا من تكلف تمجه الاسماع وتعسف تنبوا عنه الطباع فتركناها وأضربنا عن ذكرها صفحا وطوينا دون وصفها كشحا وسلكنا طريق الاختصار وأعزناها جانب الازورار واختصرنا على ايراد هذه الابتداءات الفاضلية من كتبه الجليـــلة الجلية فمنها :

وقفت على كتابه الذى توالت فيه سجعات الصاد ولسيدنا فخر كل من ينطق بها كما قال أبو الطيب وتناسقت محاسنها تناسق قطرات السحاب الصيب وهو يتناول الالفاظ والمعانى من مكان قريب وان مد باعه فمن سحاب وان اغترف فمن قلب والله لا يخلى الأنفس من أنفاسه المستطابة والدولة من آرائه المستصابة . أخرى سلام له من صاحب وأهلا بكتابه ومتى نقول أهلا بالكاتب وفداه من يعرفه وان أبوا فأنا والطالب الغالب وسبحان من خصه بمعجزة بنوته فسيح القلم بين أصابعه وتفجرت الحكم من ينابعـــه وجعله اماما ومن الذى لا يفخر بأن توسم تتابعه .

أخـــرى : أدام الله توفيقه والتوفيق به وصرف عنـــه كل مكروه من صروف الدهر ونوبه ولا أخلى المملكة من كريم مرتبته وشريف منصبه ولازالت مسرات الخلق مضمونة على رسله وكتبه وعين الله كالية له فى منصرفه ومنقلبـــه .

أخـــرى : احظى الكتب أدام الله سعادة الحضرة العالية وأحضر التوفيق لمقاصدها وأعان اللسان على فروض محامدها والقلب على شجون تباعدها وأجراها على جميل عوايده لديها كما يجرى الاصدقاء على أحســـن عوايدها وفسح فى مدتها ومدة محبيها حتى تستدركوا فوايت فوايدها عنـــد عبدها وأدعها الى تملك رق الحر من شكره وأولى المحللة فان تحت المحظور من نشعره سكره ما كان قريب العهد بمواطر خواطرها مذكرا بأيام الربيـــع من لقائها التي فيها ذكري لذواكرها فلذلك لا يقرأ منها حرفا الا قراناه من

الثقيل ولا يبين منه صدرا الا قال ان من البيان لسحرا وهى أدام الله نعمتها اذا أرسلت نفسها على السجية أتت بالمطبوع التى تقصر عنه الطبـــاع فاذا جاءت بالامور المهمة أتت بالمصنوع الذى يملأ الاسماع فلها الفضــلان مسترسلة ومختزلة والصوابان مروية ومرتجلة والاحسانان متأنية ومستعجلة كيف ما شـــاءت جاءت وكيف ما أرادت أوردت وفى أى حلــة برزت قال رحمه الله .

ودخلت ســنة ثلاث وثمانين وخمســمائة

وهى السنة الحسنة المحسنة والزمان الذى تقضت على انتظـــار احسانه الأزمنة وطهر(١) فيه المكان المقدس الذى سلمت بسلامته الأمكنة وخلصت بمنحة الله من المحنة الأرض المقدسة الممتحنــة ونصرت الدولة الناصرية وخذلت الملة النصرانية وتميز الطيب من الخبيث وانتقم التوحيــد من التثليث وشاع فى الدنيا بمحاسن الأيام الصلاحية حسن الأحاديث .

(٢٣٠ ب)/ قال : وقد وصفت فى الكتاب المرسوم بالفتح القدسى(٢) الأحوال ووسعت ووشعت الأقوال وحليت الفتــوح واثبته الشروح وأنا أورد فى الكتاب مما أوردته جملته الجميلة وجلالته الجليلة .

ذكر مقــدمة لذلك مبــاركة

قال : كان السلطان قدم الكتب لاستقدام الكتايب وقرب جنابه للاجانب والأقارب وواصل الموصل وسنجار ونصيبين وآمد وديار بكر من البـــر بالأمداد بعد الأمداد واستدعى لذلك ممالك الشام من الأطراف والاوســاط وأمرهم بالاحتياط وبرز من دمشق يوم السبت أول المحرم فى العســـكر العرمرم والعزم المصمم ومضى بأهل الجنة لجهاد أهل جهنم فلما وصل الى رأس الماء وجلعها محط مضارب سرادقه ومجر صوانمه ومجرى ســوابقه وامر ولده الملك الأفضل نور الدين عليا بالاقامة هناك ليســتدنى اليــه الامراء الواصلين والاملاك وسار السلطان الى بصرى وخيم عــلى قصر السلامة وقد استقبل من الله الكرامة والاستقامة .

---

(١) كذا وفى الاصل ظفــر .
(٢) في الاصل : أداة التعريف ساقطة .

ذكر سبب ذلك

وقد سبق ذكر غدر ابرنس الكرك وهو على طريقي العسكر المصرى والحاج وكان فى الحج حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين ووالدته أخت السلطان وجماعة من الخواص وأقام الى تلقى الحجيج وذلك فى آخر صفر ثم لما فرغ باله حم الى الكرك استقلاله وتقدم بمن معه من العساكر حتى نزل على حصنها فأقمنا هناك حتى أجتث أصولها وفروعها واستأصل كرومها وزروعها . ووصل العسكر المصرى يقوى الاستظهار ، وأقمنا على الحالة الحالية والجلالة الجالية ، وأما الملك الأفضل فانه اجتمعت عنده الجنود من كل فريق وأتوه من كل فج عميق وضاق بوفودهم الفضاء وفاض بوفورهم الفضاء وانقضى من السنة شهران وطال بهم انتظار السلطان فرأى الملك الأفضل أن يشغلهم بغزوة يعودون منها بحظوة فانهض منهم سرية ورتب على خيل الجزيرة وما جاء من الشرق وديار بكر مظفر الدين كوكبرى صاحب حران وعلى عسكر حلب والبلاد الشامية بدر الدين دلدرم ابن ياروق وعلى عسكر دمشق وبلادها صارم الدين قايماز فأسرجوا الخيل وأدلجوا الليل وصبحوا صفورية(١) فى أواخر صفر وصباح النصر قد أسفر، وخرج اليهم الفرنج فى الداوية والاسبتار(٢) والبارونية والدركبولية ووثبوا فى وثبات الاساد وحملوا فى ثبات الأطواد فلولا أن الله أصحب أصحابنا التوفيق لكاد الكفر ينجو والاسلام لا يدرك ما يرجوا لكن امراءنا الكرام استطابوا(٣) الحمام فلاقوهم بقلوب الصخور وهبوب الصقور وفازوا وظفروا وقتلوا وأسروا وهلك مقدم الاسبتار(٤) وحصل جماعة من فرسانهم فى قبضه الاسار فعادوا سالمين غالبين غانمين وكانت تلك النوبة باكورة البركات ومقدمة ما بعدها من ميامن الحركات وجاءتنا البشرى ونحن فى نواحى الكرم فلما قرأنا الكتب عدنا واجتمعنا بالعساكر وانتظم شمل الأوايل والأواخر وخيمنا على عشترا وقد غص بخيل الله الوهاد والذرى واشتمل المعسكر على فراسخ

---

(١) فى الاصل : صفورته . وهى كورة من نواحى الاردن بالشام وهى قرب طبرية . معجم البلدان ٣—٣٩٩ .

(٢) فى الاصل : الاستار .

(٣) فى الاصل : واستطابوا .

(٤) فى الاصل : الاستار .

عرضا وطولا وملأنا الملأ حزنا وسهولا وعرض العسكر فى اثنى عشر ألف مدجج ولما انقضى العرض واقتضى الفرض وسالت بأفلاك السماء الأرض كان السلطان قبل رحيله بيوم أركب العسكر بعدته وعدته ورتبه أطلابا وحزبه أحزابا وعين رجال القلب ومن يقف بالقلب والميمنة وحماتها والميسرة وكماتها والجناحين وقوادمها من ذوى الاقدام والمقدمة والساقة على سنن النظام وعين مواقف الرجال ومواضع الابطال وعين الجاليشية من كل طلب باسمائها ورماة احداقها وحداق رماتها وقرر هيأتهم فى الركوب والنزول وسار يوم الجمعة سابع عشر ربيع الآخرة بالعساكر وسارت على تعبيتها وتربيتها وأناخت ليلة السبت على صفين والكفر مخسوف والشرك مكسوف ونسيم النصر من تربها مسوف وباتوا(٦) تلك الليلة فلما بكروا ركبوا وكبروا وقد أخذ(٧) بحرهم فى الالتجاج وبرهم فى الارتجاج ونزلوا بثغر الاقحوانة وضربت الخيام وزهى الاسلام وأمكن من الكفر الانتقام وأقام السلطان هنـــاك خمسة أيام الى يوم الخميس ثم صممنا العزايم على الاقدام وسلب لبس السلامة من ملابس (٢٣١ أ)/ عداوة الاسلام .

وأما الفرنج فانهم لما سمعوا باجتماع كلمة الاسلام ووصول امداد العساكر المصرية والجزرية الى الشام فزعوا وشرعوا فى اصلاح ذات بينهم ورجعوا عن التغاير والتنافس وقالوا نحن أنصار الطرسه وأصلاب الملة الصليبية وآثروا صلح القومص ووصلوا على مراده مطالع أمانيه بالخلص وتزاوروا وتوافدوا وحشدوا وحشروا وجمعوا عنده الناسوت واللاهوت ورفعوا صليب الصلبوت واصحروا بصحراء صفورية وطما سيل خيلهم على الوهاد والربى(٨) ودب راجلهم كرجل الدبا واجتابوا سوابغ واجتنبوا سوابق والمعوا البوارق واسمعوا الصواعق وشبوا نار الفرق وأشابوا المفارق وما زال السلطان مستخيرا ولاعوانه مستشيرا فأشار الأمراء ذووا الاراء بالصدود عن اللقاء والمحافظة على زمار الاسلام وصون الدماء ، وقالوا لم يسبقك أحد الى مضايقة القوم فلا تعركهم عقال المعركة ولا تلق بأيديهم الى التهلكة وهذه بلادهم قد خلت منهم فتشتغل بالاغارة

---

(٥) فى الاصل : وحماها .
(٦) كذا وفى الاصل وبانك .
(٧) كذا ــ ساقطة فى الاصل .
(٨) كذا وفى الاصل الدبى .

على بلادهم الخالية ونقدم باقدامنا عطل أحوالها الحالية . فقال السلطان : الايام غير مأمونة والاعمار غير مضمونة والجهاد قد تعين فرضه ولا بد لى من اللقاء وقد قال الله أصدق القائلين : « ولينصرن الله من ينصره »(٩) فقالوا خصك الله بهذه الفضيلة ونجح الوسيلة وحيث استخرت الله فى الاقدام فانا نبذل المهج بين يديك للاسلام فلما أصبح يوم الخميس سار الخميس وزحف باسده العريس وحارت غزالة الفلق من أسد الفيلق وتقيد عنان الحوض عنان الجواد المطلق ولاح سنا الموت الاحمر فى السنان الاعرق وأشرف على الفرنج فى معسكرها العسكر(١٠) وقام المحشر وماح البيض والسفور وارتفعت الاصوات بقول الله أكبر فلو برزوا للحصاف لطالت عليهم يد الانتصاف لكنهم ربضوا وما نبضوا وهدءوا وما نفضوا فلما عرف السلطان أنهم لا يبرحون من قرب صفورية أمر أمراءه بأن يقيموا على مقابلتهم وقدموا على عزم مقابلتهم ونزل هو فى خواصه العشية على مدينة طبرية وعلم أنهم اذا علموا بنزولنا ثاروا للوصول اليها فحينئذ نتمكن من قتالهم ونجهد فى استئصالهم فحضر طبرية وجمع العساكر على أحد أبراجها فوقع ذلك البرج وانهزم عنه الفرنج ونصبت عليهم سلاليم الاسلام ودخلوها فى جنح الظلام واستضاءوا بما أعلوا من الضرام وعادت ليلة معدودة من الأيام ووقعت النار فى مخازن كبار واهراء الاغلال وبقيت الدور فارغة شاغرة وافواه الاطماع الى ازواد ما يحويه فاغرة وتحصنت القومصية ست طبرية فى قلعتها ومعها بنوها وحموها بسيوفهم وعصموها ووقع الاشتغال بحصارها ونقب جدارها وقصم سوارها فجاء من أخبر بأن الفرنج قد ركبوا وارتكبوا وجاءوا فى ليل القتام مداجين والى حرب التوحيد بحرب التثليث مخرجين فلما سمع السلطان بحركتهم ايقن بهلكتهم وقال : الحمد لله الذى أنجز وعده وأيد جنده ونهض بجباله الى جبالهم وسار لقتالهم وضيق عليهم سعة مجالهم ووقف بصفوفه أمامهم وقد وقد الحر واستشرى الشر وللصدى شسل ولاولئك الكلاب بين اللهب لهب وفى ظنهم أنهم يردون الماء ويردون الدماء فخلاتهم الحالة الحايلة وعالتهم العلة العايلة وذلك فى يوم الجمعة ووراء عسكرنا بحيرة طبرية والورد عد ومأمنه بعد وقد قطعت على الفتوح طريق الورود وبلوا من العطش « بالنار ذات الوقود »(١١) فوقفوا

(٩) سورة الحج آية رقم ٤٠ .
(١٠) وردت فى الاصل الفرنج ثم صححت فى الهامش الى العسكر .
(١١) سورة البروج آية رقم ٥ « النار ذات الوقود » .

صابرين مصابرين على ضراوتهم وشربوا ما فى أدواتهم وشفهوا ما حولهم من المصانع واستنزلوا حتى ماء المدامع ، ودخل الليل وسكر السيل وماتوا بظماء برح وقدوا أنفسهم على الشدة واستعدوا بالعزايم المحتدية وسهر السلطان تلك الليلة حتى عين الجاليشية من كل طلب بأسماء رجالها وملأ كتايبها وكان ما فرقه من النشاب أربعمائة حمل ووقف سبعين جمارة فى حومة الملتقى يأخـــد منها من خلت جعابه وفرغ نشابه من تعالق يفتح من باب المـــوت والمغالق وتواضيح لخراق المضاعف الفسيح وناوكات ذوات نكايات وزياريات وزنبوركات .

ذكر يوم حطين وهو السبت الخامس والعشرين من شــهر ربيـــع الآخـــــر

قال : وأصبح الجيش على تعبيته والنصر على تلبيته وبرز رجـــال الجاليش وارتجزت دعاء التحريض والتحريش وقامت (٢٣١ ب)/ الحرب على ساقها ووفت بميثاقها ، والفرنج متكاثرة العدد متكاثفة العدد آخذة طريق البحيرة بطوارق الحيرة قد أحاط رجلها بخيلها جارية الى القرار بســيلها فاعترضهم سدنا واعتراها صدنا فعرفوا أنه لا سبيل الى الحياة الا بسلوك نهج الموت وانه لا مطمع فى اللقاء الا باستحلاء طعم الفوت والســـلطان وقف قلبه ووقف على الوثوق بنصر الله قلبه وهو يمضى بنفسه على الصفوف ويحضهم على حظهم من الفتوح والحتوف وكان له مملوكا اسمه منكورس من شموس الترك قد كمل الله تعالى له حسن الخلق والخلق وفضــــله فى الفروسية وهو راكب أمام العسكر وأراد أن يكون له فضيلة السبق فى الاقدام فوثب بحصانه وثوب الضرغام وحمل حملة جرى فيها عنانه وشكر لها احسانه وظن انه يوافقه فى الركضة أعوانه فجذبه لقوة رأســـــه حصانه وخلاه خلانه فلما رآه الفرنج وحيدا ووجدوا المدد عن نصرته بعيدا رجعوا اليه ورموه عن ظهر حصانه وأحاطوا به فى مكانه فأثبتت فى مستنقع الموت رجله وقاتل الى أن بلغوا قتله فلما أخذوا رأسه ظنوا أنه بعض أولاد السلطانوزعموا ظهور الكفر علىالايمانوأما عساكرنا فانها لما رأتاستشهاده حمت حميتها وخلصت لله فى ارداء أعدائه بنيتها وصممت الجاليشية تلفحهم بلوافحها وتقدحهم بقوادحها وبرح بالفرنج العطش ووجدوا الطرق مصدودة والسبل مسدودة . وكان النسيم أمامها والحشيش قدامها فرمى بعـــض مطوعة المجاهدين النار فى الحشيش فتأجج عليهم أسعارها وتوهج أوارها

فوصلوا فى ورطة الاحتدام فضايقت ذيابهم منا الضراغم وعارضت صقورنا منهم القشاغم ودارت بمساعير الجحيم ودواير الشعرا بجواحم ، ونظـــر القومص من مبتدأ الأمر الى غايته وعلم أن القوم قد تداعى بنيانهم ودعاهم خذلانهم فأفكر كيف ينجو فقال لهم : أنا أسبق بالحملة وأفضـــلهم بالجملة فاجتمع هو وآزروه جماعة من المتقدمين هم مظاهروه وصـــحبه صاحب صيدا وباليان بن بارزان فحمل القومص ومن معه على الجانب الذى فيه الملك المظفر تقى الدين ففتح لهم طريقا ورمى من أتباعهم فريقا فمضوا على رءوسهم ونجوا بنفوسهم ولما عرفوا أن القومص نفد فى الهزيمة هانوا ثم اشتدوا وما لانوا وحملوا حملات راضوا بها جماح الحرب وخلصوا فيهـــا غمار الطعن والضرب وعدموا فيها استطاعة القدر بل طاعة القدر واستعرنا النصر عليهم من النصل المستعر فوقعنا فيهم وقوع النار فى الحلفاء وصببنا ماء حديد للاطفاء فزاد فى الاذكاد فحطوا خيامهم على غارب حطين حين رأونا بهم محيطين فأعجلناهمعن ضرب الخيام بضرب الهام وأزللنا أقدامهم عن مداحض الاقدام ومازالت اللجج تفيض والمهج تقيظ والنفوس تقع والرءوس تطير حتى كست اشلاء مشلوليهم عرى العراء وحشت(١) شـــفاه الشفاء من أفلاء مفلوليهم احساء الدماء وانكسر من الصليبى صـــلبه وبطل طلبه وحيرت كماته وكمته وقبابه وقببه وملك عليهم صليبهم الأعظم وذلك مصابهم الأعظم ولما شاهدوا الصليب سليبا أيقنوا بالهلاك واثخنوا بالضرب الدراك وما برحوا يؤسرون ويقتلون وللوثوب يحفون وبالخراج يثقلون فنكبوا فى أرواحهم وأنفسهم ووصلنا الى مقدميهم وملكهم وابرنســـهم فتم أسر الملك وابرنس الكرك وأخذ الملك جفرى ودوا(٢) صاحب جبيل وهنفرى وأسر من نجا من القتل من الداوية ومقدميها ومن البارونية من أخطاه البوار أصابه الاسار وجبر الاسلام بكسرهم وأسروا بأسرهم فمن شاهد القتل قال ما هناك أسير ومن عاين الأسر قال ما هناك قتيل ومنذ استولى الفرنج بســـاحل الشام ما شفى للمسلمين كيوم حطين غليل فالله عز وجل سلط الســـلطان واقدره على ما أعجز عنه الملوك ونظم له فى حتوف اعدائه وفتوح أوليـــائه الملوك وخصه بهذا اليوم الاغر والنصر الأبر .

---

(١) كذا وفى الاصل : وحنت .

(٢) ورد هذا الاسم فى الروضتين(١) ٢ — ٧٨ مغايرا : أوك

قال : هذه النوبة المباركة كانت للفتح القدسي مقدمة ومن عجايبها أن فارسهم مادام فرسه سالما لم يدن لمصرعه فانه من لبسه الزردى من فرقه الى قدمه كأنه قطعة حديد ودراك الضرب والرمى اليه غير مشيد لكن فرسه اذا هلك فرض وملك فلم يغنم من خيلهم (٢٣٢ أ)/ ودوابهم وكانت الوفا فرس سالم وغنمنا ما لا يحصر من بيض مكنون وزعف موضون وبلد وحصون وابتدلنا منهم بهذا الفتح كله أقليم مصون وذلك سوى ما استفتح من مال مخزون واستخرج من كنز مدفون ولما صح الكسر وقضي الأمر وسكن البحر وتمكن النصر ضرب للسلطان فى تلك الحومة دهليز السرادق وتوافت اليه فرسان الحقايق ونزل السلطان وصلى للشكر وسجد وجدد الاستبشار بما وجد وأحضر عنـــده من الاسارى الملك والابرنس(٣) وأجلس الملك بجنبـــه ليزايله الوحشة ويحصل له وهيهات الانس وألفاه يلهث للعطش وينظـــر مبهوتا نظر المستوحش فأمر له بماء مثلوج فشربه ثم ناول الملك الابرنس القدح فأستشفه ثم حضر الترجمان حتى يعرف جواب ما يخاطبه به السلطان ومازال يقرعه بغدره وبغيه ويذكره بجهله وغيه ثم ركب وخلاهما ولم ينزل حتى شاهده ضرب سرادقه وبسطت نمارقه وركزت أعلامه وبيارقه ثم نزل وأمر باحضار الابرنس فقام اليه بالسيف فحل عاتقه وحفظ مع الاله فى نذر دمه مواثقه وكان عنده خادم ثم فجر برجله بعد أن أخذ رأسه وهد أساسه فلما شاهده الملك يسحب بقدمه ويشحب فى دمه طار عقله وثار خبله واستحضره السلطان فخانت رجله فجاه مرتعبا مرتعشا(٤) وظن أنه كرفيقه هالك فقربه وسكنه وأدناه وأمنه وقال : ذاك بصنعه لعهده ضيعه واصراره على غدره صرعه وأجلسه وآنسه وهيهات ينتعش من الله أتعسه أو يسعد من الكفر أنحسه ثم جمع الاسارى المعروفين وسلمهم الى والى قلعة دمشق الناصح وسلمهم الى أصحابه وامرهم أن يأخذوا خط الصفى القابض فى دمشق بوصولهم ويحتاط عليهم فى أغلالهم وكبولهم فتفرق العسكر بمن ضمته أيدى السبى أيدى سبا وهادتهم الوهاد والربى وضرب الله ذلة أهل السبت فى يومه على أهل الأحد وسار الناس منهم بالمدد بعد المدد . وعبرت بحطـــين فرأيتها موضع الاعتبار وشاهدت ما فعل أهل الاقبال بأهل الادبار وعاينت أعيانهم خبرا من الاخبار ورأيت الرءوس طايرة والنفوس بايرة والجسوم

---

(٣) الواو اضافة وفى الاصل ابن زائدة .
(٤) كذا وفى الاصل مر .

رمتها السوافى والرسوم درستها العوافى ولما أبصرت خدودهم ملصقة بالتراب وقد قطعوا ارابا تلوت قول الله تعالى « ويقول الكافر ياليتنى كنت ترابا »(٥) ولما أصبح السلطان يوم الاحد خيم على طبرية وراسل القومصية وأخرجها من حصنها بالأمان ووفى لها ولبنيها الفرسان شروط الايمان فخرجت بمالها وعيالها ورجالها وأثقالها وولى طبرية صارم الدين قايماز النجمى فعادت بعادته الجميلة آهلة بأهل اليمن والايمان معتدلة المحاسن بالعدل والاحسان وسكنت مساكنها وعمرت أماكنها وقبضت مخازنها وعرضت دفاينها وعاد الاسلام الغريب منها الى وطنه والدين الحافل منها الى مأمنه وأصبح السلطان يوم الاثنين السابع والعشرين من الشهر مغتبط بما شهره الله له من سيف النصر فرأى أنفاذ مقدم الداوية مع الملك وأخيه وجماعة الاكابر الى دمشق كما سبق ذكره ثم نفذ فى الاسارى الداوية والاسبتارية(٦) خاصة أمره وقال : لا نفع فى ابقائهما وهما جنسان نجسان فلابد من ابادتهما وارادئهما فما جرت عادتهما بالمفاداةولا يقلعان من المغاداة فتقدم باحضار كل أسير داوى واسبتارى(٧) ليمض فيه حكم السيف ثم علم أن كل من عنده أسير لا يسمح به فجعل لكل من يأتيه باسير منهما من الدنانير الحمر خمسون فأتوه فى الحال بمائين وأمرباعطابهم وضرب رقابهم وكان بحضرته جماعة من المطوعة والمتورعة والمتصوفة ومن تمت بالزهد والمعرفة قد اعتقوا الى ضرب الاعناق ووقف كل منهم حاسرا عن ساعد ومشمرا عن ساق فمنهم من أمضى عقبه وأمضى ضربه ومنم ما كبا زنده ونبا جده والسلطان جالس وماله عن انفاذ حكم الله فيهم حابس ووجهه باشر ووجه الكفر عابس فشاهدته الضحوك القتال والمختال المغتال وكان الاسارى قد سبق بهم الى البلاد الناس ولم يقع على عددهم القياس فكتب الى الصفى بن القابض نايبه بدمشق أن يعجل لطلب الداوية والاسبتارية السبق ويضرب عنق من يجده منهم فامتثل الامر فى ازهاقهم (٢٣٢ ب) /وضرب أعناقهم فما قتل الا من عرض عليه الاسلام فأبى أن يسلم وراى لشدته فى كفره أن ينقاد للقتل ولا يستسلم وما أسلم الا آحاد حسن اسلامهم وتأكد بالدين غرامهم .

---

(٥) سورة البنا آية رقم ٤٠ .
(٦) فى الاصل : الاسبتارية .
(٧) فى الاصل استارى .

ذكر السبب فى نذر السلطان دم ابرنس الكرك

قال : وما زلت أبحث عن ذلك حتى حدثنى الامير عبد العزيز بن شداد بن تميم ابن المعز بن باديس وهو ممن يتولى الافضال الفاضلى من دونه التنفيس ولم يزل له بحاضرته ومحاورته الأنيس وهو من البيت الكبير وكان جده صاحب أفرقية والقيروان وكانوا يتوارثون ملكه الى قريب من هذا الزمان ذكر أن الأجل الفاضل حدثه بما حدث من مرض السلطان وأنه لما عاد الى دمشق من حران بعد المرضة وذلك فى سنة اثنتين وثمانين وهو فى عقابيل سقمه لا يفارق الانين وأشفى ذات يوم على الخطر واستسلم للقدر وحضره فى يوم الجمعة وهو يوصيه وهو فى تفطر أنفاسه المعدودة وترقب قلوص ظلال عمره المدودة وقد قنط من الحياة وفاته امكان من الوفاة فقال فاردت أن أشغله عن الوهم والهم وقلت ما معناه قد ايقظك الله وما يعيذك من هذا السوء سواه فانذر انك اذا أبللت من هذا المرض تقوم بكل ما لله من المفترض وأنك لا تقاتل مع المسلمين أحدا أبدا وتكون فى جهاد أعداء الله مجتهدا وانك اذا نصرك الله فى المعترك وظفرت بالقومص وابرنس الكرك تتقرب الى الله تعالى باراقة دمهما واعطاه يده على هذا النذر وانجاه الله فأبل من مرضه واستقل بنهضته واستقبل السنة القابلة بسنة الغزو وفريضته وجرى من مقدمات الجهاد ما جرى وخيم السلطان فى جموع الاسلام بعشترا وركب يوما فى عسكره وأمواج بحره وأفواج معشره وقد التقا الطلعة المباركة من الأجل الفاضل فقال ليكن نذرك على ذكرك وستزد نعمة الله بمزيد شكرك ولا تخطر غير قمع الكفر بفكرك فما أنقذك الله من تلك الورطة ونعشك من تلك السقطة الا لتوفر حظك من هذه الغبطة فتوكل على الله عازما وجاز الاردن حازما وأرعب جأش الكفر وفل جيوشه وثل عروشه ووقع فى الشرك ابرنس الكرك فوفى بضرب عنقه نذره وأما القومص فانه أخذ فى الملتقى بالهزيمة حذره ولما وصل الى طرابلس اخافه فى مأمنه القدر وسلمه مالك الى سقر .

ذكر فتح عكا

قال : ورحل السلطان ظهر يوم الثلاثاء والتوحيد ظاهر على التثليث والطيب قد امتاز عن الخبيث ونزلنا بأرض لوبية(١) عشية وأصبح سايرا الى

(١) فى الاصل : لوهة الضبط من الروضتين(١) ٢ — ٨٦ .

عكا « فساء صباح المنذرين »(٢) ولما أشرفنا عليها أيقنا بفتحها فما كان فيها من يحميها وما صدقنا كيف نتملكها ونحويها وظهر أهلها على الأسوار لاظهار الممانعة وخفقان ألويتها(٣) يشعر بقلوبها الخافقة وأرواح جلدهم الزاهقة ووقفنا نتأمل طلولها ونأمل حصولها وخيم السلطان بتربها وراء التل ولبث عساكره فى الحزن والسهل وبتنا تلك الليلة وقد هزتنا الاطراب كأنما دار علينا الشراب والسلطان جالس ونحن عنده وهو يحصى جنده ويقــــدح معهم فى اقتباس الاراء زنده ومنا من يستسح رفده ومنا من يستنجز وعــده ويواصله بالدعاء ويشافهه بالهناء الى أن نادانا ابن ذكا فلبينا وناديناا العسكر فعبيناه ووقفنا بازاء البلد صفوفا وأطلنا على أطلاله وقوفا فخرجوا الينــا رجالا ونساء واكثروا ضراعة ودعاء وبذلوا الاذعان وطلبوا الامان فاعطيناهم الامان على الأنفس من المال والأنفس وخيرناهم بين المقام والترحيل والسكن فى وطنهم والتحول فشرع معظمهم لشدة الخوف فى التنقل وأرخينا لهم طول التمهل وفتحوا يوم الجمعة فى مستهل جمادى الأولى بابها(٤) ودخلناها لاقامة الجمعة وزادوا فى الدخول عدة من المتطوعة وجماعة من الطمعــة وأخياف من الاتباع لا تخاف من التبعة فما منهم الا من ركن على دار رمحه وأسام فيها سرحه فحطوا على دور اخلاها أربابها وأموال خلاها أصحابها (٢٣٣ أ)/ وجينا الى كنيستهم العظمى وحضر الأجل الفاضل فرتب بهــا المنبر والقبلة وهى أول جمعة أقيمت بالساحل وكان الخطيب والامام فيها عبد اللطيف بن الشيخ أبى النجيب ولما رآه السلطان اتقى وأزكى ولاه مناصب الشريعة فى عكا فتولى القضاء والوقف(٥) والحسبة والخطبة وفوض عكا وضياعها ومعاقلها وقلاعها الى ولده الاكبر الملك الأفضل نور الدين على وجعل للفقيه ضياء الدين عيسى بن محمد الهكارى(٦) كل ما كان للداوية من معيشة واقطاع ودور ورباع فتصرف فيها وحصل على حواصلها وعلق بكرايمها وعقايلها ووقع فى مراعيها المربعة نوابه وأثرى بثراه وثروتها أصـــحابه وولجوا المخازن واستخرجوا الدفاين وكذلك مماليك الملك الأفضل أصحابه

---

(٢) سورة الصافات آية رقم ١٧٧ . « فاذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين » .

(٣) فى الاصل : قلوبها الضبط من الروضتين(١) ٢ — ٨٦ .

(٤) كذا وفى الاصل : بهابها .

(٥) فى الاصل : الموقف .

(٦) فى الاصل الهلكارى .

وولاته ونوابه نبشوا المخازن وفتشوا المزاكن واستباحوا المخزون والمدفون والمحروس والمصون ومن جملة ذلك أنهم احتاطوا بغير علمي على دار باسمى فباعوا منها متاعا بسبعمائة دينار وقلدنى المنة فى تحصيل الدار فانها كانت من أنفس العقار وانما وصفت هذا لعلم ما غنموه وما التهبوا على حيازته والتهموه ، وتصرف الملك تقى الدين فى دار السكر فاقتنى قنودها واستوعب موجودها وقد أشرت الى هذا المعنى فى الكتاب الموسوم بالفتح القدسى وقرىء على السلطان منه ليلة ونحن بالقدس سنة ثمان وثمانين وسمع ولو ذخرت تلك الذخاير وجمع لبيت المال ذلك المال المجموع الوافر لكان عدة ليوم الشدايد وعدة لنجح المقاصد فقال السلطان : هذه رفيعة على ثلاثة اثنان منهما فى جوار الرحمة والآخر باق فى مقر العصمة يعنى بالاثنين الفقيه عيسى وتقى الدين وبالاخر الباقى ولده نور الدين ولعمرى هو كما ذكره لكن الملك الافضل نور الدين ما حصل له بخاصة بل لذوى اختصاصه واستخلاصه ولقد شرحت فى ذلك الكتاب الأحوال ووصفتها وذكرتها بالحالة(٧) التى شاهدتها .

عاد الحديث وأقام السلطان بمخيمه على عكا أياما وأعلى بالمنى اعلاما وكان يوم فتح حطين قد كتب الى أخيه الملك العادل سيف الدين بما من الله به على الاسلام والمسلمين من الظفر والتأييد والتمكين فوصل بعسكره ورعيله ومعشره وجاء كتابه مبشرا بوصوله ومذكرا بسؤله وانه فتح فى طريقه بمن صحبه من فريقه الحصن المعروف بمجدل يافا وأنه حاز منه الغنايم والسبايا وانه مجد فى طى السهول والحزون وفتح ما يستقبله من الحصون فسطر جوابه وشكر صوابه وأنه يقيم فى ذلك الجانب جامعا للكتايب ليجتمع به الواصلون من مصر الآملون معه النصر . وتوجه عدة من الامراء الى الناصرة وقيسارية والبلاد المجاورة لعكا وطبرية وآبوا بالغنيمة والسبى خير أوب وجاءونا بكل مليحة مليحة متعبة مريحة مقبلات أوايب طويلات الذوايب ثقيلات الروادف خفيفات المعاطف فكم أجد الله لنا من نعمى هنيه وأمدنا من حبى سنيه فما منا الا من انفض وغضب وعض وفى كل يوم لنا فتح جديد ومنح عتيد وتأييد يتبعه تأييد .

---

(٧) فى الاصل : باحالة .

قال : وفي هذه السنة نكب الصاحب مجد الدين أبو الفضل عبد الله ابن الصاحب استاذ الدار العزيزة بجريرة جرت عليه القتل وجريمة ما اطلع عليها وما أقيل عثرتها وذلك ظهر يوم السبت رابع عشر ربيع الأول فجاءه القدرمنكمينه وفجأه الكدر من معينه وبينا هو فى أمر قاطع وفجر ساطع وفخر صادع وشمل جامع اذا بغته الزمان ومحنه الحدثان وعثر منه على جناية أسمعت الى دمه قدمه ودعت الى وجوده عدمه وانما أوردت ذكر مقتله فى هذا الموضع لأنه جرت العادة منا بمكاتبة من يكون أمر الديوان اليه فيما يستنح من المقصود المتوقع فلما مضى لسبيله قام فى موضعه عميد الدين أبو طالب بن زيادة فتولى الثانى لما بدأ به الأول الاعادة ووصل كتابه وكتب جوابه وفى بعض الكتب اليه : والبلاد والمعاقل التى فتحت هى طبرية وعكا والناصرة وصفورية ونابلس وحيفا ومعليا وفوله والطور والشقيف. قال : وأما الفولة فهى قلعة للداوية حصينة لما خرج سكانها لم يدخلها سكينه فان الداوية الذين كانوا فيها قد هاجوا الى الهيجاء وطروا فى القتلى والاسراء فنعب الغراب على طول الفولة بدماء أهلها المطلولة فهى غاب غابت أسودها الحماة وغيل غالت (٢٣٣ ب)/ ليوثه عداتها الهداة وفيها ذخاير كنايسهم وأخاير نفايسهم وسبايك نضارهم وكرايم أعلاقهم ولم يبق فى الحصن الا آحاد من الغلمان واتباع الفرسان فخافوا على النفوس وارتاعوا من البؤس ومالوا الى الاذعان وسلموا الموضع بالامان وتسلمنا بتسلمها جميع ما يجاورها بتلك الارض كدبورية وجينين وزرعين والطور وأضيفت الى الثغر وأما حيفا فانها من عكا وقيسارية على البحر وتسلمت لسيف النصر وأما نابلس(٨) فان أهل ضياعها ومعظم أهلها كانوا مسلمين وفى سلك الرعية مع الفرنج منتظمين وفيها افرنج ونصارى مقيمون مدبرون وقد اقروا منذ استولوا عليها المسلمين على عوايدهم فى قضائهم وحكمهم ومشاهدهم ومساجدهم وهم يجبون كل عام منهم قرارا ولا يغيرون لهم شرعا ولا شعارا فلما عرفوا كسرهم وأنهم لا يرجون جبرهم وخافوا من مساكنة المسلمين واشفقوا وأخذوا بالحزم لما فرقوا وتفرقوا وكبسهم أهل الضياع فى الدور الرباع وغنموا ما وجدوه من الذخاير والمتاع واوقعوا بضعفائهم وضايقوا الحصون على أقويائهم وطلبها من السلطان ابن أخته الامير حسام الدين

---

(٨) ناقصة في الاصل والاضافة من الروضتين(١) ٢ — ٨٨ .

عمر بن محمد بن لاجين وكان الامير القوى وهو عزيز عند خاله ملى بفضله وأفضاله متقبل شيمة السلطان فى بأسه ونواله متفرد من الاملاك بمحاسن خلاله فاقطعه السلطان نابلس وأعمالها وضياعها ومعاقلها وقلاعها متوجه لفتوحها وصحب جموعه جماعة من الاصحاب وسال بالجبال « وهى تمر مر السحاب »(٩) فأول ما اناخ على سبسطية(١٠) وفيها مشهد زكريا عليه السلام وقد أتخذها الاقساء كنيسة منذ فارقها الاسلام وفيها أوانى وآلات فضيات وذهبيات وقومتها من الرهابين فيها مقيمة ولا يؤذن فى الزيارة الا لمن معه هدية لها قيمة فدخل الموضع وأغلق بابه وافرد عنه حجابه وأصحابه وأمر بجمع ذلك المصوغ والمحوك والمسبوك والعقود والسلوك كل ما يعز وجوده فى خزاين الملوك فاقتناه جميعه لنفسه خاصة وأمن أن يرى بعدها خصاصه وصارت له خزانة ثقيلة وذخيرة جليلة وأبقى فى الموضع من الفرش والآلات ما لا يستغنى عنه المشهد ولا يحسن أن يخلوا من مثلها المسجد وفتح للمسلمين أبوابه وأظهر للمصلين محرابه ولما فرغ من شغله سار الى نابلس عليها منيخا ولدعاء المسلمين بها مصيخا وطال حصره للفرنج بالحصن ثم استنزلهم بالامان واستمال من سكانها من ضرب عليه الجزية بعد زمان فعادت بلدة محشوة بساكنيها كالرمان وبقيت(١١) الى آخر عهده وعمرت بعدله واحسانه ورفقه ورفده قال : وكانت بينى وبينه صداقة بصدق العقيدة معقودة ومودة أسباب النقص فيها مفقودة فنظمت هذه القصيدة قلت ومطلعها :

استوحش القلب مذ غبتم فما أنسا
وأظلم اليوم مذ نبتم فما شمسا

قلبى وصبرى وغمضى والشباب وما
الفتم من نشاطى كله خلسا(١٢)

---

(٩) سورة النمل آية رقم ٨٨ .

(١٠) سبسطية : مدينة من نواحى فلسطين من أعمال بيت المقدس . ياقوت : معجم البلدان جـ ٣ ص ٣٣ .

(١١) فى الاصل : ويقشعه وفى الروضتين بقيت بيده . قارن الكتاب(١) ٢ — ٨٨ .

(١٢) وردت هذه القصيدة فى الروضتين(١) ٢ — ٨٨ وهنا يورد أبو شامة العبارة التالية : قال العماد وانشدته يوم فتح القدس قصيدة أولها :

ذكر فتح تبنين وصيدا وبيروت وجبيل

قال : وكان السلطان مدة مقامنا بعكا يندب العساكر الى الولايات وسير الملك المظفر تقى الدين وأمره بقصد تبنين(١) فمضى اليها واستسهل اجتيازها ووجد بالمنعة اغترارها ورأى الى وصول الشام ونزوله عليهما أغوارها فكتب وتواترت كتبه وافية بالحشد والتحريض والبعث بالتصريح والتعريض فأخذت العزايم فى الاقتضاء والصواب فى الانتضاء ورحلنا يوم الجمعة تاسع جمادى الأولى رواحا واعرنا العزم على تأييد الله فى منزلة نزلت بها الالطاف وعذبت لمواردنا النطاف وأصبحنا على الرحيل وبتنا ليلة السبت دون تبنين ونزلنا عليها يوم الاحد الحادى عشر فوجدناها قلعة أرضها فى السماء وقلعة فى جوزها جواز الجوزاء ما يمر السحاب الا على سفوحها ولا تسترق شياطين الكفر الا من سطوحها فلا جرم جعلنا (٢٣٤)/ نجوم النصال لها نجوما وأنزلنا الوبال عليهم سجوما وهاج بهم وهج الرعب وابدوا وجوما وأخرجوا من عندهم من أسارى المسلمين قربة وطاعة تبدو بهم للشفاعة منهم ضراعة ثم أمن السلطان أهل القلعة وأمهلهم الى أن ينزلوا خمسة ايام وخرجوا من مقدميهم جماعة رهابين فضربنا عليهم خيمة الى ان انتهت المدة وتسلمت القلعة واقتضت العذرة وخلص الحصن بما فيه وترتب واليه وملكت اباعده ونواحيه .

واما صيدا فانا لما فرغنا من شغل تبنين رحلنا على سمتها معدين وعبرنا فى طريقنا على صرفند(٢) ونشقنا رياح رياحينها ونظرنا نضرة بساتينها وجلنا لحكم الرياضة فى رياضها وربضت اسودنا فى آجامها وغياضها وافتتحنا بفتحها ثم انصرفنا عن صرفند نحو صيدا صابرين ودخلناها ساعة الوصول وحالة النزول فان صاحبهما كان ناظرا فى العواقب ساترا جرح النوايب فتقدم الى نوابه أن يفتحوا لنا بابها ويرفعوا أحجابها ويخلوها ويعطلوها حتى يحلها المسلمون فيحلوها فلما جيناها حليت لنا عروسها

---

(١) بكسر أوله وتسكين ثانية وكسر نون وياء ساكنة ونون أخرى ، بليدة فى جبال بنى عامر المطلة على بلد باتياس بين دمشق وصور . معجم البلدان ١ — ٨٢٤ .

(٢) وصفها ياقوت : مدينة لطيفة على الساحل وأوردها كالتالى : صرفنده قرية من قرى صور بسواحل الشام ، معجم البلدان ٣ — ٣٨٢ .

وجنيت غروسها وذلك يوم الاربعاء الحادى والعشرين من جمادى الأولى فحان الفتح الميسر على الوجه الاسهل .

وأما بيروت فانا لما حصلت لنا صيدا سرنا فى يومنا على سمت بيروت وبتنا ليلة الخميس دونها وصبحنا بكرة يوم الخميس فى خميس بكر للصباح وضايقناهم أياما ودافعوا أشد دفع ومانعوا أحد منع فبيناهم فى أحر حرب وأمر طعم طعن وضرب اذ صاح صايحهم وناح نايحهم انهم يركبون السفينة وينزلون المدينة فأصبحنا يوما على العادة المستمرة فى المقارعة والمضايقة ... الا بخروج واحد يستدعى الامان ويستدعى الايمان على أنه يأخذ خط السلطان بجميع شرايط الايمان واتفق فى ذلك اليوم لى تغير المزاج وتعذر العلاج واحتجت الى مفارقة الخدمة للضرورة والوصول الى دمشق لمداواة الادواء المحذورة ولما احتاج السلطان لتأمينهم الى انشاء مثال طلبنى فاعتاقت فعذرنى وأحضر عنده كتاب العسكر ومتصرفيه ومن يظن به فضلا ويعتقد فيه وحسب أن كل من يحمل قلما كاتب وأنه يستحق الرتبة من له راتب وكل من كتب الامان المطلوب تناوله منه وتأمله واستنقصه واستزاده . فقال السلطان لكل عمل رجال ولكل جواد فى حلبة السبق مجال وهنا عرف قدر العماد وانه موافق موفق للاتيان بوفق المراد ، فجاء الى النجيب العدل بالحديث ووجدنى فى العارض الكريث وقال : اكتب هذا الامان فان هذا الفتح بقلمك مصدوق وقد خصك خالقك بالفضيلة فما يشاركك فيه مخلوق فقلت له : قد غلق رهنى وذهب ذهنى وحبس قلمى الى فقال : ان كنت ما تكتب فأمل فقلت : أرجو أن تشملنى السعادة السلطانية فاكتب ما يرضى فوفقنى الله تعالى للمراد وهدانى فى الانشاء لما يجب من الاصدار والايراد ووقع ذلك التوقيع الموقع الحسن وسلم البلد خطى ثم ارتحلت الى دمشق وعدت عند ابلالى وحال اعتدالى يوم فتح القدس وسلمت بيروت بحضورى وخرج منها ومن قلعتها الفرنج وامتلأ بهم الى السور النهج وعاد الاسلام الغريب منها الى وطنه وذلك يوم الخميس التاسع والعشرين من جمادى الاولى وكانت مدة النزول عليها الى نزول أهلها ثمانية أيام .

وأما جبيل فان صاحبها أود كان فى جملة من نقل الملك الأسير الى دمشق فتحدث مع الصفى القابض فى أمره وباح اليه بسره وقال له : ما لكم فى أسرى فايدة ولا غنيمة على فتح جبيل زايدة وأنا أسلمها بشرط سلامتى

فأنهى الصفى حاله فاستصيب ما قاله فأمر باحضاره فى قيده والاحتراز من كيده فوصل به ونحن على بيروت فطلبنا منه الشرط الموعود والاجل الموقوت فسلم جبيل وسلم وربح لخاتمه وغنم ومضى اليها من تولاها وتبعها فتح بيروت وتلاها وانتظمت هذه البلاد المتناسقة بالساحل فى سلك للفتوح متسق وأمرها من الاستقامة فى متفق .

ذكر ما تجدد فى صور من خروج القومص منها ووصول المركيس اليها

قال : وما شك القومص أن السلطان اذا عاد لا يتعدى صور وأنه يجمع عليها العسكر المنصور فأخذ بالحزم ومضى الى طرابلس ولم يلبث قليلا (٢٣٤ ب)/ حتى هلك وبتوا من أسفل السافلين فى النار الدرك ولما كان من مراد الله بقاء صور وصل اليا المركيس وهو الذى أغاث الشرك وكان من خبره أنه وصل الى الساحل هذا العام لفتح بلادها فأربى على عكا مركبه ثم صوب نحوها مذهبه ثم رأى فيها غير الذى بالمعتاد فحداه الارتياب بالارتياع الى الارتياد فاستخبر فاخبر بالحال فشرع فى التخلص والاحتيال وكانت الريح راكدة فنادى من متولى هذا البلد فقيل : الملك الأفضل فقال : هاتوا لى خطة واكتبوا فى الامان شرطة فما زال يرد الرسل حتى طابت الريح فاقلع وطار بجناح شراعه وفات ادراك من يخرج لاتباعه ومضى اليها وقد خرج منها القومص وقد لاح منها الفرص فأقام فيها وهو على تحصينها يحرص ولما عبر السلطان لم يسنح عليها ولم يصح اليها وقال : فتح بيت الله المقدس أنعم ونفعه اتم واعم وهذه صور ربما طال حصارها واستطال انصارها والأصوب الأصلح الاشتغال بما هو انجح وأنجح وكان من قضاء الله تعالى بقاء صور فانها ضمت من الكفر الجمهور وجمعت الحسود والحسور وما فتحنا بلدا الا وانتقل أهلها بالامان اليها ونزلوا حواليها ومجاورتها فى هذه النوبة أعادت أرماقها وارخت خناقها وحفر المركيس لها خنادق أحدثها وغور أعماقها وآوى اليها الواصلون من البحر وملأت آفاقها وكانت لما عبرنا بها على ما حكى أمرها سهلا ولكن ما لمراد الله مرد وليس مما قضاه الله وقدره بد .

ذكر فتح عسقلان والنزول عليها والاجتماع بالملك العادل والاتفـاق على فتحها

قال : كان السلطان على الاجتماع بالملك العادل حريصا ويرى لمدلولات الآراء بما يشير به وينص عليه تخصيصا وقد وصل كتابه يستحثه عـلى انتهاز الفرص فى فتح بيت المقدس وقصده والاشتغال بما عداه من بعـده فان أوقات الامكان مغتنمة وأنفاس الاسحار للارتياح باستنشاقها متنسمة . قال الفتح بن على بن محمد الاصبهانى منتخب الكتاب : حدثنى الامير ظهير الدين غازى بن الامير السعيد مبارز الدين سنقر الحلبى فى محرم سـنة اثنتين وعشرين وستمائة وهو أحد الأمراء السلطانية الملكية المعظمية قال : سمعت الملك العادل بحماه يقول لبعض المؤرخين : ومما شافهت به السلطان صلاح الدين فى انتهاز الفرصة فى فتح القدس مبالغا فى ذلك أنى قلت : ان عادتك أن يأخذك القولنج فى بعض الاوقات فلو أخذك الليلة وجـرى عليك ما لابد منه من الوفاة علق رهن بيت المقدس فى يد الكفر فاجتهد فى ذلك وأقضى حق ما أنعم الله به عليك بواجب الشكر فقال : اعمل(١) ما تأمر به وتشير اليه ولا يخالف ما تحكم به وتنص عليه فما فتح القدس الشريف وما منح ذلك المجد المنيف الابالجد العادلى والجد الناصرى قدس الله أرواحها وسهل الى الفردوس معدلهما ومراحهما . قال الامام السعيد عماد الدين : فراح السلطان مغز للغزاة الروح مستفتحا بما هو حل الفتوح وسار واجتمع بالملك العادل فى طريقه وتفاوضا فى شكر ما أنعم الله به من نصره وتأييده وشرعا بعد ذكر الاشواق وتبريحها فى موازنة الاراء وترجيحها وتنقيح أداة الصواب وتلقيحها وقد استخار الله تعالى بالنزول على عسقلان يوم الاحد سادس عشر جمادى الآخرة وكان السلطان قد استدعى من دمشـق ملك الفرنج ومقدم الداوية المأسورين واستصحبهما محمولين بقيادهما وشرط أنه اذا فتح البلاد بهما أطلقهما فلما نزل على عسقلان راسل الملك أهـلها فى التسليم فعلموا انه مستكره(٢) فاسقطوا حكمه وعصوا أمره فبسـط السلطان عذره وشرع السلطان فى مضايقة البلد ونصب عليها من المجانيق كل جاث على الركب جاث للكرب جالب معاطن الابل المعاطن سالب بسكون

---

(١) كذا وفى الأصل كعمل .
(٢) فى الاصل : مستنكره .

المساكن وما زال الحجار ترفض والجدار ينقض والمنجنيقات تضرب وترض حتى خلا السور من حاميه وأمن المقاتلة نكاية مراميه فأقدم النقابون على نقبه ورفعوا عن عروس البلد حجب نقبه وباشروا بالتخريب البواشير ولافح المساعير المساعير (ورفعوا عن عروس البلد)(١) وقابل المقابيل المدابير فايسوا من رجاء الانتعاش وتهافتوا على نار الحرب كالفراش فلما أحس الملك بما أحسوا به من الشدايد راسلهم واستحضر منهم عقلاء لا يحملون (٢٣٥ أ)/ قوله على أنه فرد ولا يردون نصحه بالتهمة وقال : أنتم تعلمون أننى لا أريد الخير الا لأهل دينى وهذا السلطان فى عزمه يرديكم ويردينى فان سمعتم منى اطمتمونى فى أمرى وانقذتمونى من أسرى أما اذا خلصت وخلصت وكنت أعلوا عليكم فكيف رخصت وتكررت بينه وبينهم مراسلات وكانوا يلحون حتى علموا أنهم مغلوبون فقبلوا نصيحة الملك وراسلوا فى طلب الامــان بشروط اقترحوها والعفو عن جرايم اجترحوها فان الامير حســـام الدين ابراهيم الحسين المهرانى وهو من أكابر الامراء استشهد على عسقلان فخاف الفرنج أن تثور عليهم الاكراد لثأره فاشتطوا واشترطوا وسروا الى ما أجيبوا اليه واعتصموا فسلموا البلد بأنفسهم وأموالهم وخرجوا منها برجالهم ونسائهم وذلك يوم السبت لانسلاخ الشهر وكانت مدة الحصار الى أن تسلمناها أربعة عشر يوما أبدر لنا فيها ثمر الظفر والانتصار وعاد بهـا بدرهم الى المحاق والمرار وما برح السلطان مقيما بظاهر عسقلان حتى تســلم المعاقل المجاورة لها والبلاد المقاربة منها .

أما الداروم فقد خاف من بها فسلمها وكذلك غزة وظهرت بظهورنا عليها عزتها وتبدل بالاسلام بعد الكفر ربها والرملة ويبنى ظل بها موقف الضلال يهدم ومربع الهدى يبنى(٢) وبيت لحم ومشهد الخليل صلوات الله عليه وعليه السلام عاد الى وطنه منهما الاسلام وأما لد فانها أخرجت منهـا خصـومها اللد ومعصومها فى الشرك الى التوحيد رد وتسلم كل ما كان للداوية مع غزة كبيت جبريل والنطرون وأخلى منهم تلك الحصون وكان مقدم الداوية معه وشرط أنه اذا تسلم معاقله فك عنه قيوده وسلاسله فمازال معه على الشرط والشرع المضبوط .

قال : ووصل الملك العزيز واجتمع بوالده بعد فتح عسقلان وكان وصوله ببأسه وصوله وقوته من الله وحوله وبأسه ومعشره وقومه وعسكره

(١) هكذا وردت في الاصل .   (٢) في الاصل : ويبنى .

وولاة بلاده وورأة زناده وآلافه وآحاده وعدده واعداده فحنا قلب السلطان على كبده ووضع يده فى يده فأعدتها الجود فمدده اليوم من مدده . ولما انتظم شمل كتايب البر وكرم وصولها وصلت مراكب البحر وقدم أسطولها وهى شوانى شواتى للشتاء زواين للغزاة عقبانها منقضة كالبزاة وغربانها ناعبة بين الغداة جاءت كقطع من الليل أو دفع من السيل كأنها فى خضراء الخضرم كواكب ولرجوم الشياطين ثواقب ، أعلام فى شعار الاعلام العباسية سود وأكام تمدها من أكام الأمواج مدود تولاها حسام الدين الحاجب لؤلؤ منظم سموطها ومهد الاحكام لنصر أسبابها وشروطها واستمرت بالسواحل تكبس وتكسب وتغنم وتجلب ففى كل يوم لنا غزوة صحيحة ونوبة شديدة ونايبة لذرى الشرك مبيرة مبيدة والحاجب لؤلؤ مجاهد عظايمها وممضى عزايمها كلما ألقت مركبا للعدو ناقته والفته وأسعدها الله وأشقته وكيف ما أمكن أحرقته أو أغرقته واجتمعت على جمعه وفرقته ووقع حقها على الباطل فأزهقته .

ذكر فتح بيت المقدس

قال : ورحل من عسقلان على سمت القدس وقصده واستيصال نبات الشرك وحصده من أرض الله تعالى ونقدس بتطهير الارض المقدسة باهلاك الطايفة الطاغية النجسة وتقدمه الرعب الى قلوب الفرنج فوقعوا فى الأمر المرتج المضطرب المرتج وكان بالقدس حينئذ البطرك الأعظم وهو الشانى العظيم الشأن وباليان بن بارزان وهو وملكهم فى التسلط سيان والذين أغفلتهم حياطه الحطين من الفرسان الداوية والاسبتارية والبارونية من ذوى الكفر والشنان وقد حشروا وحشدوا وقالوا : السمح عند اللقاء بالمهج ونسيح داما الدماء فى اللجج وما الذى أصاب عزنا حتى نهون ونحن نشعل عليهم الحرب الزبون فأخرجوا اليهم حتى نلقاهم وهذه رماحنا بايدينا واذا فاجاناهم فجعناهم واوجعناهم وأخذنا منهم بثأر يوم حطين اذا صرنا بمراكزهم بدوايرنا محيطين فقال لبيبهم المجرب فارسهم المتدرب عدوا عن هذا الراى وما بلغتم فى الغى الى هذا الفاى وانتم عند مقبرة ربكم تحمونها وتقاتلون دونها والقدس لنا جامع وسوره عن السوء مانع (٢٣٥ ب)/واذا خرجنا فما ندرى على ماذا نحصل وهل نقطع أو نصل ثم شرعوا فى السر وامروا بالأمر وقسموا على الاسوار أقسام الاسراء ونشروا على كل قطر منه لواء اللواء على كل نيق منجنيقه وحفروا فى الخدق حفرا عميقا وأعادوا كل نهج واسع بما وعروا

به مضيقا وخرج جماعة منهم على سبيل اليزك وادلجوا ليلا وجروا للجراة ذيلا واعترضوا عدة من أصحابنا غارة وعلى طريق السلامة مارة ، وكان قد شد من المقدمة المنصورة أمير تقدم وما تحرم وهو جمال الدين شروين بن حسن الزرزارى فلما علمه أثبت فى مستنقع الموت رجله وشد من الدنيـــا الى الآخرة رحله وكان فى موضع يعرف بالقبيبات فساء السلطان نعيه(١) وسره سعيه وسار سارا وللجحفل الجرار جارا ولم يدع لجفنه فى يومه ونومه غرارا ووصل السرى بالسير ليلا ونهارا ونزل على القدس يوم الاحد منتصف رجب وقد قضى من حق الله فى طلب بيته ما جب وفى القدس ستون ألف مقاتل من فارس وراجل . وخيم فى أول الأمر على غربيه وأقام خمســـة أيام يدور على البلد ويقسم على حصاره أهل الجلد وابصر فى شـــمالها أرضا رضيها للحصار فانتقل الى المنزل الشمالى يوم الجمعة العشرين من الشهر متمكنا من القهر ظاهر القوة بالله قوى الظهر فشرع فى نصـــب المجانيق فما أصبح يوم الاحد الا على منجنيقات نصبت بلا نصـــب من كل مغتص برد الردا معتصب يشق الجلمود بالجلمود ويدق الصنجود بالصنجود يفضى ختام التأليف ويرضى هام الشراريف ومازالت المجانيق ترمى وترمى وتدمى وتدمى والنزال دايم والقتال قايم وفى قنطاريات الفرنج من الفرج قنوط ولخطيات اليراع بأيدى كتب الكتايب فى الظهور خطوط ولشـــموس اليزك من أفق الترابك بزوغ ولثعالب العواسل فى ضلوع الاساد ولوغ وكان فرسانهم فى كل يوم يباشرون دون الباشورة أمام جموعهم المحشـــورة ويتطاعنون بالذوابل ذوات الذوايب المنشورة ويبرزون يبارزون ويحاجزون ويناجزون ومطاعيننا المطيعون لله عليهم يحملون وهم كما قال الله تعـــالى « يجاهدون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون » وممن استشهد مبـــارزا ولم يشهد بينه وبين الجنة حاجز الأمير عز الدين عيسى بن مالك كان أبوه صاحب قلعة جعبر . وكان فى كل يوم يفرس فوارس ويلقى ببشر وجهـــه وجوه المنون العوابس فاغتم المسلمون من صرعه وهان عليهم فى تلف مهجته اتلاف المهج وهاجوا وهجموا أكناف الوهج وهجروا الجلد الى الجلاد وركبوا أصناف الوهج حتى وصلوا الى الخنـــدق فخربوه وبددوا جمعـــه وفرقوه

---

(١) فى الاصل : ســـعيه .

والتصقوا بالسور فنقبوه وعلقوه وحشوه وأحرقوه وصدقوا وعد الله فى القتال لاعدائه فصدقوه وارهقت المنجنيقات وأزهقت وسنحت وسحقت فتمكن رعبنا فى قلوبهم وأذنت حربنا بكروبهم وعرف الفرنج أنهم مغلوبون وعن النجاة محجوبون فعقدوا بينهم مشورة وقالوا ما لنا الا الاستيمان فقد أخذ منا بخطه الخذلان والحرمان وأخرجوا كبراءهم ليؤخذ لهم الامان فأبى السلطان الا قتالهم وتدميرهم واستئصالهم وقال ما آخذ القدس منهم الا كما أخذوه من المسلمين منذ احدي وتسعين سنة فانهم استباحوا القتل ولم يتركوا طرفا يستزير وامعنوا(٣) فى رجالهم قتلا ونسائهم(٤) سبيا فقال باليان بن بارزان فى الحضور مستأذنا مستأمنا وباح بما بان فى فكر الكفر من الشر كامنا وقال للسلطان : قد رجوناك فلا تخيبنا(٥) ووصلنا فلا تصدنا وجئنا فلا تردنا ومتى استوحشنا وايسنا اسقلنا الهلاك واستقتلنا وما نخرج من منزل حتى نخربه ولا نظفر بدم محقون حتى نسربه فالديار نخربها والدماء نحرقها وقبة الصخرة نرميها وعن السلوان نعميها والمصانع نخسفها والمطالع نكسفها وعندنا من المسلمين خمسة آلاف أسير ما بين غنى وفقير وكبير وصغير فنبدأ بقتلهم وشت شملهم فقيل للسلطان هؤلاء ان أخرجوا لجوا وأسلفوا الاهوال وأتلفوا الاموال وسفكوا الدماء وقتلوا الاسراء والصواب أن نحسبهم أسارانا فنبيعهم نفوسهم وندخل فى القطيعة رئيسهم ومرءوسهم فاذن بعد الأى فيما رآه المسلمون من رأى فما زالوا يتوصلون ويترددون ويتلددون حتى استقر أمرهم على قطيعة اشتروا بها المهج ونفوا دونها عنهم الحرج (٢٣٦ أ)/ وهى عن كل رجل عشرة دنانير وعن كل امرأة خمسة وعن كل نسمة صغيرة أو صغير ديناران الذكر والانثى فيه سيان فمن وفى بالحق خلص من الرق ومن عجز بعد اربعين يوما ضرب الرق عليه ونهج به منهج العبيد والاماء وبذل باليان بن بارزان عن الفقراء ثلاثين ألف دينار وانفصل بما التزمه من قطيعة وقرار وسلموا المدينة فى يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب أوان وجوب صلاتها وطلعت الرايات الناصرية على شرافاتها واغلقت أبوابها بعد تسلمها لحفظ ناسها فى طلب القطيعة والتماسها وضاق وقت الفريضة وتعذر اداؤها وللجمعة مقدمات وشروط

---

(٣) فى الاصل : وامنعوا .
(٤) فى الاصل : نساءهم .
(٥) فى الاصل : غير منقوطة .

ولم يمكن استيفاؤها وكان الاقصى بلا محرابه مشغولا بالخنازير والخنا مملوءا بما أحدثوا من النسى مغمورا بالنجاسات حتى حرم علينا فى تطهيره منا الوفا فوقع الاشتغال بالاهم الانفع وهو حفظهم وضبطهم الى أن يؤخذ قسطهم فرتب السلطان على كل با بأميرا أمينا فلو أديت الامانة لملأت الخزانة لكنما اختلفت عليها الايدى وتعدت الى التعدى وكثرت الاقلام الضابطة فقل الضبط وتزاحم الرابطون فانحل الربط والنواب الاكابر استنابوا اضاعرا أقاموا فى تقصيرهم المعاذر وقنوا لأنفسهم الذخاير وادعى مظفر كوكبورى أن بها جماعة من أرمن الرها وعددهم ألف نسمة فجعل اليه أمرها وكذلك صاحب البيرة ادعى العدة الكثيرة وكذلك كل من استوهب عدة أطلقها وحصل له مرفقها ثم تولى الملك العادل استخراجهم وقوم على الاداء منهاجهم وسول بأوفى نصيب ورعى منه فى مرعى خصيب . وكانت بالقدس ملكة رومية متعبدة مترهبة فى دين التثليث موحدة وعندها حول وخدم وعبيد وجوار ووصايف ونواب وأمناء وأصحاب وظايف فلما دهتها الداهية وعراها فى تمسكها بكنيستها عراها الواهية عاذت السلطان فأعاذها وأبقى عليها من المصوغات من صلبانها الذهبية المجوهرة جذاذها فخرجت بجميع مالها وحالها ونسائها ورجالها واسقاطها واعدالها والصناديق بأقفالها والتفاريق بأحمالها وتبعها من لم يكن من أتباعها وشيعت بشفاعتها من ليس من أشياعها وسارت الملكة الرومية لمرامها مالكة ولمسالك ممالكها سالكة . وكذلك خرجت الملكة زوجة الملك كى ابنة الملك أمارى(١) وهى بأبيها بتسر وبزوجها بتارى وعزمت على أنها تداوى مرض حالها وتدارى وتسأل فى شيعتها وعيشتها ورزقها ومعيشتها وحاشيتها وغاشيتها فوهب لها جميع ما سألته وعجل لها نجح ما أملته وكان الملك زوجها مقيما فى برج نابلس من قيده مطلقا ومن رقه معتقا لكنه موكل به ليوم تسريحه وقد غلب الى زوجته لاعج تباريحه فأذن لها فى قصده فسرت وسارت بخدمها وجواريها وحليها وحللها وبسطها وفرشها وأحمالها وأوساقها وجواهرها وأعلاقها وأقامت عند زوجا وبلت بقربه غلة أشواقها . وكذلك خرجت الابرنساسة أم هنفرى وهى زوجة الابرنس الذى سفك يوم حطين دمه وفاء بالنذر وهى صاحبة الكرك وهى بنوابها محوطة وبرأيها منوطة فجاءت سايلة فى ولدها العانى فوعدت بالجميل وشفاء مالها من الغليل وأنها ان سمحت بحصنها سمح لها

---

(١) انظر الروضتين (١) ٢ — ٩٦ . وهى ابنة الملك أمارى .

بابنها ثم سلكلها فى الاعفاء والاطلاق سبيل الباقيات وعصمت فى نفسها ومالها وأصحابها بالراعيات الوافيات .

ذكر وصولى الى خدمة السلطان

قال : سبق ذكر ما ألم بى من السقم وانقطاعى الى دمشق للتداوى فلما سفر وجه صحتى توجهت وللعود الى الخدمة تنبهت فوصلت الى السلطان يوم السبت ثانى يوم الفتح فاستبشر بقدومى وخلع على البشير قبل أوبتى، وكان أصحابه يطالبونه بكتب البشاير ليغربوا ويشرقوا ويسيروا فى البلاد ويتفرقوا وهو يقول لهم : لهذه القوس ثار ولهذه المأدبة نار ولهذا الوادى من سبيل الخاطر الفلانى سيل جار ولعله يفد ولاروائنا يرد ثم اجتمع كتابه فى غيبتى وعملوا بالبشارة نسخة منها ينسخ أصلها ويفرع ويفرخ وهم بها مشتغلون وبنارها مشتعلون حتى أقبلت وجاءهم الربح وركدت الريح (٢٣٦ ب) / وفاح العرار ورمى الشيح وقالوا : مرحبا بمن صبحنا وجهه الصبيح ولقينى السلطان بكل عرف بهيج وعرف أريج وتقريظ واطراء وتقريب وادناء وأنه من كرامة الفتح اتفاق وصولك واقبال قبولك وقدومك فى هذا اليوم وسموك بهذا السوم وهذا ميدانك فأين جوادك وأين أقلامك فهى أقاليد الاقاليم واذا أعوجت فهى للتقويم واستردا الكتب التى تخيروها واستثقل البطاقات التى طيروها فأجريت ضامرى فى المضمار وانهيت تمرى الى الابدار وبريت بقلمى للايراد والاصدار وكتبت فى ذلك اليوم سبعين كتاب بشارة وكلكتاب بمعنى بديع وعبارة ثم أردفتها فى تلك الليلة بكتب نابت فى سمائها عن شهب استوعبت فى كل كتاب الشروح واستفتحت بتعظيم وعظمت الفتوح .

ذكر جلوس السلطان يوم الفتح للهنا بالمخيم على ظاهر القدس وخطبة الجمعة

قال : وجلس السلطان يوم الفتح ونص النصر ظاهر ووجه العز سافر والأمراء والعظماء قيام وجلوس وفى المطالع بدور وشموس وللموايح أنفاس وللمنايح نفوس وهو فى كيكته وجلالته كالقمر فى هالته والدنيا حاليه بحالته والدين مدلول دلالته وأعين الامثال منتظرة لمراسمه والسن الاقبال مثنية على مواسمه وقلوب القبول ممتلية تمتار وأيدى الآمال متمليه بنيله والجمع

حافل والخطب عال ولبضائع الفضل ارباع ولصنايع الافضال أفراح ولأجسام المكرمات أرواح فلم يتقوض المجلس الا عن مجد مشيد وحمد عتيد وجد سعيد وسعد جديد ولما كان يوم الجمعة التالية لجمعة الفتح تقدم السلطان ببسط العراص واخلايها لأهل الاخلاص وتنظيفها من الادناس وكنس ما فى أرجائها من الأرجاس وكان قد سبق أمره من مبدأ الأمر بهدم ما هناك من أبنية الكفر فقد كان الداوية بنوا غربية دارا وأدخلوه فيها وخلطوه بمبانيها واتخذوا منه جانبا مستراحا للاعلال وجانبا هريا للاغلال فأمر فى العاجل بكشف قناعه ورفع الوضيع من أوضاعه حتى ظهر موضع المنبر والمحراب واستظهروا باقامة أقدامه من الحجاب واجتمع الخلق فى ذلك الاسبوع على تفريق ذلك الهدم المجموع وتعاونوا حتى كشفوه ونظفوه ورشوه وفرشوه . وكان قد أمر باتخاذ منبر فى تلك الأيام فنجروه وركبوه ولما أصبحنا يوم الجمعة وجدنا العلل مزاحة والهمم مراحة وهناك فضلاء بلغاء وعلماء أتقياء وكل منهم قد سبق لخطبته الخطبة وأمل الفوز بفضيلة تلك الرتبة وأعد لذلك المقام مقالا ونشط بشقشقة فصاحته من قرم حصافته عقالا حتى اذا جعل الداعى وتعين الفرض على الساعى حضر السلطان للصلاة فى(١) قبة الصخرة وامتلأت تلك العراض والسكون واستعبرت للفرح بما يسيره الله العيون فعين السلطان القاضى محى الدين ابا المعالى محمد بن على القرشى بن الزكى للخطبة فصعد فسعد وحمد وأحمد وأبلغت بلاغته وأوردت زناد القلوب صياغته وأدت المعانى ألفاظه وأنبه الأقاصى والادانى ايقاظه فاهتزت لمقامه أكناف المنبر واهتزت لكلامه أعطاف المعشر ودعا لأمير المؤمنين ثم لسلطان المسلمين ونزل وقام فى المحراب اماما أكمل بصلاته الفرض وأرضى بسمت دعواته والطمأنينة فى ركعاته وسجداته السماء والارض . وسر السلطان بنصبه ورفعه وامتلأ صدره حبورا منه لجلاء بصره وسمعه فقد اخذت اشعة أنوار الخطبة فى سواد الاهبة وعظمت أخطار المهابة فى خواطر اللجة . ثم رتب السلطان بعده خطيبا يستمر اقامته الجمع والجماعات ويستقر ملازمته لاداء الصلوات .

وكان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى فى عهده عرف بنور فراسته فتح البيت المقدس من بعده فأمر فى حلب باتخاذ منبر للقدس

---

(١) كذا وهى ساقطة فى الأصل .

شعب النجارون والصناع والمهندسون فيه سنين وأبدعوا فى تركيبه الاحكام والتزيين وبقى ذلك المنبر بجامع حلب منصوبا سيفا فى صوان الحفظ مقروبا حتى أمر السلطان فى هذا الوقت بالوفاء بالنذر النورى ونقل المنبر الى موضعه القدسى فعرف بذلك كرامات نور الدين التى أشرف سناها بعده بسنين وكان من المحسنين الذين قال الله فيهم « والله يحب المحسنين »(٢) ثم أمر السلطان بترخيم المحراب (٢٣٧ أ)/وتعظيمه وتخصيصه فى عمارته باعم أسباب تكريمه فجاء على ما تشاهده الآن العيون ويتفرع من حسنه واحسانه الفنون .

قال : ولما قضيت الصلاة تلك الجمعة نصب سرير الوعظ . وتقدم السلطان الى الفقيه(٣) ابن نجا الواعظ لشرع السرير وينفع بعظاته الصغير والكبير وحضر المجلس بمرأى منه ومسمع وكان أنور مجلس وأجلى وأشرف جمع ومجمع فحقق ورفق وأشهد وأشهق وذكر الفتح وبكارته والقدس وطهارته وما أعده الله لهذه الطايفة من الطارفة الطارقة وما أنزله من الأمن على القلوب الخايفة ووصف ببلاغته ما لا يبلغ اليه الالسن الواصفة وكان يوما راجحا وصوما رابحا .

وأما الصخرة المقدسة فان الفرنج كانوا بنوا عليها كنيسة واعادوا رسومها القديمة دريسة وستروها بالابنية وكسوها صورا هى اشنع من التعرية وملاعوها بتصانيف التصاوير ونبتوها فى ترخيمها أشباه الخنازير فتقدم السلطان بكشف قناعها ورفع أوضاعها ومحو صورها ورخص وضرها فحببت بالقبل وفديت بالمقل وغسلت بالادمع واشتعلت بنار الأضلع ولما ظهرت الصخرة وجدناها قد أبقت بها النوايب حزوزا فان الفرنج كانوا نقلوا الى بلادهم منها قطعا وأبدعوا فيها بدعا حتى قيل أنها بيعت بوزنها ذهبا وأفضى الأمر بها الى أن يكون حجرها منتهيا فغطاها بعض ملوكهم اشفاقا عليها لئلا تمتد يد ضيم اليها فابقت جزوزها فى القلوب حزازات وما حديث جلاتها فى الافاق بروايات وأجازات . وتولاها بعد ذلك الفقيه ضياء الدين عيسى فضلها بشبابيك من حديد وثبت أركانها بكل تشديد

---

(٢) سورة آل عمران آية رقم ١٤٨ .
(٣) فى الاصل : ساقطة .

وأقام السلطان بها اماما أحسن التلاوة وحافظا للقرآن وحمل اليها والى المسجد الاقصى ربعات ومصاحف ورتب بها للقراءة أوراده وظايف فافتتح فيها بالختمات وختمت بالدعوات ودعيت بالصالحات والحمد لله الذى شد ظهر الارشاد الى صخرته وملأ قلوب الأولياء بمسرة الدين ونصرة أسرته.

ذكر ما شرع فيه الفرنج من أداء القطيعة

قال : وشرع الفرنج فى اخلاء البيوت وبيع ما ذخروه من الأثاث والقوت وأمهلوا حتى باعوا بأرخص الاثمان وكان خروجها بالمجان ولا سيما ما تعذر لثقله نقله وصعب حمله وكان كما قال الله « كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك واورثناها قوما آخرين »(١) فباعوا ما تهيأ على البيع اخراجه وغلبوا على ما فى الدروس الماعون والمذخور ، وكانت كنيسة قمامة وهى كنيستهم العظمى مبسوطة بالبسط الرقاع مكسوة بالستور من النسيج والحرير المزوج من ساير الانواع والذين يذكرون انه قبر عيسى عليه السلام محلى بصفايح الفضة العين ومصوغات الذهب واللجين مصفح بالنضار متقل من نفايس الحلى بالاوتار فاعاده البطرك منها عاطلا وتركه طللا ماثلا فقلت للسلطان هؤلاء انما أخذوا الأمان على أموالهم فما بال هذا المال وهو بالوف يحملونه فى أثقالهم فقال هم يعرفون هذا التأويل ويقولون لم يحفظوا العهد ولم يلحظوا العقد ونحن نجيبهم على ظاهر الامان ونغريهم بذكر محاسن الايمان وكانت المهلة أنه من عجز بعد أربعين يوما عن أداء ما عليه من القطيعة ضرب عليه الرق فتولاهم النواب بعد خروجنا من القدس وبقى منهم من ضرب عليهم الرق خمسة عشر الفا فى الحبس ففرقهم السلطان وتناهبت بهم الممالك وحصلت لى منها سبايا نسوان وصبيان وذلك بعد أن وفى بارزان بالضمان وأدى ثلاثين(٢) الف دينار وأخرج من ذكر أنه فقير بحسب الامكان وكانوا تقدير ثمانية عشر الفا واعتقد أنه لم يبق فقير وبقى بعد أدائه على ما ذكرناه كثير .

وأما النصارى الساكنون بالقدس فانهم بذلوا مع القطيعة الجزية ليسكنوا(٣) ولا يزعجوا ويؤمنوا ولا يخرجوا وأقروا بوساطة الفقيه عيسى

---

(١) سورة الدخان آيات رقم ٢٥ — ٢٨ .
(٢) فى الاصل : ساقطة والضبط من الروضتين(١) ٢ — ١١٥ .
(٣) كذا وفى الأصل : لساكنون .

وأقر السلطان من تسوس النصارى أربعة قوام لقمامة واعفاهم ولم يكلفهم الغرامة وأقام بمدينة القدس وأعمالها منهم وكانت برسم الفرنج ومقدميهم مجاورة الصخرة وعند باب الرحمة مقبرة وقباب معمرة وأجداث وأحداث تعفينا آثارها ورخصنا أوصارها (٢٣٧ ب)/وقلعنا صفايحها المخـــرمة وأعمدتها المرخمة وسوينا بها الأرض وسلطنا عليها النقض وأشــير على السلطان بتخريب كنيسة قمامة(٤) فلم يترجح فى رأيه تخريبها ولا توضـــح عنده تصويبها .

وقام السلطان بظاهر القدس حتى حقق الآمال وفرق الاموال وقسم الانفال وعصى فى طاعة الله بافناء تلك النفايس المزال فقد كان أخـــوه الملك العادل وجماعته يرون وهو من الرأى الصواب ابقــــاءها للذخاير واعدادها لما يدور من الدواير وكان ذلك أولى فى شرع الحزم لكنه جرى من فرط سماحته على الرسم وسمعت الملك العادل يوما فى أثناء حديثــه فى ناديه وهو يجرى ذكر افراطه فى بث أياديه اننى توليت باستيفاء قطيعـــة القدس فانفذت له ليلة سبعين ألف دينار وقلت قد حصل منه على استظهار فجاءنى خازنه بكرة وقال : نزيد اليوم ما نخرجه على انفاق مما عندنا فما كان بالامس باق فنفذت ثلاثين الف دينار أخرى فى الحال ففرقها على رجال الرجا بيد النوال ونفذ الى الملوك الذين كانت عســـاكرهم فى الفتـــــوح حاضرة هدايا وتحفا والطاف جازية .

ذكر الرحيل عن القـــدس على عزم حصار صور وهـــو يوم الجمعـــة الخامس والعشرين من شـــــعبان

قال : كانت صيدا وبيروت مع الأمير سيف الدين على بن أحمـــــــد المشطوب وهما لمجاورة صور معرضتان للخطوب قد وصلت كتبه محرضـــة على حصار صور خاصة وعلى بنان التندم لخوف فوات الفرص عاضة وانها بالمرابطة فيها والمصابرة عليها تماك وفى كل يوم فرصة اذا فاتت لا تستدرك

---

(٤) يقصد كنيسة القيامة وقد اعتاد المؤرخون تسميتها بهذا الاسم .
قال فى الفتح : « وأمر السلطان باغلاق أبواب كنيسة قمامة وحرم على النصارى زيارتها .. وتفاوض الناس عنده فيها فمنهم من أشار بهـــــدم مبانيها .. » قارن الفتح القدسى : ١٤٥ .

والى متى اللبث وحتام المكث ولم يبق فى النفس الا حاجة صور فانهضوا اليها العسكر المنصور فقد أينع فى القلوب غرس ضمها وما بقى فى كنانه الكفر غير سهمها ولا بد من العزم الجزم فى خوض هذا الخضم وكف الملم وكفاية المهم فرحل السلطان عن القدس بالبوارق الملتمعة والفيالق المجتمعة والافلاك بكواكبها والأملاك بمواكبها وكان الملك الافضل قد رحل قبله بأيام ليحكم ما بعكا التى يتولاها من أسباب وأحكام ثم تبعه الملك المظفر تقى الدين ثم رحل السلطان فى اليوم المذكور وودع ولده الملك العزيز وسار معه منزلة واعاد الى مصر عزيزها وجدد بمحاسنه تطريزها وذلك آخر العهد بلقائه وان مد الله سبع سنين بعد الفتح فى حياة السلطان وبقائه ثم استصحب معه الملك العادل واستظهر بصحبته ووصلنا الى عكا يوم الخميس مستهل رمضان وبصور(١) من خبر مصيرنا ما أقعد الكفر واقامه وكان المركيز قد حفر الخندق للبلد من البحر الى البحر قدامه ووثق سورة وأسعر عليه مساعيره وبنى بواشيره وأحكم « فى التعمير تدبيره »(٢) واستكثر الى جموعه العدد وكثر من جنوده العدد ورحلنا الى صور بقوايم قوية وصوارم ظامية روية ووصلنا اليها يوم الجمعة تاسع الشهر وخيمنا بازاء السور بعيدا منه على النهر واقمنا ثلاثة عشر يوما حتى تلاحقت الامداد وتكاثفت العدد وتكاثرت الاعداد وهيأنا آلات الحصار وتنكبنا عنها عن نهج الاقتصاد والاقتصار وحول السلطان مضاربه الى تل قريب من السور مشرف منه على الجمهور « وكان تحوله اليها يوم الخميس الثانى والعشرين من الشهر وأقام مقامه المصابر الصبور »(٣) وحجز على السفهاء العدى بالحجازات وضايقهم بالابراج والمنجنيقات والعرادات والدبابات وقد تكفل كل واحد من الملوك بجانب يكفيه فالملك العادل سيف الدين بدر فى جانبه وتحرف الاقران بمضاء مضاربه ، وتقى الدين فى جانب آخر نازل منازل مقابل ، والملك الافضل خيمته من وراء السلطان قريبة وعزمته لدعاء الصباح مجيبه والامراء والكبراء وعساكر ملوك الاطراف والحاضرون فى الخدمة لا يحصون ولا يحصرون ونحن نرجوا من الله انهم على أعداء الله ينصرون . وفى هذه الايام وصل الملك الظاهر غياث الدين غازى غازيا وللدين بقيامه وافيا واستظهر السلطان بالظاهر ابنه وركن الى شدته لشدة ركنه وأنزله بقربه ورتب رجاله فى

---

(١) فى الاصل : بصور .
(٢) فى الاصل ساقطة والضبط من الروضتين (١) ٢ — ١١٩ .
(٣) فى الاصل : توجد بالهامش .

أماكنها وابطاله في مكامنها وعين لها مواقفها في مياسرها وميامنها وتعاضد أولياء الله على قتال أعدائه وانتظروا نزول نصره من سمائه وكانوا يقاتلون (سماء)(٤) صباح مساء وفي كل يوم بل(٥) في كل ساعة بأس شديد وقتال جديد ونوال مبيد (٢٣٨ أ)/ وأما المنجنيقات فانما شقت حجب السور بشورة الاحجار وهتكت ما نضدته للستاير من الستار الأبراج فانقضت على الكفر من النصال نجومها وقذفت الشياطين من القوارير رجومها واستدعى السلطان الاسطول المصري وكان بعكا فجاءت منه شوان عشر لها على القتال(٤) ضم ونشر جبالها « تمر مر السحاب »(٥) وهضابها تجري في الامواج على الهضاب . وكانت للفرنج في البحر مراكب خفاف وحراريق لها بحريق النصال قذاف وفيها رماه الجروخ والزنبوركات والنكابات بالناوكات فهي تجري بقرب الساحل موتره للمنايا مؤثرة للمنايا يرمون من دنا من البحر ويدمونه ويصممون على ماقاتلهم فلما جاء اسطولنا استطال عليها وأبعدها من صور وحواليها فاجترأنا على الدنو من البحر والهجوم عليهم فيه بالقهر، وأحطنا بهم وقاتلناهم برا وبحرا وصدعنا أكبادهم رعبا وذعرا وكاد الفتح لنا يتم والحتف فيهم يهمونحن نحرص ونحرس ونقتص ونفرس فبينا نحن في اهنأ ظفر وأصفى ورد وصدر اذا أصبنا ليلة وفجعنا بقطع مدده الموصول وذلك أن رئيسه عبد السلام المغربي ومتوليه بدران الفارسي ومقدميه ورجاله الفوا على الاستقامة أحواله واغتروا بالاقدار ونعسوا ولم يحترسوا عن نوايب الاسحار وذلك أن خمس شوان منها كانت بازاء البلد في بعض الليالي مرساة بارصاد العيون على الكفر معراه فنامت بازاء ميناء صور وقد نسى المقدور وجرت الى السحر ومالت الى راحة العين من تعب السهر فما شعروا الا بمراكب العدو مالكة وبرجالها فاتكة فدخلوا بها الى الميناء « وملك الفرنج خمسة من شواني المسلمين واسروا مقدميها ورئيسهم عبد السلام المغربي ومتوليه بدران الفارسي وأمراءه »(٦) وبدر أمراؤها المقدمون وتواقع الى الماء رجالهم الباقون فمنهم من نجا وخلص تحت ستر الدجى ومنهم من

---

(٤) هكذا وردت في الاصل وهي لا تستقيم مع السياق .

(٥) اضافة يقتضيها السياق وهي في الاصل ساقطة .

(٦) كذا وهي ساقطة في الأصل .

(٧) سورة النمل آية رقم ٨٨ .

(٨) ما بين الحاصرتين ساقط في الاصل والاضافة من الروضتين(١) ٢/ ١١٩ — ١٢٠ .

قنط من خلاصه المرتجى فاصبحنا وقد وجمنا من تلك الليلة وبغتتنا نبوة تلك النوبة ثم قلنا هذه المراكب التى سلمت لا انتفاع بعدتها القليلة ولا حاجة بنا الى بقاء الباقيات الصالحات عندنا وان الله سينصر بدونها فى حماية الدين جندنا فجزنا لنسير الى بيروت وننجوا من المعرة ونفوت فلما أقذف بهـــا ملاحوها بصرت بمراكب الفرنج وراءها فخافت اعتراكها واجتراءها فتواقعت الى الماء خارجة على الوجوه مشفقة من المكروه وكانت مجمعة بجريد وبجفوة مصرية ونجا منها شينى رئيس جبيل(٩) كأنها الجبل وانحدر على البحر كأنه سيل وكانت رجاله منتخبين بالبأس والبسالة منتخبين وأما الشوانى التى تخلوا عنها فأنا رفعناها الى الارض وبسطنا فيها أيدى النقص وعدنا الى ما كنا عليه من قتال البر واطمعت الفرنج شئون تلك الشوانى فقالت ما هذا أوان التوانى فاستعدت يوما وقت العصر وخرجت عن الحصر واقدمـــوا مدججين فى بحر اللجاج ملجين يجرون من ابدان السوابغ ذيولها ويجرون من أمواه السيوف القواطع سيولها فما ترى الا فل الحديد بالحديد وشل العديد بالعديد وهز الصوارم وحز الغلاصم وحطم الموازن وبث المكنون ونقل الكناين وما زالت الرءوس كالزروع تحصد والعوالى فى الضلوع تقصد والقنا فى السابرى تندق والكلى باليسرى تنشق حتى انفل الحديد وتكسر وانحل السديد وتيسر وكانت الدايرة على الكفرة فانفجرت على نصالنا عيون الفجرة وانتكصوا مفاولين مأخذوين وأسر فيمن أسر منهم مقدم كبير قدم ســـلبه بأموال وعد لحماسته ولبسالته برجال ما سلم نفسه حتى ســلمت دونه نفوس وما غل عنقه حتى طارت دون وقوعه رءوس وتباشر الناس وقالوا أسر المركيس وحصل فى القبض أبليس وكل من يتأمله يشـــبهه بالمركيس ويمثله . وكان الليل قد جن والسيل قد ارجحن فسلمه السلطان الى الملك الظاهر ليحفظه ويعين الحراسة يلحظه فقدم المقـــدم وضرب بيده عنقـــه ولما أقمنا صروحا تبين أن المركيس فى الحياة مهله ابليس وعادت بالحروب فى كل يوم يحدد فيها المنون وتدور برحاها الحرب الزبون تجد ويجـــدون وتشتد ويشتدون ولو اقمنا لرجونا من عون (٢٣٨ ب) / الله تعالى أن ينصرنا وقلنا قد آن للصبح أن يسفر وللنجح أن يظهر لكن مراد الله أمضى وقدره أغلب وأقضى .

---

(٧) انظر الفتح القدسى ١٦٢ .

ذكر الرحيل عن صور وبيان السبب فيه
وذلك فى آخر شوال

قال : كان أصحابنا قد ألفوا من مفتتح الفتح الحصول من غير تعب على هنى الربح فما التقطوا الا درة ثمينة ولا اشترطوا الا لقمة سمينة فلما حصروا صور وابصروا الامور وشاهدوا الشهادة واحتاجوا الى هجر المعيشة الرحبة المألوفة وانفقوا الاموال فى جلب القوت والعلوفة مشى بعضهم الى بعض وقالوا قد طال مقامنا فاستحال مرامنا وقتلت وجرحت رجالنا ومالت الى الزوال أموالنا وفيها جماعة كرهوا الرحيل وقالوا : قد أوهنا العدو ورزقنا الله عليه الغلبة والعلو وقد فرق علينا(١) السلطان من الاموال آلافا مؤلفة حتى استتبت الاسباب فاذا رحلنا احبطنا الاعمال واذهبنا غبنا تلك الاموال وقد قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون »(٢) واذا امتثلتم هذه الاوامر فانكم بوعده الصادق تفلحون وتفتحون ومن الناس من هو ساكن ساكت حتى يبصر ما يكون من حكم القدر ويقضى الله اما بالرحيل واما بالفتح والظفر فجاء الالوف الى السلطان وقالوا : قد بان تعذر الامكان وقد أشرفنا على كانون وكل ومل المؤمنون وما ينقضى يوم الا ويقضى أو يجرح فيه قوم وهؤلاء رجالك فلا تفرط فيهم ولا تحملهم على ما يرديهم وبين أيدينا بلاد أهون من صور فأرح لفتحها عسكرك المنصور فقال السلطان : قد انهينا فى بحر الاجتهاد العوم فكيف يطرق بالرحيل الينا اللوم وما عذرنا اذا فرجنا عن عداته وخرجنا عن مواقيت عداته وبالصبر ينال الظفر وبتوفيق الله لاتباع أمره يوافق القدر وهذه صور ان بقيت أتعبت وان نفس كربها أكربت ولم يبق بهذا الساحل مدينة للسوء سواها وما نخاف اجتماع مدد الفرنج الى الساحل لولاها فاذا فتحنا رتاجها فتحنا كل رتاج واوضحنا كل منهاج والحصون والمعاقل الباقية فى يد الكفر مجاورة لبلادنا فى البر وما أهون فتحها اذا يئس رجالها من امداد البحر واذا تركنا هذه الجمرة فى رمادها وهذه الشعلة متوارية فى زنارها أعصفت بها نكب الرياح وعنت بوريقها الذى للاقتداح فانتشر حريقها واتسعت للطورق طريقها وقد قرب من نار شره الخمود وتعذرت من سوره

---

(١) كذا وفى الاصل عليها .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ٢٠٠ .

الحدود واذا مضينا وتفرقنا فمتى نجتمع ونعود وقد أمكننا الغـربة وانتم الاسود وقد لاحت الفرصة وقد حميت الحمية فماذا الخمود فتابوا الى ما رآه واتوا الى رضاه فاقمنا بعد ذلك أياما نوفى المصابرة حقها والمرابطة صدقها والسلطان يفرق على الرجال الاموال ويحبب الى أولياء الله فى سـبيله القتـال فى أنفس المتضجرين بالمقام ما فيها وكم ثبتت متجلدة على ما ينافيها فتمكنت الفترات فى عزماتها وتطرقت السكنات الى حركاتها وصارت تخل بنوب المنجنيق وتدعى سانحات أسباب التعويق ويقول الامير : رجـالى يجرحون فكيف يعدون للنوبة أو يروحون وبقيت المنجنيقات واقفة لا قادح لزنادها بحجارة ولا قابل لسومها ببيع ولا اجارة وقد استوفيت شرح ذلك فى كتاب الفتح القدسى واديت المعنى باللفظ القسى فعزم السلطان على الرحيل وأمر بنقض الأبراج والمنجنيقات ونقل الاثقال والآلات فحمل بعضها الى صيدا وبيروت فى البحر والبر وأحرق بعضها لئلا يحصل بها نفع للكفر وانتقـل السلطان الى المنزلة الاولى وشرع جمع العسكر فى الافتراق كأنهم قـد اطلقوا عن الوثاق ورحل الملك المظفر تقى الدين وسار الى دمشق عـلى طريق هونين واستصحب معه عساكر الشرق وجموع الجزيرة والموصـل وسنجار وديار بكر وماردين ثم استقل السلطان راجلا وسلكنا بالخيـل فى خدمته ورأى الباقين فوق الجبل فى ثلاث مراحل حتى انخنا بظاهر عكا عند التل وخيم السلطان (٢٣٩ أ) / هناك وأقر الفضل وأرف الظل وعين يوم رحيله امراء يقيمون على صدر الى أن يعرفوا عبور النقل فان طريق الناقورة فى الجبل المطل على البحر ضيقة المسلك لا نعبر بها الا جمل جمل معبرت بها الاثقال والاحمال فى أسبوع وسار الملك العادل الى مصر والملك الظاهر الى حلب واستأذن أيضا بدر الدين دلدرم الياروقى فى المسير وصار هاولا فى الجم الغفير والجمع الكثير .

وفى هذا التاريخ استشهد سيف الدين أخو عز الدين جاولى فى عفربلا كبسته فرنج حصن كوكب آخر ليلة من شوال وكان محمود السيرة منتبـه الغريزة طاهر الذيل من الدرن ظاهر الميل الى الاثر الحسن وكان قد تخلف من الحصون التى لم تملك حصنا كوكب وصفد وانما طال أمد فتحهما لان فى كوكب جمهرة الاسبتار وفى صفد جمهرة الداوية فرأى السلطان الحاجة فى فتحهما الى المطاولة والحاجة من غريمهما بالمماطلة فوكل بهما أميرين أمينين فاصلت علي اشـقياء صـفد سـيف الدين اللصـتي مسـعود ورأى أن

يوكل(٣) بكوكب غير محمود وكلاهما استشهد وحكم مراد الله غير مردود فأما محمود فانه أقام فى حصن عفربلا وهو قريب من حصن كوكب ونغص على المقيمين فيه المطعم والمشرب وضيق عليهم حتى ضاق خناقهم وحاق ارهاقهم وآن أن ينصال ارماقهم فدخل الشتاء واعتل الهـــواء واغتر محمود بجمـــود القوم وخمودهم وترك النوم واشتغل بعادته فى حصنه ولما كان آخر ليلة من شوال وهى ليلة راعدة بارقة خلا محمود خلاله المحمودة وسهر وحرض الى السحر وهو فى غرة فى غار الغير وأخل أصحابه الاحتراس ومالوا « فغلبهم النعاس »(٤) فما استيقظوا الا وفرنج كوكب عليهم باركة وللبنة حيـــاتهم هاتكة فمازالوا يدافعون عن أنفسهم حتى استشهدوا ونقل الفرنج الى كوكب ما وجدوا من عدة ومتاع وسلاح وكراع . ووافق نعيه رحيل السلطان من صور فتقدم الى صارم الدين قايماز النجمى أن يرابط كوكب فى خمسمائة فارس ولم يزل عليها منيخا حتى تسلمنا الموضع فى أواخر سنة أربع على ما سيأتى ذكره .

وفى هذه السنة كان فتح حصن هونين أيام مقـــامنا على حصـــار صور وذلك انه لمـــا فتحت تبنين امتنعت هونين فوكل بها من الامراء من رابطها وصابرها ولم يزل مقاتلا لها حتى راسلوا فى طلب الامان وتسليم المكان وجاء الخبر الى السلطان فأمر الامير بدر الدين دلدروم الياروقى فى التوجه الى هناك وخرج الفرنج منها آمنين والحمد لله رب العالمين .

ذكر دخول السلطان الى عـــكا

قال : وأقام السلطان بظاهر عكا فى سرادقه ناظرا فى غاية حقوق الدين وحماية حقايقه واتفقت فى تلك الليالى رياح مختلفة وعواصف مرجفة وكان الملك الأفضل فى برج الداوية مقيما فسكن السلطان بالقلعة فى محل الرفه والرفعة واستقر بها الى أن دخلت السنة الاخرى ورتب الامير عز الدين جرديك واليا وأعاد به عاطل الولاية حاليا وانما عول عليه لنزاهتـــه

---

(٣) تارن الروضتين (١) ٢ — ١٢٠ حيث يقول : فوكل بصفد جماعة يعرفون بالناصرية مقدمهم مسعود الصلفى ووكل بكوكب الامير سيف الدين محمـــود .

(٤) ما بين الحاصرتين ساقط فى الاصل والضبط من الروضـــتين(١) ٢ـــ١٢٠ .

ونباهته فسدد المختل وشفى المعتل وأقام السياسة وادام الحراسة ووقف دار الاسبتارية نصفين نصفا على المتصوفة ونصفا على المتفقهة وأهل المعرفة من الطائفتين ووقف دار الاسقف الى جمال الدين بن ابى النجيب المتولى بها أمور الشريعة وأدت الحال بتفريق رياضها الوسيمة .

ذكر حسن خلق السلطان

قال : كان أيام حصار صور قد فرق أموالا كثيرة على الولاة فى البلاد لجمع الرجال فلما قضى الله بالارتحال ذكر بتلك الاموال فأضرب عن ذكرها ولم يخرج أمره فى أمرها وكان والى أعمال عكا حينئذ شمس الدين على بكريسان وقد سير اليه ألف دينار قبل الرحيل من صور بأيام فلما حم الرحيل كوتب برد المال فقلت للسلطان : أنه من الكماة الكفاه فأنعم عليه بما عنده فلم يعد لذكره بعده واحتسب تلك الاموال للآخرة ذخرا ولم ير لما جبره من كنز انفاقه كسرا .

(٢٣٩ ب) / ذكر الرسل الواردين فى هذا التاريخ

قال : فأول رسول وصل وسؤله حصل رسول الديوان النبوى منزل الرسالة ومحل الجلالة وهو أخى تاج الدين أبو بكر حامد بن محمد بن حامد وكان وصوله ونحن على صور فحين وردت البشرى بقربه أمر بعض الامراء بتلقيه ويحميه فى المنزلة التى يبيت بها ويقيه ولما بكر أمر الامراء بالتبكير لاستقباله والتوفير لجلاله وتلقاه الملوك الحاضرون الملك العادل والأفضل والظاهر وعقدت بمحاسن ذلك المقدم المشهود المحاضر ثم ركب السلطان آخرا وتلقاه وقام بحق الخدمة الامامية ووفاه واستصحبه معه الى موقف القتال ومقام مناصب الابراج ومراكب الامواج وثم أنزله بقربه وحباه بحبه ثم عبر يوما لحضوره وأدى الرسالة النبوية بحقها وأبدى الجلالة المنيفة فى أنفتها . وكانت معه تذكرة مشتملة على العتب والتقريع فيما مر به الاعداء من السعى الوضيع والوشى الشنيع فقابل العتاب بالاعتاب ورد الخطأ الى الصواب وبين أن الحسود اخترع الزور وشهد أنواره رام أن يستر بظلامه الفلق ومضى أخى الى القدس وزاره وشهد أنواره وأقام الى آخر السنة ومنزلته موقرة معظمة ثم كتبت على يده ما استقام به على جدده .

وكان من جملة الواصلين الفقيه كمال الدين الشاشي(١) قاضي أرز الروم فاسهمه السلطان خصوص انعامه والعموم واتفق وصوله أوان رحيلنا من حصار صور وسار معنا الى عكا ولقيته وقد أنجز أمره وهو يشكى وسألته عن شكواه فذكر لى اقتراحا يسيرا وشكى تقصيرا فقلت حقك يقضى وتلوت « ولسوف يعطيك ربك فترضى »(٢) ثم استأذنت له فى تلك الليلة على السلطان وأحضرته ووفيته حق تبجيله وقربته وقلت : لعل مولانا ما عرف أنه فقيه عن النظراء متميز وفى المناظرة مبرز فهل يؤذن فى حل مشكلة والكلام فى مسألة فبش لذلك القول وهش بالطول فقال : مبارك يشرع ويجيد ونسمع ويفيد فشرع فى مسألة مستدلا معللا وأصفيت له مبجلا وهززت له عطف الاستحسان وأعززت قدره ومكانته بقدر الامكان وقربته الى قلب السلطان ثم اعترضت على كلامه وأعدته أحسن اعادة وذيلته من المعانى البديعة .

قلت للسلطان : هذا من الفقاء الاعيان يعود الى تلك البلدان ويتحدث باخبار فتوحك وأنباء غدوتك فى الجهاد وصبوحك وقد رغب فى التبرك بما يستصحبه من عدتك فى الغزو والملبوس فان لها قبولا فى القلوب ونفاسة فى النفوس فأدناه منه تأنيسا ووهب من كل عدة خاصة لها علقا نفيسا حتى أعطاه قميصه المزرور عليه وملأ بعوارفه يديه فخرج وودعه وودعته وأشاع حمدى وبالحمد شيعته هذا ولم يزل أدبى وقضاء حقوق الكرام من أنجح آدابى والسلطان يقلدنى فى مذهب سماحه ويقلدنى فى المنن فى الارشاد مقصد معارفى هذا(٣) وانجاحه . قال : ومن جملة الواصلين فى التاريخ رسول الاتابك مظفر الدين قزل ارسلان .

ذكر نبذة من أحواله

كان هذا مظفر الدين قزل ارسلان وهو عثمان شمس الدين ايلدكز مستوليا على بلاد العجم بعد أخيه بهلوان وهو عم السلطان السلجوقى

---

(١) قارن الفتح القدسي ٨٨ ، والروضتين ج ٢ — ١٢٠ .
(٢) سورة الضحى آية رقم ٥ .
(٣) فى الاصل توجد بالهامش .

ليس(١) معه أمر نافذ ولا بيده فى الملمات منه آخذ وقد حكم على البـــلاد جميعها ارانيه واذربيجان والرى واصبهان ومن حد حلوان الى حد خراسان وقد هرب السلطان السلجوقى ليخرج من تحت حكمه ويتسلط على عادة كل سلطان ورسمه ثم قوى وعاد ولم ينتظم لسوء تدبيره أمر ولم يرتفع له قدر فانه كان كثير التحيل من خواصه يرتاب بغش ذوى استخلاصه فاذا أوهموه فى أعظم امرائه أمرا عظيما لم ير فى الايقاع بهم تهوينا ولا تهويما فما يشعر الواقف على رأسه الا ورأسه طاير ودمه ماير فخانه مقربوه وانتزحوا وكل منهم نافر ومازال قزل ارسلان يتتبعه ويرده تارة ويردعه حتى ظفر به وسيره الى بعض القلاع وحبسه وهذا قزل ارسلان كان يجد لى أمرا فى السماح والاموال فى أنامله كالهشيم على مهب الرياح ومن جملة سجاياه الكريمــة أنه تبقى عنده رسل الاطراف مقيمين فى ظل الاسعاف مشمولين من تفقــده بكرايم الالطاف (٢٤٠ أ)/ فلوأقام الرسول سنة أقام بتبجيله وتشريفــه حتى تستغنى بدقيق أنعامه وجليله فاذا استأذن فى العود أجزل له عطاءه ووفر له الاءه واعاده مملوء الحقايب مطوق الجنايب مثقلا بالنضار وكان اذا عرف اجتماع الرسل عنده من الامصار وأقاصى البلاد وأدانى الديار أحضرهم فى ايوانه وغمرهم باحسانه فمن وافقته على أنسه أقام ومن عف عن القعود فى ذلك المجلس قام . وكان على مذهب ملوك العجم فى ادمـــان الشرب وسمعت أنه أنهب آلات مجلسه الذهبية والفضية وكانت ألوفا لندماه مرارا وكم مرة لم يبق فى خزائنه عرضا ولا درهما ولا دينارا وكانت هذه شيمته فى دولة أبيه وهو يحبه اذا افتقر ويغنيه فلما اتسع ملكه وتوحد واتسق سلكه وتفرد ولم يخل خليفته ولم يزل طريقته وكلما سنحت الدنيا له سخا بهــا ووهب الدرر بسخائها والدرر لسحابها . واذا ركب تعد له المواكب وتمد له الجنايب والمراكب مثقلة بالسرقسارات المدثرة والاطواق والســـــحوت العسجدية المجوهرة وهو راكب أزهاها حليا وأبهاها جريا . وحكى أنه أنعم على أحد الرسل بمركوب غال فجاءه كل سابح كأنه بحر ساطع كأنه فجر ضامر كأنه صقر ذى حافر كأنه صخر وقد ركب الامير وهو يســـايره ويحـــادثه ويحاوره وتحته الامير مركوب فى كون مركوبه بعينه بطوقه وسحته ونضاره وتحته مد فرس الرسول وترح وتجهد فقال : ما بال جوادك الينا يســـهل

---

(١) كذا . اضـــافة .

وعلينا يحمل فقال : يطلب رفيقه وينادى شقيقه وهو من فراقه على فرق ومن اشتياقه على قلق فنزل الامير عن حصانه ووهبه له بقلايده وعقبانه وركب غيره وصان ببذله خيره وقبل سايره قاض من قضاة تلك البلاد وهو على بغلة عاطلة هزيلة والأمير على بغلة فارهة جميلة بمصوغات التبر فى الحلى ثقيلة فقال يا قاضى : ما لبغلتك قد عجفت فقال : ادمغتها الغيرة من أختها فما هى على تختها ولا فى طوقها وسحتها فأعطاه البغلة بسرجها وطوقها وأمر لبغلة القاضى بمثل زينتها لتقرن فيها بقرينتها وزاده عطية لأجل علفها وازالة هزالها وضعفها فاستغنى القاضى بها بقية عمره ووجد جده وعدم عدمــــه .

ومن جملة مكارمه أن الأثير الاخسيكى شـــاعر دهره وساحر عصره مدحه بستة أبيات من شعره فجاد لهبستة آلاف دينار من تبره وقال: لو زادنى زدته . وحكى أيضا انه وصل الى المعسكر شاب أديب قد حوى من كل فضل طرفا وحاز من كل غريبه طرفا لكنه فقير قد أدركته حرفةالأدب وأحوجه الاضرار الى الاضطراب وأخرجه الاغترار بالاغتراب فلما وصل الى المعسكر اجتمعوا حوله وسمعوا قولهُ وعرفوا معرفته ووصفوا صفته ونما الخبر الى الأمير على ألسنة ندمائه فأمر باحضاره ولما حضر فاكهه وشافهه واستطرف أدبه واستوصف آدابه ونظم فى وصف الحال رباعية بالفارسية فاحضر له ألف دينار حمر وقال : خذ هذه واتسع بها وشفع وقد وصلناك فلا تنقطع فلما بسط الكف وقبض الالف طار من الفرح كالفرخ الى وكره وأبعد الدموع الى تلك الدنانير عن ذكره ورجع الى البلد وقرت عين الوالدين بالولد وطلبــــه مظفر الدين قزل ارسلان فأخبر بانفصاله وانه قنع بما تهيأ به من افضاله فقال : ما كان أدنى همته ولو عرفنا لاجزلنا عطيته .

ومن جملة انحرافه فى سماحته ان المجير البيلقانى الشاعر بالفارسى تعلق له أمل بجمل فكتب الى قزل ارسلان مقطوعا فى أحد وعشرين بيتا لم يخل كل بيت عن لفظه الجمل بمعنى ليس فى البيت الآخر بديع وستـــــبك نصيع فوهب له أحد وعشرين بازلا نجيبا . قال : وهذه نبذ من مكارمه ليقتدى بها الكرام ولأنوب فى الشكر عمن شمله الانعام وهو من الملوك الذين سيرت

---

(٢) كذا وفى الاصـــل كونه .

اليهم البشارة من الملوك وسار بالبشاير والهدايا والتحف والاسارى اليه ابن اختى جمال الدين أبو الفتح اسـمعيل بن الحسن بن عبـد ربه وكان ينوب عنى فى الكتابة وهو سهم كاف كثير الاصابة فاختاره السلطان لهـذه السفارة وجعله أمينا فى أداء أدوات البشارة ومضى سفيرا فقوبل وفوده من القبول بالوفور وأرسل معه أعز من عنده وحمله مشافهة وشكره وهو عـز الدين الطالبى فوصل واوصل الهدايا والتحايا وأحضر لما حضر نفود المكرمات والثنايا وكنا حينئذ بعكا وهى بالاولياء معمورة وبالآلاء مغمورة فأنزلناه فى أكرم منزل وشاهد مواقف الكرام ومقامات الاقدام وأقام فى (٢٤٠ ب)/اقامة هنية وكرامة مضية وفى كل يوم اهداء مركوب وعطاء غير منسوب فلما آن انفصاله وحان ارتحاله أغناه واعطاه ما لم يخطر فى مناه وعين لصاحبه من أنواع الهدايا ما جاوز تقويمه الالوف وأطاع فى سماحة طبعه الالوف وأخذ الهدية القزلية من الجواهر الثمينة والمستعملات المصرية والثياب المعدنية والعتاق العربية وكل ما حازا به يد الايد فى جهاد من طريف التلاد وعقايل الطرف والتلاد والخوذ والنزول والعقودوالسلوك وغير ذلك مما يصـلح للملوك وسلم جميع ذلك الى جما لالدين نسيبى وجعل له تلك الرسالة من نصيبى وأهدى لامرائه وخواصه وذوى قربه واختصاصه هدايا على اقدارهم ومنازل كبارهم وصغارهم وتوجه وتوجه الرسول ومعهم رسـولنا وقد شملهما اقبالنا وقبولنا وكتبت على ايديهم بالفارسية كتبا بالبدايع مشـحونة فلما وصلتهم الكتب والرسل تواصلت بيننا وبينهم الصلات وتهادت المهاداة واسترسلت المراسلات وانقلبت الى المصافات الصفات .

قال : وسأذكر نبذا من تخرقه فى السماحة وإغفلتها ثم تندمت كيف أهملتها أصبح يوما فى عنفوان هبوب صباحنا وقد وهب جميع ماله من لبسه وثيابه واصطبله بآلاته ودوابه وخيمته بما فيها من سبده ولبده وقعد على الأرض متجردا عن كل ملك شاذا من كل عقد وسلك وذلك فى زمان أبيـه فلما نمى الخبر اليه بما سخا به وأنه صفر يده أحضره وزجره واستجهله فيما عرف منه وأنكره . قال : ومن أنت ومن يقال لك ومن لهذا الطريق الذى سلكه سلك فقال ما معناه أنا أبى خير من أبيك وأشرف وأعظم . أنت الاتابك شمس الدين ايلدكز والدى فمن كان والدك ولا تنكر اذا وردت مواردك وأنت تخاف وتسعد عنه وأخلف عليه أفضل ما كان له وأوفر .

ومن حكايات مغنية(٣) فى مجلس أنسه والتهاب طربه فى طيب نفسه فقالت مالدوايرى علف وما لما أنفقه على علفها خلف فقال سرا لخادمة خذا غراره فأملاها بثياب ديباج وحرير وأطلى رأسها بحشيش وشدها واعدها واذا طلبناها أحضرها فلما أحضرت قل لها هكذا هذا الملف خذونى هذه الساعة اذا كان هذا جودك وموجودك فكنت تخل مجلسك من احضاره وتبقيه عاريا من عاره فقال لها وحلف أنها تتولى أخذ الفرارة المحشوة وتفريغ الفرد المملوة فقامت كرها على القدم لاجل اجلال القسم فأخرجت منها غنى الابد فخرت ساجدة وفخرت واجدة وعاد منها غنى الاحسان باحسان الفنى وأخذت فى الاطراب والاطراء .

ومن حكاياته أن شاعرا مدحه بقصيدة سبعين تناهزت أعطاقه فقال يحكم على فيما أعطيك ولا ترضى الا بما يرضيك فقال : قد قنعت بسبعين دينارا عدد أبياتها فقال له : ما أدنى همتك لو طلبت منى سبعين الف دينار ولا حرمتك منها ولاحظرتها ثم اعطاه ألف دينار وحلا وجه أمله وصفح نجحه بسفور وأسفار . قال : وهذا كله لا يكون فى بحر سلطاننا جدولا ولا لاحد أمليه فى سماحته منهلا وكان مهذب المذهب طاهر المحفل والموكب وقد خصه الله بالصدر الارحب والعرق الاطهر الاطيب للخالق تقواه وللمخلوقين جدواه وانما يريد للاخرة دنياه فلا جرم ختم الله بالحسنى عقباه . قال وفى هذه السنة سنة ثلاث وثمانين استشهد الامير الكبير شمس الدين بن المقدم وهو محمد بن عبد الملك يوم عرفه فى عرفات .

ذكر السبب فى ذلك

قال : لما وقع الفراغ من فتح القدس دنا الحج واستقام منه المفلحون على النهج وقالوا نحرم من المسجد الاقصى الى البيت الحرام ونفوز مع ادراك فضيلة القدس فى هذا العام باداء فريضة الجهاد وحج ركنى الاسلام فاجتمع جمع من أهل ديار بكر والجزيرة والشام وسار بهم الامير شمس الدين بن المقدم شيخ امراء الاسلام الكرام فودعه السلطان على كره من مفارقته واستمهله ليحج فى السنة الاخرى على موافقته فقال ما معناه : ان العمر

(٣) ساقطة وكذا من المرجع .

قد فرغ والامل قد بلغ والشيب قد أنذر والقدر قد حذر واغتنم فرصة الامكان قبل أن يتعذر فمضى والسعادة تقوده والشهادة تروده حتى وصل الى عرفات وما عرف الافات فشاع وصوله وسالت سيوله وحالت حيوله وضربت خيامه وخفقت أعلامه واشتغلوا ليلة عرفة بالمناسك فلما أصبحوا نقرت على العادة نقاراته ونعرت(٢٤١ أ)/بوقاته فغاظ ذاك أمير الحاج العراقى ففاض غيظه وغاض برد رضاه ولفح فيضه وركب اليه فى أحرابه وكماة طعانه وضرابه فأوقع به وباصحابه وأبلاهم بخراجه ونهابه وجرى حكم الله الذى كان ضرب الطبل أوكد أسبابه وقتل جماعة من حاج الشام وجرحوا وهتكت أستارهم ونقل طاشتكين شمس الدين بن المقدم الى خيمته وهو مجروح وفيه روح وحمله معه الى منى فقضى ودفن بالعلى وارتاع أمير الحاج بما اجترمه وكيف لم يراقب الله وأحل حرمه وكيف عدا على الحج العائذ بالله وسفك دمه فكتب محضرا على ما اقترفه بعذره فيما اجترحه والزم أعيان الحاج على ما عينه من المراد فكتبوا مكرهين ووقعوا له على الانفس والاموال وسلكوا معه طريق السلامة فى الاحوال وكان عذره أنه أنكر عليه ضرب الطبل فأبى وثبت عليه من الحرب السبا فلما انتهت الى الغرض الاشرف تلك الحالة وأن العثرة أخطأتها الاقالة انكرها انكارا شديدا ونسبها الى طيش طاشتكين ولم يجد له رأيا سديدا فلا جرم وضع عنده قدره ووهى أمره حتى نكبه بعد سنين وحبسه وأطال سجنه ثم عفا عنه بعد مدة مديدة وشدة جرت عليه شديدة وولاه حرب بلاد خوزستان وخراجها وأوضح بسياسته منهاجها ولما وصل الى السلطان خبر استشهاد ابن المقدم وجماعته لامه على ترك الحزم واضاعته واحتسبه عند الله غازيا شهيدا ساعيا الى الجنة بقدمه سعيدا وأقام ابنه عز الدين ابراهيم فى بلاده مقامه وأقر عليه انعامه ووجده على سمت أبيه وسمده وهديه وهدوه وكبر قدره وعلوه ومثلت يوم الحضرة الكريمة الفاضلية فتجاذبنا اطراف العوايد وتناولا أقطاف الفوائد فوجدت بحر خاطره يتدفق لالقاء الدرر وسنا رأيه يتألق لابداء الغرر فتفاوضنا فى همة السلطان وغزاواته وعزمته وفتكاته ومعجبات كراماته ومعجزات مكرماته فارتجل الاجل الفاضل بديهيه فى صفة سيوفه مقطوعا علقت بحفظى من أبياته بعض(١) قطوفه وهى :

---

(١) كذا وهى ساطة فى الأصل .

ماضــيات على الــدوام دوام　　هن فى النصر نجدة الاســلام
فى يمين السلطان ان جردتهـا　　أشبهتها صواعق فى غمـــام
تنثر الهام كالحروف فما اشبه　　هذى الســـيوف بالاقــلام(٢)
فى محاريب حربه البيض صلت　　وركوع الظبى سجود الهـــام

ودعا للسلطان فقال : أدام الله استعباده الاحرار وتحريره العبيد وتبعيده من التوب القريب وتقريبه من الامل البعيد . ووصف بحالى أنوار ســعادته أثمار ارادته وقال : طلب مونعها فما مونعها ومن التحنيس قوله : فيم وقوفنا على قوم وقوفنا .

ومنه : لولا كرك بالكرك لــا عدمت شوبك بالشوبك

وانشأ مرتجــلا :

أحرق مّى كبدى فى خده الخمر النــدى

قال : نكت من مكاتباته . فمنها :

أبا الاســـكندر الملك افتـديتم　　فما تضعون فىأرض وسادا(٣)
وان من النصرات الى مجبـــر　　الفــرات الى فريق مســتزادا

والله يصون الحضرة العالية عن عدواء السكر ورعشائه ويحملها على سهل الطريق ومثابه ويمتع بأقوالها التى شفع الناس نيلها واقوالهم ترهب ذهاب ثيابه .

قال : ووصف كتب اليه ووقف منها على البلاغة المسرودة الموصوفة والجواهر الثمينة المكنونة والثمرات التى اجتنيتها من شجرة البلاغة الطيبة وفى الناس من يجتنى ليجنيها من الشجرة الملعونة .

---

(٢) الاضافة من الروضتين جـ ٢ ص ١٢١ .
(٣) هذا البيت يسبقه بيت ناقص والشطر الموجود : وقد أبعدنا فى البــلاد .

فصل من أخرى : وقفت منه خاطرى الحيران على ما هداه لقصده وقلبى الظمآن على ما جمع بينه وبين ورده ويسرت حلل الانس ورقعت ولولا القلق لقلت له ورياض القدس وأشرفت على أيام الاعياد وليالى العرس فلاعدمت ذلك الفضل الواسع والخلق البارع والاطناب (٢٤١ أ)/ والمعنى النافع واللفظ الناقع والمعنى الواقع والسرو الطالع والحديث الذى بث فى الارواح شعاع الروح والعلم الذى يذبح الطروس بوشى الوشايع والقوافى التى الى غصون غصون السطور بمنزلة الحمام السواجع وقد علم أننى ارتاح الى هذه الحلى وأحل لها عقدة الحبى واهتز لقطرها كما يهتز لحب القطر الربى واننى أقراها معاودا ثم لا أقضى منها اربا وقد تمادت الفرقة والشوق متماد وهام خاطرى ومنه :

فى كل واد الا وادى السلو	ليس له بواد ولا هو له بواد
أما فى صروف الدهر أن يرجع النوى	بهم ويدل القرب فيهم على البعد
بلى فى صروف الدهر كل الذى	أرى ولكنما اغفلن حظى على عمد

وأما الاخبار الطيبة بتلك السياقة المستعذبة فقد أوردها بلسان الاحسان وأحسن فيها العبارة عن الزمان وهو ترجمان الزمان وهو المعيد لبنائه لم يملأ الملوان ولقد جئت أن ذلك البيان مما زين للناس من الشهوات ومما حظر عليهم من حوادث النشوات بل هو من نعيم الجنة الذى كلما نفذ جدد ومن ثمراتها الذى كلما أريد ردد لاعدمت الدولة الناصرة من قلمة ناصرا ومن رأيه ناظرا ومن فكره جيشا لجيش الاعداء كاسرا .

ومن أخرى أقلام المجلس السامى اذا صفاها صوب فكره أطفأت كل نار واذا انجدها جد عزمه أخذت كل ثار وأدام الله أسفار وجوه كتبه ورسله وسأذكر ما حضرته من قوله الحسن والاحسان والروح والريحان وثبوت ذهنه على أن الطبع شجاع والفكر صاع وقلمه فى كرسى مملكة يده نافذ الامر مطاع ، قال : وقد سبق ذكر أخى تاج الدين رسولا من الديوان العزيز فى هذه السنة بتذكرة غلظ فيها القول واحفظ منها الصول وأتت الى العلم الكريم الفاضلى فوصل منه جواب .

فصل : وقفت على ما أشار اليه من حديث التاج أبقاه الله وتأويل التذكرة وما جدده تأملها من مغايظ وضبايط وما أشار اليه الحاضرون وما نظر فيه الناظرون واستنجاده برأيى واستمداده بكتابى وانتظاره لما يسفر عنه

من السلطان عن بصره جوابى وقد علم سيدنا اننى أملت الاقلام فيما كتبته واخفيتها فيما أدررته وحررت المشورة فى دمج هذه القضية وسير هذه الحلية والامساك أما على معنى التخصص أو معنى التربص فرب صبر استقل بحمود العاقبة ورب مكروه الفاتحة ادى الى محمود الخاتمة . وأصل هذه التذكرة مبنى على جواب الباطن والتعاطى الظاهر ومن كان صلاحه التوقى فتساعده عليه ومن كان رضاه القول فنرشده(١) اليه وقد كتبت الان بما اتسع لى أن أكتبه وسألت ان يدفع هذا الغيظ فما جاء ما أوجبه وأنا واثق من حسن النية أن المولى التاج ابقاه الله يخرج من هذه القضية سالما غانما لا راغما غارما فان حريته وفضل سجيته يجردانه من الذنب ولا يجملان لقلبه بهذا الأمر شغلا فما رأيت قط الثأر العثار الا حيث لا يستقيم اليه ولا يخلص الطوية .

جواب مكاتبة اخــرى :

وقفت على كتاب كريم يتضمن من أحوال المولى تاج الدين الا من جهتين من جهة المودة ومن جهة أطراح ما يردد فى حقى من المهودة وبالله أقسم لقد بذلت المجهود وما من شرط بذله بلوغ المقصود ووددت لو اطلع على الكتب التى كتبتها فان فيها عذرا ونصحا يقتضيان قبولا ونجحا وقد جددت فى هذا الوقت الذى كشفت فيه وجه النصيحة وأوردت فيها قضية الرأى الصحيحة وأرجو ان يسرد على أصفار ولا يرد على ما ورد عليه ما قبل من الغاء ومن فقرة الاسدين فلا بأس فنزل الأنس الدين . **أخرى** هو مفض على كل مغضب ومجد على كل مجدب يستقل بكل مضلع ويكشف كل معضل وقد علم قاصده انه مفض منه الى مفضل .

قال : وقال استلامت البلاغة بزرد أحرفه فقلت واستنت المعانى فى طرق طرفه . قال وفى التعزية لشهيد وليس من السنة أن يرتع فى رياض الرضا ونحن نسخط ونسرح فى جنان الجنان ونحن فى الاسى نتورط فان الله لا حكم على علمه ولا علم لنا بحكمه . وله والحر أصبر قلبا والعبد أصبر جسما . وله : كتابى يملى على القلم ويكاد يستمد من الدم . وله : وصمته بما استوى فيه نطقه وصمته الفت منه ود اللام للالف والواو للحلف .

---

(١) كذا وهي ساقطة في الاصـــل .

(٢٤٢ أ) / وله فى التوسط بين الاصدقاء :

ما ادخل بينكم الا كدخول المرود فى الاجفان يبد لها ما ذهب من النور والغمض وكالنسيم بين الاغصان معطف بعضها على بعض وله : لجت لواهج التصغير برويد والضرب بزيد .

ومن دعائه للسلطان : جعل الله الارض التى يملكها مبقلة والارض التى يطأها مقبلة والارض التى يجر عسكره اليها مثقلة والارض التى يلاقى عدوه بها مقتــلـه .

استفدته من محاضرة السلطان صلاح الدين

قال كان يعدل فى البذل فقال : احسن ما سمعته فى حب العدل للفقيه زين الدين بن الحكيم .

من ذم عاذله فانى شـــاكر للعــذل
ماضرهم اغراؤهم بالعدل ان لم اقبل
تعبت الملام عليهم وحلاوة التذكار لى
لهم القلب من ذكــر الاحبـــة ممتلى

وكان نقادا للشعر جيد الفكر ولكنه يلوم اهله على اظهار النظم ويقــولون يتعرضـون للذم . وجرى عنده يوما حديث وحيش(١) الشاعر من أهل عصرنا فقال : استحسنت أبياته فى القاضى كمال الدين الشهرزورى وقد مطله :

سـنة تمر وتتلوها ســـنة شـــهر يكر وبعــده شـــهر
والمـــدح منى غـير مقتصر ونـــداك لاقـــل ولا كثـــر
واروح بالاحســـان مشـــتملا حتى كان عطيتى كفـــر

واستحسن لحسان الكلبى من أهل عصرنا فى وصف دمشـق :

لشام شـــامة وجنة الدنيـــا كما أن انسان مقلتها الغضيضة جلق
من روضها لك جنـــة ما تنقص ومن الشقيق جهنم ما تحـــرق

---

(١) هو أبو الوحش سبع بن خلف بن أحمد بن زيد ذكره العمــاد في الخريدة ، انظر شعراء الشام ١ — ٢٤٢ — ٢٤٦ .

قريب الخطو يحسب لو رآنى ولست مقيدا لى بقيد

وانشده عنده :

كان بزاته أمراء جيش على اكتافهم صدا الدروع

واستحسن الفاضل قول الشاعر فى معنى اقتضاء الوقت :

شر من عاش ماله فاذا حاسبه الله سره الاعدام

وجرى بالمجلس الكريم الفاضلى ذكر حب الصغير وأن القلب الضيق ربما ضاق عنه فارتجل فى الحال هذه الابيات :

طفل كفاه القلب دارا له كأنما القلب له قالب
ويوسف الحسن وقلبى له سجن وما تم له صاحب
أصبح والقلب لبـاس له لا قاصر عنه ولا ساحب
وهو كعينى وهو انسانها وهى له من الخارج حاجب
ضاق به ضيق عناقى له فلم يسع ما قاله العايب

تم الجزء الأول من كتاب سنا البرق الشامى

ويتلوه فى الثانى

ودخلت سنة أربع وثمانين وخمسمائة(١) ...

---

(١) وهنا تنتهي المخطوطة ولم يستكمل البنداري اختصاره للجزء الثاني.



الفصل الثالث

الفهارس



محتويات المخطوط

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

فهرس الأعلام

(ب)

(ت)

(ض)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(م)

(ن)

(و)

(هـ)

(ى)

فهرس الأماكن

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

المصادر



المصـــادر والمراجــع

اولا : المصادر والمراجع العربية :

١ – **أبو الفرج الاصفهانى** : كتاب الاغانى ، ١٣ جزء ، القاهرة ١٩٢٧–١٩٥٠ .

٢ – **أبو الفدا اسماعيل** : المختصر فى اخبار البشر ، ٤ أجزاء ، القاهرة ١٩٢٥ هـ .

٣ – **ابو صالح الارمينى** : تاريخ الشيخ أبى صالح تحقيق B. T. Evetts اكسفورد ١٨٩٥ .

٤ – **أبو شامة عبد الرحمن بن اسماعيل** : كتاب الروضتين فى أخبـــــار الدولتين النورية والصلاحية ..
الطبعة الاولى – القاهرة ١٢٧٨ هـ .
الطبعة الثانية – تحقيق د. محمد حلمى أحمد ، ج ١ القاهرة – ١٩٥٦ ، ج ٢ القاهرة ١٩٦٢ .

٥ – **أبو مخرمة** : تاريخ ثغر عدن ، تحقيق لوف جرن ليدن ، ج ١ ١٩٣٦، ج ٢ ١٩٥٠ .

٦ – **ابن الاثير عز الدين** : الكامل فى التاريخ ، ١٢ جزء ، ليدن ١٨٥١ – ١٨٧٦ .

٧ – **ابن العميد** : مختصر تاريخ الطبرى ، مخطوط رقم Laleli 2002 استانبول ..
القسم الخاص بالايوبيين ، تحقيق كلود كاهن B.O.E. ١٩٣٥.

٨ – **ابن العبرى أبو الفرج** : مختصر تاريخ الدول ، بيروت ١٨٩٠ .

٩ – **ابن العديم كمال الدين** : زبدة الحلب فى تاريخ حلب ، تحقيق د. سامى الدهان ، ٣ أجزاء ، دمشق ١٩٥١ ، ١٩٥٤ ، ١٩٦٨ .

١٠ – **ابن بعرة منصور** : كشف الاسرار العلمية بدار الضرب المصرية ، تحقيق عبد الرحمن فهمي ، القاهرة ١٩٦٦ .

١١ — **ابن الديبع الشيباني** : قرة العيون فى أخبار اليمن الميمون ، مخطوط، المتحف البريطانى رقم OR. 3265 , Add, 2740

١٢ — **ابن الدبيثى** : ذيل تاريخ بغداد ، تحقيق مصطفى جواد ، بغداد ١٩٦٣ .

١٣ — **ابن الفرات نصر محمد بن عبد الرحمن** : تاريخ الدول والملوك ج ٤، تحقيق حسن الشماع ، البصرة ١٩٧٦ .

١٤ — **ابن الفوطى أبو الفضل عبد الرازق** : الحوادث الجامعة والتجارب النافعة ، تحقيق مصطفى جواد ، بغداد ١٣٥١ هـ .

١٥ — **ابن أبى الهيجاء** : الاول فى تاريخ ابن أبى الهيجاء — مخطوط ، معهد المخطوطات العربية ، القاهرة .

١٦ — **ابن الحنبلى ابراهيم** : شفاء القلوب فى مناقب بنى ايوب ، مخطوط، المتحف البريطانى ، رقم OR. 1371

١٧ — **ابن الحسين محمد بن يحيى** : غاية الامانى فى أخبار القطر اليمانى ، تحقيق سعيد عاشور ، القاهرة ١٩٦٨ .

١٨ — **ابن حاتم بدر الدين بن محمد** : السمط الغالى الثمن فى أخبار الغز باليمن ، تحقيق ركس سميث ، كامبردج ١٩٧٤ .

١٩ — **ابن حوقل** : المسالك والممالك ، تحقيق دى خويه ليدن ١٨٧٢ .

٢٠ — **ابن الجوزى السبط** : مرآة الزمان ج ٨ ، تحقيق جويت شيكاغو ١٩٠٧ .

٢١ — **ابن خلكان أحمد بن محمد** : وفيات الاعيان ، فى جزءين ، القاهرة ١٨٨٢ ، الترجمة الانجليزية ٤ أجزاء ، باريس ١٨٤٣ — ١٨٧١ .

٢٢ — **ابن خير الله العمرى** : منية الادباء فى تاريخ الموصل الحدباء ، تحقيق سعيد الديوه جى ، بغداد ١٩٥٥ .

٢٣ — **أبو سمرة الجعدى** : طبقات فقهاء اليمن ، تحقيق فؤاد سيد ، القاهرة ١٩٥٧ .

٢٤ — **ابن شداد بهاء الدين** : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، تحقيق جمال الدين الشيال ، الإسكندرية ١٩٦٤ .

٢٥ ــ **ابن شداد عز الدين محمد** : الاعلاق الخطيرة فى امراء الشام والجزيرة ، تحقيق سامى الدهان . دمشق ١٩٥٦ .

٢٦ ــ **ابن شاكر الكبتى** : فوات الوفيات ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، جزءان ، القاهرة ١٩٥١ .

٢٧ ــ **ابن الشحنة محيى الدين أبو الفضل** : الدر المنتخب فى تاريخ حلب، تحقيق عواد سركيس ، بيروت ١٩٠٩ .

٢٨ ــ **ابن قاضى شهبة** : الدر الثمين فى سيرة نور الدين ، مخطوط نور عثمانية رقم ٣٤١٦ .

٢٩ ــ **ابن القلانسى حمزة أبو يعلى** : ذيل تاريخ دمشق ، تحقيق اميدروز، بيروت ١٩٠٨

٣٠ ــ **ابن مماتى** : قوانين الدواوين : تحقيق عزيز سوريال عطية ، القاهرة ١٩٤٣ .

٣١ ــ **ابن منظور الفضل بن مكرم** : لسان العرب ٢٠ جزء ، القاهرة ١٣٠٣ هـ .

٣٢ ــ **ابن منقذ اسامة** : كتاب الاعتبار ، تحقيق فيليب حتى ، برنستون ١٩٣٠ .

٣٣ ــ **ابن نباتة المصرى** : المختار من كلام القاضى الفاضل ، المتحف البريطانى مخطوط رقم Add, 1307

٣٤ ــ **ابن واصل** : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، تحقيق جمال الدين الشيال ، ج ١ ، القاهرة ١٩٥٣ ، ج ٢ ١٩٥٧ ، ج٣ ١٩٦٠.

٣٥ ــ **الباشا حسن** : الالقاب الاسلامية ، القاهرة ١٩٥٧ .

٣٦ ــ **البدليسى فخر الدين** : شرف نامة ، تحقيق د. يحيى الخشاب ، القاهرة ١٩٥٧ .

٣٧ ــ **البغدادى عبد اللطيف** : الافادة والاعتبار فى الامور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر ، القاهرة ١٢٨٦ هـ .

٣٨ ــ **البندارى الفتح بن على** : شاه نامة ، الترجمة العربية ، ترجمة عبد الوهاب عزام ، القاهرة ١٩٣٢ , نصرة الفترة وعصرة القطرة، القاهرة ١٩٥٠ .

٣٩ — **الدوادارى خليل بن أيبك** : كنز الدرر وجامع الغـرر ، مخطـوط احمد الثالث رقم ٢٩٣٢ .

الدر المطلوب فى أخبار ملوك بنى أيوب ج ٧ ، تحقيق د. سعيد عاشور ، القاهرة ١٩٧٢ .

٤٠ — **الذهبى شمس الدين أبو عبد الله محمد** : تاريخ الاسلام وطبقـات المشاهير والاعلام ، ٣ أجزاء ، القاهرة ١٣٦٧ هـ .

تاريخ الاسلام الكبير ، مخطوط سراى رقم ٢٩١٧ .

٤١ — **حاجى خليفة مصطفى بن عبد الله** : كشف الظنـون ، جزءان ، استانبول ١٩٤١ — ١٩٤٣ .

٤٢ — **حسن حبشى (دكتور)** : نور الدين والصليبيين ، القاهرة ١٩٤٨ .

٤٣ — **الحنفى محمد بن اسماعيل** : كتاب نهاية السؤل والامنية فى تعليم الفروسية وأمور السلطنة ، مخطوط المتحف البريطانى رقم Add, 18 - 80.

٤٤ — **الخزرجى ابراهيم** : تاريخ دولة الاكراد والاتراك ، مخطـوط السليمانية حكيم أوغلو على باشا ، رقم ٦٩٥ .

٤٥ — **الخويطر عبد العزيز (دكتور)** : سـيرة الملك الظـاهر بيبرس ، (رسالة دكتوراه . لندن ١٩٦٠) .

٤٦ — **عبد الباقى محمد فؤاد** : المعجم المفهرس لالفاظ القـرآن الكريم ، القاهرة ١٣٧٨ هـ .

٤٧ — **العدوى ابراهيم (دكتور)** : تاريخ الأساطيل العربية ، القـاهرة ١٩٥٧ .

٤٨ — **العرشى حسين بن أحمد** : بلوغ المرام فى شرح مسك الختام فيمن تولى اليمن من ملك وامام ، القاهرة ١٩٣٩ .

٤٩ — **العرينى الباز (دكتور)** مصر فى عصر الايوبيين ، القاهرة ١٩٦٠ مؤرخو الحروب الصليبية ، القاهرة ١٩٦٢ .

٥٠ — **عماد الدين الكاتب الاصفهانى** : خريدة القصر وجريدة أهل العصر.

شعراء مصر ، تحقيق د. شوقى ضيف ود. احسان عباس ، جزءان ، القاهرة ١٩٥١ — ١٩٥٢

شعراء الشام ، تحقيق د. شكرى الفيصل ، جزءان ، دمشق ١٩٥٥ ، ١٩٥٩ .

شعراء العراق ، تحقيق بهجت الأثرى ، جزءان ، بغداد ١٩٥٥ — ١٩٦٤

شعراء المغرب : تحقيق محمد المرزوقى ، تونس ١٩٦٦ .

البرق الشامى : مخطوط مكتبة بودليان اكسفورد ج ٣ رقم Bruce III ج ٥ رقم March 425

الفتح القدسى : تحقيق محمد صبيح ، القاهرة ١٩٦٥

نصرة الفترة وعصرة القطرة ، تحقيق هوتسما ، ليدن ١٨٨٩ .

ثانيا : المراجع الاجنبيـــة :

Al-Allouche et Ragragi, Catalogue des Manuscrits Arabes de Rabat Bibliotheque general et Archives du Maroc, Paris, Tome 1, 1954, Tome, 11, Rabat, 1958.

Ashtor, E., — Saladin & The Jews, Hebrew Union College Annual, XXVI, 1956.

Atiyya, A. S., The Crusades in The Middle Ages, London 1938.
The Crusades, Historiography & Bibliography, London, 1962.

Ayalon, D., Studies on The Mamluk Army, B.S.O.A.S,, XV, 1954,

Baldwin, M.W., — Raymon III of Tripoli & The Fall of Jerusalem 1140 - 1178, Prinecton, 1936.
The Decline & Fall of Jerusalem, 1174 - 1189.
The Latin States under Baldwin III & Amalric I 1143 - 1174.
In a History of The Crusades ed. K. Setton & M.w. Baldwin, University of Philadelphia Press, vol. I, Philadelphia, 1955.

Barker, E., — The Crusades, The Legacy of Islam , ed. Thomas Arnold & A. Guillaume, London, 1960.

Blachere et Sauvaget, J., — Regles pour Editions et Traductions de Textes Arabes, Paris, 1953.

Bosworth, C., E., — The Islamic Dynasties, Islamic Survey, 5, Edinburgh, 1967.

Brockelmann, C., —Geschichte der Arabischen Litteratur. 2 vols., Weimar, Berlin, 1898.

Browne, E., G., — A Hand List of Muhammadan Mansuscripts Preserved in The Library of The University of Cambridge, Cambridge, 1890.
Supplemenary Hand List, 1922.
A second Supplementary Hand List, A., J., Arberry, Cambridge, 1952.

Cahen, Cl., — La Syrie du Nord a L'Epoque des Croisades et La Principaute Franque d'Antioche, Paris, 1940.

The Historiography of The Seljuqid Period, in "Historians of The Middle East, ed : B., Lewis & P., M., Holt Oxford, 1962.

"The Ayyubids" E.I., New ed., Leiden & London, 1954,

Editing Arabic Chronicals; A few suggestions", Islamic Studies III, 1962.

Canard, M., — Fatimids et Burids a l'Epoque du Caliph al-Hafiz le Din Allah, REI, XXX, 1967.

Dawes, E., A., — The Alexiad of Anna Comina, English trans. London, 1929.

Delaville le Roulx, J., Les Hospitaliers en Terre Sainte et Chypre, 1100 - 1310, Paris 1904.

Dozy, R.P.A., — Dictionnaire detaille de Noms Arabes, Amesterdam, 1845.

Supplement aux Dictionnaires Arabes, Leiden, Paris, 1927.

Eche, Y., — Les Bibliotheques arabes publiques et semi-publiques en Mesopotamie, en Syrie et en Egypte au Moyen Age, Damascus 1,967.

Ehrenkreutz, A.,S., — The Place of Saladin in The Naval history of The Mediterranean, JAOS, IXXV, 1955.

Dar al-Darb, E.I., 2.

"Extracts from The Manual on the Ayyubid Mint in Cairo", B.S.O.A.S., XV, 1952.

Elisseff, N., Nur al-Din, — Un grand prince musulman de Syrie au temp des Croisades, 118 - 1174, 3 vols, Damascus, 1967.

"Hisn al-Akrad", E.I. 2.

Ernoul, — La Chronique d'Ernoul et Bernard le Tresories ed. M.L. de Mas Latrie, Paris, 1871.

Gabrilie, F., — The Arab Historians of the Crusades, Los Angeles, 1967.

The Arabic Historiography of the Crusades, Historians of the Middle East, ed. B., Lewis & P.M., Holt, Oxford, 1962.

Gibb, H.A.R., — "The Achievment of Saladin".

"The Armies of Saladin".

Studies on Islamic Civilization, London, 1962.

"The Arabic Sources for the life of Saladin" Speculum, XXV, 1950.

"Notes on the Arabic material for the history of the early Crusades" B.SO.A.,S, VII, 1935.

"Al-Barq al-Shami" The History of Saladin by the Katib Imad al-Din al-Isfahani", W.Z.K.M. Wien, 1953.

Goiten, S.D., — A Mediterranean Society, Economic Foundations vol., I, University of California Press, Berkeley & Los Angeles, 1967.

Grousset, R., — Histoire des Croisades et du Rayaume Franc de Jerusalem, 3 vols., Paris, 1934 - 1936.

Guyard, S., — "Un Grand Maitre des Assassins au temps de Saladin" Journal Asiatique ,IX, 1877.

Helbig, A.,H., — Al-Qadi al-Fadil Der Wazir Saladin, Eine Biographie, Berlin, 1909.

Houtsma, M., Th., — Recueil de Textes Relatifs à L'Histoire des Seljoucides, vol., 2, Leiden, 1889.

"AlBundari" E.I. 2.

Joinvill & Villehardouin, — Chronicales of the Crusades, trans. M.R.B., Shaw. London, 1963.

Kahel, Von Paul., — Eine Wichtige Quelle Zur Geschichte des Sultan Saladin "Die Welt des Orients, Stuttgart, 1947-1952.

Levy, R., Mustawfi, E.I., 1.

Lewis, B., — The Arabs in History, London, 1964.
The Assassins A radical sect in Islam, London, 1967.
"Saladin & the Assassins" B.S.O.A.S., 1953, XV.
"The Arabic Sources for the Syrian Assassins" Speculum, XXVI, 1952.

Lewis & Holt, — Historians of the Middle East, Oxford, 1962.

Michael The Syrian, La Chronique de Michael le Syrien, ed. and trans. J.B., Chabot, 4 vols. Paris, 1904.

Mikhailova, A.I., — Catalogue of Arabic Manuscripts in the Institute Nordov part 3, (History), Leningard, 1965.

Minorisky, V., "Prehistory of Saladin", Studies on Caucasian History London, 1953.
"Kurds" E.I. 1., "Kurdistan" E.I. 1.

Nicoll, A., et Pusey, E.,B. — Bibliothecae Bodleiane Codicam Manuspriptorum Orientalium, 2 vols., Oxonii, 1778.

O'Leary De Lacy, History of the Caliphate, London, 1923.

Pearson, J.D., — Index Islamicus, A Catalogue of Articles on Islamic Subjects in Periodicals & other collective publications, Cambridge, 1958. Suppl. 1, 1962. Suppl. 2, 1967.

Popper, W., — Egypt and Syria Under the Circassian Sultans, 1382 - 1468, Systematic notes in Ibn Taghribardi's Chronicals of Egypt, University of California Publicatoin, Semitis Philology, vol. XV, Berkeley, & Los Angeles, 1955.

Riely-Smith, J., — The Nights of St. John in Jerusalem and Syprus, 150 - 1310, London, 1967.

Rohricht, R., — Regesta Regni Hiersolymitani, 2 vols., New York, 1893 - 1904.

Rosebault, C.J., — Saladin Prince of Chivalry, London, 1930.

Rosenthal, F., — A History of Muslim Historiography, Le.den, 1952.

Runciman, S., — A History of the Crusades, 3 vols. London, 1951.

Saunders, J.J., — Aspects of the Crusades, Canterburry New Zealand, 1962.

Sauvaget, J., — Introduction to the History of the Muslim East, Los Angeles, 1965.

Samil, R.C., — Crusading Warfare, New ed. Cambridge, 1967.

Smith. G.R., — The Ayyubids & Rasulids, The transfer of Power in 7th - 13th Century Yemen, Islamic Culture, vol. XLIII, No. 3, 1969.

Stevenson, W.B., — The Crusaders in the East, Cambr.dge, 1907.

William of Tyre, — A History of Deeds Done Beyond the Sea, English trans. E.A. Babcock & A. Krey, Columbia University Record sof Civilization, 2 vols. New York, 1943.

رقم الإيداع بدار الكتب ٣٠٦٢/١٩٧٩

مطبعة الجبلاوي
٢٠٢ شارع الترعة البولاقية - شبرا